

آية الله العظمى
السيد محمد حسين فضل الله

أَحَادِيثُ فِي قَضَائِنَا
الْإِخْتِلَافِ وَالْوَحْدَةِ

رَأْسَدَاد
نَجِيبُ نَوْرِ الدِّينِ

دارالمعالي

حقوق الطبع محفوظة للناسر

الطبعة الأولى

١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م

دار الملاك للطباعة والنشر والتوزيع ش. م. م.

بيروت - لبنان - حارة حريك - قرب مستشفى الساحل - هاتف: ٠٢/٧٥٥٢٠٠ - ٠١/٨٢١٣٩٢ - فاكس: ٠١/٣١٤٨٢٤

ص.ب ١٥٨ / ٢٥ الغبيري - Email: dam @ dar - almalak. com. / Int: www. dar - almalak. com.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة

عندما نريد أن نستشرف العناوين الكبرى التي تطلقها الحركات الإسلامية في العالم الإسلامي، فقد يخيل إلينا أنها حركة واحدة في الهدف، لأنها بأجمعها تعمل من أجل حكم الإسلام، لكننا عندما ندرس خلفيات هذه الحركات وذهنيتها الثقافية في وعي الإسلام ورؤيتها السياسية في خط العمل السياسي أو في ساحة الصراع السياسي، فإننا نجد أنها حركات متنوعة لا يحمل تنوعها منحى إيجابياً، بل ربما نلاحظ أنها مختلفة إلى حد التنافر أحياناً. وربما كان السبب في هذا هو أن كثيراً من الحركات الإسلامية كانت منطلقة من رد فعل محلي يحمل في أفكاره أو خطوته بعض المفردات الثقافية الإسلامية الضبابية المتنافرة التي لا يجمع بينها جامع يمثل هيكلياً متكاملة أو يربط بين المفردات المتنافرة.

ومن هنا، كانت الحركات الإسلامية تنطلق من العنوان الكبير فيما تنتشر الضبابية في تفاصيل المشروع. ولذلك نلاحظ أن الخطاب السياسي لبعض الحركات الإسلامية قد تطور تبعاً لتطور التحديات في مواجهته،

فجعلها تفكر فيما كانت لا تفكر فيه، وتتوازن في ما لم يكن التوازن يمثل مشكلة لها في السابق، بحيث إننا لاحظنا أن بعض الحركات استطاعت أن تصل إلى مستوى جيد من الرشد السياسي ومن الدقة في الأداء من خلال التجربة الدامية، أكثر مما استطاعت أن تأخذه من خلال الفكر الهادئ العميق. ولعل هذا هو الذي جعل هذه الحركات الإسلامية بعيدة عن التنسيق والتكامل المطلوب في حجم العالم، لا سيما إذا لاحظنا نقطة مهمة، وهي أن مصطلح الحركة الإسلامية أو مصطلح المتطرفين الإسلاميين أصبح يمتد إلى بعض المواقع التي لا تملك فكراً حركياً بالمعنى الاصطلاحي للفكر الحركي.

إنني ألاحظ أن الحركة الإسلامية لا تزال تعيش التخبط في أكثر من موقع من مواقعها. وربما كان فقدان اللقاء بين الحركات الإسلامية أو التنسيق بينها، والذي قد يرجع إلى انشغال هذه الحركة الإسلامية أو تلك في الدفاع عن الوجود من جهة، أو بالقضايا المحلية من جهة أخرى، أو من خلال افتتاحها على بعض المحاور الدولية لعلها تستفيد منها في مواجهة محور دولي آخر، لعل هذا هو الذي جعلها في شغل شاغل عن الانفتاح على الحركات الإسلامية الأخرى للتشاور في طبيعة صوابية الأساليب أو صوابية الأفكار أو الأولويات التي لا بد أن تطرح أو التعاون مع الحركات الإسلامية الأخرى في خطة إعلامية تعمل للدفاع عن الخط الإسلامي

المستهدف في جميع هذه الحركات. لذلك فإنني أشعر بوجود سلبيات كبرى في الواقع الإسلامي الحركي، ولكنني لست متشائماً، لأنني أعتقد أن التحديات التي أصبحت توجّه للحركات الإسلامية على صعيد واحد، بقطع النظر عن طبيعتها، ربما تؤدي إلى نوع من أنواع الشعور لدى هذه الحركات بضرورة التكامل بعد أن كان التحدي واحداً وكانت المشاكل في إطار خطوط هذا التحدي واحدة.

وإنني أتصور أن من الضروري جداً للحركات الإسلامية أن تنطلق في القضايا الإسلامية الكبرى كعناوين ثقافية وسياسية عريضة.

ففي المسألة الثقافية، لا بد لنا من أن نضع في تخطيطنا مواجهة البرامج التي تتحرك فيها العلمانية التي وضعت في حساباتها أن تسقط الحركة الإسلامية في البلدان الإسلامية، أو أن تضعف تأثيرها في الواقع. ولعل خطورة هذه العلمانية أن الحركات السياسية والثقافية تتحالف مع الاستكبار العالمي وحتى مع الصهيونية، ما يجعل الخطورة الثقافية التي تختزن في داخلها خطورة سياسية بدرجة كبيرة تهدد الواقع الإسلامي برمته. فعلينا أن نعمل لحماية المفاهيم الإسلامية من أي نوع من أنواع الابتزاز والسقوط أمام الحملة الإعلامية التي نجد أنه بالإضافة إلى خطتها في الإسقاط المباشر أو الإضعاف المباشر للواقع الإسلامي، تنفذ إلى بعض المواقع الإسلامية لتحدث معها بما يشبه البراءة الملعومة بأن عليها في هذا

البلد الذي يملك وضعاً خاصاً وفي هذا البلد الذي يملك ظروفاً خاصة، أن تسحب العنوان الإسلامي من التداول، حتى يكون طرحها مميزاً، وحتى يمكن لها أن تملك واقعية الطرح لتصل إلى الأهداف بشكل مباشر ولتخدم المسلمين بدرجة أعلى، أو لتقويها ولو من خلال بعض القنوات السريعة التي تتحرك في مفردات متناثرة هنا وهناك، لتطرح عناوين العلمانية كما لو كانت عناوين إسلامية، كما في أطروحات الديمقراطية أو الدولة المدنية أو الليبرالية أو الاشتراكية، أو ما إلى ذلك من الكلمات التي تمثل نوعاً من تقريب العلمانية إلى الواقع الإسلامي باسم الإسلام، وتفرغ الإسلام من مضمونه وتحشوه بالمصطلحات التي ولدت في أرض غير إسلامية وفي أجواء غير إسلامية.

والنقطة الثانية هي مسألة الخط السياسي، فقد أعد الاستكبار العالمي خطته لإعلان الحرب على الإسلام الحركي وحتى على الإسلام التقليدي في الكثير من مفرداته المتعلقة بالسلوك الإنساني وفتح لأجل ذلك عدة جبهات في داخل البلاد الإسلامية من خلال الأنظمة ومن خلال الهيئات الثقافية، مستفيداً من الجو السياسي والدولي حيث يتداول الحديث عن أن الإسلام هو العدو الجديد للغرب بعد سقوط الاتحاد السوفياتي، إضافة إلى استحداث مقولة النظام العالمي الجديد حيث يرفع هذا الشعار كغزاة في وجه كل الحركيين الإسلاميين، وكل من يطرح

الإسلام، وعلينا أن نطرح موقفنا مما سمي بـ"النظام العالمي الجديد"، هذه الحرب العالمية الموجهة ضد الإسلام.

والقضية الثانية في هذا المجال هي القضية الفلسطينية، وهي تلخص مشاكل العالم الإسلامي في الخمسين سنة الأخيرة، والتي يمكن أن تترك تأثيراتها المستقبلية من خلال قضايا التسوية على مجمل الحركة الإسلامية في العالم الإسلامي، وسوف تخلق مناخاً ثقافياً وسياسياً يتحرك في المفاصل الثقافية والسياسية، ليوحى بأن من الممكن جداً التنازل عن أرض إسلامية أو التنازل عن سلطة إسلامية عندما تتجمع كل ضغوطات الواقع لمحاصرة الإسلاميين حول هذه القضية. إن مسألة التسوية والقبول بها يمثل نهجاً في المسألة السياسية بالإضافة إلى الضعف في المسألة الثقافية، وقد يترك تأثيراته على أكثر من موقع جديد يمكن أن يقع موضعاً للأطماع الدولية أو الأطماع الغربية في العالم العربي والعالم الإسلامي. وعلينا أن نركز على الجانب الوجودي لمواجهة هذه الإشكالية، ثم لا بد لنا من أن نحولها إلى قضايا إسلامية لتوحيد الإسلاميين حولها، بحيث يقفون جميعاً مع الحركة الإسلامية هنا وهناك، وحتى لا يشعر الإسلاميون هنا وهناك بأنهم وحدهم وبأنهم منفصلون عن الجو الإسلامي العام.

وهكذا لا بد لنا أن نعمل من أجل مواجهة القوى الاستكبارية في العالم على أساس موقفها من القضايا الإسلامية ليعرف العالم الآخر بأن

الإسلاميين يتخذون مواقفهم في مواقع الصراع الدائر بين الدول الكبرى تبعاً لموقف هذه الدول من الموقع الإسلامي.

والنقطة الأخيرة هي العمل على دراسة الأسلوب في العمل الإسلامي، لنعرف سلبياته وإيجابياته ليكون للحركة الإسلامية في العالم أسلوب واحد تتنوع بعض خطوطه التفصيلية تبعاً لتنوع المواقع والتحديات، وأقصد بذلك أن يكون لنا تخطيطنا لأسلوب العنف في طبيعة مواقعه العامة أو أسلوب الرفق في طبيعة المواقف العامة، بحيث تدرس كل حركة إسلامية في مواقعها الخاصة الخطوط العامة للأسلوب وعند ذلك لا يختلف الإسلاميون في الأسلوب إلا بمقدار اختلاف مواقعهم التي تفرض هذا الأسلوب أو ذاك.

وعلى صعيد صيغة العلاقة بين الحركات الإسلامية، فإنني أعتقد أن الصفة القطرية لا تبتعد عن الصفة العامة، لأن الصفة العامة عندما تنفتح على القضايا العامة، فإنها تنفتح على قضية هذا البلد الإسلامي وهذا الشعب الإسلامي، وخصوصيات الواقع الإسلامي هي المجال العملي للواقع الإسلامي بشكل عام، ولذلك فإن أي حركة إسلامية قطرية لا بد أن تنفتح على الدائرة الكبرى وأن تكون المسألة في إطار الافتتاح الدائر للدوائر الصغيرة على الدائرة الكبرى.

نعم، هناك نقطة معينة، وهي أن بعض الحركات الإسلامية تتخذ

لنفسها صفة الحدود الحديدية التي تنطلق لتثير في دائرتها مسألة خصوصية هذا البلد الإسلامي، بحيث تشق أفرادها بأن لا دخل لها في البلدان الإسلامية الأخرى. إن هذه الحركة تقف في وجه التصور الإسلامي العام على أساس الحديث الشريف: "من لم يهتم بأمر المسلمين فليس بمسلم"، فلذلك، فإن هذه الحركة التي تعيش في هذه الدائرة إذا لم تكن نظرتها الإقليمية أو القطرية تكتيكية، بل كانت استراتيجية، فلا بد أن يعاد النظر في طبيعة تصورها الإسلامي، لأن إيجاد حركات إسلامية قطرية مختنقة في داخل حدودها وفي داخل كل قطر، يؤدي بالنتيجة إلى أن تصبح الخصوصية القطرية أو الإقليمية أو القومية أحياناً، هي الأساس، بينما يكون الإسلام هو العنوان الذي يحمي الجانب القطري أو القومي. ولذلك لا بد لنا في هذه المواقع القطرية أن نعيد الحوار معها حول هذه المسألة.

أما على صعيد الحركات الإسلامية القطرية والإقليمية التي تحمل الخط الإسلامي العام في تصورها الإسلامي، ولكنها تجد أنها تملك الحركية في قطرها من خلال الظروف الموضوعية ولا تملك أية قدرات لتمتد بها للتحرك إلى خارج قطرها، فإننا نرى فيها حركات إسلامية محكومة بطبيعة الظروف الموضوعية التي يمكن أن تتحول إلى ظروف أخرى، في مثل هذه الحال، يمكن لهذه الحركات أن تدخل في حوار مع بعضها البعض لتدرس ظروفها

التي قد تفرض عليها الوحدة أو الاتحاد، بحيث تكون هناك حركة إسلامية اتحادية بلحاظ خصوصيات كل حركة في دائرتها الخاصة.

إن طموحنا هو الحركة الإسلامية العالمية الواحدة، لأنها تمثل مركزية القوة للإسلام الواحد، ولكن إذا لم يكن هذا واقعياً، فأعتقد أن الحركة الإسلامية الاتحادية هي الحركة الأقرب التي يحقق فيها المسلمون وحدتهم، مع لحظ خصوصيات الواقع، والتي قد تتدخل بعض المفردات المذهبية أو الخلافات الأخرى في فهم الإسلام تبعاً لوضعها الخاص. إن على الحركة الإسلامية أن تضع الخطوط العامة مع ترك الحرية لكل إطار للدراسة ظروفه وأوضاعه وفي كيفية إدارة الأمور والخطوط التفصيلية بما لا يمس الخط العام، ولعل ذلك أقرب إلى الحلول الواقعية.

السيد محمد حسين فضل الله

تقديم

الوحدة الإسلامية هي من المسائل الشائكة والمعقدة التي لا زالت مدار جدل وسجال لم ينقطع منذ بداية هذا القرن وحتى يومنا هذا.

فمنذ أن انكشف العالم الإسلامي أمام غزوات الاستعمار والاستكبار، بات المسلمون دون تمييز، عرضة لحملات التجزئة والتشويه، التي طاولت كافة مناحي عقائدهم وأوطانهم. فعلى المستوى الفكري، عمد الاستعمار، خلال حملاته الاستشراقية المتكررة على تراث المسلمين وأفكارهم، إلى افتعال شرح مكين بين أبنية نصوصه وأدلتها، معمقاً الشرح الكلامي الذي نشب بينهما منذ بداية التجربة الإسلامية الأولى.

لقد أعاد المستشرق من خلال ذلك، تعوير الأمور الخلافية في القضايا الاعتقادية والتشريعية، محاولاً إقامة موازين ومعايير، بنى على أساسها أحكاماً وترجيحات منحازة، مرة إلى هذا الفريق وأخرى إلى ذاك. وقد ترافق ذلك كله مع مشاريع استعمارية عملت على تدشين عملية تجزئة

واسعة لأراضي الأمة الإسلامية، بغية تكريس وتأييد واقع الانقسام السياسي الناشئ فيما بينهم.

وإذا كان المسلمون، أو بمعنى أدق، الإسلاميون، قد انتبهوا مؤخراً إلى حجم الخطر المحدق بهم جرّاء الاستسلام الساذج للسياسات الاستعمارية والاستشراقية على حدّ سواء، فإن الطرق التي تمّ اعتمادها لعلاج هذه المشكلة كانت دون المستوى المطلوب، وتحت المستوى المأمول، حيث لم يُبذل الجهد اللازم لإبطال مفاعيل خططه ومشاريعه.

وقد بدا الأمر وكأنه أسقط في يد المسلمين، جراء القدرة الاستعمارية على منعهم من التواصل والتقارب، إضافة إلى التحاور والتفاهم حول مجمل مشاكلهم وقضاياهم الخلافية. والأغرب من ذلك، أن المسلمين قد استسلموا في فترات معينة لمقولة مفادها، أن حال التخلف الذي استفحل في عقل الأمة وجسدها، لم يكن أكثر من نتيجة طبيعية للخلاف التاريخي المستحكم بين سنيّها وشيعيّها، في وقت أراد المستعمر أن يحجب النظر عن مسؤوليته المباشرة عن الحال المذرية التي وصلت إليها الأمة، مستخفاً بوعي المسلمين إلى الحد الذي قدم نفسه وسيطاً ومصلحاً فيما بينهم خلال مناسبات عديدة.

لقد كان لسماحة آية الله العظمى السيد محمد حسين فضل الله محاولات مستديمة لإنعاش روح الإسلام في نفوس المسلمين، لأن هذه

الروح المتقدمة ستتكفل بإيقاظ عقولهم وأجسادهم، وتعين وجهتها صوب الأيادي الممسكة بخناق الأمة ومصيرها، وهي التي ستتكفل أيضاً بقطع تلك الأيادي التي تلاعبت بماضيها وعبثت بحاضرها واستبقت بالتشويه صورة مستقبلها.

وهذا الإسهام من سماحته، أسس لعمل إسلامي مميز في موضوع الوحدة، بنت عليها الجمهورية الإسلامية صيغاً عملية اقترحتها ودعمتها لأجل جمع أوصال ما تشتت من أفرقتها، ولأمر صدع ما تفرق من أبنائها، ولحرم ما تشظى من كيائها. إلا أن المتربص إياه، الاستكبار العالمي، كان دائماً يحول دون أن يتحقق مثل هذا النوع من التقارب ومثل هذا النموذج المأمول من الوحدة.

سماحة السيد فضل الله يرى أن الوحدة الإسلامية ولو بحدودها السياسية، شرط ضروري ولازم لعودة المسلمين إلى ما كانوا عليه من قوة ومنعة ومكانة، كأمة موحدة وكقوة موحدة في مواجهة الكفر والاستكبار العالمي، وهو في هذا السعي لم ييأس ولم يكل من تكثيف النشاط الفكري والعملية في سبيل تحقيق الأهداف الكبرى للوحدة الإسلامية، فقدّم العديد من الكتابات والمقابلات والخطب المميّزة التي أغنت تراث الفكر الوجداني ومخزونه، وأسست ما يشبه القواعد والمبادئ الأساسية لإنجاز مشروع الوحدة الإسلامية العالمية.

نقول هذا ونلفت النظر إلى أن هذه المسألة جعلت من سماحته عرضة
لسهام المغرضين من كلا الطرفين، الذين ما فتئوا يصرون على خنق هذا
المشروع في مهده، بنش خلافاتهم وتعويمها ووضعها معوقات وعقبات
كأداء أمام بنيان الوحدة المنشود، وهم بذلك ينساقون، عن وعي وعن
غير وعي - حتى لا نقول عن جهل - أحياناً أخرى في منزلقات المشروع
الاستكباري الحاقد، والذي يعمل على تجذير الخلافات بين قطاعات الأمة
ومذاهبها لإبقائها على وضعها وليبقى مسيطراً على مقدراتها ومستبداً
بمصريها.

في هذا الكتاب، نر جمع معظم الكتابات والمقالات التي تحدث فيها
سماحته عن مشروع الوحدة الإسلامية، التي سعى من خلالها إلى تظهير
الخطوط العامة لهذا المشروع، عارضاً بالشرح والتحليل لأهم مستلزماته،
ومبيّناً لأوجه قوته وضعفه. وقد كشف سماحته في هذه النصوص عن
المعوقات الذاتية والموضوعية، الداخلية والخارجية، أملاً أن تبادر قطاعات
الأمة الواعية إلى تحقيق سبل الوحدة المأمولة، بعيداً عن كل الهواجس
والتوجسات الموهومة التي لا طائل من إبرازها أو التذرع بها. فبهذا النوع
من العمل الدؤوب للمخلصين لأمر هذه الأمة، يمكن ردّ المخرز إلى عين
المستكبر الذي يسعى من خلاله إلى فقء عيون المسلمين، ليعميهم عن
مكامن قوتهم ووحدتهم وعزتهم.

ومن المفيد ذكره، أن سماحته ركّز في هذا الكتاب على الحوار كقيمة أساسية وآلية فاعلة لا بد من اعتمادها وسيلة تواصل وتلاق بين أطراف العلاقة الإسلامية - الإسلامية، إذ بالحوار يستطيع أن يفهم أحدنا الآخر ويتفهم بعضنا بعضاً، فبدون الحوار لن نستطيع الوصول إلى أي نتيجة إيجابية، ولا نستطيع أن نتخطى واقع الانقسام الحاصل بين التيارات الإسلامية المختلفة. لذلك نجد سماحته قد انطلق من الآيات القرآنية المحفزة على الحوار والأحاديث التي تفيد هذا المعنى، وأيضاً اتخذ من أئمة المسلمين وطريقة عملهم وتفكيرهم نموذجاً يحتذى في استشراف نظام العمل الآيل إلى تحقيق مشروع الوحدة.

أيضاً استعرض سماحته أهمّ المحاور الخلافية، سواء ما له علاقة بعلم الكلام أو التفسير أو الفقه، إضافة إلى المسائل الخلافية الأساسية كموضوع الإمامة والخلافة، مبيناً عوامل انقسام المسلمين والمعالجات القاصرة لنزعتها، محدداً لوجهات النظر المتعددة حول مسألة الوحدة، ومقدماً أفكاراً عملية لمشروع توحيد الأمة على أساس القواسم المشتركة بداية وبشكل لا يجعل من خلافاتها سبباً لتمزقها وضعفها، مقترحاً بشكل أساسي أن يكون القرآن أساس هذه الوحدة المأمولة والمرجوة، مؤكداً على ضرورة أن نستمر دون يأس في العمل على إنجاز مشروع الوحدة الإسلامية مهما اعترضنا من معوقات، لـ "أن فشل تجربة لا يعني فشل الفكرة، بل علينا أن نجرب

الواحد بعد الألف" للوصول إلى "نتائج وآفاق جديدة".

ختاماً، لا بد من الإلفات إلى أن مقتضى التقسيم المنهجي لكتاب الوحدة الإسلامية استلزم تبديل عدد من عناوين المحاضرات والمقالات الواردة في الكتاب، وكذلك راعينا في تقسيمها تسلسل موضوعاتها على حساب ورودها الزمني. نأمل أن يجد الباحثون عن الوحدة الإسلامية ضالته في هذا الكتاب، لأن كل ما ورد فيه هو نتيجة معاناة وحصيلة خبرة صاحبه في ميدان العمل الإسلامي العام، وليس أمضى من كلمة صدق في حق أمة تبحث عن عزتها وكرامتها.

المركز الإسلامي الثقافي

مستقبل الحوار

الإسلامي – الإسلامي (*)

قيمة الحوار:

عندما نتحدث عن الحوار ، فإننا نفتح على مفهوم يحرك التواصل الإنساني ، ويمثل نقل كل عناصر الفكر الإنساني بكل خصائصه الثقافية والشعورية للإنسان الآخر الذي يقوم بالدور نفسه بالنسبة لهذا الشخص . من هنا ، فإننا نعتبر بأن الحوار هو معنى أن يكون الإنسان اجتماعياً ، واللاحوار يعني موت الحركة الإنسانية بالنسبة للآخر ، أن يعيش كل إنسان معزولاً عن الإنسان الآخر . ومن هنا ، فإننا نلاحظ أن الحوار كان أساسياً في الفكر الديني والإسلامي بالذات .

نلاحظ في القرآن الكريم الذي هو كتاب حوار ، أن الحوار الأول الذي سجله القرآن كان حوار الله سبحانه وتعالى مع إبليس ، فإبليس رفض السجود لآدم ،

(*) مجلة الكلمة - العدد ١٠ - سنة ١٤١٦ هـ - ١٩٩٦ م . تصدر عن منتدى الكلمة للدراسات والابحاث .

لكنه لم يرفض فرصة الحوار مع الله ، وقد عبر عما في نفسه ، وقدّم طلبه إلى الله بعد أن رفضه سبحانه وتعالى ، ثم بعد أن قبل طلبه عبر عن خطئه : ﴿قال فيما أغويتني لاقعدن لهم صراطك المستقيم﴾ (الأعراف : ١٦) .

ونلاحظ أن الله سبحانه وتعالى أجابه بعد ذلك : ﴿إن عبادي ليس لك عليهم سلطان﴾ (الحجر : ٤٢) .

هذا الحوار بين الله سبحانه وتعالى ربّ الكون وبين إبليس ، يعطينا فكرة أن المخلوق حتى لو كان متمرداً ، فإنه لا يفقد فرصة الحوار مع خالقه ، فالله يعطيه الفرصة ليتحدث عما في نفسه ، كما يجيبه على تساؤلاته مهما كانت طبيعة هذه التساؤلات . والنقطة الثانية التي نستوحيها من هذا ، هي أنه ليس هناك شخص مرفوض في الحوار ، فبإمكانك أن تحاور أي إنسان مهما كانت درجة سقوطه الإنساني والديني أو الاجتماعي والسياسي . إن الله سبحانه وتعالى قد حاور إبليس ، فمن هو الذي يتجاوز موقع إبليس في الشر . لا سيما أننا نعرف أن الحوار لا يعني الاعتراف بالآخر ، أي اعتباره حالة شرعية ، ولكنه اعتراف بوجود الآخر ، الذي ينعكس عليه وجودك سلباً أو إيجاباً ، ما يفرض عليك أن تتفهمه لتعرف كيف تصون نفسك منه ، وكيف يمكن أن تتعامل معه ، لو قدر لك أن تتعامل معه في أي درجة من درجات التعاون ، ولكي تمنحه الفرصة في أن يفهمك ، كي تتيح له فرصة أن ينجذب إليك .

وهكذا نجد أن الله سبحانه وتعالى أعطانا تجربة ثانية ، وهي حوار الله مع

الملائكة . هنا حوار مع رمز الخير ، وهناك حوار مع رمز الشر . فالله عندما أراد أن يجعل في الأرض خليفة ، أراد أن يضع الملائكة في الصورة ، ما يدل على أن الله يريد لخلقه القريبين منه أن يعرفوا ما هناك . وربما يعني ذلك أن للملائكة دوراً وظيفياً ، قد توحى به الآثار . إن الله جعل لكل ظاهرة كونية فريقاً من الملائكة يحركها أو يتدخل في طريقة إدارة أوضاعها أو ما إلى ذلك .

فنحن نجد أن الله سبحانه وتعالى ، أدار الحوار مع الملائكة ، حول هذا الإنسان الذي يجعله خليفة ، وترك للملائكة أن يعلقوا على الموضوع . ثم ليس من الضروري أن يكون اعتراضاً ، لأنهم لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون (الأنبياء : ٢٧) ، ولكن من أجل أن يكون الحوار فرصة للمعرفة ، لا سيما إذا كان الحوار مع الله الذي يخلق ما يشاء ويختار . وهكذا نجد أن الله تقبل تعليقاتهم بخصوص هذا الإنسان ، هذا المخلوق الذي سيجعله خليفة .

وهكذا نجد أن الله سبحانه أراد أن يدخل الإنسان في هذا الجو ، أن يدخل آدم في تجربة مع الملائكة ، ليتمثل الملائكة أن هذا المخلوق الجديد الذي اعترضوا عليه ، يملك علماً لا يعلمونه ، فجعل هذا الإنسان الخليفة الأرضي موضوع احترام الملائكة ، لأنه يعلم ما لا يعلمون ، لقد علّمه الله سبحانه ما لا يعلمون .

وهكذا نجد أن أول حوار بين الإنسان وبين الشيطان كان في الجنة ، عندما أراد الله أن يدخل آدم تجربة حية واقعية ، تجعله يدرك أن هناك شيئاً يشبه الشر في حركته الخارجية ، وأن هناك مخلوقاً ينتج الشر ، وأن عليه ألا يقبل الأمور بظواهرها ، بل عليه أن يتعمق . وأن لا يكون إنساناً ساذجاً بسيطاً . وهكذا كان

الحوار بين آدم وحواء وإبليس ، الذي انتهى إلى النتائج المعروفة .

إننا نستطيع أن نفهم من كل هذا التراث الديني الذي خلّده القرآن أن الحوار هو الوسيلة لتأكيد المعرفة ولتحريك الواقع . ما يجعل مهمته لا تقتصر على الجانب الثقافي ، بل تتحرك في الجانب العملي . وهكذا نجد أن القرآن كله كان كتاب حوار ، فقد دخل في حوار مع الملحدّين ، مع المشركين ومع أهل الكتاب والمنافقين ، وأراد أن يدخل الإنسان في حوار مع نفسه . وهكذا كان الحوار هو أسلوب القصة في القرآن . وقد نستوحي تنوع المضامين التي تنطلق في جانب واحد ، مما يشير فيه القرآن حواراً في هذا الموقع ، وحواراً في ذلك الموقع .

فالقرآن أراد أن يجعل ما يفكر به الفريقان في قصة (حالة حوارية) ، كأنها حوار الفكر مع الفكر . فالحديث عن قصة موسى وفرعون ، قد يستوحي الإنسان منه . وهذا يحتاج إلى دراسة علمية - أن الله سبحانه وتعالى ، يجعل كثيراً من الأمور التي يفرضها الموقف ، في إحساس كل فريق ، للقضية التي تكون موضعاً للجدل ، بصورة ، كما لو كانا يتحاوران في ذلك ، باعتبار أن هذا يفكر بطريقة ، وذلك يفكر بطريقة أخرى ، مما يؤكد موقف هذا وموقف ذلك .

إن القرآن الكريم وضع أساساً للحوار ، فأراد للناس أن يتحاوروا بالحق ، وأراد للإنسان أن يملك المعرفة في ما يحاور فيه ، يقول تعالى : ﴿ها أنتم هؤلاء حاججتم فيما لكم به علم﴾ (آل عمران : ٦٦) وأراد للحوار أن ينطلق من خلال أصول موضوعية تحترم إنسانية الإنسان المحاور ، سواء في مقام الدعوة أو في مقام الخصام والجدال ، فيقول : ﴿ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن إلا الذي ظلموا منهم

وقولوا آمنا بالذي أنزل إلينا وأنزل إليكم . ﴿العنكبوت : ٤٦﴾ . وهكذا نجد النبي (ص) يحاور الآخرين ، وينهي الحوار في حالة ويفتحه في حالة أخرى . ولعل قمة المنهج الموضوعي القرآني في الحوار هي ما جاء في القرآن في قوله تعالى : ﴿وإنا أوياكم لعلى هدى أو في ضلال مبين﴾ (سبا : ٢٤) .

منهج القرآن في الحوار:

فالقرآن جرّد الحوار من ذاتية المتحاور ، فلم يكن كما يقول المتحاورون : «رأيي صواب يحتمل الخطأ ، ورأيي غيري خطأ يحتمل الصواب» ، بل جعل المتحاورين لا يتبنيان شيئاً ، حتى لو كانا في العمق ملتزمين التزاماً حاسماً حول هذا الموضوع . فعلى لسان النبي (ص) الذي جاء بالصدق وصدق به : ﴿وإنا أوياكم لعلى هدى أو في ضلال مبين﴾ .

حيث يعتبر أن هناك حقيقة ، وأن هناك شكاً مشتركاً ، وأن الطرفين يريدان أن يحركا هذا الشك في طريق اليقين حتى يلتقيا بالحقيقة . ونحن نعتبر أن هذا الأسلوب هو منهج قرآني في الحوار ، إذ يجعل فكراً يحاور فكراً ، لا ذاتاً تحاور ذاتاً . وهذا المنهج المتقدم لم يستطع كل التطور الثقافي في منهجيته أن يصل إليه . إذاً من خلال ذلك كله ، نعرف أن الحوار هو الوسيلة الإنسانية للتواصل الإنساني في حركة المعرفة وفي حركة الواقع ، حيث يدخل الإنسان في عقل الإنسان الآخر وفي شؤونهم ، وينكشف كل واحد منهما للآخر . ونحن نعرف أن مشكلة الإنسان في كثير من قضاياها ، هي مشكلة المسائل الخفية التي يخافها كل فريق من الآخر ،

لذلك فالحوار يضيء هذه المناطق الخفية ، ويجعل الإنسان يكتشف الآخر ، في كل ما يفكر به أو يشعر به ، أو في أغلب ما يفكر به أو يشعر به . إن الحوار يمنحك الوضوح في نظرتك إلى الإنسان الآخر ، ويمنح الآخر الوضوح في نظرتك إليك ، لذلك فنحن نعتبر أن الحوار ضرورة للحياة الاجتماعية في بعدها السياسي والاجتماعي والأمني والاقتصادي وفي كل شيء .

هوية الحوار الإسلامي - الإسلامي:

أما عن تشخيص هوية الحوار الإسلامي الإسلامي ، فعندما نريد أن نتحدث عن هذا الحوار ، علينا أن نفكر لماذا الحوار في هذه الدائرة؟

إننا نعرف أن هناك إسلاماً واحداً ، انطلق من وحي الله وتحرك في سنة رسول الله (ص) ، وجاء الآخرون من بعده من أجل أن ينفثوا على كل هذا الجوّ الرسالي ، لذلك نعرف أن هناك وحدة إسلامية في المعنى المضموني للإسلام ، لأن الكتاب واحد والسنة واحدة من خلال رسالة واحدة . وهكذا كان هذا الإسلام الواحد يكيء للأمة الواحدة التي تلتقي على كل مفاهيمه ، لتلتقي من خلال هذه المفاهيم على كل مواقع حياتها . لكن مشكلة الإسلام كمشكلة أي فكر آخر ، سواء كانت دينية أو غير دينية ، إنه لا يملك أن يدخل إلى أفكار الناس بطريقة غيبية ، وإنما يدخل من خلال الكلمة ومن خلال الفعل . ومن الطبيعي أن الكلمة لا تملك روحاً مطلقة تحميها من الاحتمال الآخر ، وهكذا الفعل لا يملك أيضاً انفتاحاً لما يختزنه ، ما يجعل الاحتمالات كثيرة في تفسير طبيعته وخلفياته . .

لذلك اختلف المسلمون في زمن النبي (ص) ، ولم يكن كل المسلمين قادرين على لقاء النبي (ص) ، لذا بقيت كثير من الخلافات تتحرك في وعي هؤلاء وأولئك على أنها الإسلام . ونحن نعرف أن الاجتهادات بالرأي كانت موجودة ، خاصة إذا صحّت الأحاديث التي تقول بأن بعض الناس ممن أرسلهم النبي ليقضوا في بعض المناطق ، قد قال لهم ما مفاده أنه إذا لم يجد أحدكم شيئاً في كتاب الله وسنة رسوله - مما يعرض عليكم - فإنه يعمل باجتهاد رأيه ، إنها وجهة نظر على أي حال .

ثم جاءت الأحزاب بعد النبي (ص) لتجعل من قضية الخلافة قضية مركزية استطاعت أن تمثل حداً فاصلاً يفصل المسلمين ، يفصل المسلمين عن بعضهم البعض . ربما لم يتحقق هذا الانفصال في عهد الخلافة ، بل نجد هناك تواصلًا من الذين اختلفوا حول قضية الخلافة . وهذا ما عبر عنه أمير المؤمنين علي (ع) في كتاب إلى أهل مصر كما ورد في نهج البلاغة : «فما راعني إلا انيئال الناس على فلان يبايعونه ، فأمسكت يدي ، حتى رأيت راجعة الناس قد رجعت على الإسلام ، يدعون إلى محق دين محمد (ص) ، فخشيت إن أنا لم أنصر الإسلام وأهله أن أرى فيه ثلماً أو هدماً تكون المصيبة به عليّ أعظم من فوت ولايتكم التي إنما هي متاع أيام قلائل يزول منها ما كان كما يزول السراب ، أو كما يتقشّع السحاب ، فنهضت في تلك الأحداث حتى زاح الباطل وزهق . .» (١) .

(١) نهج البلاغة والمعجم المفهرس لألفاظه ، الكتاب : ٦٢ ، ص : ٣٣٩ .

وهكذا نعرف كلماته: «لأسلمنّ ما سلمت أمور المسلمين ، ولم يكن فيها جورٌ إلا عليّ خاصة»^(١) ، ما يدلّ على أن ذلك العهد لو بقي في امتداده بالرغم مما فيه من الأخطاء الكبيرة التي في مقدمتها في عقيدتنا نحن ، إبعاد علي (ع) عن الخلافة ، لكان عهداً يتعيّن فيه على المسلمين مسؤولية المحافظة على الإسلام ، ومسؤولية التدقيق في الخط الإسلامي .

لذلك فأنا أعتقد أنه لو بقيت المسألة في هذا المسار ولم تتحول الخلافة إلى ملك ، لأمكن أن تكون الأساليب في ممارسة هذا الخلاف أقلّ حدة وأكثر انفتاحاً ، لكن تحول الخلافة إلى ملك عضوض ، ودخول الأمويين على الخط ، جعل مسألة استغلال هذا الجانب لمواجهة أهل البيت (عليهم السلام) أمراً مهماً جداً . وهذا الذي بدأه معاوية في مسألة سب الإمام علي (ع) . واعتباره أمراً مفروضاً على خطباء المنابر . وهكذا دخلت مسألة الوضع في الأحاديث وما إلى ذلك .

فانطلقت مدرسة الخوف ، وبدأت عملية اضطهاد أئمة أهل البيت (عليهم السلام) ، واضطهاد السائرين في خطهم بالطريقة التي لم تعد فيها المسألة مجرد خطوط في الجانب الاجتهادي للمسلمين أو في الجانب الثقافي لهم ، وإنما أصبحت أموراً واقعية مصبوغة بادّعاءات تتحرك من أجل تأكيد سلطة تخشى من إشراقة الفئة الثانية التي تمثل إطلالة سلطة مستقبلية يريد لها الناس أن تتحرك . ومن هنا انطلقت الفواصل بين المسلمين بشكل عميق جداً ، بحيث أصبحت هناك

(١) نهج البلاغة والمعجم المفهرس لألفاظه ، الكتاب ٦٢ ، الخطبة ٧٤ : ص ٦١ .

حالة من الإرهاب الفكري الخائف الذي لا يمكن للإنسان منها أن يتعرف حتى على حكم شرعي مخالف لاجتهادات رسمية بجانب الحكم الشرعي .

ومن الطبيعي أن هذه التراكمات السياسية والاجتماعية والثقافية استطاعت أن تعمق الفواصل بالشكل الذي أصبحت حركة التكفير بين المسلمين حركة فاعلة تعمق فصل الدين بين المسلمين ، كما لو كان هذا المذهب من دين وذلك المذهب من دين آخر . بل إننا التقينا ببعض الناس الذين يختزنون في أنفسهم كلمة اليهود عندما كانوا يقولون عن المشركين . . هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلاً وهناك من المسلمين الآن أو ما قبل الآن يقولون عن بعض المسلمين الآخرين عندما يشيرون إلى أهل الكتاب . . هؤلاء أهدى من هؤلاء سبيلاً .

روحية الحوار:

عندما نريد أن ندرس هذا الجو ، فمن الطبيعي إذا أردنا أن ندخل في الحوار الإسلامي ، أن نعمل على إيجاد روحية الحوار ، بالعودة إلى النهج القرآني الذي دعا أهل الكتاب إلى كلمة سواء ، ودعانا إلى أن ندخل مع أهل الكتاب في حوار بالجدل بالتي هي أحسن ، لنطرح مواقع الوفاق بيننا وبينهم . وهكذا نجد أن المنهج القرآني الذي تمثل العودة إليه ، العودة إلى الله وإلى الرسول (ص) فيما نتنازع فيه ، لا بد لنا أن ندخل في الجانب الشعوري بحيث نهى روحية الإنسان المسلم الذي يختلف مع الإنسان المسلم الآخر في بعض جوانب العقيدة أو بعض تفاصيل الشريعة أو المناهج الأخرى ، لكي يتقبل الإنسان المسلم الآخر ويعترف به .

وإذا كان الأسلوب القرآني مع أهل الكتاب يقول آمنا بالذي أنزل إلينا وأنزل إليكم فبإمكان المسلمين أن يقولوا لبعضهم البعض نحن نؤمن بوحداية الله وإن اختلفنا في بعض التفاصيل ، ونؤمن برسالة الرسول وإن اختلفنا في بعض صفات الرسول ، ونؤمن باليوم الآخر ونؤمن بالكتاب كله والملائكة والرسول وما إلى ذلك ، ونمارس جميعاً الصلاة والصوم والزكاة والحج وما إلى ذلك . فمن الممكن أن نجتمع كل نقاط اللقاء المتصلة بالعقيدة أو المتصلة بالشريعة أو المتصلة بالخطوط الأخلاقية ، كما أننا نستطيع من خلال ذلك أن نتجاوز المسألة إلى الاخطار المحيطة بالعالم الإسلامي ، سواء كان سنياً أو شيعياً ، وبالمصالح التي تتمثل في الواقع الإسلامي السني والشيوعي أمام المستكبرين والكافرين .

ونتعمق في دراسة الخلافات بين أهل السنة أنفسهم وبين الشيعة أنفسهم ليتفهم الفريقان بأن الخلافات بينهما ليست بأكثر من الخلافات داخل كل فريق ، وأنها لا تفصل مسلماً عن مسلم ما دام الجميع يستشهدون بكتاب الله وسنة رسوله في ما يجتهدون وفي ما يفتون وينظرون . إنني أتصور هنا أنه من الضروري تبسيط هذه المسألة ، أن نبسط الخلافات وأن لا نجعل منها شيئاً ضخماً ، بحيث نعتبر الإنسان الذي يتجاوزها أو يحركها خارجاً من الدين . كما نلاحظ الجوانب المذهبية ، فإن أصحاب المذاهب قد يخلصون للرموز أكثر من إخلاصهم لله ، وأكثر من إخلاصهم للإسلام ككل .

ونحن عندما نستشهد خط أمير المؤمنين (ع) الذي رفض لأهل العراق أن يسبوا

أهل الشام ، مع أنه كان معهم في حالة حرب ، ونقرأ القرآن الذي رفض أن نسب ﴿الذين يدعون من دون الله فيسبوا الله عدواً بغير علم كذلك زينا لكل أمة عملهم﴾ (الأنعام: ١٠٨) . حتى لا يعطي الفعل ردة فعل معاكسة تثير العصبية .

عندما ندرس كل هذا ، نفهم أن على المسلمين أن يفتحوا في حياتهم على أساليب الإسلام الشامل في مقابل الكفر ، وأن يفتحوا في قضايا المسلمين أمام المستكبرين في حركة الواقع السياسي والاجتماعي وما إلى ذلك . وعلى ضوء هذا ، يمكن لنا أن ندخل في الحوار الإسلامي - الإسلامي .

موضوعية الحوار:

بعد هذه الأرضية الشعورية العلمية التي تشير إلى واقع الخلافات بعيداً عن الأحاسيس التي تلهب الخلافات ، فمن الممكن أن نبدأ بالطريقة الموضوعية للمسألة .

نحن نلاحظ في الواقع المعاصر أن الإنسان استطاع أن يصل إلى اعتماد الموضوعية في كل المذاهب الثقافية في مواجهة كل مشاكل العلم وخلافاته ، وأن الإنسان أصبح يستطيع أن يفصل بين مشاعره الذاتية وبين أفكاره ، مقارنة بالفكر . لذلك لا بد لنا أن نعمق هذا الجانب الموضوعي الذي يلتقي في طبيعته العميقة بجانب العدل ، كان القرآن عندما يقول : ﴿ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى﴾ (المائدة: ٨) ، وعندما يقول : ﴿وإذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى﴾ (الأنعام: ١٥٢) ، نفهم من ذلك أن الموضوعية تستمد حيويتها من

العدل ، فعندما تكون موضوعياً تكون عادلاً .

وعلى ضوء هذا ، يمكن لنا أن ندرس مثلاً على طريقة ﴿وإنا أولياكم لعلي هدى أو في ضلال مبين﴾ (سبأ : ٢٤) يمكن أن ندرس قضية الخلافة وما سبقها كقضية تاريخية ، لأن المسألة بين المسلمين هنا ، هل أوصى النبي أم لم يوص ؟ فالمسألة هي مسألة تاريخ . ويمكننا أن نبحث المسألة من هذا الجانب التاريخي ، ثم ينضم إليها الجانب الكلامي فيمن هو الأفضل وهل يجب تقديم الأفضل ، أو لا يجب تقديم الأفضل ، كقضية كلامية ، يمكن أن نعالجها في الجانب العقيدي المتصل بالإمامة والخلافة كما نعالج القضايا السياسية والاجتماعية ، لأنها لا تقتصر على جانب دون جانب . وإذا أردنا أن نتحدث في بعض القضايا الفلسفية كمسألة العدل ، أي فيما هو الحسن والقبح العقليين ، وفيما هو الجبر وما إلى ذلك . فيمكننا أن نبحثها كآية قضية فلسفية . وهكذا في الجوانب الفقهية التي تنطلق من حالة ثقافية ، حالة توثيق الحديث عندما تكون المسألة هل قال النبي (ص) ذلك أم لم يقل ذلك ، وشرعية المحدث ؟ هل قول الأئمة حجة أم ليس بحجة ؟ وهل قول الصحابة حجة أم لا ؟ وفهم ما جاءنا في الكتاب والسنة ، كأبي نص أدبي فني يمكن لك أن تفهمه من خلال العناصر الفنية المهمة .

وهذه المسألة قد تحتاج إلى نوع من التفصيل ، ولكنني أتصور أننا نحتاج إلى أن نخطط له ، أن نخطط لتفريغ الشخصية الإسلامية من كل هذا التخلف الثقافي الذي لا يجعل الإنسان يطبق أن ينظر لفكر الآخر ولا أية مناقشة لما عنده . فالمشكلة الموجودة الآن في الواقع الإسلامي ليست في الواقع مشكلة السنة والشيعة ، ولكنها

مشكلة في السنّة أنفسهم ومشكلة الشيعة أنفسهم . فنحن لا نجد أن هناك حالة حوارية موضوعية في داخل الشيعة أو داخل السنة ، لأن أي فكر آخر وأية علامة استفهام تثار في هذا الجانب على خلاف المؤلف وتثار في ذلك الجانب على خلاف المؤلف ، ستثير ضجة وتكفيراً .

لذلك نحن نحتاج إلى أن نتخلص من هذه الحالة الشرقية المتخلفة التي تجعل الإنسان لا يطبق الآخر ولا يعترف به ، وتجعل الإنسان يعيش ذاته حتى لو كان لا يطمئن لهذه الذاتية ، باعتبار أن المسألة أصبحت مسألة خصوصيات . ونحن نعرف أنه عندما يثار شيء ، وعندما ينطلق رأي سني قد يتفق مع بعض ما عند الشيعة ، أو ينطلق رأي شيعي قد يقترب مما عند السنة ، فإن الحديث الذي يدور في داخل السنة أنكم بهذا تشمتون بنا الشيعة أو الشيعة بأنكم تشمتون بنا السنة .

ونحن نعرف بأن الاستكبار العالمي كان يعمل على هذا الأساس ، فإذا انطلق رأي في هذا المجال ، فإنه يومي لبعض الناس في الجانب الآخر أن يقولوا : (وشهد شاهد من أهله) .

هذا التخلف الذهني الثقافي هو سر المشكلة في انهيار الحوار الإسلامي - الإسلامي ، والذي إذا سنحت له أية فرصة ، فإنه ينطلق من بعض حالات التكاذب التي يجامل فيها فريق فريقاً ، أو الحالات النفسية التي تحاول أن تجعل كل فريق يسعى إلى تسجيل نقطة على الفريق الآخر ، لا الوصول معه إلى نقطة لقاء في هذا المجال .

ومن هنا تميز الحوار الإسلامي - الإسلامي ، لا سيما في علم الكلام ، في كل ما تركه لنا علمائنا من السنة والشريعة ، أنه يعتمد على الجانب الجدلي الذي يريد أن يسجل نقطة ويريد أن يلزم الآخر بما التزم به دون أن يكون الهدف هو الوصول إلى الحقيقة ، بذلك أعتبر أنني مع الحقيقة التي لا يمكن أن أحيد عنها ، ويعتبر الآخر أنه مع الحقيقة التي لا يمكن أن يحيد عنها أيضاً ، وتكون المسألة كيف أقنع الآخر بعقيدتي وكيف يقنعي الآخر بعقيدته من دون أن أعطي نفسي فرصة أن أفتش عن الحقيقة مع الآخر ولو بنسبة معينة .

إن هذا النوع من الانغلاق النفسي قبال الآخر ، هو الذي يمنع حيوية الحوار وحركيته ويحوّله ، في حال وجوده ، إلى عملية وقت ضائع وجهد ضائع ، ويصبح كما يسمى بـ «حوار الطرشان» ، لأن الأطرش يهمله أن يتكلم من دون أن يسمع ليتكلم الآخر من دون أن يسمع . وهكذا هي القضية . ولا بد للمسلمين الذين يعيشون الوعي الثقافي والوعي السياسي أن ينظروا إلى القضية نظرة تخلص من الخطورة ، لأن قضية الخلاف بين السنة والشريعة كانت تتخذ في الماضي صفة الواقع الإسلامي الذي يريد فيه فريق . أن يتغلب على فريق . كانت قضية داخلية في الواقع الإسلامي ، ما يجعل خطرهما أقل .

لكن قضية الخلاف بين السنة والشريعة الآن أصبحت من القضايا التي تتصل بالخطط الاستكبارية في السيطرة على المسلمين ومحاولة إشغالهم ببعضهم البعض ، لا سيما بالقضايا الهامشية . ولعل الخطورة في ذلك أن هذا الانفصال المذهبي قد تحوّل إلى انفصال سياسي ، بحيث أصبح فريق من المسلمين غريباً

والفريق الآخر منهم شرقياً ، عندما كان هناك شرق وغرب . لذلك نتصور بأن من الضروري أن يدور حوار إسلامي - إسلامي على المستوى الثقافي ، لنؤكد مواقع اللقاء ، ونحدد مواقع الخلاف ، ونبعد كل هذا الجو النفسي المعقد عن كل مواقع اللقاء ومواقع الخلاف ، لأن هذا الجو النفسي المعقد جعل بعض المسلمين ينكر 'مواقع اللقاء كلية ، حتى أن بعض الناس يتكلم بطريقة شعبية من أن الله عند السنة هو غير الله عند الشيعة ، وأن رسول الشيعة هو غير رسول السنة ، وقرآن السنة غير قرآن الشيعة ، بطريقة غوغائية تعتمد على عنصر الإثارة ولا تخلو من النكتة في بعض الحالات .

إنني أتصور أن على الواعين المثقفين أن يكونوا الضوء الذي يتحرك ويتكاثر في كل هذا الظلام ، وأن يتحملوا كثيراً من الصدمات والكثير من اللكمات الكلامية والاجتماعية حتى يستطيعوا أن يكونوا الطليعة التي تفسح في المجال للمستقبل الجديد ، لأنني أتصور أن الواقع الخلافية بين السنة والشيعة إذا بقي على هذا الحال ولم تنطلق الحالة الحوارية بشكل موضوعي إسلامي ، بحيث نرجع الأمور - كما أمرنا الله - إلى الله في ما نتنازع فيه بقلب تقي نقي طاهر إسلامي ، فإن الواقع الإسلامي سيصاب بالشلل وبالهزيمة وانعدام الوزن أمام كل حلف بين الاستكبار العالمي والكفر العالمي بجميع فصائله من أجل إسقاط الإسلام ، تحت شعار (الأصولية) تارة و(التطرف) أخرى و(التعصب) ثالثة ، وما إلى ذلك من الكلمات ، والتي يتميز بها القاموس السياسي الاستكباري ، الذي يوزع الكلمات

على حسب الأجواد التي يريد إثارتها هنا وهناك .

ومن الطبيعي أننا عندما ندعو إلى حوار إسلامي - إسلامي فيما بين السنة والشيعة ، فإننا ندعو إلى حوار إسلامي داخل السنة أنفسهم وداخل الشيعة أنفسهم ، حتى يكفّوا عن الاعتقاد بأنهم يملكون الحقيقة المطلقة ، وحتى يبحثوا عقائدهم ويبحثوا تاريخهم وشرائعهم وأحكامهم بطريقة جديدة ، لأن القدامى إذا كانوا قد فكروا واستتجوا ، فليس من الضروري أن يكون فكرهم هو نهاية الفكر في العالم ، وأن تكون أبحاثهم هي نهاية البحث في العالم . فإذا كان السابقون قد فكروا ، فبإمكاننا أن نفكر معهم عندما نقارن بين أفكارنا وأفكارهم ، وربما نتجاوزهم ، كما كان يقول بعض العلماء . «هم رجال ونحن رجال» .

والقرآن أصدق من ذلك عندما يقول : ﴿ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ ﴾ في اجتهداها وفكرها وفي أبحاثها . ﴿ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تَسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ (البقرة : ١٣٤) . لذلك أعتقد أن خيارنا في دخولنا للمستقبل الإسلامي من الباب الواسع ، أن نعتبر أن ما ورثناه من فكر وما التزمناه ، سواء فرض علينا على نحو الإرث أو اخترناه ، ليس هو ذات كل واحد منا ، هو شيء جاءنا من الخارج ، إذا رأيناه مفيداً نبقه ، وإذا رأيناه غير مفيد نستبدله بغيره .

المستقبل الذي نريد:

أما بخصوص الآفاق الإيجابية كبعد آخر في مسألة الحوار الإسلامي ، مثلاً كقضية أن نبدأ شراكة جديدة في النهوض الحضاري للأمة ، أعتقد بأن الخطوة

الأولى التي ينبغي لنا أن نخطوها هي في القضايا التي تتحرك على الأرض الإسلامية وتمثل جرحاً إسلامياً . وأعتقد أننا نجحنا في هذه التجربة إلى حد كبير .

فالقضية الفلسطينية ليست قضية شيعية ، بل هي بالمعنى التقسيمي الطائفي قضية سنية ، ومع ذلك نجد أن المسلمين التقوا عليها . فليست هناك عقدة شيعية ، كما ليست هناك عقدة سنية في الانفتاح على القضية الفلسطينية في كل أبعادها . وهكذا عندما كنا نتحدث عن احتلال الاتحاد السوفياتي لأفغانستان ، وعن البوسنة والهرسك والشيشان ، وغيرها من القضايا الإسلامية الكبرى التي تتحرك هنا وهناك . إننا نجد أن هناك شعوراً وحدوياً سياسياً إسلامياً ، يلتقي عند هذه الجراح الإسلامية النافذة ، من أقصى اليسار لدى المسلمين إلى أقصى اليمين ، إذا صح أن هناك يساراً وعميقاً في الواقع الإسلامي . لذلك فإنني أعتقد أنه حدث هناك لقاء إسلامي طبيعي تحرك بشكل عفوي ، لأنه لم تكن هناك مشاكل معقدة حول هذا الموضوع . لذلك يمكننا أن نستفيد من هذه التجربة لنطلّ بها على التجارب الأخرى في هذه المنطقة السنية أو الشيعية .

ومسألة الالتزام الذي يعاني منه المسلمون بالطريقة التي يحاول فيها الغرب أن يصادر سياستهم ، بالابتزاز الأمني وما إلى ذلك ، إننا نعتقد بأن المسألة السياسية متداخلة مع المسألة الاقتصادية والأمنية ، ومن الممكن جداً أن تكون تجربة وحدوية تعطينا هذا الجانب الشعوري المتناغم الموحد الذي يشعر المسلمون من خلاله أنهم أمة واحدة ، ونستطيع أن نغتنى من خلال هذا المعنى ونشعر بأن معنى الأمة فينا يقتضي أن نطلق حضارتنا من جديد ، فنطلق الفكر الإسلامي العام ، بحيث

نطلق من خلال الخطوط الإسلامية الحضارية على المستوى الثقافي وعلى المستوى العملي ، أن نطلقها ونحررها في الواقع الإسلامي ، لأننا لا نواجه أية حساسيات معقدة في هذا المجال .

وأتصور أن هذين الخطين يمكن أن يطلآبنا على حالة ثقافية موضوعية تؤسس لحوار إسلامي - إسلامي في المسائل العقيدية ، في تفاصيل العقيدة ، في المسائل الفقهية وغير ذلك من الأمور . وأعتقد أنه لا بد من العمل على أساس التقارب بين الحركات الإسلامية التي تستطيع أن تتحرر من كثير من خطوط التخلف التي عاشتها المذاهب الإسلامية التقليدية .

إن هذه التجربة يمكن أن تقوم بها الحركات الإسلامية التي تعمل من أجل أن يعود الإسلام قاعدة للفكر والعاطفة والحياة ، وتستطيع أن تطل على الأخطار الموجودة في الواقع الإسلامي ، لأنها تعيش في ساحة الصراع ، باعتبار أن المشكلة تكمن لدى الكثيرين من الفقهاء المتكلمين وبعض المثقفين الذين يعيشون في أبراج عاجية ، فلا أنهم لا يعيشون في ساحة الصراع ، لذلك هم لا يشعرون بوجود مشكلة حية في الواقع الإسلامي ، على طريقة ماري أنطوانيت التي عندما سمعت الناس يتظاهرون وهم يطالبون بالخبز قالت فليأكلوا البسكويت .

إن المشكلة ربما كانت في هذه الطبقة المترفة من الفقهاء والمثقفين والمفكرين ، هذه الطبقة التي تعيش خارج نطاق الصراع ، لذلك فهي لا تفهم أخطاره ، ولهذا فهي تتناول الأمور بطريقة لا تلتقي مع الإحساس بالأخطار التي تواجه المسلمين .

نعتقد أن علينا أن نعمل كتجربة أولى في دائرة الحركيين الإسلاميين لنقارب بينهم ، حتى إذا استطعنا أن نجد هناك فرصة لخطوط موحدة ، فإننا يمكن أن ندخل العالم الإسلامي التقليدي لنهزه مجتمعين ، سنة وشيعة حركيين . ونعتقد أن التجربة الحادة التي تعيشها الحركات الإسلامية في مواجهة الكفر وفي مواجهة الاستكبار ، قد استطاعت أن تصل إلى نتيجة لا تخلو من التقارب ، إذا لم تستطع أن تصل إلى الوحدة .

إنني أتصور أن الواقع الإسلامي يجعلنا نجرب كل شيء ، وأن علينا أن نفكر أنه لا يأس ولا إحباط ، وأن نخرج مسألة اليأس والإحباط من قاموسنا الإسلامي الثقافي والاجتماعي والسياسي والاقتصادي . ونحن نعرف أن اليأس من روح الله هو من الكبائر ، وأنه قد يلتقي مع الكفر ﴿إنه لا يأس من روح الله إلا القوم الكافرون﴾ (يوسف : ٨) .

لذلك لا بد أن نجرب دائماً . أذكر أنني في السنة الثانية من مجلة الأضواء في النجف سنة ١٣٨١ هـ ، كتبت مقالاً «التجربة أبداً» ، وهو أن فشل ألف تجربة لا يعني فشل الفكرة ، بل علينا أن نجرب الواحدة بعد الألف ، وأعتقد أن التجربة يمكن أن تطلّ بنا على نتائج جديدة وآفاق جديدة .

عوامل تمزق المسلمين وإشكالية الوحدة

في دراستنا الحالية لواقع المسلمين ، نلاحظ أنَّ العلاقة التي تشدّ المسلمين إلى بعضهم البعض ، ليست بالمستوى الذي تتمثّل فيه الرابطة الوثيقة في وجودهم كأمة ، فلا نجد أماناً إلّا بعضاً من المشاعر العاطفية المغلّفة بضباب كثيف من الأفكار المضطربة المتنوّعة ، التي قد نلمحها في بعض الهزّات السياسية والإنسانية في حياة بعض الشعوب الإسلامية ، ثمّ لا شيء بعد ذلك ، إلّا بعض الاحتجاجات الطارئة والانفعالات الهادرة ، التي سرعان ما تتلاشى صرخاتها في الهواء . ويتساءل الباحث ، وهو يرصد هذه الظاهرة القلقة في حياة المسلمين ، عن العوامل المؤثرة في ذلك .

قد يفضّل البعض أن يُرجع ذلك إلى ضعف روح الإسلام في نفوس المسلمين ، الأمر الذي جعلهم يبتعدون عن الشعور العميق بالأسس الفكرية والروحية والشعورية التي توحدهم وتخلق في داخلهم الإحساس بعمق الوحدة المصيرية التي تشدّهم إلى الواقع . ثمّ يضيف هذا البعض إلى ذلك ، أنَّ الحل الوحيد يكون

بالعمل على إعادة الإسلام إلى وعي المسلمين فكراً وعاطفة وسلوكاً ، وإعادة المسلمين إلى الإسلام .

وإننا إذ نتوقف عند هذا الخطّ في عرض المشكلة ومعالجتها ، قد نوافق على طبيعة الفكرة ، ولكننا لا ننسجم مع الطريقة السهلة المبسّطة لأسلوب الطرح والعلاج ، إذ إنّ مواجهة المشاكل بهذه الطريقة ، تبعدنا عن الدراسة الواعية للجدور العميقة التي ترتبط بها المشاكل ، وتبعدنا - في الوقت نفسه - عن فهم الواقع الموضوعي في نطاق الظروف الطبيعية المحيطة .

ولعلّ الكثيرين ممّا لا يزالون يعالجون القضايا المعقّدة بهذا اللون من التبسيط والسهولة ، حتى يخيل للآخرين أنّ البعد عن الشعور العميق بوحدة المسلمين ، لا تمثّل مشكلة في حساب الواقع ، وإنّما تمثّل شبح مشكلة ، ما يبعدنا عن الشعور بالخطر ، وبالتالي عن التعامل مع الواقع من موقع وعي الخطورة .

الحواجز التي تعمّق الفواصل بين المسلمين

إنّنا نحاول هنا الإشارة إلى بعض العوامل والمؤثرات الطبيعية التي أسهمت في تمزّق المسلمين ، وخلقت في داخلهم الحواجز النفسية والفكرية التي تعمّق الفواصل بينهم ، ذلك أنّ المسلمين قد ورثوا من التاريخ الكثير من الخلافات المذهبية المتمحورة حول عناوين وقضايا عدّة ، لعلّ أبرزها ما له صلة بشؤون الخلافة والإمامة ، وبشؤون الفقه والشرعية ، وبقضايا الفلسفة والكلام ، وبجوانب الحكم والسياسة العامة . وقد كان لهذه الخلافات التاريخية دور كبير في إثارة الحقد والبغضاء والعداوة ، وفي تفجير الحروب ، وفي إهراق الدماء البريئة الطاهرة .

وربّما كان البعض من هؤلاء الذين يعيشون هذه الخلافات ، ثمّ يدفعه الإخلاص
للفكرة الخطأ إلى القتال باسم القداسة والتدين لغفلته عن طبيعة الخطأ في فكرته ،
وربّما كان البعض منهم يقاتل باسم المنافع والمغانم بعيداً عن أيّ ارتباط بالحقّ أو
بالإسلام ، ولكنّه يستغلّهما من أجل مآربه ، كما روي عن الإمام عليّ (ع) - وهو
يشير إلى الموقف من الخوارج في جانب ، وإلى الموقف من معاوية في جانب آخر -
أنّه قال :

«لا تقاتلوا الخوارج بعدي ، فليس من طلب الحقّ فأخطأه ، كمن طلب الباطل
فأدركه» (١) .

وفي كلتا الحالتين ، كانت الخلافات تتّجه إلى العنف الجسدي والفكري
والكلامي انطلاقاً من المواقف المخلصة للخطأ ظناً أنّه الحقّ ، أو من المواقف
المشدودة للأطماع والنزوات الشخصية السائرة في اتجاه الباطل .

وقد أدى الفهم الخاطيء للحديث النبوي دوره الكبير عندما تمّ توظيفه في
إضفاء صيغة القداسة على ما يختلفون فيه ، فقد شعر الحاكمون وأتباعهم
والنافذون من الشخصيات الذين يراعون هذا الخلاف ، أنّ قدسية الخلاف تفرض
وجود شرعية دينية لما يختلفون حوله من أشخاص ، وما يفيضون فيه من قضايا ،
لذا كان لا بُدّ من وضع الأحاديث على لسان محمّد (ص) في مختلف هذه
الأمور ، ما أوجد في نفوس الساذجين والبسطاء من المسلمين بعداً جديداً

(١) نهج البلاغة والمعجم المفهرس لألفاظه الخطبة : ٦١ ، ص : ٥٣ ، دار التعارف للمطبوعات ، ط : ١ ،
١٤١٠ هـ - ١٩٩٠ م .

للقضية ، يجعل الاندفاع في هذا السبيل - الذي يسّر طريقه - شأنًا دينيًا مقدسًا ، ويجعل من التضحية في هذا الاتجاه هدفًا شرعيًا عظيمًا ، ولا بُدَّ لهذا كله من أن يثير الحماس في نفوس هؤلاء وأولئك ، حتى يدفعهم إلى السير في الخطوات والمواقف الحادة التي تغري بالقتل والقتال .

وسارت الحياة الإسلامية شوطاً بعيداً في هذا المجال ، وساعدت على خلق الحواجز وتعميق الفواصل بين المسلمين ، بالمستوى الذي تبتعد بهم عن الشعور بالوحدة الفكرية والعملية في المجالات العامة . وتطوّر الأمر إلى أبعد من ذلك ، فكانت فتاوى التكفير ، التي يكفّرون بها بعضهم بعضاً بمختلف التحليلات والتأويلات القريبة والبعيدة ، حيث يتحوّل المسلم إلى كافر نتيجة فكرة فرعية ، أو فكرة خلافية لا تمسّ الجذور في العمق . ومن هنا ، كان من الطبيعي أن تتوتر المشاعر الدينية في مثل هذا الجوّ المشحون ، في الاتجاه المضادّ للعلاقات الطبيعية التي يجب أن تشمل المسلمين في واقعهم الاجتماعي والسياسي والنفسي .

وما زالت هذه الأجواء التاريخية تفرض نفسها على الساحة ، وترسخ بفعل ذلك التراث الضخم من الكتب الإسلامية في قضايا الكلام والفلسفة والشريعة والتاريخ ، ما جعل للقضية عمقاً ثقافياً وفكرياً يتوارث المسلمون أفكاره كما يتوارثون مشاعره وأحاسيسه ، في أجواء متنوعة قد تفرض عليهم اللقاء والتعاون ، ولكنه يبقى في حدود المجاملة والتقية والمداواة التي لا تنفتح فيها النفوس على الحقيقة بتجرد وموضوعية وحيادية ، بل يظل للحقيقة المزعومة في نفوس أصحابها ، المعنى الجامد الذي لا يمكن أن يتحوّل إلى أيّ شيء يثير الحركة في اتجاه

اللقاء ، لأنّ القضية المفروضة من خلال ذلك كلّها ، هي أنّ الصفة الطارئة تحوّلت إلى ما يشبه الصفات الذاتية التي لا تنفصل عن الشخص مهما اختلفت الظروف والأفكار .

وبهذا ، أصبح للمجموعات التي تمثل هذا الفريق أو ذاك مصالح مستقلة ، تختلف عن مصالح الفريق الآخر ، تماماً كما هي الدول المستقلة ، وربما ينتج الموقف لكلّ منهما تحالفات مع أعداء الإسلام للاستعانة بهم على الجانب الآخر .

اليد الاستعمارية والهوس الطائفي

ومن هذا كلّها ، نشأت الطائفية السياسية التي تحاول أن تنظر إلى الشخصية الطائفية كإطار يحدّد للأفراد صفتهم السياسية ، وكان أن دخل الاستعمار الكافر مع كلّ جنود الكفر الفكريين ، ليعبث بالمسلمين في حياتهم السياسية والاجتماعية ، من خلال الإيحاء لهم بالحماية الطائفية لكلّ فريق منهم ، أو بتغليب جانب على آخر ، في حالات الإثارة التي يصنعها بأساليبه الشيطانية الخفية ، وذلك بإبراز عناصر الإثارة والتفرقة والخلاف في الساحة ، ما يؤدّي إلى التقاتل والتنازع في المجالات الثقافية والاجتماعية والعسكرية . . . ثمّ يتدخل بينهم بصفة الفريق الحيادي الذي يحمل لواء الصلح والسلم وإنهاء النزاع ضمن شروط وأوضاع جديدة لا تخلو من ثغرات وسلبيات تخدم مصالحه الاستعمارية في العاجل والآجل .

ولو درسنا أغلب الحالات الطائفية السلبية وفتّشنا عن جذورها ، لرأينا اليد الاستعمارية الخفية تختفي وراء كثير من أساليب الإثارة والتفجير ، التي يُستغلّ فيها

الهوس الطائفي ، والبدائية السياسية ، والتخلف الفكري ، من أجل توليد المزيد من المشاكل والخلافات التي تزيد القضية عمقاً . . ولا تزال اللعبة تفرض نفسها على الساحة ، واللاعبون يتحركون فيها بكل حرية ، وتبقى أدوات اللعبة المتوفرة فيها تكفل لحركة اللعب بمصائر الإسلام والمسلمين كل الشروط الموضوعية للنمو والازدهار ، وتستمر المخططات الاستعمارية تعمل في الإسلام والمسلمين تمزيقاً على جميع المستويات باسم الطائفية والطائفيين من الزعماء الذين يعيشون على حساب الإسلام ، ولكن من دون إسلام .

وكانت العصبيات والقبليات والعنصرية التي ألغها الإسلام من حسابه في أفكار المسلمين ومشاعرهم ، تأخذ حجمها الطبيعي في حياة المسلمين ، بمختلف عناصر الإثارة في العهود الإسلامية الأولى ، كما هو شأن المشاكل التي تحركت في اتجاهات مضادة بين فريق يحتقر الموالي الذين دخلوا الإسلام ، باسم التفوق العنصري للعرب والعروبة ، وبين فريق يحتقر العرب أو يحاول التقليل من شأنهم على أساس التفكير الشعبي .

وفي ظلّ هذا الصراع ، وجدت أحاديث المفاضلة بين العرب والموالي مجالاً رحباً لها في النشاطات الفكرية المختلفة ، سواء في النثر أو الشعر أو الخطابة ، وكان لا بُدَّ لهذه النشاطات من أن تستذكر أحاديث العصبيات ، مثل التفاخر بالآباء والأجداد والغزوات ، والتاريخ المتحرك في أجواء الكفر ، فوسموا الانتصارات التي تحققت في المعارك الإسلامية بطابع الزهو بالقبلية أو العنصرية بعيداً عن الطبيعة الإسلامية لهذه المعارك والانتصارات . وكان أن حاول كل فريق من هؤلاء

وأولئك أن يأخذ لنفسه حجماً قومياً داخل الحياة الإسلامية من أجل تحقيق مزيد من الانتصارات على الآخرين من المسلمين . وبذلك بدأت الصراعات القومية تفرض نفسها على حركة التاريخ الإسلامي في مسار بعيد عن الروح الإسلامية المنفتحة الواعية . وإننا نجد في تاريخ الخلافة العباسية نماذج كثيرة من ملامح هذا الصراع الذي استطاع أن يهزّ قواعد الخلافة والخلفاء حتى انتهى بها وبهم إلى الزوال .

«القومية» الأوروبية عامل تمزيق لا توحيد

وجاء العصر الحديث ، والأجواء الإسلامية لا تبتعد عن هذا الاتجاه ، من خلال بروز العنصر التركي الذي كان يحاول أن يفرض نفسه على الواقع الإسلامي كعنصر مميّز في شخصيته ، وذلك من خلال الخلافة العثمانية التي كان الخلفاء فيها أتراكاً وكان مركزها تركيا . وقد فرض هذا الواقع نفسه على الجانب الشعوري للإنسان المسلم غير التركي ، لا سيما وأنّ القضية لم تتّصل بالناحية النفسية فحسب ، بل اتّصلت بالجوانب الحياتية الاقتصادية والاجتماعية والسياسية ، بفعل ما كان يعاني منه المسلمون الآخرون من اضطهاد وتشريد وتخلّف وتجهيل ، الأمر الذي خلق أرضية صالحة لولادة الشعور القومي أو الإقليمي ، ولكنّه شعور كان يتميّز بالتملل والحجل والحياء والخوف من التعبير عن نفسه من خلال النوازع الدينية التي تدعوه إلى أن يمارس جهداً كبيراً في سبيل ضبط مشاعره وخطواته حفاظاً على القوّة الإسلامية ، ما خلق في داخله نوعاً من التردد والقلق والحيرة ، فكان يتمنّى أن تعتمد الخلافة الرسمية إلى تجاوز أخطائها والقيام بالإصلاحات

الضرورية ، وكانت هذه التمنيّات تتمثّل في المطالب الإصلاحية التي تقدّم إلى المسؤولين ، لكنّها لم تقابل إلاّ بالرفض والتنكيل والتعذيب والإعدام .

الهوس القومي كمعوق للوحدة

وكانت الدول الأوروبية تراقب كلّ هذا التملّص وتشجّع لتحوّله إلى ثورة ، وبما أنّ هذه الدول كانت تخاف الروح الإسلامية ، لأنّها تعرف أنّ هذه الروح تشكل مانعاً لها من تنفيذ مخططاتها الاستعمارية ، لأنّها تمثّل القوّة الروحية التي تدفع الإنسان المسلم إلى مواجهة الكفر ، أيّاً كان نوعه ، بكلّ قوّة وإصرار ، حتى في أشدّ الحالات صعوبة وضراوة ، فكان أن أطلقت في الساحة الفكرية والسياسية ألواناً من الشخصيات المصطنعة التي سعت إلى ربط الإنسان المسلم تارة بتاريخه السابق على الإسلام ، كالفرعونية والآشورية والفينيقية والساسانية والطورانية وغيرها ، وتارة أخرى «بالقومية» ذات العصب العربي والفراسي والهندي والتركي وغيرها من العناصر التي يختلف الناس حولها ، فتحول الإسلام بفعل هذا المخطط الاستعماري إلى عنصر طارئ على الشخصية ، فلم تعد له أصالته في عمق الإنسان المسلم وفي تاريخه ، حتى أنّنا أصبحنا نقرأ الكتب والأبحاث التي تتحدّث عن الفتح الإسلامي في بعض البلدان الإسلامية كانتكاسة قومية في نطاق حالات القهر والغزو الخارجي الذي تتعرّض له الأمّة ، وبدأت القضية تفرض نفسها من خلال استغلال الواقع السيئ الذي يشوّه الحكم الإسلامي في نفوس أتباعه ليأخذ صورة الحكم التركي بدلاً من صورة الحكم الإسلامي ، وتحول

المستعمرون في وعي بعض الأمم - لاسيما العرب - إلى منقذين ومحررين على أساس الوعود التي قطعوها على أنفسهم للعرب بتحريرهم من السلطة العثمانية ، ليحققوا لهم الحكم الواحد في الدولة العربية الواحدة . وقد استغل الاستعمار الكافر ذلك التفكير الساذج لدى أبناء الأمة ، فدخل إلى بلاد المسلمين تحت عنوان الفاتح المحرر وفي زهو الفاتحين المقبولين في البداية ، إلا أن المسلمين المخلصين لإسلامهم ، وكما تؤكد أخبار تلك الفترة ، وقفوا أمام هذه المخططات ، وواجهوا الاستعمار البريطاني بكل قوة بقيادة علماء المسلمين ، كما يحدثنا التاريخ عن ثورة العشرين في العراق .

وفي ظل هذه الأجواء ، أخذت الدراسات والأبحاث الفكرية تفسح في المجال للشخصيات المصطنعة كي تفرض نفسها على الذهنية والنفسية المسلمة ، وبدأت الكتب التعليمية التي تقدم التاريخ إلى الناشئة تحفل بالكثير من البرامج التي تتحدث عن التاريخ القديم وعن الشخصية القومية الإقليمية ، أما الشخصية الإسلامية ، فلم يرد ذكرها إلا في بعض الحالات كنتاج للشخصية القومية ، أو كدين لا دخل له بتكوين الشخصية ، بل يكتفي بأن يمنح الإنسان المزيد من الروح العبادية الخاشعة أمام الله ، دون أن تكون له أية علاقة بالحياة الخاصة والعامة .

العصبية الإقليمية

وما لبثت أن دخلت مفاهيم جديدة كـ «القومية» و«الإقليمية» الحياة العقائدية والسياسية ، فأصبح لكل منها إطار عقيدي يرتكز إلى فلسفة مادية أو روحية .

وتحوّل هذا الإطار إلى تنظيم حزبي يفرض نفسه على الساحة ، وتنوّعت الأحزاب الوطنية والقومية في صيغ متشابهة مرّة ومتباعدة أخرى ، وعادت العصبية لتفرض نفسها من خلال هذه الشخصيات الجديدة ، وبدأ الحديث عن الإخلاص للأرض بعيداً عن المبدأ والرسالة ، وعن التضحية في سبيل القومية بعيداً عن الإسلام . وسرعان ما تمخضت في وعي اللاعبين على الساحة صورة أدوات اللعبة ، فكانت الاتهامات التي تنطلق وتوجّه إلى هذه الفئة لأنها اتصلت بهذا الأجنبي - مع التأكيد على صفة الأجنبي بما تحمله من معان نفسية وفكرية - مع أنّه مسلم ، وتوجّه إلى تلك الفئة لأنها تعاونت مع القومية الأخرى في إطار الإسلام بعيداً عن قضايا الوطن بمفهومه الغربي ، أو عن قضايا القومية بمفهومها المحدود ، وهكذا تم انفصال المسلمين عن الشعور بالشخصية الإسلامية بما تمثله من معان وأوضاع وتحركات وعلاقات ، وتحوّلوا إلى جماعات متنوعة ، كما قال الشاعر الحماسي القديم :

وتفرّقوا شيعاً فكلّ قبيلة فيها أمير المؤمنين ومنبر

وقد أسهم ذلك في تضخيم الشخصيات التي تبحث عن طموح سياسي من خلال هذه الأوضاع المرتبكة - في نطاق ما تسمح به لعبة الأمم - وعادت لنا القضية في ثوب جديد من ألوان الحكم وأساليبه وشخصياته ، بعيداً عن كلّ كفاءة أو إخلاص ، إلا كفاءة التنفيذ الدقيق لما يريده الآخرون ، كلّ الآخرين .

«الوحدة الإسلامية» شعار دون مضمون

في ظلّ هذا الواقع المتمزق المهلهل للحياة التي يعيشها المسلمون في العالم ،

نلاحظ تنامي الشعارات في الساحة التي تتناول «الوحدة الإسلامية» و«التضامن الإسلامي» و«الدول الإسلامية» كمجموعة تحمل وجهاً واحداً إسلامياً . . وقد يواكب هذه الشعارات حركة انفعالية قوية تتمثل بالأصوات التي ترتفع بحماس دفاعاً عن مصالح المسلمين المهدورة في هذا الجزء من العالم أو ذاك ، وتتحرك في علاقات ومعاهدات ومؤتمرات بين الحكّام المسلمين ، وتنطلق في قرارات وتوصيات لها أول وليس لها آخر . ولكننا عندما نبحث عن خلفيات ذلك كلّه ، سنجد أماننا الكثير من مصالح الاستعمار هنا وهناك في صراع الدول الكبرى التي تريد أن تختبئ خلف الشعور الإسلامي العاطفي الذي يحمل هذه الشعارات الكبيرة الكثير من الأمنيات ، ساعية لكي تجعل منه أداة من أدوات الصراع التي يُحارب بها المسلمون بعضهم بعضاً . ولذا ، فإنّها لا تحاول أن تعطيها أيّ مضمون جدّيّ وآيّة روح حركية ، بل تجعلها خالية من كلّ مضمون ، فارغة من كلّ روح ، لأنّ مهمتها هي مهمة الطبل الذي يرنّ دون أن يحمل في داخله سوى عنصر الإثارة والضجيج . . ولعلّ السرّ في ذلك كلّه ، هو أنّ الذين يوكل إليهم أمر تحضير الشعارات في اللجان التحضيرية والتنفيذية ، هم أولّ من يخاف منها على ما يملكون من امتيازات داخلية وخارجية . . ولذا فإنّهم يؤتمنون على الاحتفاظ بسرّ المهنة ، وعلى توفير الشروط الضرورية للعبة السياسية التي يُراد لها أن تمرّ بسلام .

ونحن قد لانعدم الأوضاع الإسلامية التي قد تدفع اللعبة إلى أن تتجاوز ما يخطّط لها من أصول وقواعد وحدود ، فتقلب على اللاعبين من خلال الظروف الموضوعية التي قد تكون جاهزة للتحرك بعيداً عن وعي الآخرين ومخططاتهم

وأساليبهم وتميّباتهم ، وذلك كما ينقلب السحر على الساحر في كثير من الحالات . وقد نلاحظ ، في دراستنا لهذا الواقع ، وجود كثير من العوامل الجزئية المتمثلة ببعض الأوضاع الشخصية التي تتجسّد في طموح سياسي شخصي أو عائلي يطرح نفسه في الساحة كأداة من أدوات اللعبة التي تحرّكها القوى الكبرى في تخطيطها الشيطاني لتفجير العالم الإسلامي وتقسيمه ، وإجهاض طموحاته الكبيرة في التكامل والنمو والتقدّم .

المخطط الشيطاني في مواجهة الروح الإسلامية

ونتحرّس أثر هذا التخطيط الشيطاني في بعض العوامل الاقتصادية التي تتدخل في حركة الواقع من أجل أن تأخذ لنفسها حجماً كبيراً في تحريك الاقتصاد لمصالحها الاستغلالية والاحتكارية ، الأمر الذي يدفعها إلى مواجهة الروح الإسلامية التي ترفض مثل هذا المسار ، بالحرب المتنوعة الألوان والأساليب التي تنسجم مع أجواء الكفر والضلال في عملية تنسيق وتخطيط ، ما يفسح في المجال لكثير من القوى لتلعب لعبتها في تمزيق المسلمين بما يكفل لها تحقيق أغراضها وأطماعها في ثرواتهم ، وهذا ما نواجهه في اللعبة الاستعمارية التي تحاول تفجير البلاد الإسلامية بمختلف الصراعات الشخصية والطائفية والإقليمية والقومية من أجل استنزاف الطاقات الإسلامية وتحويلها إلى طاقات تتفجّر ضدّ نفسها ، وبذلك تصبح طاقات خائرة متعبة لا تملك لأنفسها نفعاً ولا ضرراً ، هذا من جهة . ومن جهة أخرى ، نواجه الهجمة الكبرى على الثروات الموجودة في بلاد المسلمين التي تتصارع الدول الكبرى في سبيل السيطرة عليها ، وهي تعمل على أن يعيش

المسلمون أجواء اللعبة ، فينقسمون بين فئة تؤيد هذا المعسكر لتنفيذ مخططاته في آفاق الحرب والسلم ، وفئة تؤيد المعسكر الآخر في الآفاق التي يتحرك فيها . . وهكذا اندفع المسلمون إلى مجالات جديدة من مجالات التمزق السياسي .

وما زالت المخططات الاستعمارية المغلفة بالواجهات الثقافية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية تلعب لعبتها ، من أجل ألا يقف المسلمون على أقدامهم كقوة جديدة تطرح الحلول الإسلامية الفكرية والعملية للإنسان وللحياة من أجل إقامة عالم الحق والعدالة الذي كان هدف النبوات والأنبياء ، في ما عبّر عنه الله في قوله تعالى : ﴿لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط﴾ (الحديد : ٢٥) ، وما زال الجهاد في هذا السبيل يتحرك من أجل تركيز القاعدة الصلبة على أساس متين .

وقد نجد أماننا التمزق الاجتماعي الذي يحصل من تغليب فئة اجتماعية على فئة أخرى من ناحية الحقوق والواجبات ، أو بمنح امتيازات لبعض الطبقات أو الطوائف على حساب أخرى ، من أجل إيجاد حالة صراع دائمة تفجر الحقد في حياة المجتمع .

الاختلاف في إطار الوحدة

وإذا كانت الصورة السائدة تتراوح ما بين التشرذم الطائفي والتمزق القومي والإقليمي والتخلف الحضاري ، وما بين الصراعات التي تلتهب بعد كل تصريح من هذا وخطاب من ذاك ، أو على قطعة أرض هنا وهناك ، أو على مناطق نفوذ

لهذه الجهة أو تلك ، فكيف يمكن أن تتبدّل الصورة ويتغيّر الواقع؟ هل يكفي أن نقول في أسلوب بسيط سهل : ليعد المسلمون إلى إسلامهم ، وليرجعوا إلى الله ، وليعتصموا بحبله ، ويلتزموا بميثاقه ، فيجدوا أمامهم الأمة الواحدة والهدف الواحد؟ !

إنّه أسلوب جميل وسهل ، ولكنّه لن يقدم أو يؤخّر شيئاً ما دامت المشاكل كامنة في النفوس وفي الوسائل والأهداف .

إنّنا نعتقد أنّه لا بدّ من البحث عن وسائل جديدة للعمل غير الوسائل الخطابية التي تكثّر من الوصايا والنصائح والتوجيهات العامة التي لا تلامس الواقع ، ففي النطاق الطائفي مثلاً ، يحاول الكثير من المخلصين أن يتحدّثوا عن إسلام بلا مذاهب ، وأن يواجهوا الموقف بشعارات الوحدة الإسلامية في جوّ مليء بالمثالية والخيال ، كما لو كانت القضية مطروحة على ساحة خالية من العقد الصعبة .

ولكن ، هل يمكن أن تطرح القضية بهذه الروح ، من دون النفاذ إلى عمق المشكلة وطبيعتها؟ وكيف يمكن أن نتجاوز هذا الفكر الضخم الذي يجبر وراءه آلاف الكتب والأبحاث المشتتة على الردود حول هذا التشريع أو ذاك ، أو في نطاق هذه الفلسفة أو تلك ، أو من أجل هذا الشخص أو ذاك؟ وقد لا يقتصر تأثير ملف الانقسامات على الجانب الفكريّ ، بل يتعدّاه إلى الجانب العمليّ والواقعيّ على الصعيد المجتمعيّ ، ولا شك أنّ الهروب من هذا كلّه يمثّل تبسيطاً للأمور المعقّدة في غير اتجاهها الصحيح .

ربط المسلمين بالهدف الكبير

وفي رأيي ، لا بُدَّ من خطة تربط المسلمين بالهدف الكبير ، سيما وأنَّ الخطر الكبير يتناول وجودهم ، ومن الواضح أنَّ عظمة الهدف وخطورته تربط الإنسان بالآفاق الرحبة ، التي تتجاوز الحواجز النفسية في عملية انفتاح على الواقع المتحرك أبداً في اتجاه الله ، وليس معنى ذلك أن تنتكر للحواجز ، بل كل ما هناك أن نتعامل معها بطريقة واقعية من خلال الاعتراف بالعوامل الفكرية والعملية التي ساهمت في وجودها وامتدادها ، ما يدفعنا إلى تجميدها في الحالات التي يفرض علينا الواقع عملية التجميد ، أو تحريكها في المجالات التي يمكن أن نتحرك فيها بوعي ومرونة وإخلاص ، أو تهديمها في ما نملك من وسائل واقعية تجمع بين عملية الهدم من جهة والبناء من جهة أخرى ، لتكون السلبية خطوة في طريق الإيجابية ، وذلك من أجل المواجهة المخلصة لعوامل الخطر الموجودة في الساحة .

هذه هي الروح التي نلمسها في كلمات الإمام عليّ (ع) وهو يحدثنا عن تجربته الذاتية في ما واجهه من عملية التنكر لحقه في الخلافة ، وفي ما انطلق فيه من خطوات عملية بعيداً عن المسألة الذاتية ، التي قد تعتبر السلبية موقفاً طبيعياً يمنعها من المشاركة في الحلول ، أو التحرك إيجابياً في الجانب المضاد الذي يثير المشكلة في الواقع المرتبك الخطر ، بل تحرك في مسارات إيجابية انطلاقاً من الإيمان بالهدف الكبير الذي يحدّد القضية من موقع المسؤولية الإسلامية الكبرى . يقول (عليه السلام) : «فما راعني إلا انثيال الناس على فلان يبايعونه ، فأمسكت يدي ، حتى

رأيت راجعة الناس قد رجعت عن الإسلام ، يدعون إلى محق دين محمد - صلى الله عليه وآله وسلم - فخشيت إن لم أنصر الإسلام وأهله ، أن أرى فيه ثلماً أو هدماً ، تكون المصيبة به عليّ أعظم من فوت ولايتكم ، التي إنّما هي متاع أيام قلائل ، يزول منها ما كان ، كما يزول السراب ، أو كما يتقشّع السحاب ؛ فنهضت في تلك الأحداث ، حتى زاح الباطل وزهق ، واطمأن الدين وتنهّأ . . .» (١) .

الوقوف على الأرض المشتركة

إذاً ، لقد شارك الإمام (ع) في حلّ المشاكل الكبرى التي تعترض الحياة الإسلامية آنذاك بفكره وخطواته العملية دون أن يعني ذلك تنازلاً عن الموقف ، الأمر الذي نخرج منه بفكرة مهمّة يمكن لنا الاستفادة منها لتغيير الواقع الإسلاميّ المتشردم ، ألا وهي أنّ الإيجابية المتحرّكة من مواقع الاختلاف في الرأي لا تعني الانتقال إلى الجانب الآخر ، بل تعني الوقوف على الأرض المشتركة لخدمة القضية المشتركة من دون تشنج وأنفعال ، وهذا هو الأسلوب الأمثل الذي يبقي القضية الواقعية في موقعها الطبيعيّ من قضايا الحقّ والباطل ، ويفسح في المجال للروح الإسلامية العامة أن تتحرّك في وجه الخطر الداهم الذي يهدّد القضية من الأساس .

ونستلهم هذه الروح من كلمته التي خاطب بها جماعة من جيش أهل العراق سمعهم يسبّون أهل الشام في قتاله في صفين ، فقد قال لهم - في ما روي عنه - :

(١) نهج البلاغة والمعجم المفهرس لألفاظه ، الكتاب : ٦٢ ، ص : ٣٣٩ - ٣٤٠ .

«إنني أكره لكم أن تكونوا سبّابين ، ولكنكم لو وصفتم أعمالهم ، وذكرتم حالهم ، كان أصوب في القول ، وأبلغ في العذر ، وقلتم مكان سبكم إياهم : اللهم احقن دماءنا ودماءهم ، وأصلح ذات بيننا وبينهم ، واهدهم من ضلالتهم ، حتى يعرف الحق من جهله ، ويرعوي عن الغي والعدوان من لهج به»^(١) . والإمام - عليه السلام - في هذا التوجّه ، لا يلغي الصراع ، ولكنه يحدّد لهم روحيته التي لا تستهدف التدمير ، بل تستهدف الحق في كلّ أساليبها وتطلّعاتها ، ثم يحدّد لهم الأدوات التي تجعل من هذا الصراع أسلوباً عملياً يشارك في سلامة الموقف بدلاً من أن يشارك في تفجيره .

أمّا الخطوات العملية في هذا الاتجاه ، فتتمثّل في دراسة الموقف دراسة فكرية تحترم فيها الأفكار ، ولكن من خلال قابليتها للمناقشة والحوار ، لا كأفكار مقدّسة لا تقبل النقد ، وذلك باعتبار أنها ليست من المسلّمات القطعية . وقد لا ندعي أنّ القضية تدخل في باب الحلول السهلة البسيطة ، لأننا نعرف أنّ مواطن الخلاف لا تخلو من حساسيات تمسّ المشاعر والمواقف ، ولكنّ الهدف الكبير المنطلق في رحلة الأخطار الكبيرة ، والروحانية التي تحكم الارتباط بالهدف ، كفيلاً بتذليل كثير من الصعاب في هذا الاتجاه ، وأحسب أنّ إثارة القضايا في نطاق الحوار على الأسس الإسلامية ، يكفل لنا الوصول إلى تقارب في الفهم والرؤية والتصور ، ما قد يسهم في تقريب المسافات ، إن لم يسهم في الوصول إلى وحدة ذلك كلّ .

(١) نهج البلاغة والمعجم المفهرس لألفاظه ، الخطبة : ٢٠٦ ، ص : ٢٣٦ .

خطط عملية لمواجهة التحديات

هذا من الناحية الفكرية . وأما السعي نحو التوجه الوجداني ، فيتم من الناحية العملية بالتأكيد الدائم على مواجهة التحديات المصيرية التي تواجه الإسلام والمسلمين بأساليب عملية في مستوى تلك التحديات ، وذلك بالبحث عن مواطن اللقاء ، وبالبحث الدائم في التصورات الإسلامية للقضايا العامة ، وإثارة الشعور بالمسؤولية تجاهها ، وتقديم الشواهد التاريخية على المواقف الواعية التي كان يقفها قادتنا الإسلاميون التاريخيون في خلافاتهم أثناء مواجهتهم لتحديات الكفر والضلال ، وبالتركيز على الخسائر التي يمكن أن تلحق بالمسلمين أجمع بمختلف طوائفهم ، من خلال الإفصاح في المجالات للخلافات الطائفية التي يغذيها الاستعمار الكافر بأساليبه المتنوعة ، وتقديم الأمثلة على ذلك من خلال حركة الواقع في ما نملك من أمثلة على ذلك كله في تاريخنا المعاصر . ولعل من البديهي أن ذلك لن يتحقق إلا ضمن خطة عملية متحركة في ظل قيادات واعية ترصد الواقع بعين يقظة مفتوحة على ما حولها ، وترصد المستقبل بالخطط العملية الحكيمة ، وذلك ضمن برنامج متكامل سليم وشامل .

ونحسب أن مثل هذا الجؤيسهم - ولو بعد وقت طويل - في إبعاد المسلمين عن التقاتل الطائفي إلى البحث الفكري العلمي حول كل ما يختلف فيه المسلمون ، من دون خلفيات حاكمة ، بل بروح يدفعها الشعور بمسؤولية الفكر في الإسلام ، إلى مواجهة كل القضايا المتعلقة ، بصراحة وموضوعية وإخلاص ، ويدفعها هذا الإحساس بالخطر إلى التجمع في الموقع الواحد من أجل القضية الواحدة .

التعاطي مع الفوارق بروح علمية

أمّا أجواء الاختلافات الأخرى - القومية والإقليمية والاقتصادية - فتحتاج إلى العمل الطويل المجهّد الذي بدأه رسول الله (ص) بتركيز الروح الإسلامية في وعي المسلمين ، والتعاطي مع الفوارق بروح عملية ، يكفل للناس حفظ خصائص متنوّعة تغني تجربتهم وأفكارهم وأوضاعهم ، وتخلق بينهم نوعاً من التفاعل الحضاري ، وبذلك تُزال الحواجز الروحية والواقعية بين أبناء الفكر الواحد والعقيدة الواحدة . . وعند ذلك فقط تتحوّل العقيدة في وعي حركتها الأساسية إلى معنى إنسانيّ يجمع الفصائل المتنوّعة من بني الإنسان في إطار واحد يتّسع للجميع دون أن يلغي خصائصهم الذاتية .

أمّا التاريخ القديم ، فإنّ بإمكاننا إثارته كما أثاره الإسلام ، كعبرة ، بما يحمل من أساليب العبر في الاتجاه الإيجابي والسلبيّ ، ولكن من دون أن نسمح له بأن يطبع شخصيتنا بطابعه ، لأنّ الإسلام قد وضع حاجزاً كبيراً بين إيمان الإنسان بالله والارتباط بالجاهلية ، في كلّ ما تمثله الجاهلية من فكر ومن تاريخ . ولا بُدّ لنا في ذلك كلّ من حشد كلّ أساليب الفكر والتربية في الوقوف أمام هذه الاتّجاهات في خطة حكيمة شاملة . وقد لانستطيع أن نزعم لأنفسنا أنّنا سنصل إلى الغاية المتوخّاة في هذا السبيل ، لأنّ قوى الشرّ والكفر والضلال ستقف بيننا وبين تحقيق ذلك ، ولكن لا بُدّ لنا من خوض هذا الصراع بكلّ ما نملك من وسائل في أيّ جانب من جوانب الحياة . إنّها ضريبة الجهاد في سبيل الله التي يحمل عبء تقديمها المجاهدون المخلصون .

إننا نشعر بأن قضية توحيد المسلمين ضمن مواقف موحدة ليست عملية بسيطة لتعالج على مستوى الحلول النظرية العامة ، بل هي من أصعب القضايا تعقيداً ، لأنها تصطدم بالعناصر الخارجية التي تمثل القوى العالمية ذات المصالح السياسية والعسكرية في السيطرة على واقع المسلمين أرضاً وشعباً وفكراً واقتصاداً ، ولذلك ، فإن آية دعوة توحيدية تنطلق من واقع الشعور بالتمايز الحضاري الإسلامي ضد القوى الأخرى ، تعتبر دعوة مضادة ضد مصالح هذه القوى ، ما يجعلها تحشد قواها من أجل القضاء على الحركة في مهدها . وفي هذا الاتجاه ، نرى أن القضية تحتاج إلى جهود متواصلة في هذا السبيل ، وإلى بذل توضيحات كبيرة في أكثر من جانب ، وإلى التمسك بحبل الصبر والإيمان وصولاً إلى الغاية الكبرى .

ويجب أن نشير في نهاية المطاف ، إلى أن شعار توحيد المسلمين والقضاء على التمزق ، لا يعني الوحدة في كيان سياسي موحد يجمع المسلمين في دولة ، لأننا لا نجد ذلك ضرورياً في عملية التوحيد ، فيمكن أن يجتمع المسلمون على الإسلام كعنصر توحيدي أساسي مع اختلاف الكيانات القانونية التي لا تمثل حاجزاً نفسياً ضد بعضهم البعض .

إن القضية ، كل القضية ، هي أن الإسلام يظل يمثل الوحدة العميقة بين المسلمين وإن اختلفوا على أكثر من جانب في التاريخ والتشريع والفلسفة ، ولنصغ إلى نداء الله سبحانه : ﴿ إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُون ﴾ (الأنبياء : ٩٢) . ﴿ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ﴾ . . . ﴿ (الأنفال : ٤٦) .

العامل المذهبي وإشكالية الوحدة(*)

إنَّ من بين مشاكل المسلمين - في ذهنيتهنَّ الثقافية - أنَّ التربية العامة والخاصة تؤكِّد على الشخصية المذهبية في انتماءاتها قبل التأكيد على الشخصية الإسلامية العامة ، فالمسلم السني يولد سنياً في طفولته وشبابه ، ويعيش مفردات المذهب المليئة بالحساسيات والتعقيدات ، المختنقة بالزوايا المغلقة للتاريخ الغارق في عصبياته ، وبذلك ينطلق في علاقته بالمسلم الآخر ونظرته إليه من كلِّ هذه الأجواء السلبية التي تفرضها التربية العامة والخاصة . . . والمسلم الشيعي يتحرَّك في الخطِّ نفسه ولكن في اتجاه آخر .

وهكذا يساهم هذا الواقع المذهبي للشخصية في إبعاد المسلمين عن الانفتاح على الإسلام في الأفق الواسع والساحة الممتدة ، سواء في أفكاره وأهدافه ، أو في قيمه الأخلاقية وحركته الشاملة في العالم كلّ ، وفي أساليبه الحوارية الوحدوية

(*) الثقافة الإسلامية - العدد ٥١ - ربيع أول - ربيع الثاني ١٤١٤ هـ ، أيلول - تشرين أول ١٩٩٣ م .
العنوان الأصلي : قواعد منهجية في الحوار بين المسلمين .

التي تنفتح على غير المسلمين بالموضوعية والعقلانية القائمة على الحجة والبرهان ، كما تنفتح على المسلمين في ما يتنازعون فيه أو يختلفون عليه .

ويتحول هذا المسار بفعل الحالة الشعورية الحادة ، والاستذكار التاريخي الدائم للمشاكل المتنوعة بين المذاهب المثيرة للجدل في خصوصياتها ومفرداتها ، والممارسة اليومية للانفعالات القاسية ، إلى تراكمات عقلية ونفسية ، وتعقيدات عملية ، تؤدي إلى أن يتحول المذهب إلى دين مميز بالمستوى الذي قد يتخفف فيه الإنسان المنتمي إليه من المشاعر المعقدة ضد الأديان الأخرى ، ليعيش فيه ثقل الشعور العدواني ضد الدين - المذهب ، بحيث يجد في وعيه الذهني والشعوري العذر للقاء بأتباع الأديان الأخرى في مواقع اللقاء ، بما لا يجد العذر فيه للقاء بأتباع المذاهب الأخرى في دائرة الإسلام .

وهذا ما لاحظناه في بعض المواقع المذهبية الحادة التي تُلحق بعض المسلمين بالمشركين والكافرين ، فلا ترى لهم حرمة في دم أو مال أو عرض ، ولا تفتي بجواز الزواج منهم أو تزويجهم ، بينما ترى ذلك في علاقتهم بأهل الكتاب ، لأنهم أهل ذمة ، بينما لا يملك المسلمون - في هذا المذهب أو ذاك - حقّ الذمة ، بعد أن فقدوا في رأيهم الانتماء الحقيقي للإسلام ، في الوقت الذي لا يملكون فيه صفة أهل الكتاب .

غياب المنهج القرآني الحواري

وقد نلاحظ في هذا المجال ، أنّ هؤلاء المسلمين ، وفي ظلّ غياب الشعور بالخط

الإسلامي العام لديهم ، لا يتبعون المنهج القرآني في الحوار مع المسلمين من المذهب الآخر من خلال العناوين العامة في التخاطب والجدال ومواجهة المشاكل في ساحة الخلاف ، في ما جاءت به الآيات الكريمة :

﴿وقل لعبادي يقولوا التي هي أحسن إنَّ الشيطان ينزغ بينهم إنَّ الشيطان كان للإنسان عدواً مبيناً﴾ (الإسراء: ٥٣) .

﴿ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن﴾ (النحل: ١٢٥) .

﴿ولا تستوي الحسنة ولا السيئة ادفع بالتي هي أحسن فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم﴾ (فصلت: ٣٤) .

وهكذا نجد الأسلوب القرآني يتعاضد ويضمم في إنسانيته وموضوعيته في الآية الكريمة في قوله تعالى : ﴿وإنا أو إياكم لعلى هدى أو في ضلال مبين﴾ (سبأ: ٢٤) . وقد بلغ هذا الأسلوب الذروة في الإيحاء بأن مسألة الخلاف الفكري بين خطأ الهدى وخطأ الضلال ، يفترض أن يبتعد عن الأحكام الحاسمة السابقة ، وعن الجوانب الذاتية ، ليتحول إلى حوار بين فكر وفكر ، من دون أن يكون للواقع الانتمائي إلى هذا أو ذاك دور في حركة الحوار .

مواجهة منطق السباب والعدوان:

فإذا اقتربنا إلى الأساليب العدوانية في الشتم والسب والانتهاكات غير المدروسة وغير الخاضعة للدقة والحساب ، فإننا نجد أن القرآن يتخذ موقفاً حاسماً رافضاً لكل

هذه الأساليب من خلال دراسة الواقع النفسي في عناصر الإثارة والانفعال ، بما يتعد بالمسألة عن التوازن ويدفع بها إلى المواقع العدوانية في عمليات ردّ الفعل السلبي ، الناتج عن إحساس الإنسان بصوابية موقفه دون مواقف غيره ، وهذا ما نراه حين يشتم المسلمون بعضهم بعضاً في رموزهم الكبيرة التي يحترمونها ويعظمونها ، بسبب الخلاف حول مسألة تقويم دورها بين السلب والإيجاب ، ما يجعل بعض المسلمين يصعدون بها القمة ، بينما يتحفظ الآخرون منهم حولها ليضعوها في موقع عادي ، أو لينزلوا بها إلى الأسفل ، فيكون السبب هو الأسلوب التعبيري عن الانطباعات الحادة حول هذا الرمز أو ذاك ، فيؤدي إلى مقابلة السبب بمثله ، والموقف العدواني بموقف عدواني مماثل .

إنّ القرآن يؤكد رفض هذا الأسلوب في مواجهة الكافرين ، في ما يختلف فيه الكفر عن الإسلام ، ما يوحى بأنّ القضية تتجه إلى خطورة أكبر ، عندما تتحرك التجربة في الواقع الإسلامي في خلافات المسلمين الاجتهادية في علم الكلام أو الفقه أو نحو ذلك ، وهذا هو ما جاء به قوله تعالى : ﴿وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدَوًّا بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذَلِكَ زَيْنًا لِّكُلِّ آمَةٍ عَمَلُهُمْ﴾ (الأنعام : ١٠٨) .

فإذا كانت القضية المطروحة قضية خلاف بين الشرك والتوحيد ، فلا ينبغي أن يكون السبب هو أسلوب التعبير عن الرفض ، أو وسيلة المواجهة في الصراع ، بل لا بدّ من أن تنطلق الأساليب في دائرة الحجة والبرهان ، من أجل تكوين القناعات على أساس ثابت ، لأنّ المسألة لن تؤدي إلى أية نتيجة حاسمة ، بل إنها تزيد الأمور تعقيداً ، ما قد يفسح المجال للمزيد من الخصومات والحروب الساخنة .

وقد عالج الإمام عليّ بن أبي طالب (ع) هذه المسألة في الدائرة الإسلامية ، بالطريقة التي تجعل للخصوصية الإسلامية - في خلافات المسلمين - معنى روحياً عميقاً عالياً لا يغيب عن وعي المسلم مهما كانت درجة الخلاف ، حتى في حالة الحرب . ففي حرب صفين ، وحين سمع الإمام قوماً من أهل العراق يسبون أهل الشام قال : «إني أكره لكم أن تكونوا سبّائين ، ولكنكم لو وصفتم أعمالهم ، وذكرتم حالهم ، كان أصوب في القول ، وأبلغ في العذر ، وقتلتم مكان سبّكم إياهم : اللهم أحقن دماءنا ودماءهم ، وأصلح ذات بيننا وبينهم ، واهدهم من ضلالتهم ، حتى يعرف الحق من جهله ، ويرعوي عن الغي والعدوان من لهج به» (١) .

وهذه هي الطريقة الإسلامية التي ترى في خلافات المسلمين ، مهما كانت قسوتها ، حالة طارئة لا تلغي الإحساس العميق بالوحدة الإسلامية الشعورية المنفتحة على الواقع دون أن تتجاوز خطوط الضلال التي قد تنفذ إلى الفكر الإسلامي ، أو إلى واقع المسلمين ، فالانفتاح يجب أن ينصبّ على مستقبل الحل الذي يعيد للمسلمين وحدتهم على أساس الحق ، وعلى دراسة مواقع الخلاف بموضوعية ، ليرتكز الموقف باتجاه الصواب ، ويؤسّس اللقاء على قاعدة العذر .

الحوار المباشر والانتهاكات غير المسؤولة

وقد نلتقي بالواقع الذي تتحرك فيه الانتهاكات غير الدقيقة ، القائمة على الظنّ ،

(١) نهج البلاغة والمعجم المفهرس لألفاظه ، الخطبة : ٢٠٦ ، ص : ٢٣٦ .

أو على النظرات السطحية التي لا تنطلق من العمق في معرفة رأي الإنسان الآخر بطريقة علمية ، كما نلاحظه في الاتهامات التي يوجهها المسلمون إلى بعضهم البعض في الكفر والغلو والضلال ، من خلال كلمة لا تمثل أساساً للتقويم ، أو كتاب لم يحسنوا قراءته ، أو حديث لم يحسنوا الاستماع إليه ولم يدققوا في طبيعته ، أو موقف لم يدرسوا خلفياته وظروفه ، وما إلى ذلك ، ما قد يكون للمسألة فيه وجه غير الوجه الذي يسبق إلى الذهن بادئ ذي بدء .

وهذا هو ما أشارت إليه الآية الكريمة في قوله تعالى : ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولاً﴾ (الإسراء: ٣٦) ، وقوله تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ﴾ (الحجرات: ١٢) ، وقوله تعالى : ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يَغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئاً﴾ (النجم: ٢٨) .

وهذه هي المسألة المهمة التي قد تترك تأثيرها السلبي على الواقع الإسلامي المذهبي القائم على التخاطب من بعيد ، والتراشق بالتهم غير المسؤولة وغير الدقيقة ، لأنَّ هذا الكتاب الشيعي قد لا يمثل رأي الشيعة كلَّهم ، أو قد يفسرون كلامه بطريقة أخرى ، أو لأنَّ هذا الكتاب السني قد لا يمثل رأي السنة كلَّهم ، أو قد يفسرونه بشكل آخر ، أو لأنَّ هذا الحديث الذي يرويه هذا أو ذاك ليس موثقاً في سنده ، ما قد يجعل الاعتماد عليه اعتماداً على غير حجة أو برهان .

وهذا هو ما نلاحظه في كتاب الكافي للكليني الذي يرجع إليه علماء الشيعة في الأحاديث المروية عن أئمة أهل البيت (ع) ، ولكنَّهم لا يضمنون صحته كما

يضمن علماء أهل السنة صحيح البخاري أو صحيح مسلم ، بل يعملون على دراسة كلّ حديث بمفرده من خلال شروط صحة الأحاديث عندهم ، وهذا ما لاحظناه في شرح الكافي للمجلسي المسمى بـ (مرآة العقول) الذي دقق في أحاديث الكافي ، فأشار في الكتاب -الشرح إلى ضعف هذا الحديث أو إرساله أو صحته ، كما أنّ علماء الشيعة قاموا بدراسة بعض الأحاديث التي توحى في ظاهرها بتحريف القرآن ، فلم يلتزموا بها ، لأنّ هناك إجماعاً بينهم على أنّ كتاب الله هذا الموجود بين أيدي المسلمين هو القرآن الذي نزل على الرسول محمد (ص) من دون زيادة ولا نقصان ، لأنّ الله تكفل بحفظه ، فهو الكتاب الذي ﴿لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه﴾ (فصلت : ٤٢) ، ولذلك قاموا بتأويل بعض الأحاديث بطريقة وبأخرى .

وإذا كان هناك بعض العلماء قد أوحوا بوجود التحريف كنتيجة لأخطاء اجتهادية ، فإنّ علماء الشيعة ردوا عليهم بقسوة وأبطلوا دعواهم بقوة ، قبل أن يردّ عليهم علماء السنة .

وإذا كان البعض يتحدث عن «التقية» عند الشيعة التي تدفعهم إلى أن يتكلموا بغير ما يعتقدون ، فإنّ هذا الكلام ليس دقيقاً في طبيعته ، لأنّ للتقية مواقع محدودة لا يختلف فيها الخطّ الشرعي بين علماء المسلمين ، ولأنّ كتب الشيعة كلّها أصبحت مطروحة بكلّ ما فيها من غث وسمين ، وبما يوافق خطّ التقية أو يخالفه ، بحيث يستطيع القارئ المتبع أن يعرف اختلاف الآراء في الأوساط العلمية الشيعية بشكل طبيعي جداً ، ليتعرف أنّ الرأي الشيعي الكلامي أو الفقهي

ليس واحداً ، بل هناك اجتهادات متنوعة مختلفة في التفاصيل هنا وهناك ، تماماً كما هي المسألة لدى أهل السنة .

ولذلك كنّا نقول دائماً إنّ الحل الوحيد لهذا الجور المشحون بالشك والاتهامات المتبادلة غير المسؤولة ، هو الحوار المباشر ، والتخاطب عن قرب ، وإثارة علامات الاستفهام في كلّ شيء ، وقيام الأحكام الموجهة إلى هذا الفريق أو ذاك على أساس الحجة والبرهان .

وحدة المنهج تؤدي إلى وحدة الموقف

إنّ القضية التي نريد إثارتها في هذا الحديث ، هي أنّ للإسلام منهجاً في الحوار وفي إدارة حركة الخلاف بين المسلمين في كلّ قضاياها ، وذلك بالتركيز على الحجة والقول بالتي هي أحسن والدفع بالتي هي أحسن في مسألة الحوار العلمي ، وإرجاع الأمر إلى الله ورسوله حين الاختلاف في الخط الإسلامي إزاء قضايا العقيدة والشريعة ، وذلك امتثالاً لقوله تعالى :

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ (النساء: ٥٩) .

إن هذه الآية تحدد المنهج الذي يجب أن يعتمد عليه المسلمون في التعاطي مع كل ما يختلفون فيه ، لينطلقوا إلى كلام الله في كتابه وكلام الرسول في سنته ، ليتحاوروا في القواعد المنهجية لفهم الكتاب والسنة ، وتوثيق حديث الرسول في سننه ،

لتكون المسألة ماذا قال الله ، وماذا قال الرسول ، وكيف يتحرك القول في مدلوله وفي إحياءاته ، لنصل - من خلال ذلك - إلى وحدة المنهج المؤدي إلى تفاهم حول الموقف .

وفي اعتقادي ، إنّ المحور المنهجي المركزي للشخصية الإسلامية يكمن في الإحساس العميق بالإسلام في الخطوط العامة للعقيدة والشريعة والحركة والمنهج والأهداف الكبرى للإنسان المسلم في الحياة ، والالتقاء حول هذا المحور يشكل المدخل لكل التفاصيل ، والأساس لكل المواقف ، وهذا ما يمكن أن يلتقي عليه المسلمون ليتخلصوا من حالة الاختناق المذهبي ، والحقد الفئوي ، والتعصب الأعمى ، ولينطلقوا في الهواء الطلق ، والنور المشرق ، الكاشف عن الصحو في عيونهم والفضاء الرحب في عقولهم ، وليعيشوا الأخوة الإسلامية بعقل هادئ وواقعية متوازنة وإيمان منفتح في رحاب الله وساحات الرسالة بالشكل الذي أراده الله ورسوله .

العوامل النفسية والسياسية وإشكالية الوحدة(*)

هل أن مشكلة المسلمين في كل تاريخهم ، في ما اختلفوا فيه من شؤون العقيدة وتفصيلها المعروفة في علم الكلام ، يعود إلى إصرارهم على أن يكون الفكر واحداً في كل مذهب فلا يتغير ، سواء في شؤون الموضوعات العقيدية أو في ما اختلفوا فيه من شؤون الفقه ؟ ! في هذا الإطار ، يصعب أن ترى فقيهاً شيعياً يلتزم في مرحلة من المراحل فقهاً سنياً ولو في بعض المسائل ، أو ترى فقيهاً سنياً يمثل هذه الطريقة . والسؤال : هل ما نثيره يمثل مشكلة فكرية فحسب ، أم أنها مشكلة نفسية أيضاً ؟

المشكلة النفسية لافكرية

لقد انطلق العلماء على صعيد الفكر الكلامي والفقهية عبر التاريخ في خطين غير متطابقين ، على المستوى السني من جهة ، والشيعي من جهة أخرى ، حتى

(*) الثقافة الإسلامية - العدد ٥٧ - ربيع أول - ربيع الثاني ١٤١٥ هـ ، أيلول - تشرين أول ١٩٩٤ م .
العنوان الأصلي : في خط التقريب والوحدة .

إذا اقترب أحدهم فاكتشف إمكانية صواب في فكر الآخر ، حاول أن يلف ويدور ليتكلف الكثير ، ما يجعله يقف عند مواقعه من دون أن يتحرك خطوة واحدة باتجاه الآخر .

لم يحصل في كل التاريخ ، وفي كل الكتب التي ألّفت ، تطوراً بالمعنى الجدي والكامل في مستوى الأبحاث التي بحثت ، وإنني أتساءل : هل يمكن أن تكون هناك مجموعات من الناس جامدة أمام نصوص يمكن أن يتنوع فيها الاجتهاد؟ وهل يمكن أن تتجمّد عند موقع واحد لا تتحرك منه خطوة واحدة؟ ماذا يعني ذلك؟ إنّ المشكلة ليست مشكلة فكر بين علماء المسلمين ، ولا أتكلم عن الشعوب الإسلامية ، إنّ المشكلة هي مشكلة نفسية ، باعتبار أنّ الشيعي لا يزحزح اعتقاداته مهما كلفه ذلك من تأويل ، وأنّ السني يقرر أن يبقى سنياً في جميع الحالات .

ليست لدينا - في ما نراه - مذهبية فكرية ، إنّما لدينا مذهبية طائفية . نحن نتحرك بروحية عشائرية في ما نتفق عليه في كلّ دائرة من الدوائر الإسلامية ، هناك عشيرة السنّة وعشيرة الشيعة ، المنطق العشائري هو الذي يفرض نفسه لا المذهب الفكري السنّي أو المذهب الفكري الشيعي ، في ما يعيشه الوجدان الشيعي أو السنّي .

ولما كانت المشكلة نفسية ، حصل الرفض المتبادل ؛ فالشيعي يفكر أن يكون شيعياً قبل أن يكون مسلماً في خط التشيع ، والسنّي يفكر أن يكون سنياً قبل أن يكون مسلماً في خط التسنن . لو كان الإسلام هو الفكر الذي نلتزمه معاً ، لأمكننا أن نضيء الإسلام على كلّ ما اختلفنا فيه ، لنجد نور الحقيقة في ذلك كلّ . ولأنّ

المشكلة كانت نفسية ، بقيت الظروف القاسية المتنوعة تزيد هذا التشنج والتوتر النفسي سوءاً ، لذلك انطلقت آلاف الكتب والأبحاث كعلم تستطيع أن تخشع أمامه لعمقه ودقته ، ولكنّ النفوس كانت في اتجاه آخر ، كان العقل يكتب الفكرة وكانت النفوس تنسفها .

حملات التكفير تمنع حرية الفكر

ولنا أن نتساءل حول هذه المسألة : هل أنها تتمحور حول قضية تفاهم فكري ، أم هي قضية حاجز نفسي يجعلنا نمتنع عن أن نفكر ولو للحظة ، في إمكانية أن نلتزم شيئاً من الفكر الآخر؟ حتى أننا إذا أردنا أن ندرس الواقع في أوضاع هذه المذاهب ، لرأينا أنّ هناك حالة قمع فكري في داخل كلّ مذهب . هل يتجرأ عالم سنّي في الدائرة العلمية أن يتبنى رأياً شيعياً في مسألة كلامية أو فقهية؟ وهل يتجرأ عالم شيعي قاده اجتهاده إلى ما يوافق الفكر السنّي في مسألة كلامية أو فقهية أن يتبنى بعض الفكر السنّي؟ إنّنا نلاحظ ، في مثل هذه الحالة هنا وهناك ، أن الأمر يحفل بحملات تشويه وتشهير وتضليل وتفسيق من كلا الطرفين ، والغريب أننا نلاحظ عدم وجود مانع من أن تكون هناك حملات تكفير بطريقة وبأخرى .

إنّنا كثيراً ما نتحدث في المسألة السياسية عن قمع الحريات السياسية ، فالشعب في هذا البلد أو ذاك ، لا يملك الحرية في أن يعبر عن رأيه السياسي نتيجة ضغط الحكام بشكل عام ، ولكن المفارقة في الوقت نفسه ، أنّنا لا نملك في مجتمعاتنا - حتى العلمية - مثل هذه الحرية على المستوى الفكري والفقهي ، باعتبار أنّه ممنوع على الشيعي أن يجتهد خارج نطاق هذا الخطّ ، وممنوع على السنّي

أن يجتهد خارج نطاق هذا الخط .

المنهج القرآني ونقاش المسلّمات

إنّنا نلاحظ أنّ هناك سجالات بكلّ صراحة في كلّ مفردات الخلاف بين السّنّة والشيعيّة ، في ما هو الفكر السني الذي ينتقده عالم شيعي ، أو الفكر الشيعي الذي ينتقده عالم سني ، ولكن قولوا لي : هل تُبحث قضايا كلّ مذهب في داخله ، لا سيما في المسألة الكلاميّة ، بالطريقة التي يبحث فيها ما يختلف فيه الفكر السني عن الفكر الشيعي ؟ ومن المعروف أنّ المسألة الكلاميّة في الإطار الشيعي والإطار السني تتحرك على أساس إبقاء المسلّمات التي قد لا تكون مسلّمات عندما ندرسها دراسة علميّة .

ولذلك ، فإنّني أتصور أنّ علينا العودة إلى المسألة الفكرية التي تتحرك بموضوعيّة ، بحيث يقف الإنسان المسلم وقفة حيادية أمام ما يلتزمه . ونحن نقرأ القرآن كثيراً ، ولكن لو أردنا أن ندرس المنهج في كلّ حوزاتنا وجامعاتنا ، لرأينا أنّنا بعيدون عن أن نهتدي بهدي القرآن في أسلوب البحث . هناك آية قد لا يكتشفها الكثيرون ، وهي توحّي إلى النبيّ (ص) كيف ينبغي أن يكون أسلوبه في حوار الكفار ، الآية تقول : ﴿وَإِنَّا أَوْ يَآكُم لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ (سبأ : ٢٤) ، وهي توضح أنّ الشك هو الذي يحكم حركة البحث في مسألة الفكر والحوار ، وهي توجه المحاور أن لا ينطلق إلى الفكرة على أساس أنّ الحقّ معه وأنّ الباطل مع الآخر ، حتى لو كان مقتنعاً بذلك ، بل أن ينطلق على أساس أنّه والآخر يقفان على أرض واحدة ، فالفكرة أمام الاثنين ، ولا أحد يملك إلا أن يرددها بين الضلال

والهدى ، وعند ذلك يجري البحث الموصل إلى الفكرة الجديدة بعيداً عن الشروط المسبقة التي تؤثر على الالتزام بالفكرة الجديدة .

ولهذا كنت أقول ، إنَّ الأسلوب القرآني في الحوار يتقدم على الأسلوب المعروف لدى كثير من علمائنا المتقدمين ، وهو أسلوب يأخذ به النَّاس : «رأبي صواب يحتمل الخطأ ورأيي غيري خطأ يحتمل الصواب» ، وفي رأبي أنَّ هذا الأسلوب يحمل قدرًا من الذاتية ، فرأبي صواب بنسبة ٧٠٪ ورأيي غيري خطأ بنسبة ٣٠٪ . ولكن القرآن لا يقول ذلك ، فهو لا يدخل المسألة الذاتية في المسألة العلمية ، وإنَّما يقول : ﴿وإِنَّا أَوْيَاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ .

هل كان النبيّ (ص) شاكاً وهو الذي جاء بالصدق وصدق به؟ لم تكن القضية كذلك ، ولكنَّ أسلوب البحث كان يتحرك في هذا الاتجاه . في القرآن الكريم أسلوب البحث ينطلق من البعد عن الجو الجمعي الذي يتحرك فيه النَّاس ليكفروا وليفسقوا وليؤيدوا ﴿قُلْ إِنَّمَا أَعْظَمُكُمْ بَوَاحِدَةً أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مِثْلَ شُحْرِ وَفَرَادَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ﴾ (سبأ: ٤٦) . ولقد تحرك الموقف وفق هذه الصورة ، وكان الجميع يهتفون «هو مجنون» ، ولم يردَّ عليهم النبيّ (ص) ، حسبما جاء في القرآن ، بأنني لست مجنوناً ، لأنَّ الصوت لا يُسمع في الضجيج ، ولكنَّه قال لهم تخلصوا من هذا الجو الانفعالي ، لأنَّكم لا تستطيعون في ظلِّه أن تملكوا أفكاركم ورأيكم ، ولكن تفرقوا مثني وفرادي وستعرفون النتيجة من خلال الفكر ؛ الفكر الهادئ والعقل الموضوعي .

لذلك أخشى أنَّنا تحوَّلنا إلى مقلدين في المسألة الكلامية ، إذا كنَّا نحرك الاجتهاد

في المسألة الفقهية ، وهذه نقطة أحبّ أن أثيرها على مستوى المنهج .

بين الفقه الإسلامي والخصوصيات المذهبية

وهناك نقطة ثانية في هذا الاتجاه ، وهي أنّي ألاحظ ، في كلّ ما يتم إثارته داخل حوزاتنا وجامعاتنا ، أنّ هناك تشديداً على التقسيمات الفقهية ؛ الفقه الشيعي ، الفقه السني ، الحنفي ، المالكي ، الشافعي ، إلى آخر ما هناك ؛ محاولين دوماً أن يؤكد الفواصل ، وأن نضع الحواجز بين فقه وفقه ، في الوقت الذي نعرف فيه أنّ كلّ الفقهاء من سنّة وشيعة ، إنّما تبّنوا هذا الرأي أو ذاك انطلاقاً من فهم معين لهذه الآية القرآنية أو تلك ، وبذلك يتم تحديد أنّ هذا الشيء واجب ، أو أنّ هذا الشيء مستحب وما إلى ذلك .

لم ينطلق أحدهم في أبحاثه وفهمه من صفة سنية بالمعنى الذاتي للصفة ، أو من صفة شيعية ، حتى أنّنا عندما نلاحظ بعض الأشياء التي مثّلت حداً فاصلاً في الغالب بين السنّة والشيعة كما في القياس ، نرى أنّ الكثيرين من السنّة الذين تبّنوا حجّية القياس إنّما تبّنوه على أساس ما قدموه من الآيات التي يرون أنّها تدل على حجّية القياس ، أو من الأحاديث الواردة في السنّة التي تدل على حجّية القياس ، وعندما نفى الآخرون من السنّة ، كالمذهب الظاهري والشيعة ، حجّية القياس ، نفوها من موقع أنّ هذه الآيات لا تدل عليه ، كما أنّ الأحاديث التي أكدت على دعوى صحته لا تثبت أمام النقد من خلال السند ، ولا تثبت أمام النقد من خلال الموقف .

إذاً ، المسألة كانت أن هؤلاء يتحدثون على أساس الكتاب والسنة ، وأن أولئك يتحدثون على الأساس نفسه ، ليست هناك خصوصية شيعية في هذا الرأي الرافض ، وليست هناك خصوصية سنية في هذا الرأي الموافق ، حتى أن الشيعة الذين نقلوا أحاديث أئمتهم عن «أن السنة إذا قيست محق الدين»^(١) ، لم ينقلوها على أساس أنها حالة تعبدية ، إنما أشاروا إلى الحديث الآخر الوارد عن أئمة أهل البيت (ع) «أن دين الله لا يصاب بالعقول»^(٢) ، وقالوا إن مشكلة القياس تجعلنا لا نفهم عمق المصالح والمفاسد التي تتحرك في خلفيات الأحكام ، وإذا لم نعرف المصلحة بشكل قطعي وإنما بشكل ظني ، فإننا نكون قد جانبنا الصواب ، لأنَّ الظن لا يغني من الحق شيئاً . وكانت القضية تتحرك في هذا الاتجاه .

لم ينطلق القياس في الرافض الفقهي الشيعي من حالة تعبدية ، وإنما انطلق من حالة أصولية عامة تتمحور حول حجية الظن أو عدم حجيته في ما لم نصل فيه إلى القطع ، وإلا فالسنة والشيعة يتفقون على حجية القياس في العلة المنصوصة القطعية ، أو في القطعيات التي يمكن أن نقطع فيها ، كما في بعض القضايا الفكرية الشرعية .

(١) الكليني ، محمد بن يعقوب ، الكافي ، ج : ١ ، ص : ٥٧ ، رواية : ١٥ ، دار الكتب الإسلامية - طهران .

(٢) المجلسي ، محمد باقر ، بحار الأنوار ، ج : ٢ ، باب : ٣٤ ، ص : ٣٠٣ ، رواية : ٤١ ، دار الكتب الإسلامية - طهران .

لماذا لا نطلق الفقه إسلامياً؟

وهكذا عندما نأتي إلى ما يختلف فيه الشيعة والسنة في فهم القرآن ، أو ما يختلفون به في عموم القرآن والأحاديث ، لا سيما في مسألة التوثيق وما إلى ذلك ، فإننا نلاحظ أنَّ هناك فقهاً إسلامياً قد يتبناه شخص ويرفضه شخص آخر ، تماماً كما هي المسألة في الدائرة السنية أو في الدائرة الشيعية ، لذلك أتساءل : لماذا لا نطلق على أساس أن طرح الفقه إسلامياً ، أي بعيداً عن كل خصوصية شيعية أو سنية ، فيتحدث العلماء كل بحسب دليله المنطلق من المصادر الأساسية لحجية التشريع ؟ ! ونحن نلاحظ أنَّ من علماء المسلمين الشيعة مَنْ تبنى هذا الأسلوب ، وهو العلامة الحلي في كتاب (المنتهى) وفي كتاب (التذكرة) ، فقد كان ينقل المسألة ويشير الأدلة الواردة عن طريق أهل السنة على نسق ما يثير الأدلة عن طريق أهل الشيعة ، ويتحدث عن الخلاف بأشكال متداخلة ، فلا المسألة الشيعية تفصل عن المسألة السنية ولا العكس .

لذا ، الحديث عن الفقه المقارن ، أو الفقه على المذاهب الأربعة ، أو الفقه على المذاهب الخمسة ، يمثل تأكيداً للفواصل ، وفي رأيي أنَّه لا بُدَّ من الانطلاق على أساس أن يكون فقهما المستقبلي فقهاً إسلامياً يعرض الأقوال بدون تعقيد . وعلى هذا الأساس ، فإنني أقترح على أخوتنا في مجمع التقريب الذين فكروا بإنشاء جامعة المذاهب الأربعة أو المذاهب الخمسة ، أن يسموها (الجامعة الإسلامية) ، لأنَّ ذلك يؤكد فكرة أنَّنا مسلمون عندما نختلف ، كما أنَّنا مسلمون عندما نتفق ، ويؤكد أنَّ خلافنا من داخل الإسلام وليس من خارجه ، وإذا استطعنا أن نعيش

حقيقة أنَّ خلافتنا من داخل الإسلام وليس من خارجه ، فسيؤدي ذلك إلى أن يمتنع بعضنا من أن يكفّر الآخر ، لأنَّ لعبة التكفير هذه التي فرضت نفسها على الواقع ، يعود سببها إلى أنَّنا تجاوزنا المفهوم القرآني للكفر والإيمان ، وأصبحنا نتحدث عن الكفر والإيمان على أساس آخر . لقد وسّعنا دائرة مفهوم الكفر ليشمل إنساناً خالف حديثاً قبله آخر ، أو اجتهد في مفهوم قرآني لم يتقبله آخر ، علماً أنَّ معايير الخلاف استندت إلى أساس القرآن والسنة .

الاستعمار وانقسام المسلمين

وهناك نقطة أخيرة أحبّ أن أثيرها وتتسبب إلى الواقع الذي نعيشه الآن ، ففي تصوري أنَّ مسألة التمزق بين المسلمين لا تعود للأسباب الفكرية ، لأنَّ المسلمين استطاعوا أن يتعرفوا إلى كلِّ ما عند بعضهم البعض ، سواء ما تعلّق بخرافات موجودة في كتب السنة والشيعة لا يلتزمها السنة والشيعة ، أو ما يتعلّق بقضايا علمية ، بعد أن جرى جدل طويل طول الزمن في المسائل الفكرية .

إنَّ المشكلة التي أصبحت تفرض نفسها على الواقع الإسلامي هي مشكلة سياسية ، ولا أريد أن أقول إنَّها مشكلة سياسية من خلال الأوضاع الداخلية للمسلمين ، ولكنني أتصور - ولا أتحدث عن ذلك استنتاجاً ، ولكنني أتحدث عنه على أساس متابعة ومعلومات - أنَّ هناك تعاوناً أساسياً سياسياً بين الاستكبار العالمي المتمثل بأمريكا وأوروبا وروسيا الآن ودول أخرى ، وبين دوائر التبشير ، لضرب أي توجه إسلامي وحدوي . لا نريد بهذا الحديث أن نثير مسألة الإسلام والمسيحية ، ولكننا نريد أن نثير مسألة الدوائر الموجودة في العالم التي تقف في

مواجهة الإسلام كله . وقد عرفنا ذلك في ما عشناه من مسألة البوسنة والهرسك ،
ونعرف ذلك في أكثر من موقع يُفرض على المسلمين فيه - كما في أندونيسيا
وغيرها - أن يغيروا أسماءهم أو دينهم وما إلى ذلك . لا أريد أن أدخل في هذا
الجدل ، ولكن الاستكبار العالمي يعمل على أن يمزق وحدة المسلمين .

إنَّ الاستكبار العالمي قد وظف عندنا ملوكاً ورؤساء وأمراء وجمعيات من أجل
أن يمنع التقارب بين المسلمين ، ومن أجل أن يمنع الوحدة الإسلامية ، لأنه لا يريد
للإسلام أن يعود - من جديد - قوة فكرية روحية تشريعية حركية تصنع للحياة
قوتها في خط الله ورسوله ، وتخطط لها طريقها في منهج الشريعة ، وتحرك لها
خطواتها في ساحات الصراع ، من أجل أن تكون كلمة الله هي العليا وكلمة
الشیطان هي السفلى ، ولينطلق الوعد الإلهي للمستضعفين المؤمنين بورثة الأرض
وإمامتها في خط الإيمان والحق والعدل .

إننا نريد للمؤتمرات الإسلامية الوجدانية أن تتحرك في الساحة من أجل التغيير
العملي من خلال الخطوط المتحركة في الواقع بالوسائل الواقعية ، وأن لا تكون -
كأمثالها - مجرد اجتماعات للمزيد من الخطابات الحماسية أو الأبحاث التجريدية
والقرارات المتلونة التي لا تعني شيئاً لواضعيها وسامعيها ، وذلك حتى لا تضع
الجهود الكبيرة التي تبذل في هذا السبيل . ﴿وقل اعملوا فسيرى الله عملكم
ورسوله والمؤمنون﴾ (التوبة: ١٠٥) .

ميادين الاختلاف بين المسلمين وإشكالية الوحدة

إن المشكلة بين المسلمين في ما يتصل بالوحدة الإسلامية ، هي أنهم يتخاطبون عن بعد من خلال التاريخ الذي يكتبه هذا الفريق عن الآخر وبالعكس ، ومن خلال طبيعة الأوضاع المتشابكة التي يمكن أن تفرز حالة سلبية هنا من هذا الجانب ، وحالة سلبية هناك من ذاك الجانب ، وبفعل أعمال غير مسؤولة أو بفعل أوضاع معقدة على المستوى السياسي والاجتماعي ، وربما كان هذا البعد هو المسؤول عن كثير من الحالات النفسية المتشنجة أو المعقدة التي يعيشها كل فريق إسلامي في مواجهة الفريق الآخر .

إيجابية اللقاءات

ولهذا ، فإن مسألة اللقاءات تتخذ معنى كبيراً في إيجاد ساحة للتعارف بين الأفكار التي يحملها المسلمون في خصوصياتهم المذهبية ، وللتفاهم في حلولها ، والتحضير لأجواء حوارية يمكن أن تنتج لقاءً على أكثر من قضية ، وتفاهماً على

أكثر من مسألة من مسائل الخلاف ، لأننا نشعر أن قيمة الأجواء التي تهيئها اللقاءات هي أنها تنزع الكثير من المشاعر المعقدة ومن الأوهام الخيالية التي تأتي من خلال بعض الأوضاع السياسية أو بعض الأوضاع الطائفية . ونحن في كثير من الحالات بحاجة إلى أن نطلق الحالة النفسية في عملية توازن داخلي بعيد عن الانفعالات المتشنجة ، وذلك بهدف تهيئة الأرضية لحركة الوحدة في ساحة الواقع .

إننا لا نعتقد أن اللقاءات هي التي يمكن أن تحرك العصا السحرية للوحدة ، ولكننا نعتقد أنها الساحة التي يمكن أن تحقق الكثير من الإيجابيات على مستوى التعارف والتآلف والتحضير لخطوات وحدوية في المستقبل . ونحن عندما نؤكد ذلك ، فإننا ننظر إلى الكثير من الخطط السياسية التي تركزها وتنفذها أنظمة عربية وغير عربية بمباركة الأجهزة المخبرية الأمريكية على أنها خطط تعمل لإيجاد فصل واقعي عملي بين المسلمين ، وترسيخ حالة نفسية معقدة يختزن فيها المسلمون هنا الأفكار التي تضع المسلمين هناك في دائرة الكفر أو الشرك ، وبالعكس ، وذلك بهدف عزل المسلمين عن بعضهم البعض من موقع الإسلام لا بعيداً عن مواقعهم . وهذا من أخطر الوسائل التي يراد من خلالها تمزيق المجتمع الإسلامي ، وإبعاد المسلمين عن أن يلتقوا من أجل خدمة قضاياهم المشتركة ، سواء الثقافية أو السياسية أو الاقتصادية ، فعندما تتحول المذاهب في الوعي المتخلف الذي تحركه هذه الأنظمة وتخطط له تلك الأجهزة ، إلى أديان مختلفة ومتعددة ، ويدّعي كل دين أنه هو الإسلام وأن الآخر ليس إسلاماً ، فمن الطبيعي أن يمتنع المسلمون عن اللقاء على أساس الوحدة السياسية ، سواء على مستوى الحركات الإسلامية أو

المحاور الإسلامية أو على مستوى الدولة الإسلامية .

الوحدة خيار المسلمين

ونحن نعتقد أن مسألة الوحدة هي من أكثر المسائل تعقيداً وتشابكاً في حياة المسلمين الذين تركزت في داخلهم الشخصية الإقليمية أو القومية والشخصيات الطارئة ، التي تربط هؤلاء المسلمين بمنطقة ، وتربط أولئك بمنطقة أخرى ، أو تجعل هذا يتمحور في دائرة سياسية معينة وذلك في دائرة سياسية أخرى ، ما يجعل كل التخطيط السياسي في المناطق التي يعمل فيها المسلمون يتحرك في سبيل أن لا يكتشف هؤلاء سر الإسلام في وحدتهم في نطاق الواقع وفي نطاق الثقافة وفي نطاق حركة السياسة في قضاياهم المعقدة . ولهذا ، فإن التأكيد على مناسبة ذكرى ميلاد رسول الله (ص) ، يجعلنا نستحضر القاعدة التي يمكن أن تركز عليها الوحدة الإسلامية . فالمسلمون جميعاً يؤمنون بمحمد رسول الله الذي يحمل كتاب الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه إلى العالم ، ليكون هو الدستور لكل مسلم ، وليكون رسول الله هو القائد الغائب الحاضر لكل خطوات المسلمين من خلال سنته ومن خلال أساليبه ومناهجه في الحياة .

ونحن نشعر بأن مسألة الوحدة الإسلامية هي خيار المسلمين ، الذي ينبغي لكل الفعاليات في العالم الإسلامي أن تتوافر على دراسته بعمق ، لتضع الركائز الثابتة التي يمكن لها أن تصنع منها قاعدة فكرية وسياسية للوحدة ، وأن لا تكون مسألة الوحدة مسألة خطاب للانفعال أو للحماس أو للمجاملة وللاستهلاك الشعبي .

خلافات فكرية لا طائفية

لعل من أكثر الأشياء تعقيداً في حياة المسلمين في ما يختلفون فيه من مذاهب في فهم دينهم ، هو أن المسائل التي يختلفون فيها تتصل بقواعد علم الكلام ، وهي المسائل الكلامية المتعلقة بتفاصيل العقيدة ؛ من صفات الله ، أو صفات النبي ، أو بمسألة الخلافة ، أو بالمسائل الفقهية التي تنطلق من اختلاف النظرة إلى هذا الحديث أو ذاك في سنده أو في دلالة ، أو النظرة إلى هذا المصدر للاجتهاد والاستنباط أو لذلك المصدر في شرعيته ، وما إلى ذلك من أمور تعتبر منطلقة من خلافات علمية في ما يستنتجه المسلمون من الكتاب والسنة ويفهمونه منهما ، أو في ما يركزون عليه من أحكام العقل في المسائل التي للعقل سبيل إلى بحثها وإلى تحليلها .

ولكن المشكلة هي أن هذه الخلافات الفكرية الكلامية أو الفقهية تحولت إلى حالة طائفية ، بحيث اتخذ كل فريق من المسلمين - ممن يتبنى هذا الخط أو ذاك - دائرة مغلقة يحاول أن يجعل من خلالها لنفسه وجوداً مميزاً يحصر الإسلام في دائرته ويغلقها عن الدائرة الثانية ، حتى وصل الحال بالمسلمين في بعض عصورهم إلى أن يكفّر بعضهم بعضاً . ولعل هناك بعض المظاهر لمثل هذا في بعض المناطق أو لدى بعض المواقع الرسمية أو غير الرسمية .

إننا نعتقد بأن المسألة التي يجب أن نعمل لها جميعاً ، هي أن ننزع صفة القداسة عن كل ما تعارفنا عليه من أفكار ومفاهيم ومواقف ، بمعنى أن نخرجها إلى الهواء الطلق ، لنجعلها من الأمور التي تقبل البحث والمناقشة والتراجع عنها لمن يلتزم بها ، أو الالتزام بها لمن يتراجع عنها ، وبذلك يكتشف المسلمون أنه إذا كانت هناك

مناطق فاصلة في بعض القضايا ، كمسألة الخلافة ، يتميز فيها المسلمون كل في موقعه ، فليست هناك مناطق فاصلة في المسائل الفقهية . فإذا كنا نلاحظ أن هناك أكثر من مذهب ، فإننا نرى أنه ما من مذهب إلا ويتقاطع مع المذهب الآخر في أكثر من فكر فقهي وأكثر من حكم فقهي .

فقد نرى أن بعض المذاهب السنية تلتقي مع بعض الاجتهادات الشيعية أكثر مما تلتقي مع بعض الاجتهادات السنية الأخرى ، وقد نرى بعض الاجتهادات الشيعية تلتقي مع بعض الاجتهادات السنية أكثر مما تلتقي مع بعض الاجتهادات الشيعية الأخرى ، ما يدل على أن مسألة البحث العلمي المرتكز على القواعد العلمية الدقيقة ، يمكن أن تحمل إلينا الأرض الموحدة التي تتحرك فيها خلافات المسلمين ، لتكون خلافات على مستوى المذاهب الفكرية والفقهية في فهم الإسلام ، لا على مستوى الطوائف في حركة الواقع الإسلامي في الساحة .

إن علينا أن نبتعد عن أسلوب الطائفة في ما نفترق فيه من أفكار ، ونرجع إلى ما كنا عليه من أسلوب المذهب في ما يعنيه من خطوط فكرية وفقهية في فهم الإسلام .

أي إسلام نريد؟

إننا نلاحظ أن المسلمين في العصور الأولى ، وحتى في العصر الذي أعقب وفاة رسول الله (ص) ، وقبل أن تتحول الخلافة إلى ملك ، كانوا يتحركون ويعيشون ويختلفون ولا يشعرون بوجود فواصل عميقة تجعل من كل فريق مجتمعاً مغلقاً

يختلف عن الفريق الآخر ، بل إننا نلاحظ أن هناك ساحة إسلامية مفتوحة لكل المسلمين على كل الخلافات التي تحصل بينهم من دون أن يروا في هذه الخلافات أساساً لتكفير بعضهم بعضاً أو لانعزال بعضهم عن بعض . إننا نقول : إن علينا أن نعود إلى الأصول لنشعر بأننا نتقدم خطوات كبيرة إلى الأمام . ويمكن أن نستفيد من طبيعة التطور في وسائل البحث وفي روحيته وفي ما يحمله العصر الحديث من الأجواء العلمية التي يمكن أن تساعدنا على أن نحرك كل مشاكلنا الفكرية والفقهية في الهواء الطلق ، لنستطيع محاكمتها من موقع العلم والإيمان ، ولنخلص من خلال ذلك إلى أن هناك واقعاً إسلامياً موحداً يحمل التنوع في فكره والتنوع في نظرتة إلى الإسلام ، ولكنه لا يمسّ جوهر الإسلام في الأصل ، ما يعني أن هناك قاعدة يلتقي عليها المسلمون وإن اختلفوا في بعض تفاصيلها . ولهذا نستطيع من خلال ذلك أن نواجه السؤال الذي يتردد دائماً عندما تطرح قضية الإسلام كنظام للحياة : أيّ إسلام تريدون؟ عند ذلك نقول : إننا نريد الإسلام الموحد في قواعده وفي كل خطوطه العامة ، والذي يتنوع من خلال طبيعة الحركة في الاجتهاد في تفاصيله التي لن تؤثر على القاعدة .

كيف ندعو إلى الوحدة؟

عندما تريد أن تدعو إلى الوحدة ، لا تدع إليها بالطريقة الساذجة التي تصدر كل الخلافات في تفاصيل المواقع السياسية المتحركة في الساحة ، إنما ادع إليها ، سواء في الدوائر الإسلامية الصغيرة أو الدائرة الإسلامية الكبيرة ، على أساس مواجهة التحديات التي تتحرك لتقضي على وجودك في الأساس ، أو على

القضايا المصيرية الحيوية في حاضرك ومستقبلك ، ليلتقي الجميع على الوقوف على أرض واحدة من خلال هذه التحديات التي قد تأتي من الداخل وقد تأتي من الخارج .

وفي هذا المجال ، فإن الوحدة تعني الأرض الواحدة التي يقف الجميع عليها ، والروحية التي ينطلق الجميع منها ، ليختلفوا أو ليتفقوا في التفاصيل على أرض موحدة أو من خلال الروحية الموحدة ، ولذلك لا نعتبر أن هناك ساحة جاهزة للوحدة الإسلامية في دائرة المسلمين الشيعة ، كما ليست هناك ساحة لهذه الوحدة في دائرة المسلمين السنة .

إننا عندما ندعو إلى الوحدة ، لا ندعو إليها ونحن نخزن حلالاً طائفية معينة ، حتى يقال إن عليكم أن تؤكدوها في الواقع من هذه الدائرة حتى تطلبوا من الدائرة الثانية أن تلتقي بها .

إننا نعتبر أن ساحتنا هي ساحة المسلمين جميعاً ، لأننا لا ننطلق من دائرة ضيقة ، وإنما ننطلق من الدائرة الإسلامية الواسعة . وعلى هذا ، عندما نحرك مسألة الوحدة ، نشعر بالمشاكل السياسية في هذه الدائرة وفي تلك الدائرة وفي الدائرة الواسعة ، لأننا نعرف أن أكثر من قضية من القضايا التي تثير الخلاف ، ليس لها عمق شيعي في ما هو الخط الشيعي الفكري في الإسلام ، أو عمق سني في ما هو الخط الفكري السني في الإسلام ، بل القضية تنطلق من خطوط قد تكون بعيدة عن الإسلام عندما تتحرك من خلال محاور سياسية لها عمق فكري غير إسلامي أو مصلحة غير إسلامية ، أو يكون لها دوائر عالمية غير إسلامية .

وإذا كنا نرى أن المشكلة موجودة في كل الساحة الإسلامية ، فلا يجب أن نشعر بعقدة عندما تكون هناك خلافات في الدائرة التي نعيش فيها ، عندما نطرح مسألة الوحدة في الدائرة الأخرى ، لأننا لا نريد التحرك من ضمن الدوائر الضيقة ، وإنما نريد من موقع إيماننا بالوحدة الإسلامية ، أن نتحرك من دائرة الإسلام التي نخزن كثيراً من المشاكل ومن السلبيات والإيجابيات .

طروحاتنا الوحدوية منفتحة

إننا عندما ندعو إلى الوحدة الإسلامية ، لا نعتبرها وحدة عدوانية مغلقة ، بمعنى أنها تتعقد من وجود غير المسلمين في الساحة التي تتحرك فيها ، بل إننا ندعو إلى وحدة إسلامية تنفتح على الواقع من خلال الحالة الإسلامية التي يختزنها الإسلام في داخله ، والتي تنفتح على أهل الكتاب من مواقع الرسالات السماوية التي يختزن القرآن الإيمان بها ، ويختزن كثيراً من مفاهيمها ومن حركتها في التاريخ وفي الواقع .

فنحن ، كمسلمين ، عندما ننطلق من الإسلام ، نرى أنه يحدثنا عمّن هم أقرب الناس مودة للذين آمنوا ، ويحدثنا عن الذين لم يقاتلونا في الدين ولم يخرجونا من ديارنا ، ويحدثنا عن الذين تفيض قلوبهم بالحبّة وتنهمر عيونهم بالدموع عندما يعرفون بعض الحق الذي نخزنه ، وكذلك عندما نلتقي معهم في القضايا التي نعتبرها إسلامية كما يعتبرونها مرتبطة بالوجود الذي يمثلونه على أيّ مستوى من المستويات .

إننا ندعو إلى الوحدة الإسلامية التي يلتقي فيها المسلمون مع الآخرين من

مواقعهم الوجودية ، لأنها المواقع التي تتأكد فيها طروحاتهم الإسلامية المفتوحة ، وتتأكد فيها شخصيتهم الإسلامية غير المعقدة من الحالة الطوائفية ، وبذلك يكون لقاءهم مع المجتمع الآخر الموحد أو غير الموحد لقاءً مرتكزاً على قواعد وأصول وثوابت . وبذلك لن تكون عملية التعايش أو التعاون أو التفاعل عملية يمكن أن تسقط أمام أي عاصفة سياسية أو أي حال إقليمية أو دولية ، لأنها تنطلق في العمق من وعي الرسالات ، بدلاً من أن تنطلق في السطح من حركة الزوايا التي تتحرك هنا وهناك بطريقة لاتخدم المسلمين وغير المسلمين في حركة الواقع .

بين الحروب المتحركة وتعميق الثقافة المذهبية

هناك أصوات كثيرة تعلو وترتفع لرد أي صدمة لحركة الوحدة الإسلامية ، إلى ما عايشنا من الحروب المتحركة ، سواء كانت الحروب بين اللبنانيين في محاورهم السياسية ، أو بين اللبنانيين والفلسطينيين في محاورهم السياسية أيضاً ، أو على مستوى العالم الإسلامي في الحرب بين الجمهورية الإسلامية والنظام العراقي .

ضمن هذا الجو ، يتحدث الكثيرون عن الوحدة الإسلامية بما يشبه اليأس ، ويؤكدون بأن جهودهم ذهبت أدراج الرياح ، لأن المسألة ليست واقعية في هذا الجو من الحقد والبغضاء والتحارب ، فيما الكثيرون ممن يعملون في هذا الاتجاه يعملون بطريقة المجاملة .

لكن هل هذه الصورة حقيقية؟ إنها ليست كذلك ، وهي لاتلامس العمق في حركة الوحدة الإسلامية ، لأن مسألة الوحدة الإسلامية هي من المسائل التي تمثل الثورة على كل هذا التخلف في الوعي الإسلامي لدى المسلمين ، هذا التخلف

الذي جعل من المذاهب المتعددة التي تمثل وجهات نظر في فهم الإسلام ، أدياناً ، وجعل الاختلاف فيها أعمق من الاختلاف بين الأديان المختلفة . إن التخلف الذي انطلق من الجهل جعل المسلم يعيش التحجّر ، بحيث إنه لا يسمح لأي نبضة أن تتحرك في اتجاهٍ مخالف لما يفكر فيه .

نحن عندما ندعو إلى الوحدة الإسلامية ، فإننا نواجه كل التاريخ المتحجّر ، وكل التخلف الذي استطاع أن يعيش في أعماقنا وانطبعت به شخصياتنا ، ونكون كمن يريد أن يهدم الجبل بفأس صغير . فقد نحتاج إلى وقت طويل حتى نستطيع أن نزل هذا الجبل من الجهل والتخلف . ثم نحن عندما نتحرك في الوحدة الإسلامية ، نتحرك أمام المعادلات الدولية التي أفرزت قراراً دولياً جماعياً على مستوى الدول الكبرى والمحاور الإقليمية الوسطى وعلى مستوى الدويلات التي تعيش في العالم الإسلامي ، وقررت أنه يمنع على المسلمين أن يتحدوا ، ويمنع عليهم أن يفكروا في مشروع سياسي إسلامي ، ويمنع عليهم أن يكونوا قوة مستقلة أمام القوى الموجودة في العالم ، واعتبرت المسألة خطأ أحمر في ما يتعارف عليه الناس من الخطوط الحمراء .

إذاً ، نحن عندما نطلق حركة الوحدة الإسلامية ، نطلقها في وجه الكفر كله وفي وجه الاستكبار العالمي كله ، وفي وجه الخطط السياسية الموضوعة لكل قضايانا المصيرية ، ونطلقها أمام كل القوى العسكرية التي تريد أن تصدر فكرنا . المسألة ليست نزهة ، ولا خطابات ، ولا ندوات ، ولا اجتماعات مشايخ ، ولا بيانات ، ولا شعارات تكتب على الجدران ، القضية أنك تتحرك في ساحة كلها

ألغام ، وواقع يحمل لك كل التحدي ، واقع يريد أن يقهرك ويصفّيك ويلغي وجودك كله .

حروب سياسية بعناوين مذهبية

ولهذا ، فإن كل ما يحدث في العالم الإسلامي منتظر ، وربما تكون المسألة المطروحة هي أن تتخذ الخلافات السياسية مواقع مذهبية ، بحيث يكون فريق من مذهب معين في موقع سياسي معين ، ويكون فريق من مذهب آخر في موقع سياسي آخر ، لتغذي الحرب السياسية من المواقع المذهبية . ولهذا نجد في لبنان ، الذي كان ولا يزال يمثل الساحة الأفضل لحركة الوحدة الإسلامية ، أن هناك عملاً يراد منه تعميق الحقد المذهبي في نفوس المسلمين ، ولهذا فإن الحروب المتحركة في الساحة اللبنانية ، أريد لها أن تتحرك في اتجاهين :

الاتجاه الأول : ضرب هذه المواقع الإسلامية المشتركة والتجربة الإسلامية المشتركة ، وتثقيف العالم العربي والإسلامي بالثقافة المذهبية ، للتصدي لمن يفكر بمسألة الوحدة الإسلامية ، وجعله يسحبها من الساحة ومن فكره ، وعلينا إزاء ذلك ، أن لا ننهزم أمام هذا التحدي .

والاتجاه الثاني : أن هناك حرباً تدور بين جماعات من السنة تتخذ لنفسها إطاراً سياسياً أو إقليمياً ، وجماعات من الشيعة تتخذ لنفسها إطاراً سياسياً أو إقليمياً ، لكن هل هي حروب بين الشيعة والسنة في ما يمثل خط التشيع أو التسنن من فكر ومنهج وتطلعات ، أم هي حروب بين محاور سياسية يعرفها الجميع ويحاول أن

يتناساها؟ المذاهب الإسلامية لا تتقاتل ، المسلمون ، في ما تعنيه كلمة الإسلام ، لا يتقاتلون ، الذين يتقاتلون هم الذين يتحركون من خلال علاقاتهم بالمحاور الإقليمية والدولية ، وهم يتخذون من صفة الإسلام في هذا الجانب أو ذاك سلاحاً تحارب به تلك الأجهزة الإسلام والمسلمين .

لماذا لا نتقف شعبنا بهذه الطريقة؟ إننا ندرك قسوة الواقع ، نحن نعرف قسوة أن يكون الإنسان في بيته ويهجم عليه إنسان يريد أن ينهبه أو يقتله أو يعتدي على عرضه ، إنها من الأمور القاسية ، كما أننا نعرف قسوة أن تصادر حرية الناس وكراماتهم ، لكن لماذا لا نحاول أن نجعل الناس يفكرون في أن المسألة ليست مسألة سنة وشيعة ، المأساة تقع على الجميع وإن كانت بدرجات متفاوتة ، لأن المسألة مسألة المحاور التي تتصارع في الساحة .

لقد نجحنا في بناء جمهور - ولو كان قليلاً - يفكر بطريقة إسلامية ولا يفكر بطريقة مذهبية .

علينا أن نفهم أن الحالة الأمنية القلقة ليست من صنع خط مذهبي هنا وخط مذهبي هناك ، ولكنها من صنع الذين صنعوا الفتنة في حياة المسلمين . وكمثال على ذلك نقول ، إن الحرب بين الجمهورية الإسلامية والنظام العراقي - خلافاً لكل الإعلام الكافر والمضلل - ليست حرباً بين السنة والشيعة ، فالشيعة يقتلون هنا وهناك ، لأن الجيش العراقي أغلبه من الشيعة ؛ إنها حرب بين خط الإسلام المتمثل بالجمهورية الإسلامية ، وخط الكفر الذي يركز عليه النظام العراقي . إن إيران لا تطرح التشيع ، بل تطرح الإسلام ، والتشيع هو فهم اجتهادي للإسلام .

تأملات في طريق التقريب والوحدة

سأبدأ بالحديث عن موضوع التقريب والوحدة من خلال السؤالين التاليين :

□ هل هناك مشكلة في مسألة التقارب بين المذاهب الإسلامية؟

□ وهل هناك مشكلة فكرية في مسألة الوحدة الإسلامية في الوعي الإسلامي الثقافي؟

هذان هما السؤالان اللذان يطرحان القضية الفكرية عند كل لقاء فكري يدور البحث فيه حول الوحدة في حركة الفكر والمنهج .

في السؤال الأول ، نحرك المسألة تحت العنوان الذي يحكم محاذير الحديث في فكر الباحثين .

فقد يثير البعض ضرورة الابتعاد عن بحث الخلافات الفقهية والكلامية في الساحة المذهبية الانفعالية ، على أساس أن ذلك يمكن أن يخلق ألواناً من الإثارة السلبية العاطفية ، في الأجواء المتوترة ، بفعل الفواصل التي تؤكد الخلافات ، ما

يدفع إلى التباعد بدلاً من التقارب .

ويرى هذا البعض أن من الضروري البدء في طرح نقاط اللقاء في جانب العقيدة والشريعة ، ليكشف الباحثون بذلك عن القاعدة التي يلتقون عليها ، بما يؤكد المعاني الإيجابية للقاء في الفكر والشعور ، ليكون ذلك خطوة متقدمة على طريق تهيئة الأرضية النفسية التي تسمح للفكر بأن يحقق على أساسها نقلته النوعية في الموضوع .

وربما استطاعت هذه الإطلالة الفكرية أن تمهد السبيل إلى ملامسة الخلافات بطريقة لا تثير العقدة بقدر ما تحرك الفكرة بالشكل الذي يتيح مواجهة القضايا الفقهية أو الكلامية بالأساليب الفكرية التي تخاطب العقل وتدفعه إلى المناقشات الموضوعية ، بما يجعل التوصل إلى النتائج التقريبية فيما هو محل الخلاف ممكناً .

وقد يرى بعض آخر أن مسألة الخلافات الفقهية والكلامية فيما تختلف به المذاهب الفقهية أو الفلسفية ، ليس مسألة العامة التي تتحرك بمشاعرها لا بأفكارها ، بل هي مسألة الخاصة التي تنطلق من قاعدة ثقافية واسعة ، وحركة علمية جدلية ، فيما كانت تأخذ به في مواقعها العلمية الخاصة ، من أساليب فكرية في معالجة الآراء الفقهية أو الكلامية الخاصة للاستدلال .

وفي ضوء ذلك ، قد لا نجد هناك أية ضرورة للالتفاف على مسألة بحث الخلافات بهذه الطريقة ، بل يمكن أن نثير المسائل الفكرية الخلافية بشكل مباشر ، بالطريقة الاستدلالية التي تتوزع فيها وجهات النظر بين فريق وآخر ، ما يجعل الفكر يواجه الفكر ، بدلاً من أن تكون المسألة هي أن الانفعال يتحدى الانفعال ،

لأن العلماء لا يفعلون بل يفكرون .

.. وإذا استطعنا أن نحصل على قاعدة فكرية تتقارب فيها الآراء ، فإننا نستطيع أن نخطط لأوضاع شعبية تتقارب فيها المواقف ، باعتبار أن العلماء هم الذين يحركون المسألة الخلافية في المسألة المذهبية في القاعدة الشعبية .

المسألة الأخلاقية:

قد تطرح المسألة في إطار أحد الاتجاهين .. ولكننا نلاحظ على الرأي الأخير ، أن المشكلة تكمن في أن الكثيرين من العلماء لا يعيشون الذهنية العلمية في النظر إلى الخلافات الفقهية والكلامية بين المذاهب ، لأنهم يحملون عقدة التخلف في هذا المجال ، فيتحركون من موقع الحساسية المذهبية التي لا تطبق النظر إلى وجهة النظر الأخرى في المذهب الآخر بموضوعية ، بسبب تأثرهم بالرواسب التقليدية المتخلفة ، التي انعكست على طريقتهم في إثارة المسألة العلمية .

وقد نجد هناك بعض الاستثناءات في العلماء الذين يعملون للتقريب بين المذاهب الإسلامية بالأسلوب العلمي المجرد ، من خلال الذهنية الموضوعية المنتجة ، مثل جماعة التقريب التي كانت تصدر مجلة رسالة الإسلام في القاهرة ، وقد أدت خدمة كبيرة لهذا الهدف الكبير ، واستطاعت أن تجمع بين العلماء المختلفين في مذاهبهم الفقهية أو الكلامية ، وأن تفسح المجال لثقافة مقارنة بين المذاهب على مستوى البحث والتدريس .

ولكن هؤلاء واجهوا حملة شديدة من قبل بعض العلماء المتزمتين الذين

يعيشون في دائرة العصبية المذهبية ، فعملوا على محاصرتهم بمختلف الوسائل المتاحة ، فتراجعوا أمام الضغوط المختلفة ليعود التعصب إلى الساحة الإسلامية من جديد .

ونلاحظ في هذا الجو أن المشكلة تنحصر في أخلاقية الإنسان الباحث في مواجهته لمسائل الخلاف ، ما يفرض علينا العمل لمعالجة الجانب الأخلاقي في شخصيته ، فيعود إنسان الحوار بدلاً من أن يكون إنسان التعصب ، مستعيناً في حوارهِ بالكلمة التي هي أحسن ، وذلك كما في قوله تعالى : ﴿وقل لعبادي يقولوا التي هي أحسن﴾ (الإسراء : ٥٣) أو قوله تعالى : ﴿وجادلهم بالتّي هي أحسن﴾ (النحل : ١٢٥) ﴿ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتّي هي أحسن﴾ (العنكبوت : ٤٦) ، ﴿ادفع بالتّي هي أحسن﴾ (المؤمنون : ٩٦) . وغير ذلك من العناوين المنفتحة على العنصر الإنساني الإيجابي في حركة العلاقات التي تجعل الشخصية الإسلامية تخاطب الإنسان الآخر بالطريقة التي تثير مشاعر الخير في نفسه بدلاً من مشاعر الشرف فيها ، وذلك في سبيل إيجاد حالة من اللقاء في مواقع الافتراق ، فلا تنطلق من ذاتية العقدة ، بل تتحرك من طبيعة الرسالة ، ليكون الجدل في خدمة الدعوة التي تبحث عن أفضل السبل للوصول إلى قناعات الآخرين . وبذلك يفقد الإنسان إحساسه بالمشاعر الذاتية السلبية تجاه الإنسان الآخر ، فلا تملك أية حرية في تحريك ذلك في أسلوب المعالجة للمشاكل الفكرية أو الحياتية تجاه الآخرين .

وتصل الروحية الأخلاقية العلمية إلى الذروة في قوله تعالى : ﴿ولا تستوي

الحسنة ولا السيئة ادفع بالتي هي أحسن فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه وليّ حميم
* وما يُلقّاها إلا الذين صبروا وما يُلقّاها إلا ذو حظ عظيم ﴿٣٤-٣٥﴾ .

ففي هذا الجو ، يطرح الإسلام الهدف الكبير في أسلوب معالجة الخلافات ،
وهو أن يحوّل الإنسان أعداءه إلى أصدقاء ، بحيث يتحرك هذا الهدف في الكلمة
والجو والأسلوب والروحية التي تحكم الموقف كله ، والانضباط التام أمام الكلمات
المثيرة أو اللذعات القاسية من خلال أخلاقية الصبر كقيمة أخلاقية ، ومن خلال
الخط العظيم الذي نستوحي منه الوعي الإسلامي الذي يرصد الواقع الموضوعي
من حوله في عملية مقارنة بالخط الرسالي في الوقت نفسه .

وإذا كان البعض يفهم هذه الطريقة الإسلامية في دائرة الأخلاقيات الذاتية
لتكون حالة أخلاقية علمية ، بعيداً عما هي المسألة المنهجية في حركة العمل
الثقافي ، فإننا نفهم منها مسألة المنهج الذي يؤكد قاعدة الشخصية الإسلامية في
إنتاجها الفكري والعملي على كل واقع الخلافات ، كما يخطط من خلالها المنهج
الحواري في إدارة المسألة الخلافية . . ولا نستطيع اعتبارها أسلوباً في معالجة
المشكلة مع غير المسلمين ، بل نرى فيها حركة في عمق الشخصية ، ليكون ذلك
هو الطابع الذي تنطلق من خلاله بعفوية شمولية من خلال الخلقية العامة .

إننا نريد أن ننطلق من هذه الإشارة المنهجية إلى فكرة عامة ، وهي أن الإسلام لا
يفصل بين المسألة الأخلاقية وبين المسألة المنهجية في مسألة الحوار مع الآخرين ،
فيما هي الروحية وفيما هي الوسيلة وفيما هو الهدف . ولذلك ، فلا بد لنا من
استلهام القيمة الأخلاقية في تحديد الخط المنهجي في هذا الاتجاه .

الحوار بعيداً عن التعقيد:

وقد نلاحظ في هذا الخط ، أن الإسلام أكد ضرورة انطلاق الحوار من طبيعة الاطلاع على وجهة النظر الأخرى ، ليصل الحوار إلى نتيجة إيجابية متوازنة حاسمة ، لأن الجهل في هذا المجال يحوّل المسألة إلى حالة من التهاثر الذي يعمل الجاهل على إثارته بأساليب السباب والاثهامات والكلمات الغير المسؤولة ، وذلك قوله تعالى : ﴿ها أنتم هؤلاء حاججتم فيما لكم به علم فلم تحاجّون فيما ليس لكم به علم﴾ (آل عمران : ٦٦) ، الأمر الذي يوحي بأن الإسلام يرفض الدخول في الحوار مع الجاهلين ، إلا إذا كان الحوار يستهدف رفع الجهل بطريقته الخاصة .

وإذا أردنا الاقتراب من الخط التطبيقي للأسلوب العملي في منهج الحوار ، فسنجد أمامنا عدة نقاط .

١ - كيف تخاطب الآخر ، هل تفاجئه بوجهة نظرك في عقيدته أو في التزامه ، أو تتفادى ذلك؟

إن الأسلوب القرآني يفضل الابتعاد عن إعطاء الرأي حول وجهة النظر الأخرى ، لأن ذلك ليس هو الأسلوب الأحسن ، باعتبار ما قد يستتبعه من تعقيد لآخر منك ، أو إثارة جانب العصبية الذاتية أو المذهبية تجاهك ، ما قد يمنعه من الاستمرار معك في هذا الحوار ، أو يخلق لديه روحية مضادة تعقّد حركة الحوار ، وهذا ما نستوحيه من قوله تعالى : ﴿وإنا أوياكم لعلى هدى أو في ضلال مبين﴾ (سبأ : ٢٤) ، إننا نلاحظ في هذه الفقرة من الآية ، أن الطريقة القرآنية لم يستطع التطور في الذهنية الموضوعية أو الأسلوب العلمي أن يتجاوزها ، فإن

المعروف في الحوار العلمي أن يقول أحد المتحاورين للآخر : (رأيي صواب يحتمل الخطأ ورأيي غيري خطأ يحتمل الصواب . .) ، ويرى القائلون على هذا الأسلوب ، أن القيمة فيه هو أن يفتح ثغرة لاحتمالات الخطأ في رأي كل واحد من المتحاورين ليمنع الإيحاء بالقناعة اليقينية الذاتية التي قد تثير حالة شعورية مضادة تحول الموقف إلى ما يشبه الحائط المسدود .

أما الطريقة القرآنية ، فإنها تتقدم على هذا الأسلوب ، لأنها تؤكد الموقف المتوازن الذي يوحى فيه المحاور للطرف الآخر بأنه لا يحمل تجاهه أية فكرة مضادة حتى على مستوى الترجيح بالنسبة إلى الفكر الآخر ، بل يقف على مسافة واحدة بين الرأيين فيما هو احتمال الخطأ والصواب ، وهو ما يضيف أجواء نفسية إيجابية على روحية الحياد الفكري من جهة ، ويغري الطرف الآخر بإمكانية إقناع محاوره المسلم الذي يطرح القضية بهذا الأسلوب المتوازن من جهة أخرى .

وعلى ضوء ذلك ، يمكن أن نستفيد من هذا الجو الموضوعي في الحوار ، أن الإسلام يريد للقضايا المختلف فيها أن تطرح بعيداً عن أية حالة ذاتية ، بحيث يكون البحث في مسائل العقيدة أو الشريعة ، تماماً كما هو البحث في مسائل العلوم الأخرى التي لا تلامس في الإنسان أية حالة تتصل بالشعور ، أو تتحرك من موقع العقدة ، كما هو الحال في الدائرة العلمية الواسعة فيما نجده من المناهج الحديثة في الفكر المقارن ، التي تتحرك في مواجهة اختلاف وجهات النظر في مختلف العلوم ، بالمستوى الذي تستطيع فيه أن تصل إلى الوحدة في النتائج العلمية أو التقارب بين وجهات النظر المختلفة . فيمكن للعلماء المسلمين أن يأخذوا بها من

موقع البحث في علم التاريخ أو علم النفس أو علم الاجتماع أو غير ذلك ، لأن العلوم الإسلامية إذا اختلفت عن العلوم الأخرى في مضمونها ، فإنها لا تختلف عنها في الركائز الفكرية ، في مناهج الاستدلال فيما تنوع به الأدلة والبراهين ، فهناك مسألة النص والمصدر في الأحاديث المروية عن النبي محمد (ص) ، وهناك مسألة العقل فيما يمكن أن يكون الحديث فيه عقلياً في طبيعة حكم العقل أو في طبيعة اعتباره قرينة على التصرف في ظاهر النص القرآني أو النص الوارد في السنة ، أو عدم اعتباره ، وفي مسألة مصادر الاجتهاد ، في حجية الخبر أو القياس أو نحوهما في الأمور التي يختلف فيها العلماء ، ليؤدي ذلك إلى الخلاف في وجهة النظر الشرعية والكلامية ونحو ذلك مما يمكن أن يجد أساساً يلتقي عليه الجميع في إدارة الحوار .

إن الملحوظ في كثير من مواضيع الخلاف ، أن اختلاف الرأي الذي يرتأه العالم السني ، مثلاً ، أو يرتأه العالم الشيعي أو عالم هذا المذهب أو ذاك ، في الدائرة السنية أو في الدائرة الشيعية . . لم يكن ناشئاً من الصفة السنية أو الشيعية ، بل من الأساس العلمي الاجتهادي الذي ينطلق فيه هذا أو ذاك . فقد نجد هذا المجتهد الشيعي يلتقي في الرأي مع المذهب السني الخاص بما يختلف فيه مع مجتهد شيعي آخر ، والعكس صحيح أيضاً . . ولعل هذا المعنى يساعد على إيجاد روحية جديدة من الحياد الفكري أمام مواقع الخلاف .

٢- إننا نلاحظ أن القرآن الكريم يركز على نقاط اللقاء في بداية الحوار لإيجاد جو نفسي إيجابي ، يؤكد أن اللقاء في مثل هذه القضايا يمكن أن يصل بالجميع إلى

اللقاء في القضايا الأخرى المختلف فيها ، وذلك في قوله تعالى : ﴿ قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون ﴾ (آل عمران : ٦٤) .

فنحن نلاحظ أن الآية قد ركزت على الوحدة في طبيعة المضمون المتفق عليه بين المسلمين وبين أهل الكتاب في الوقت الذي نجد فيه اختلافاً في التفاصيل حول المضمون نفسه .

ونلاحظ التطبيق العملي في قوله تعالى : ﴿ ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن إلا الذين ظلموا منهم وقولوا آمنا بالذي أنزل إلينا وأنزل إليكم وإلهنا وإلهكم واحد ونحن له مسلمون ﴾ (العنكبوت : ٤٦) . وقوله تعالى : ﴿ قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وما أوتي موسى وعيسى وما أوتي النبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون ﴾ (البقرة : ١٣٦) .

هيكليات الحوار:

ولعلنا نجد في هذا الأسلوب الشهادة الواضحة على ما في الإسلام من مرونة ووداعة ، فقد حاول الإسلام أن يلتقي بأهل الكتاب من خلال الإيحاء بالإيمان بمقدساتهم من موقع الإيمان بمقدساته ، بحيث لا تمثل القضية أية تنازلات بفعل المجاملة والبحث عن قاعدة للقاء ، بل انسجاماً مع واقع العقيدة والإيمان ، الأمر

الذي يملأ أطراف الحوار بالشعور بالقرابة الفكرية والروحية التي لا تبعدهم عن مواقعهم الأصيلة من حيث المبدأ .

وإذا كانت المسألة تتحرك ، في هذا الجو ، مع غير المسلمين ، الذين قد نجد الكثير من الفواصل الفكرية على مستوى العقيدة أو الشريعة معهم ، فإن من الضروري أن نعرف كيف نحرك هذا الأسلوب القرآني مع المسلمين فيما يختلفون فيه ، وذلك من خلال دراسة نقاط الوفاق فيما بينهم والمتوفرة على نسبة عالية جداً ، مع ملاحظة مهمة ، وهي أن المسلمين لا يختلفون في الجوانب الفقهية بطريقة مطلقة ، بل إن هناك حركة دائبة في المسائل الاجتهادية ، بحيث يمكن أن تنطلق مواقع الخلاف في هذه الدائرة لتصل إلى مواقع اللقاء فيما بينها وبين الدوائر الأخرى ، لأن تطور الحوار الاجتهادي لا بد أن يصل إلى نتيجة قياسية في المستقبل ، كما وصل إلى نتائج إيجابية كثيرة في الماضي .

إننا نستطيع أن نجد في ذلك كله هيكلية متكاملة فيما هو المنهج الإسلامي في البحث المقارن من حيث طبيعة الأسلوب في نطاقه الموضوعي ، ومن حيث طبيعة الكلمات المختارة في الحوار ، ومن حيث الروحية التي تغطي على الجو ، وفيما هو السلوك الأخلاقي في حركة الحوار بين إنسان وإنسان ، وبين فكر وفكر ، حيث تنطلق المنهجية العلمية من قاعدة الذهنية الأخلاقية الموضوعية في نظرة الإنسان إلى الإنسان الآخر .

إن المناهج العلمية في الدائرة العامة ، وفي الدائرة الإسلامية الخاصة ، لا تعوزنا ، ولكن المشكلة لدينا هي في ارتباطية العلماء الباحثين الذين لا يتوفرون

على سعة الأفق في مواجهة الخلافات ، فتضيق صدورهم بوجهات النظر الأخرى وتتشنج أفكارهم ضدها . . وفي التعصب الشعبي الذي يترك تأثيراً سلبياً على الجو المحيط بالوسط العلمي الذي يتأثر بالاتجاهات الشعبية لاعتبارات عدة ، فيما يتمثل في خضوع الخاصة للعامة ، من جهات مادية أو معنوية . وكذلك فإن المسألة تحتاج إلى علاج نفسي من جهة ، كما تحتاج إلى معالجة منهجية أخرى من جهة ثانية ، لأن العلاج الفكري وحده لا قيمة له إذا لم يكن إلى جانبه علاج واقعي ، يحرك الفكرة على صعيد الواقع الإنساني فيما هو الشعور ، وفيما هي العلاقات .

اللقاءات الفكرية المباشرة:

وربما كانت اللقاءات الفكرية للمشكلة ، من بين وجوه العلاج الواقعي ، حيث يلتقي الجميع وجهاً لوجه ، ليتحاوروا فيما بينهم ، بصراحة وواقعية ، وليكتشفوا أن هناك الكثير من الأوهام ، فيما اعتبروه من الحقائق في نظرة بعضهم إلى البعض الآخر ، وليدرسوا الأمور المختلف فيها بطريق هادئة متزنة . ولعل من بين المشاكل التي نعيشها ، هي أننا نتخاطب من بعيد من خلال خلفيات فكرية أو شعورية عدوانية ناشئة من انطباعات معينة بعيدة عن الواقع ، فيما يمكن أن يحمله الإنسان من انطباعات غير دقيقة بفعل البيئة المتخلفة ، أو بفعل القراءات غير الموزونة ، فيما يمكن للقاء المباشر أن يغير الكثير منها ، ويكشف الكثير من الأخطاء المتبادلة في ذلك .

وأحب أن أضيف إلى ما ذكرت ، اقتراحاً بتحديد المسائل المهمة فيما يأخذه بعض المسلمين، على البعض الآخر ، لا سيما في تفاصيل العقيدة التي تمثل عنصر

الأهمية في ما يختلف فيه المسلمون ، بالمستوى الذي يصل فيه الأمر إلى تكفير بعضهم البعض ، أو اتهام بعضهم بعضاً بالشرك ونحوه ، مما يعمق الفواصل بينهم ، لأن القضية لا تمثل الخلاف في الدائرة الإسلامية بين وجهة نظر إسلامية ووجهة نظر إسلامية أخرى ، فتتحول إلى خلاف بين فكر إسلامي وفكر كافر ، لنستطيع من خلال الدراسة الدقيقة للتفاصيل ، أن نتفق على المفهوم الإسلامي للكفر والشرك والإيمان والتوحيد ، لأن البعض قد يحمل مفهوماً معيناً في هذه المصطلحات يختلف عن المفهوم الذي يحمله البعض الآخر . ولذلك فإن المسألة الكلامية قد تحمل خطورة في ارتباك المفاهيم ، أشد مما تتمثل فيه الخطورة في المسألة الفقهية ، لأن الاختلاف في الفروع لا يثير البحث في الأساس العقيدي ، بل يثير الخلاف في الجانب العملي .

اللقاء في سبيل الوحدة:

إننا إذا استطعنا تحديد هذه المسائل ، فإننا قد نشعر بالحاجة إلى عقد اجتماعات دورية يناقش فيها العلماء قضاياهم بالحجة والبرهان بما لا يمكن الوصول إليه بحوار الكتب والمقالات التي تطلق الأحكام من بعيد بطريقة معقدة ، كما أن البعض منها يمثل رأياً شخصياً لا يغني المذهب ، أو كلاماً بائداً لا يوجد أية جهة ملتزمة به .

وقد نستطيع - في هذا المجال - أن نقترح على القائمين على الروابط والجمعيات الإسلامية العالمية ، مثل رابطة العالم الإسلامي ، أن تكون دائرة تلتقي فيها جميع المذاهب الإسلامية ، ولا تبقى ممثلة لفريق معين كما هو الحال الحاضرة . . . ليلتقي

فيها الجميع في مواقف الحوار ، ليطلعوا من خلال اللقاء المتكرر ، والحوار الدائم ، على أن لكل مذهب إسلامي ، في الكلام أو في الفقه ، وجهة نظر استدلالية تستند إلى الأدلة الشرعية في الاستنباط ، فيما يركز بعضها على النص أو الدليل العقلي الذي قد يثيره البعض طريقاً لمعرفة الحكم الشرعي ، مما يمكن أن يحقق التعارف الذي يبعد الوحشة النفسية عن التأثير على الفكر العلمي أو الموقف العقيدي ، ويفسح المجال للفريق الآخر أن يقدم دليلاً مضاداً ، أو يضع بعض الملاحظات على الدليل المطروح ، ليكون التفاهم العلمي حول تلك الأمور ، أساساً للوصول إلى التقارب في الطريق إلى الوحدة ، وليصل الجميع إلى نتيجة علمية إسلامية ، وهي أن المقياس في إسلامية أي رأي ، هو انطلاقه من قاعدة اجتهادية مقبولة في الفكر الإسلامي بشكل عام .

الوحدة السياسية للأمة:

ثم نطرح السؤال الآخر : هل المشكلة في الوحدة الإسلامية هي مشكلة فكرية لتتساءل كيف نفهم الوحدة ، هل هي العمل لكي يكون لدينا إسلام بلا مذاهب ، لتكون المسألة إلغاء تعددية المذاهب لحساب مذهب واحد ، أو الوصول إلى مذهب جديد ، أو هي العمل على اللقاء حول القضايا المشتركة في العقيدة التي تمثل الأساس فيما هي العقيدة في الإسلام ، أو فيما هي الأصول العامة الثابتة للشريعة بعيداً عن الخصوصيات ، فيما هي التفاصيل هنا أو هناك ، أو أنها تعني اللقاء على العام والخاص معاً في ذلك كله ، فلا مجال للوحدة إلا بالوصول إلى هذا الهدف؟؟

أو أن الوحدة تمثل الإطار الذي يضم المذاهب الإسلامية المتنوعة المنطلقة من الكتاب والسنة ، وهما المصدران الرئيسيان للفكر الإسلامي ، ليتحرك الجميع من خلال العنوان الإسلامي العام ، في اتجاه حماية الواقع الإسلامي على المستوى السياسي المتضمن للجانب الاقتصادي والعسكري بالإضافة إلى القاعدة الثقافية العامة ، ما يجعل من الحديث عن الوحدة حديثاً عما هي المسألة السياسية ، مما يؤكد حرية المسلمين وعزتهم وقوتهم في العالم كأمة أصيلة قوية أمام الشعوب الأخرى غير الإسلامية؟؟

إننا نتصور أن الحديث عن الوحدة الآن لا يستهدف الجانب الفكري لذاته فيما هي القضية الفكرية المجردة التي تحدّد فيها الوحدة في خصوصياتها وأبعادها وفي طبيعتها العامة ، بل هو لا يمثل حاجة ثقافية ، لأن المسألة قد أخذت حجماً كبيراً ومجالاً واسعاً في الأبحاث الكثيرة التي تعرضت للوحدة في نطاق الواقع المذهبي على مستوى اكتشاف المدخل الفكري إليها في قضايا العقيدة والشرعة ، بل إن الحديث عن هذا الجانب ، يستهدف الوصول إلى الوحدة فيما هي المسألة الإسلامية في البعد السياسي ، كما هو حديثٌ عن المشاكل الواقعية التي تقف ضد هذا الشعار ، ولهذا نجد الذين يتحدثون عن الوحدة الإسلامية ، يفيضون في الحديث عن عزّة الأمة وكرامتها وحريتها وأصالتها السياسية ، وعن النتائج السلبية على صعيد المصير ، في ما يثيره التفرق والتمزق على وجودها . وفي ضوء ذلك ، نتساءل عن المضمون الداخلي لحركة الوحدة الإسلامية ، هل نطرح الوحدة الإسلامية كما نطرح الوحدة العربية ، لتكون عنواناً سياسياً يختصر كل المضمون

الفكري والعملي في حركة الأمة ، بحيث يكون للإسلام دور فاعل في وعي المضمون الذي يتصل بالشخصية الإسلامية المميزة في تطلعاتها وأفكارها في مواجهة الشخصيات الأخرى ، فتكون الوحدة للإسلام في حياة المسلمين لا للمسلمين في وجودهم الذاتي؟؟

أو أننا نطرح الوحدة الإسلامية لتكون مجرد عنوان غائم يشير إلى الوحدات المتنوعة في المجموعات البشرية المسلمة ، بحيث لا يكون الإسلام شيئاً يتحرك في الواقع ، بل مجرد حالة وجدانية تتصل بالإحساس وبالتاريخ الذي يرتبط الإنسان به ، وترتبط بالملامح العبادية والأخلاقية العامة بطريقة ضبابية ، وتفتح على كل حال أخرى مخالفة للإسلام ، أو مضادة له من ناحية المضمون العقيدي أو الاقتصادي أو السياسي ، مما قد يكون ارتباط الإنسان به في واقعه الحركي الفاعل في مسألة الانتماء الواقعي أكثر من ارتباطه بالإسلام الذي قد لا يمثل لديه شيئاً في دائرة هذا التصور فيما هي الحركة والانتماء والعلاقة الشعورية الحميمة .

إننا نلاحظ أن الطرح الأول لا يتحرك في الدائرة العامة للواقع الإسلامي على المستوى الفكري والسياسي في الدوائر الرسمية والشعبية العامة ، بل حتى على مستوى الدوائر الدينية الإسلامية في المواقع التقليدية لكثيرين من علماء الإسلام في نشاطهم الحركي ، باعتبار أن طرح الإسلام كمنهج سياسي للحركة على مستوى الحكم والتقنين في مواجهة الظروف السياسية الأخرى ، ليس القضية المطروحة بشكل عام إلا في نطاق الحركات الإسلامية السياسية فيما هي العناوين الواقعية على مستوى التطلعات العامة في ساحة المواجهة . . حتى أن بعض

الأنظمة في البلاد الإسلامية تمنع المسلمين أن ينتظموا في حركات إسلامية سياسية ، في الوقت الذي لا تمنع فيه أن ينتظموا في حركة ماركسية أو غيرها ، لأنهم يعيشون في دائرة التفكير بأن الحركة الإسلامية تمثل شيئاً لا معنى له ، فيما هو الإسلام الذي قد لا يرون فيه شيئاً قريباً إلى السياسة ، لأنهم يرون الدين في جانب والسياسة في جانب آخر ، وهذا هو الذي جعل الإسلاميين الذي يفكرون بالإسلام بطريقة حركية ، يلجأون إلى بعض الحركات السياسية التي لا تحمل أي عنوان إسلامي ، فينتمون إليها شكلياً ليأخذوا الشرعية القانونية في نشاطاتهم السياسية .

كما أننا نرى أوضاعاً رسمية في بعض البلاد الإسلامية ترفض التحرك الإسلامي الذي يدعو إلى أن يكون التشريع في حركة القانون العام للدولة منطلقاً من الشريعة الإسلامية كمصدر وحيد ، أو أن يكون نظام الحكم إسلامياً ، وتتهمه بالتعصب والتطرف والرجعية والبعد عن واقع التطور العصري ، وما إلى ذلك من الكلمات التي تعمل على إيجاد حالة نفسية عدوانية معقدة ضده في الواقع الشعبي والسياسي العام ، حتى أصبحت الصفة الإسلامية الملتزمة التي أطلقت عليها بعض أجهزة المخابرات الدولية صفة الأصولية ، تهمة توحى بالكثير من معاني الخروج عن الاعتدال والسلامة العامة للناس .

أما الطرح الثاني الذي يقدم الإسلام بطريقة سطحية غائمة ، فهو الطرح المقبول في الساحة العامة ، هذا الطرح الذي يقدم العلاقات الفردية في توجهاتها العملية على العناوين السياسية الكبرى ، بحيث تتقدم المصلحة القومية أو الإقليمية أو

الحزبية على المصلحة الإسلامية ، فيكون الإسلام مجرد علاقة خاصة من بين العلاقات التي تشد الإنسان المسلم إلى الآخرين من دون أن يكون لها أي تأثير فاعل على الموقف الحاسم في مواجهة العلاقات الأخرى في حالة الخلاف .

وفي ضوء ذلك ، نجد أن الاختلاف في النهج السياسي في دائرة الاتجاهات السياسية القومية أو الماركسية أو الغربية أو غيرها ، يترك تأثيراته السلبية على الوحدة الإسلامية التي تضم المسلمين في محور واحد ، أو دولة واحدة ، لأن طبيعة الخصوصية السياسية الإقليمية أو القومية أو الدولية أو الحزبية ، قد تفرض نفسها في الواقع لتستغل المحور الوجداني ، كما هي المصلحة التي تتمحور في داخل الخصوصية ، لتهدم قاعدة الوحدة الإسلامية في حركتها الوجدانية عند جماهير المسلمين ، من دون أن تواجه أية حساسية مضادة ، كما لاحظناه في طريقة إنشاء «الحلف الإسلامي» في وقت سابق ، أو في طريقة توقيت إنشاء «المؤتمر الإسلامي» من خلال محور دولي معين ترتبط به دول إسلامية كثيرة . . وكما لاحظنا في بعض الصراعات السياسية والعسكرية بين فريقين من المسلمين ، حيث استخدمت المذهبية كعنصر ضاغط على ساحة الصراع ، بالمستوى الذي تحولت فيه الحرب إعلامياً وسياسياً ، كحرب بين مذهبين من مذاهب المسلمين ، في الوقت الذي نعرف فيه أن المذهبية من حيث هي عنوان فقهي أو كلامي ، لم تكن لها أية مدخلية في هذا المجال ، الأمر الذي يوحي بأن مثل هذه الوحدة لا تملك أي نوع من أنواع القوة والثبات على الاستمرار ، لأن الذين قد يؤكدونها في الشعارات الرسمية ويحصرونها في دائرة إسلامية معينة ، لا يفعلون ذلك لمصلحة الإسلام

والمسلمين بالمعنى الشامل ، بل لمصلحة المحور الإقليمي أو الدولي الذي يتحركون فيه ، ما يعني أنها تمثل لدى الكثيرين حالة دينية ساذجة داخل اللعبة السياسية ، وليست حالة إسلامية سياسية فاعلة في موقع الأصالة التي تراقب كل خطوط الإسلام الفكرية في حركة الواقع ، معها أو ضدها ، فتخطط للواقع الإسلامي في داخلها .

الأطر الضاربة لمشروع الوحدة

إننا نريد أن نثير هذه الأفكار أمام مسألة الوحدة الإسلامية ، لنشير إلى حقيقة موضوعية في هذا المجال ، وهي أن هذه المسألة التي لاتزال تثير الجدل والاهتمام كمشكلة كبيرة في الحياة الإسلامية المتحركة ، ليست قضية فكرية نتجت عن المنهج الذي يمكن أن يضعها في دائرة فكرية تتقارب فيها وجهات النظر أو تتوحد ، لأن الجوانب الفكرية قد أخذت طريقها نحو البحث والتحليل والاستنتاج ، بالمستوى الذي لم تبق فيه أية علامة استفهام لم تأخذ حقها الفكري من الجواب ، ما جعل الحديث عنها في هذه المؤتمرات أو نحوها ، يمثل نوعاً من الاجترار الكلامي في أغلب معالجاته .

بل هي قضية ذات مضمون سياسي إسلامي ضاغط على المضمون الفكري في حركة الواقع السياسي للمشكلة ، بحيث أصبحت المسألة هي كيف نواجه الضغوط السياسة في هذا الموقع أو ذاك .

فمسألة الوحدة في الفكر ليست بدعاً من الوحدات الأخرى في الدوائر التي تملك بعض الخصوصيات الفكرية فيما تتنوع به المفردات في داخل الوحدة ، ما

يمكن للمفكرين أن يتوفروا على دراسة النقاط التي تتمثل فيها الوحدة بالمقارنة مع النقاط التي يتمثل فيها التنوع ، للوصول إلى نتائج حاسمة في هذا الاتجاه ، وذلك بطريقة الدراسة الموضوعية المقارنة البعيدة عن المشاعر الذاتية للمفكرين .

أما الجانب السياسي فهو المشكلة ، لأن الإسلام إذا كان لا يعني شيئاً لهذا النظام أو ذاك ، أو لهذا المحور أو ذاك ، فكيف يمكن أن تكون وحدة أتباعه أو المرتبطين به هدفاً كبيراً له ، كما أن المصالح الشاملة للعالم الإسلامي إذا كانت تختلف عن المصلحة الإقليمية لهذا البلد أو ذاك ، فكيف يمكن أن يسمح القائمون عليه بأي عمل وحدوي فاعل ، أو كيف يتوفرون على تركيز قواعد النظرة الوحدوية للمصلحة الإسلامية العليا .

إننا نلاحظ أن هناك أحاديث سياسية تعمل على استغلال بعض الخلافات الفكرية التفصيلية فيما بين المسلمين في سبيل ضرب الوحدة الإسلامية باسم الوحدة ، من خلال توزيع اتهامات الكفر أو الشرك على هذه الجهة أو تلك بطريقة إعلامية انفعالية .

إن دراستنا للواقع السياسي للعالم الإسلامي ، قد تعطينا نتائج رهيبية لحقيقة سياسية ثابتة في الواقع السياسي الموضوعي ، وهي أن الوحدة التي تمنح القوة للشعوب المتعددة الخصائص التي قد تجمعها وحدة قومية أو دينية أو نحوها ، ممنوعة دولياً على مستوى واقع العالم الثالث ، بحيث تعمل الأجهزة الخفية الاستعمارية على استغلال كل عوامل التخلف والجهل والتأخر والتناقضات الذاتية الفتوية بين الحكام أو الأنظمة ، لتقف ضد عملية الوحدة ، لتبدو المسألة كما لو

كانت خلافات داخلية مذهبية أو إقليمية أو ذاتية على المستوى الشعبي ، أو كما لو كانت خلافات بين الحكم على المستوى الرسمي ، ما يوحى بأن الخاص يتغلب على العام ، وأن الاتجاه إلى الوحدة ، في واجهة الشعارات ، لا يحمل أي صفة واقعية ، بل يبقى مجرد فكر طوباوي ، يتحرك في أجواء المثال أو في أحلام الخيال .

إن المصالح الاستعمارية للدول المستكبرة ، المتداخلة مع خصوصيات الكثير من الأنظمة الرجعية الحاكمة للعالم الإسلامي ، تمثل الحاجز الكبير الذي يحجزنا عن التحرك الجدي الفاعل نحو الوحدة الإسلامية فيما تتحرك المشاكل في طبيعتها من الذهنية الاستعمارية ، ومن الواقع الصليبي المنفتح على كل مخططات التبشير في العالم الإسلامي ، حيث يلتقي التبشير والاستعمار في أكثر من خطة متقاربة الأهداف والوسائل . . ولذلك فإن علينا أن نحدد في الواقع السياسي في حركة التجزئة والتعصب كما نحدد في الواقع الفكري ، لئلا تبقى المسألة في نطاق البحث الفكري التجريدي .

وقد يكون من الضروري أن نوجه التفكير إلى واقع الجهل والتخلف الذي يؤكد التعصب ويبقى في الزوايا الضيقة للقضايا الإسلامية العامة ، كما نشير إلى الطبيعة المادية التي تسيطر على عقلية بعض العلماء المسلمين الذين يعملون على المحافظة على مناصبهم الرسمية أو امتيازاتهم المالية ، للسير مع بعض المخططات المثيرة للنزاع المذهبي المعقد في حياة المسلمين .

إن هذا الواقع قد يساهم مساهمة فعالة في صنع الفكر الوجداني الذي تخرج به المؤتمرات الوجدانية في مقرراتها لأجل تحقيق مخططاتها ومناهجها الوجدانية ،

كما من شأنها أن تمنع الإستعمار الكثير من وسائل التفتيت والتجزئة والتعقيد .

التقريب حركة ضد الاستعمار والصهيونية

وختاماً : إن مسألة التقريب بين المذاهب ، والعمل في حركة الوحدة الإسلامية ، لا بد أن ينطلقا في ساحة الحركة ضد الاستعمار والصهيونية ، لأنها هي الساحة الكبيرة التي يلتقي فيها المسلمون فيما يشبه الصدمة اليومية لكل قضاياهم الحيوية . . كما نلاحظ ذلك في القضية الفلسطينية التي هي القضية الأم لكل الواقع السياسي في العالم الإسلامي الذي تقف الصهيونية المتحالفة مع الاستعمار الأمريكي والغربي بشكل عام ، في مواجهته ، لتكون الخطر الذي يتحدى وجوده في جميع الجوانب .

إننا نعتقد أن بلورة الموقف الإسلامي السياسي من القضية الفلسطينية ، يمكن أن يكون المدخل إلى إيجاد روحية إسلامية وحدوية يلتقي فيها المسلمون على أرض الواقع فيما يشمل الخطر على قضية الوجود بالذات ، حتى نستطيع إنقاذ هذه القضية من اللعبة الاستعمارية التي تعمل على إيجاد وضع سياسي ضاغط بهدف تدجينها مقدمة لنحرها .

إن اللقاء العميق بين المقاومة الإسلامية في لبنان ، والانتفاضة الإسلامية في فلسطين ، قد استطاع أن يحرك الروح الوحدوية الإسلامية على أرض واقع الجهاد ، فيما يعني أن اللقاء في ساحة الجهاد ضد كل التحديات التي يواجهها العالم الإسلامي يمكن أن يحقق لنا الكثير ، لأننا نكتشف من خلاله مسألة الوحدة

في الساحة الكبيرة للتحدي الذي يواجه الجميع ، لأنها الساحة المعقدة التي عملت على أن تحاصر كل قضايا أهداف العالم الإسلامي في أصالته ووحدته وشموليته ، بالوسائل الإعلامية والسياسية والاقتصادية والأمنية . . الأمر الذي يجعلنا نعمل على محاصرته والضغط عليه كما يضغط علينا ، وأن ندرس نقاط ضعفه كما يدرس نقاط ضعفنا ، لنحارب مواقع ضعفه بمواقع قوتنا في خطة مدروسة على أكثر من صعيد ﴿وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة﴾ (التوبة : ٣٦) ﴿ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين﴾* إن يمسسكم قرح فقد مس القوم قرح مثله وتلك الأيام نداولها بين الناس ﴿آل عمران : ١٣٩ - ١٤٠﴾ ﴿ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين﴾ (المنافقون : ٨) .

هذه علامات استفهام في طريق التقريب والوحدة . . حاولنا أن نشير أمامها بعض الأفكار ، فلعلنا نستطيع أن نمنحها الجواب الحاسم على صعيد الفكر والواقع .

طريق التفكير في مشروع الوحدة(*)

أودّ أن أثير التفكير حول طريقتين في أسلوب مواجهتنا لقضايانا العامة المتصلة بحركة الأهداف الكبيرة في حياتنا ، سواء في ما نثيره من قضايا الوحدة على مستوى الطائفة أو الإقليم أو الأمة أو الحزب وما إلى ذلك ، أو ما نثيره من قضايا المصير الأخرى المرتبطة بمواجهة التحديات السياسية والعسكرية والاقتصادية ، المفروضة من جانب المحاور الداخلية أو الإقليمية أو الدولية . .

أولاً: الطريقة الحاملة

أولى هذه الطرق هي تلك التي تتعاطى مع المشروع أو الهدف الكبير بشكل عاطفي انفعالي ، غارق في ضباب الأحلام الوردية التي يحلّق معها الإنسان في عالم من السحر السابح في الخيال . .

(*) الثقافة الإسلامية - العدد ٣٩ - ربيع أول - ربيع الثاني ١٤١٢هـ - أيلول - تشرين الأول ١٩٩١ .
العنوان الأصلي : الوحدة الإسلامية بين الواقع والمثال .

وتتميز هذه الطريقة بالتفكير المطلق الذي يتعامل بالتبسيط الساذج مع كل المشاكل التي تعترض حركة الوصول نحو الهدف ، وذلك باعتبارها مشاكل بسيطة يمكن للزمن أن يحلها ، أو للأجواء الشعبية الحماسية أن تخفف الكثير منها . وهكذا يشعر السائرون في هذا الاتجاه بأن المشروع لا يواجه أية مشكلة ، بل سرعان ما يواجهون كل علامات الاستفهام التي يثيرها الآخرون حول جدية المشروع وواقعيته ، باعتبارها لوناً من ألوان التشاؤم أو الانهزامية ، أو الحالة العدوانية ضدهم . وربما يتحرك هؤلاء بطريقة انفعالية حماسية من خلال الظروف القلقة التي تساعد على هذا التحرك في نطاق المرحلة ، فيحققون نتائج كبيرة على مستوى المساحات الواسعة التي يقطعونها ، والنتائج الإيجابية التي يحصلون عليها ، والأهداف المرحلية التي يحققونها ، فيغريهم ذلك بالاندفاع بشكل أكبر ، باعتبار أن ذلك يمثل البرهان على نجاح الخطة وواقعية التجربة . .

وقد يعتبرون أن إثارات المثبتين لم تنتج من حالة واقعية شاملة ، بل كانت منطلقة من التربية التقليدية الهادئة التي عاشها هؤلاء ، فخيّل إليهم أنها الطريقة الوحيدة للتحرك . وإذا وقعوا في بعض المشاكل الصعبة أو واجهوا بعض الهزائم ، فإنهم يملكون لها تفسيراً واحداً ، وهو الظروف الطارئة والقوى الغاشمة التي لا يستطيعون مجاببتها الآن ، ولكنهم يستطيعون مجاببتها غداً أو بعد غد . أما كيف ذلك ؟ فإنهم يجيبون : هذا ما يمكن أن نفكر به في المستقبل ، لأن القضية هي أن تظل القافلة تسير ، وليس المهم أن نفكر كيف تسير .

وقد نجد من خصائص هذه الطريقة العمل على إثارة الجماهير بالخطب الحماسية والشعارات المثيرة والمهرجانات الصاخبة ، ما يجعلها تصفق لبلاغة هذا الخطيب ، وتهتف لحماسة ذاك القائد . . . وهكذا تبقى القضية لديهم هدفًا يبحث عن طريق ، ودورًا يبحث عن ساحة . .

ثانياً: الطريقة الواقعية

وهي الطريقة التي تواجه الهدف بمنطق الواقع ، فلكل ظاهرة أسبابها الكافية في الواقع ، ولكل واقع ظروفه المحدودة بالزمان والمكان والأشخاص ، ولكل هدف وسائله ومراحله وآفاقه . ولذلك فإن الذين يفكرون بهذه الطريقة يعملون على دراسة المشروع من خلال معرفة الأرض التي يقوم عليها ، والشروط التي ينبغي توفرها ، والأشخاص الذين يتحركون معه في الداخل والخارج ، والمشاكل التي تواجهه على جميع المستويات ، ثم يرسمون الخطة على أساس ذلك ، وتتقدم الخطة في بعض المراحل ، وتسقط في البعض الآخر ؛ فلا يسقطون أمام سقوطها ، ولا يحاولون أن يحملوا الآخرين مسؤولية السقوط ، بل يعملون على دراسة أسباب الفشل في الواقع ، ليعدّلوا الخطة ويطوّروها ، ليصلوا بها إلى النتائج العملية في نهاية المطاف .

وتتميز هذه الطريقة بالتأكيد على التحليل الدقيق للأشياء والأشخاص والواقع ، ومواجهة الأخطاء بشجاعة ، والبعد عن أجواء الاستعراض وعن ذهنية التبسيط . وعندما تفكر هذه الفئة الواقعية بالحماس ، فإنّها تفكر به كجزء من

الخطّة ؛ لا كحالة مزاجية طارئة . وهكذا يملك القائمون عليها وضوح الصورة ، وواقعية التفكير ، بعيداً عن كلّ أجواء الأحلام والسرعة والارتجال ، وعن كلّ ألوان التفسير الغيبي للأشياء ، ما يوفر لهم الكثير من الوعي والصبر والهدوء ، في مواجهة المشاكل والتحديات ، والشجاعة عند الوقوع في الأخطاء ، للاعتراف بها ، ومواجهتها بالمزيد من عمليات النقد والتصحيح .

هاتان هما الطريقتان اللتان تحكمان الواقع العملي للإنسان ، فأين نحن منهما الآن في ما نستهدفه من التفكير بالوحدة؟

بين حلم الوحدة وسجن الخصوصية

لعلّ الوحدة - في أكثر من موقع في حياتنا - هي أكبر حلم للإنسان في كلّ مجتمع يعاني من التجزئة ، لا سيما إذا ما كانت هذه التجزئة وضعاً طارئاً فرضته ظروف تاريخية وسياسية وثقافية ، وحتى اجتماعية واقتصادية معينة .

لكنّ هذا الحلم سرعان ما كان يصطدم بعناصر التجزئة التي تحولت إلى عقدة شعورية في داخل إنساننا ، الأمر الذي جعله يعيش بين تجاذبين ؛ الأول يشده إلى العقدة التي تجره إلى الخصوصية لتسجنه في داخل ذاته ، والثاني يشده نحو الحلم الذي يرتفع به إلى الشمولية ليطير به إلى أجواء المطلق . وقد خلق ذلك لديه ارتباطاً بين ما هو الواقع وما هو الحلم ، حتى إذا انتصر الحلم في وعيه ، مشى إليه بعيون مشدودة إلى السماء لا تبصر ما في الأرض من مشاكل وحواجز ، ولذا كان الحلم يسقط ، باستمرار ، صريعاً أمام ضغط واقع الخصوصية . فلماذا كان ذلك؟

قد تكون المشكلة في أنَّ الإنسان حمل هذا الحلم الكبير كعنوان عام ، ولم يحمله في حياته كتجربة حياة مستقلة بعيداً عن أجواء الخصوصية ، بل على العكس ، حوَّله إلى شأن من شؤونها ، حتى كاد أن يتحول إلى واجهة لها . ولذلك ، لم يعيش الإنسان الشمولية إلا من خلال الخصوصية ، ما جعل حماسه للخصوصية أكثر من حماسه للعمومية ، انطلاقاً من الحالة الشعورية التي تخلقها التجربة .

وفي هذا الإطار ، يمكن القول إنَّ الوحدة لم تنطلق من تصور فكري أو روحي للقاعدة التي يفترض أن تركز عليها ، بل انطلقت من حالة ذاتية عاشت ردود فعل قاسية أنتجت مشاكل التجزئة ، لكنَّ غياب التصور ، وعمق الذهنيات الانقسامية على مستوى الشخصيات المتعددة التي تتحرك في الساحة ، كانت تولّد المزيد من السلبيات العملية في الحاضر والمستقبل ، ما يجعل الصورة التي يتطلع إليها الإنسان الوجودي ، صورة غائمة ، لا تغريه بالمزيد من الاندفاع ، ولا تدفعه لتقديم الكثير من التنازلات الخاصة لحساب القضية العامة .

وهذا ما عشناه عندما انطلقت فكرة الوحدة الإقليمية في البلد الذي تتعدد فيه القوميات والطوائف ، أو الوحدة العربية في المنطقة التي تنوّعت فيها الأقاليم ، أو الوحدة الإسلامية في الساحة التي تختلف فيها المذاهب . فقد كانت الوحدة حلماً للروح يبحث عن الأفق الذي يتخلص فيه من مشاكل الواقع التجزيئي والتعدد ، ولكن المعالجة كانت دائماً تأتي من خلال الفكرة الغائمة التي توحى بأنَّ التعدد هو المشكلة ، وأن حل المشكلة هو بالخلاص منه ، دون دراسة لعلاقة المشكلة بالتعدد

في مواجهة مشاكل الوحدة . وقد يدفعنا ذلك إلى الابتعاد عن فهم الأسس الواقعية للمشكلة التي قد تكون خاضعة لمؤثرات ذاتية في حركة الواقع الداخلي ، بعيداً عن قضية التعدد والوحدة ، في طبيعة المسألة المطروحة على الساحة . .

وقد نكتشف - في نهاية المطاف - أنَّ الوحدة لم تكن حالة فكرية روحية عميقة ، بل كانت حالة انفعالية عاطفية سريعة ، بينما مثَّلت التعددية أو التجزئية عمق التجربة التي ارتبطت بها كل قضايا الإنسان اليومية ، وكلِّ علاقاته الاجتماعية ، ما عجلَّ بهزيمة الوحدة - بشكل سريع - أمام عوامل التجزئة ، كما لاحظناه في أكثر من عمل وحدوي سياسي انطلقت به الجماهير في صرخة راعدة واعدة ، ولكنها تراجعت بشكل سريع ضاغط ، لتكتشف أنَّ الحلم الكبير لم يكن إلا كابوساً مرعباً في ما يتمخض به الواقع من مشاكل وأوضاع .

قضية الوحدة في ضوء الواقع

تلك هي بعض الأفكار التي حاولت إثارتها أمام الموضوع لنواجه تفاصيل المسألة بعد ذلك من خلال عملية رصد للواقع .

لقد مرّت فكرة الوحدة الإسلامية في حياة المسلمين بتاريخ طويل من الدعوات الإصلاحية التي انطلق بها المصلحون ، في ما كانوا يثيرونه أمام الأمة من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية الداعية إلى الوحدة ، التي قوامها الاعتصام بحبل الله ، والالتقاء على رسالته ، والبعد عن التنازع والاختلاف الذي يبعثر القوى ويضيع الطاقات ، ولكن ذلك لم يغير من واقع التجزئة شيئاً ، بالرغم من الحماس الذي

تثيره الخطابات الحماسية والمواظب الانفعالية في نفوس الناس ، فقد كان ذلك الجو يهدأ ويخف تدريجياً حتى يتبخر في الهواء ويرجع كل فريق إلى قواعده سالماً ؛ فلماذا حدث ذلك ؟

ربّما كان بعض السبب هو في أنّ الدعوة إلى الوحدة كانت ردّ فعل ولم تكن فعلاً ، في ما كان يعيشه العاملون من الحالة المعقدة على المستوى النفسي والحياتي في واقع المسلمين ، ما كان يؤدي إلى التنازع والتحاقد والتقاتل على أساس غير معقول ، كأن يواجه المسلمون بعضهم البعض بأساليب التجريح والتنكيل بعيداً عن كلّ عقلانية أو موضوعية أو إيمانية ، فيسقطون بذلك في ساحات الصراع تحت تأثير النتائج السلبية ، ليكونوا فريسة سهلة لكلّ لاعب ومحتلّ وغاصب . وهكذا كان العاملون يواجهون ذلك كلّّه بالثورة على الواقع ، تماماً كما هي الحالة النفسية التي تريد أن تتخلص من المشكلة بأيّ ثمن ، وبشكل سريع ، ولهذا كان الحماس في أساليب الدعوة هو الطابع الغالب لكلّ هذا الخطّ .

على أنّ هذا الفشل في الدعوة إلى الوحدة ، كان يواجهه بإلقاء اللوم على الشعب الجاهل المتخلف الذي لا يعي مشاكله الحقيقية ، ولا يتطلّع إلى آفاق المستقبل بوعي ، أو بتحميل الاستعمار مسؤولية ذلك كلّّه على أساس سياسته المعروفة (فرّق تسد) . . وربّما كانوا يرتاحون لهذا التبرير الذي يوحى لهم بأنهم قد قاموا بواجبهم خير قيام .

وربّما نلاحظ في هذا الاتجاه ، أنّ مثل هذا الأسلوب في الدعوة إلى الوحدة ،

غير المدروس بدقة وشمولية ، قد يخلق حالة تراجعية لدى الناس ، عندما يلاحظون عدم جديتها ، أو عدم واقعيتها ، فيخافون من الضياع أمامها ، فيرجعون إلى مواقعهم المذهبية بشغف واندفاع وخوف ، تماماً كما يفعل الطفل الخائف من التهاويل الغامضة المحيطة به عندما يفرع بكل لهفته وخوفه إلى حضن أمّه ، ما يقوّي الروح الانقسامية أكثر ، ويعيد عقارب الساعة إلى الوراء .

وكان يعزّز هذا المناخ التقسيمي ، اتهامات بعض الناس المتحمسين لمذهبيتهم الضيقة للعاملين في سبيل الوحدة الإسلامية بأنّهم منحرفون عن خطّ المذهب لأنّهم وحدويون ، كما لو كانت الوحدة جريمة تعني المروق من الدين .

نظرة واقعية إلى سلبيات الدعوة المثالية

إذا أردنا التوقف عند ملامح الدعوة المثالية إلى الوحدة ، وتوقفنا عند النقاط السلبية في أسلوبها العملي ، فإنّنا نجد فيها ملامح الدعوة التي تحلّق في الفضاء ولا تتحرك على الأرض ، لأنّ من أبسط القضايا التي يجب أن ندركها ، هي أنّ التاريخ المعقّد الذي عاش المسلمون مشاكله الدامية ، وأساليبه المتخلّفة ، ومواقعه القلقة ، لا يمكن إلغاؤه بخطبة بليغة أو حركة سريعة ، لأنّ الرواسب التي يتركها في الأعماق من مشاعر وأفكار وتعقيدات ، تخلق حاجزاً نفسياً مقدساً ضد الفريق الآخر ، وتنقل الصورة في منهج التفكير من موقع الاجتهاد في فهم العقيدة أو الشريعة - الذي يفسح المجال لاجتهاد آخر مخالف له ، على أساس إمكان اختلاف وجهات النظر في فهم المسألة الواحدة - إلى موقع التأكيد على نفي الإسلام عن

الفريق الآخر ، لأنّ الخصوصية تحاصر الشمولية ، والجزئيات تطوّق الكليات . .
وبذلك يتحول المذهب إلى دين مميز ، تماماً كالدين الذي يتميز عن دين آخر ،
ويعود الارتباط بالشخصيات الإسلامية - سلباً أو إيجاباً - عنصراً من عناصر تحديد
الشخصية الإسلامية فيمن هو المسلم أو فيمن هو غير المسلم .

فإذا التقيت بالواقع في الحاضر ، فستجد أنّ الفرز المذهبي قد تحول إلى حالة
طائفية تشبه الحالة العشائرية في أفكارها وعواطفها ومواقفها ومواقفها السياسية
والاجتماعية والثقافية ، وأصبح لهذه الحالة مصالحها الخاصة في مواجهة كل فريق
للفريق الآخر ، ما جعل الشخصية الضيقة تتعمق أكثر في الانحراف عن خطّ
الوحدة استناداً إلى امتيازات مزعومة لهذا الجانب أو ذاك ، بعد أن كان الانقسام
يتمحور حول الأفكار والمقدسات . وهكذا رأينا أنّ العلاقة بين الطوائف قد تحولت
إلى ما يشبه العلاقة بين الدول ، فلكلّ منها منطقته الخاصة التي لا يجوز للآخرين
التدخل في شؤونها أو الامتداد إليها ، ولكلّ منها أوضاعه الداخلية التي لا يجوز
المساس بها من الفريق الآخر . . وهكذا أصبح للساحة أحاسيسها الملتهبة التي
يمكن أن تشعل الحريق لأول بادرة نزاع أو خلاف .

وتدخلت المحاور السياسية في الساحة ، على المستوى الإقليمي أو الدولي ، ما
جعل الجانب المذهبي يدخل في الحسابات السياسية كأداة من أدوات التفجير هنا ،
أو كوسيلة من وسائل تسليط الأضواء هناك ، وذلك من خلال سياسة التخويف
التي تتحول إلى لون من ألوان الخوف المتبادل الذي يثيره هذا المحور أو ذاك ، لتكون

النتيجة أن تتحرك الحالة السياسية لتفرز حالة مذهبية ، ويتطور الخلاف السياسي ليتحول إلى خلاف مذهبي ، ودون أن تُعرف طبيعة العلاقة بين هذا وذاك ، إلا من خلال الحساسيات الذاتية التي يحاول الكثيرون تحويلها إلى حساسيات طائفية .

هذه هي بعض ملامح الواقع الذي تحرك من التاريخ إلى الحاضر ، وتطور حتى أصبح صورة من صور تغليب الشخصية الإسلامية في داخل العلبة الطائفية ، بحيث لا يشعر الإنسان معها أنه يتفاعل مع روح الإسلام فيها بقدر ما يتفاعل مع أحقاد الطائفة وحساسياتها . والسؤال : كيف يمكن لنا أن نهمل ذلك كله أو نتناساه في حركة الوحدة الإسلامية؟ وهل يمكن أن نحقق خطوة واحدة إلى الأمام في مثل هذه الساحة؟

من مقاييس الدين إلى مقاييس الطائفية

قد لا يكون هذا هو كل الواقع ، ولكننا نشعر أنه يشغل الساحة الكبيرة للساحة الإسلامية . وبذلك يكون القفز عنه بمثابة القفز عن المشكلة بالأساس ، والتعامي عن مواجهة جذورها الحقيقية في الواقع ، ما يجعل من المحاولة هروباً من المشكلة لا حلاً لها ، وهذا ما اعتبرناه لوناً من ألوان المثالية في تصور الحل للمشكلة ، فلا الاستغراق في الغيب عند مواجهة الصعوبات والتعقيدات المطروحة على الساحة ، ولا توجيه الأنظار إلى غير المسلمين على إسلامهم وضرورة وحدتهم أمام عدوهم ، ولا انتظار الظروف الملائمة ، والاعتماد في الوصول إلى النتائج على عامل الزمن ، تشكل عوامل جذرية لمعالجة المشكلة .

إنَّ واقعنا بات موعلاً في الطائفية ، فهي التي تحدد الأعداء أو الأصدقاء من مقاييس الطائفة لا من مقاييس الدين ، حتى أنَّ محوراً سياسياً إذا اتفق مع طائفة ما لتحقيق مصالحها في مواجهة الطائفة الأخرى ، فإنه يعتبر صديقاً لها وإن كان عدواً للأخرى ، وإذا كان الأمر كذلك ، فأين يكون العدو الواحد؟ وكيف نتصور الغيرة على الإسلام إذا كنت لا أعتبر المسلم الآخر مسلماً ، وبالتالي فلا يكون اضطهاده منافياً للإسلام والدفاع عنه دفاعاً عن كرامة المسلم؟ وهل يمكن أن يحمل لنا الزمن إلا تأكيداً لمثل هذه الأجواء ما دامت المقدمات تتحرك في طريق تحقيق تلك النتائج؟

الإسلام قاعدة الوحدة

هل هذا الذي نثيره يمثل لونا من ألوان التشاؤم؟ إننا لا نريد ذلك ، ولكننا نريد أن نتلمس الواقع بطريقة ميدانية ، فكيف يمكن أن نفكر؟ قد يكون من الخير لنا اعتبار أنَّ أي عمل وحدوي لا بُدَّ أن ينطلق من الاهتمام بالقاعدة التي تركز عليها الوحدة ، لنعرف ما إذا كانت تتسع لخطّ الوحدة أو تضيق عنه . وقد لا يكون من الصعوبة اكتشافنا أنَّ الإسلام هو تلك القاعدة ، ولكن كيف لنا أن نثير الاهتمام به لنعرف كيف يمكن أن تكون الوحدة حركة إيجابية في وجوده ، وكيف تكون التعددية حركة سلبية في ذلك؟

ربَّما كان المسلمون غير بعيدين عن الاهتمام بالإسلام ، ولكن بطريقة عاطفية ، لأنَّ الكثير منهم قد لا يجدون له معنى في حركة الحياة ، بل كلَّ ما هناك أنَّه يمثل

حالة في وعي الذات ، ولذا فإنه لا يتصل بالواقع في حركة فعل ، بل يتصل بالذات في انطلاقة وجدان ، ولهذا ، فقد تحول الاهتمام به إلى اهتمام بالصورة العبادية والأخلاقية الغائمة من جهة ، وبالصورة الاجتماعية المشوشة من جهة أخرى . وبذلك كانت قضية الوحدة تتعلق بالجانب الفردي من ناحية الفكرة ، وبالجانب الاجتماعي من ناحية الانتساب ، ما يجعلنا نواجه التعددية خارج نطاق المشكلة الحياتية الفكرية والعملية في ما نختلف فيه ، وبذلك لا يعني الفرز الطائفي لنا شيئاً في حركة الحياة من حولنا ، لأنَّ بإمكاننا أن نتمحور عند ذلك في أي محور سياسي أو اجتماعي آخر ، دون أن يسيء ذلك إلى عملية الانتماء الفكري في طبيعة المضمون ، ما يجعلنا لا نمتنع عن الاندماج العملي تحت أية صفة أخرى على مستوى الوطن أو الإقليم أو القومية أو أي شيء آخر ، وبذلك تفقد صفة السنية أو الشيعية أي مضمون لها في ما يتصل بواقع الناس ، لأنها لا ترتبط بأي شيء خارج نطاق الذات ، وتبقى لأصحابها صفة النسب الطائفي المشترك في المسألة الإنسانية الاجتماعية^(١) .

(١) ربَّما كنت أحتاج إلى أن أوضح الصورة بطريقة أكثر جلاءً . إننا نلاحظ أنَّ المسلمين لا يعيشون الصفة الإسلامية كفكر في حياتهم ، لأنَّهم عندما جعلوا الإسلام يعيش في زاوية ضيقة ، أمكن لهم أن يرتبطوا بأي فكر حتى ولو كان يواجه الإسلام وجهاً لوجه . ولهذا نحن نتكلم فكراً ولا نتكلم سياسة على مستوى الشارع ، ولهذا نرجو ألا نتعقد من الأمثلة .

فيمكن للمسلم أن يبقى مسلماً وأن يكون شيوعياً على مستوى فكري ، عندنا لا مانع من ذلك ، يمكن له أن يكون مسلماً وأن يكون وجودياً على مستوى فكري ، لماذا؟ لأنَّ الإسلام عنده ليس حركة فكر وحياة ، وإنَّما هو حركة ذات وانتماء بشري لا يخضع لأي مضمون فكري .

التجمد عند الفهم التقليدي للإسلام

ولعلّ هذا ما جعل عملية اللقاء على أساس الإسلام لا تعني شيئاً للكثيرين ، إلا بقدر ما يعنيه اللقاء تحت أية صفة أخرى تتصل بالظروف الموضوعية لحركة الشخصية أو لحركة الحياة ، كالإقليمية أو القومية أو الحزبية . وبذلك قد تتقدم أية صفة أخرى على صفة الإسلام كإطار جامع تبعاً للأجواء السياسية التي تحيط بهذا البلد أو بذاك ، فإذا كان النظام السياسي ينطلق من حالة وطنية أو قومية ، كانت الوحدة الإسلامية مرتبطة بعلاقتها سلباً أو إيجاباً بتلك الحالة ، وإذا كان ينطلق من حالة طائفية على مستوى الدين ، فإنّ القضية تتخذ لها بعداً في المسألة السياسية لتجتمع المسلمين في مواجهة غيرهم ، أمّا إذا انطلق من حالة طائفية على مستوى المذهب ، فإنّ الوحدة تصبح مشكلة للطائفيين ، لأنّها تتحول إلى عنصر يُضعف من شخصية الطائفة وامتيازاتها في النظام الذي يتحرك على تلك الأسس الذاتية للمجتمع الطائفي . وفي ضوء ذلك ، تتحول الحالة الإسلامية إلى حالة تابعة بدلاً من أن تكون حالة أصيلة ، وبذلك تكون القضية المطروحة هي قضية تخدير الخلافات والابتعاد بها عن دائرة الضوء ، بقدر ما تحتاجه الحالات السياسية الأخرى في الأمة .

وربّما كان هذا الفهم التقليدي للإسلام هو الذي جعل المسلمين يتجمّدون في فهمهم للجانب الذي يختلفون فيه ، في ما يمثله من مفهوم الالتزام والتقوى ، فيُخيّل إليهم أنّ التعصّب هو الالتزام ، وأنّ الانغلاق هو التقوى ، وأنّ الابتعاد عن

الفريق الآخر من المسلمين هو الإخلاص للخط الإسلامي الأصيل . . . وفي ما يستتبعه ذلك من فقدان العناصر المفتحة التي تتيح لهم التفكير بالأشياء من الأفق الأوسع ، فتراهم يتوقفون أمام كلمة هنا وحركة هناك ، ويواجهون التاريخ بسلبياته وإيجابياته من خلال النوازع الذاتية الطائفية التي تجعل الارتباط بالشخصية التاريخية ارتباطاً بالذات ، لا بالفكرة ، ولذلك فإن الإخلاص لها - في ما يطلقونه عليها من نعوت أو يمنحونه لها من أدوار - قد يتم في كثير من الحالات على حساب الفكرة . وبذلك استطاعت هذه الذهنية أن تخلق في الساحة تعقيدات كثيرة من خلال بعض السلبيات التي يثيرها هذا الفريق ضد اسم معين ، ليقابله فريق آخر باسم آخر . .

وهكذا ينسى الجميع الدين والمصير والمستقبل من أجل الكلمات التي تصنع الإثارة في النفس - ولكن دون مضمون - على مستوى وعي القضية التي يدافعون عنها أو يحملونها ، فهم ليسوا مستعدين للمناقشة أو للحوار أو للبحث عن خلفية الموقف أو الكلمة أو الشخص ، لأنّ القصة هي قصة الحريق الداخلي الذي يعمل من أجل إشعال الحريق في الساحة كلّها ، للتنفيس عن عقدة هنا ، ولمعالجة وضع ذاتي هناك . وتلك هي قصة الآفاق الضيقة التي تستغرق في الجزئيات ، فتنسى القضايا الكلية معها في حالة غيبوبة وخدر واسترخاء .

تلك هي بعض الأفكار والتأملات حول الواقع - المشكلة والفهم والمسار ، فماذا عن الحل ، وكيف نبحث عن الخطوات العملية للوصول إلى النتائج الإيجابية المطلوبة؟

مداخل إلى حلول واقعية

قد يكون من الأفضل لنا أن نفكر بالجوانب الواقعية التي يمكن أن تحيط بفكرة الحل ، فنلاحظ أنَّ هناك آفاقاً ثلاثة للوحدة من خلال تنوع آفاق المشكلة ، فنحن نجد في الداخل حواجز نفسية ذات حالة عاطفية سلبية ، ومشاكل فكرية في نطاق تفاصيل المفاهيم الإسلامية العامة وجزئيات الأحكام الشرعية ، ومشاكل سياسية في نطاق الواقع الطائفي الذي يعمل على فرز المواقع السياسية تبعاً للطابع المتنوع ، ما يجعل الوحدة طابعاً عاطفياً وفكرياً وسياسياً . ومن الطبيعي أن تختلف وسائل المعالجة وأدواتها وساحاتها وأشخاصها تبعاً لاختلاف أجواء الوحدة مشكلة وحلاً .

١ - الجانب النفسي

ففي الجانب الأول (النفسي أو العاطفي) ، نلاحظ التاريخ المعقد الذي أحاط بالعلاقات العامة والخاصة بين المسلمين وما عاش فيه من أحداث دامية ، واضطرابات وخصومات ، وما أفرزه من تباعد بينهم ، بالمستوى الذي جعل لكل فريق منهم مجتمعاً خاصاً يتميز بخصائصه المذهبية ، ويعمل على إقامة الحواجز أمام أي تقارب نفسي بين أفراد المذاهب المتنوعة ، حتى خيل لكل واحد منهم أنَّه يملك الإسلام كله دون أن يملك الآخرون منه أي شيء ، ما يوحى بأنَّ هناك مجتمعين مختلفين لا يلتقيان على شيء ، حتى أصبح هذا الجو الذي يركّز على مواطن اللقاء يحمل بعض الطرافة في العرض ، فنسمع حديثاً يقول : إننا نختلف

في الإله من خلال اختلافنا في بعض صفاته ، وفي النبيّ من خلال اختلاف الاجتهاد في بعض خصوصياته ، وفي القرآن وفي الآخرة ، بحيث تكون مواطن الخلاف أساساً للفرز بدلاً من أن تكون مواطن اللقاء أساساً للوحدة .

إنّ من الممكن إثارة الحديث عن ذلك بطريقة عاطفية شعبية تتحدث عن الوحدة في الخط العام كهدف كبير ، وتركز على واقعيتها من خلال التأكيد على نقاط اللقاء التي يلتقي عليها المسلمون ، في محاولة لتبسيط الفكرة وتسهيلها على الجمهور ، بالأسلوب الذي يأخذ من مفردات الحياة اليومية التي يلتقي فيها الناس على المسلّمات التي توحدهم ، دون أن يفسحوا في المجال للخلافات الجزئية أن تهزم هذه الوحدة أو تسيء إليها ، ويأخذ من مفردات اختلاف الاجتهادات في المذهب الواحد الأساس النفسي الذي يوحى بأنّ ذلك لم يسيء إلى وحدة أتباع المذهب الواحد ، بل هي أشياء طبيعية لا تمنع من المشاعر الحميمة التي يحس بها تجاه الآخرين في نطاق المذهب ، الأمر الذي يؤدي إلى اعتبار وحدة العقيدة الإسلامية في خطوطها العامة ، ووحدة الخطّ التشريعي العام في قواعده ومصادره ، أساساً للوحدة الروحية التي تفتح قلب المسلم للمسلم في أفراحه وأحزانه وهمومه ومشاكله ، من خلال أخوة الإيمان التي جعلها الله عقداً بين المؤمنين في الجانب الإيجابي للعلاقة ، وهذه الأخوة يجب أن تستحضر كلّما تعرّضت العلاقة بين المسلمين لانتكاسة ما ، ما يوحى بأنّ هذه الحالة الشعورية تمثّل عمقاً إسلامياً في شخصية المسلم ، بحيث إنّ الإسلام قد أكدها في القرآن عند ذكر ما كان يحدث بين المسلمين من خلاف أو ما يمكن أن يحدث بينهم ، فلم يدعُ إلى

إلغاء العلاقة حين تتوتر أو تهتز ، بل عمل على رسم المنهج الذي يرجع إليه المختلفون في حل خلافاتهم ، وذلك بالرجوع إلى الله ورسوله ، في الكتاب والسنة ، ليحكمما في ما شجر بينهم ، وليكون ذلك هو القاعدة التي يتفق عليها الجميع دون اعتراض^(١) .

لقاء القيادات بذب الجليد

وإذا كان الجانب العاطفي هو الذي نريد معالجته في قضية الوحدة من أجل إزالة الحواجز النفسية التي تحول بين المسلمين وبين اللقاء على أرض واحدة ، فلا بدّ لنا من اكتشاف كلّ عوامل الإثارة الروحية والفكرية والعاطفية التي يمكن أن تثير أفكار الجماهير وأرواحها وعواطفها بطريقة واقعية مدروسة ، وأن تُمنح الأمة القاعدة التي تنطلق منها الوحدة ، وتُعرف كيف يمكن للوحدة أن تعيش في نطاق التنوع ، ليكون ذلك إغناءً للتجربة لا إسقاطاً لها ، كما يفعل البعض في عملية الإثارة المضادة .

ونعتقد أنّ اللقاءات العامة والخاصة بين القيادات والفعاليات وبقية أفراد الأمة

(١) أن ننطلق من وحدة المذهب وتعدد الاجتهادات ، لنؤكد على إمكان وحدة الدين مع اختلاف المذاهب ، حتى ننطلق من هذا إلى اعتبار أنّ الحالة الشعورية التي يعيشها أتباع المذهب الواحد مع اختلاف الاجتهادات ، يمكن أيضاً أن تساهم في خلق حالة شعورية إسلامية مع اختلاف المذاهب .

من المذاهب المختلفة^(١) ، يمكن أن تساهم مساهمة كبيرة في تذويب الجليد ، وتوضيح الصورة ، وإزالة الغموض ، وتقريب وجهات النظر ، وتأليف القلوب ، كما يمكن أن تساهم في ذلك علاقات الزواج المتبادلة التي تصنع قرابة النسب إلى جانب الإسلام^(٢) . وقد نستطيع الوصول إلى بعض النتائج الإيجابية في العمل على القضاء على المجتمعات المذهبية المنفصلة على مستوى القرى والمناطق والمحلات ، حتى لا يكون لدينا مجتمع شيعي مغلق في مقابل مجتمع سني مغلق ، بل نصل إلى المجتمع المفتوح المتفاعل الذي تتمتع فيه التجربة الإسلامية في ما تحمل من عناصر اللقاء والخلاف معاً على أساس فكري أو اجتماعي أو سياسي .

وربما كان من الضروري للمحافظة على هذا الهدف الكبير ، أن نفتح للأمة آفاق الشعور بالهدف الكبير الذي ينتظرها في حاضرها ومستقبلها ، حين تخدم الوحدة قضاياها المصيرية على أكثر من صعيد ، وأن نعمل على تعميق روح

(١) وهذا ما يجعل العوائل المتنوعة في المذهب تستطيع أن تكتشف أنَّ الصورة التي كانت تحملها من خلال البعد ، تختلف كثيراً عن الصورة الواقعية التي استطاعت أن تعيشها على الأرض ، عندما هيأت لها العلاقات هذا الجانب ، لأنه من الممكن للإنسان في حالات البعد الطائفي ، أن يتصور أنَّهم يعاملون أو أنَّ الآخرين ممن يعتبرون التقية شيئاً مبرئاً ، ولكن إذا نفذت إلى الداخل وإلى الواقع وأصبحت العلاقات علاقات عائلية طبيعية تستطيع من خلالها أن تقتحم المجتمع من خلال علاقاتك ، عند ذلك تستطيع أن تكتشف إذا ما كانت القضية مجاملة في ما يحاول الآخرون أن يوحوه ، أم أنَّها قضية حقيقية .

(٢) ولو بالطرق الرسمية الاستعراضية ، لأنَّ القضية هنا ليست قضية العمق في المعالجة ، وإنَّما هي قضية الحالة الشعورية التي نريد أن نثيرها في الأمة .

التقوى والالتزام بعيداً عن كل أوضاع العصبية والانغلاق . وقد نكتشف أساليب أخرى في الوصول إلى تحطيم الحواجز النفسية بين المسلمين ، لأننا لم نقصد الحصر في ما ذكرناه ، بل كنا نستهدف تقديم النماذج التي توحى بالفكرة .

٢ - الجانب الفكري

ونلتقي في هذا الجانب بالفوضى الفكرية التي يعيشها المفكرون المسلمون في تقويم أفكار بعضهم البعض ، كنتيجة لأجواء الجدل التقليدي المتخلف الذي لم يكن يبحث عن الحقيقة في ما يمارسه من أساليب ، بل كان يبحث عن تسجيل النقاط السلبية ضد هذا الفريق أو ذاك ، بعيداً عن النقاط الإيجابية . فليست القضية عندنا أن نبحث عن الواقع الفكري الإسلامي لهذا المفهوم أو ذاك ، بل أن نكتشف نقاط الضعف في ما يعتقده الفريق الآخر لنثبت سقوطه ، فإذا لم نصل إلى نتيجة من خلال الحجج المقنعة ، فإننا نعمل على الوصول إليها من خلال التلفيقات التي نمنحها صفة الحجة وإن لم تكن كذلك ، ومن خلال ذلك ، لم يكن النقل دقيقاً في ما ينقله كل فريق عن الآخر ، ولم تكن الدراسة بالمستوى العلمي الموضوعي في ما يناقش بعضهم بعضاً في فهم المضمون ، ونقد السند ، ودراسة الأجواء . فقد يكفي أن نجد نصاً يدين الفريق الآخر لنكتشف فيه أساس الضلال ، وربما كان المصدر غير أمين ، أو لم يكن قطعياً يؤكد القناعة ، لأن المصادر لم تمثل في أكثرها - في ما عدا القرآن - الحقيقة المعصومة التي لا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها . فقد درج المؤلفون في الروايات على خلط الغث بالسمين ، وقد يحمل بعضهم رأياً شخصياً فينسبه الآخرون إلى المذهب

كله ، لأنَّ صاحب الكتاب ينتمي إلى هذا المذهب ، دون الالتفات إلى أنَّ الناس الذين قد يتفقون معه في صفة المذهب قد لا يتفقون معه في هذا الرأي ، وقد يفسرون النص الذي اعتمد عليه بطريقة أخرى ، وقد لا يكون محل اعتمادهم أساساً .

التدقيق في المصادر الأصيلة

ولكنَّ العقلية الجدلية لا تلتفت إلى ذلك ولا تحاول التدقيق في ما ينفع الخصم ، بل كلَّ ما عندها أن تدقق في ما ينفع فريقها ، ولذلك يبقى الحوار من بعيد ، فيكون ذلك أقرب إلى الابتعاد عن الوصول إلى نتيجة حاسمة في صحة الفكرة وفسادها .

إنَّ علينا في هذا المجال - كعلماء وكمفكرين - أن نبحث عن أسس الخلاف والوفاق من خلال البحث عن المصادر الأصيلة التي يمكن أن يعتمدها الفريقان أو الفرقاء في قبول رأي أو رفضه ، لنصل من خلال ذلك إلى القاعدة الموحدة التي يمكن أن تحكم أصول التقويم للمصادر في سندها ودلائلها ، كما يقول الأصوليون ، ثمَّ نبحث في المصادر التي نختلف عليها ، لنعرف ما هي أسس اعتماد هذا الفريق عليها دون ذاك ، ولندقق في مدى اعتماده عليها من ناحية المبدأ والتفاصيل ، لثلا نفع في الخطأ الذي وقع فيه الكثيرون من نسبة قول إلى شخص لم يقله ، أو نقل فكر عن شخص لم يلتزم به . وهكذا نركز في المسألة على أساس الموضوعية في النقد والتقويم والاقتناع ، بعيداً عن الفكرة المسبقة التي تسبق

الدليل وتفرض نفسها عليه ، تماماً كما هو الحال في ما نعالجه من خلافات ومواقف فكرية إزاء الأفكار التي لا تتصل بالجانب العقيدي من حياتنا ، بل تتصل بالجوانب العلمية النظرية والعملية في تفكيرنا ، فنعالج المسألة الكلامية في ما نختلف فيه من تفاصيل العقيدة فلسفياً ، كما نعالج آية قضية فلسفية أخرى لا تتصل بالانتماء المذهبي ، وناقش أي حكم شرعي من موقع البحث العلمي ، تماماً كما هو الحال عند مناقشة الأحكام القانونية لمبادئ أخرى أو أديان أخرى ، مما لا يرتبط بالجانب العاطفي من شخصيتنا الفكرية^(١) ، ثم نبدأ بالدراسات المقارنة على أكثر من صعيد ، وعرض كل الأفكار المتفق عليها أو المختلف فيها ، من أجل الوقوف أمامها وقفة نقد وتأمل واجتهاد ، لنختار الأفضل من حيث دليله الشرعي ، فقد يختار الشيعي رأياً سنياً في المسألة الفقهية أو الكلامية ، وقد يختار السني رأياً شيعياً في ذلك ، لأنَّ البحث الموضوعي يلغي الخصوصية من أجواء البحث ، وربما حمل الواقع القانوني في بعض بلداننا الإسلامية بعض التجارب الإيجابية في هذا المجال .

(١) أن ندرس خلافتنا الفكرية الإسلامية في تفاصيل العقيدة وفي الشريعة وفي التاريخ تماماً كما ندرس تاريخ الرومان وقوانين الرومان ، وكما ندرس الجانب الفكري للفلسفة اليونانية أو لأية فلسفة أخرى . هناك ندرس تلك الأفكار من موقع يلتصق بالفكر فقط ولا يلتصق بالذات ، وبهذا نستطيع أن نكون موضوعيين أمام الناس . ومشكلتنا أننا نواجه خلافتنا الفكرية من موقع الذات لا من موقع الفكر ، وعندما تفرض الذات نفسها على الفكر ، فالفكر عندها لن يستطيع أن يتحرك بحرية من الناحية الذاتية أو من الناحية العلمية .

التنوع في الاجتهاد

وسيقودنا ذلك إلى اكتشاف الحقيقة العلمية الواقعية ، وهي أنَّ مواطن الوفاق بين المسلمين تصل إلى نسبة ثمانين بالمائة ، لأنَّ اختلاف الاجتهاد لدى الشيعة الآن ، ولدى السنة في الماضي ، استطاع أن يحمل إلينا تنوعاً في الآراء لدى الفريقين ، بحيث لا ترى رأياً في الفقه الشيعي إلا وترى ما يقابله في الفقه السني ، والعكس صحيح أيضاً . .

وقد عاشت جامعاتنا العلمية في النجف وقمّ والأزهر هذه التجربة في الدراسات المقارنة من ناحية المبدأ ، وننتظر أن تتطور إلى الأفضل في المستقبل القريب ، لنصل من خلال ذلك إلى الوحدة الفكرية على أكثر من صعيد .

وربّما كنّا نحتاج إلى التأكيد على تأصيل المفاهيم العامة لبعض القضايا المهمة ، كما في مسألة التوحيد والشرك والكفر والإيمان . . التي قد يكثر الحديث عنها لدى المسلمين في ما قد يتهم بعضهم بعضاً بالشرك تارة ، وبالكفر أخرى ، وبالمروق عن الدين ثالثة ، وذلك من خلال ما يحملونه من آراء حول مفهوم الكفر والشرك ، أو ما يعتقدونه من معتقدات ، دون إفساح في المجال لهم ليوضحوا فكرتهم وليناقشوا فكرة الفريق الآخر^(١) . إنَّ مناقشة ذلك بموضوعية وفكر ، تجعلنا نلتقي على المقياس الصحيح لما هو الكفر والشرك . وقد نصل بذلك إلى قناعة إسلامية ، بأنَّ

(١) لأنَّ المفاهيم الغائمة لا تخلق إلا حالة غائمة ، وتتيح المجال لكل الطامحين الطامعين في خلخلة الموقف وفي انتهاز الفرص ، أن يلعبوا عليها من خلال تقديس الأخطاء ومن خلال تقديس المواقف المنحرفة .

كثيراً ممّا نعتبره كفوّاً لا يمثّل الدقة في تطبيق هذا المفهوم على الواقع ، كما قد يكون بعض ما يعتبره الناس إيماناً لا يمثّل خطّ الإيمان بدقة وعمق وتحليل .

وقد يكون من الخير لنا أن نشير إلى ضرورة التوفر على دراسة الأسلوب القرآني في الحوار ومواجهة الفكرة المضادة ، ومتابعة الفكرة الموافقة ، لنستطيع من خلال ذلك أن نتقي الله في ما نختلف فيه كما نتقيه في ما نلتقي عليه ، فإنّ ذلك يبعدنا عن أساليب المهاترات الكلامية والمزايدات الفكرية الحماسية ، ويقربنا إلى الفكر والعلم والحياد الفكري في مواجهة كلّ الأفكار والآراء .

ومن المهم في هذه المناسبة أن نلفت الأنظار إلى أنّ مثل هذه الساحة الفكرية تحتاج إلى شجاعة في مناقشة الأفكار ، وفي اتخاذ القرار المنسجم مع نتائج المناقشة ، كما تفرض على المتحاورين فيها أن لا يقفوا في دائرة الضوء الاستعراضية الذي يغري بالمزايدات ويبعث على التعصب ، بل لا بدّ لهم من أن يواجهوا المسائل بالفكر الهادئ ، والعقل المتّزن ، والعاطفة العاقلة ، وأن لا يستعجلوا الوصول إلى النتائج ، لأنّ ذلك قد يؤدي إلى السطحية والارتجال في معالجة القضايا التي تقع محلاً للبحث والمناقشة . ولعلّ من البديهي أن تبقى الساحة مفتوحة للعلماء وأصحاب الفكر بعيداً عن مواقع المستغرقين في مناخ الإثارات العاطفية ، التي تجانب الأخذ بأسباب العلم .

٣- الجانب السياسي

في هذا الجانب من الوحدة ، نلتقي بالواقع الطائفي في الحقل السياسي الذي

يحوّل كلّ طائفة من المسلمين إلى كيان مستقل في قضاياها ، وفي مصالحها ، وفي حركة الحاضر والمستقبل ، حتى أصبح لنا في ساحتنا اللبنانية قضايا شيعية في المناطق التي يعيش فيها المسلمون الشيعة ، وقضايا سنية في المناطق التي يعيش فيها المسلمون السنة . لقد تمّ اعتبار جنوب لبنان في وقت ما قضية شيعية ، كما اعتبرت قضية إقليم الخروب وطرابلس مثلاً قضية سنية ، بحيث يشعر كلّ فريق بأنّ علاقته بقضية الفريق الآخر ليست قضية ذاتية ، بل هي قضية خارجية تحكمها الظروف السياسية ، أو المجاملات الاجتماعية ، وما إلى ذلك .

وقد لا يكون الأمر بهذه الدقة بشكل شامل ، ولكنّ الظاهرة تتحرك في هذا الاتجاه . وربما كان لطبيعة النظام اللبناني الطائفي الأثر الكبير في ذلك ، عندما ربطت مصالح الناس بطبيعة الانتماء الطائفي ، الأمر الذي دفعهم دفعاً إلى الارتقاء في أحضان التجربة الطائفية التي تعمل على ترسيخ العصبية الطائفية وتعميقها في داخل الذات وفي حركة الفكر والشعور وفي نطاق واقع العلاقات . وقد استطاعت اللعبة السياسية التي خططت لها «المارونية السياسية» أثناء حكمها للبنان ، أن تثير حالة خوف مضاد في النطاق الإسلامي الداخلي ، في ما كانت تثيره من إمكانية أن تأخذ هذه الطائفة دور تلك ، وبالعكس ، لتخلق في داخلهم حساسيات مذهبية ، في مستوى العقدة المستحكمة التي تتحول بالتالي إلى قبلة موقوتة يمكن أن تفجّر الساحة كلّما أريد لها أن تنفجر بالحقد والعداء والبغضاء . وما زالت اللعبة تتحرك في كلّ اتجاه ، وعلى أكثر من صعيد .

هذا في الواقع اللبناني ، أمّا في الواقع الذي يعيشه المسلمون خارج لبنان ،

فليست هناك حالة سياسية معقدة بين المسلمين على أساس مذهبي في ما تعنيه الامتيازات والمصالح ، بل كلّ ما هناك ، أنّ في هذا البلد أو ذاك حكماً معيناً ضاغطاً على شعبه ، من دون فرق بين أهل مذهب ومذهب ، ولكن قد تكون هناك أكثرية تخضع للاضطهاد كنتيجة لمعارضتها للحكم ، وقد تكون هناك أقلية معارضة مضطهدة ، وربما يتخذ ذلك وضعاً طائفيّاً سلبياً عندما يختلف الحكم في صفته الطائفية عن فئات المعارضة في صفتها الطائفية ، ما قد يوحي بوجود مشكلة طائفية سياسية في الساحة .

وقد يحدث لبعض الأوضاع السياسية المتنوعة أن تؤدي إلى بعض حالات الصراع ، فقد تُثار الأجواء الطائفية - مثلاً - انطلاقاً من العلاقات التي تحكم أحد الأنظمة بطائفة معينة تعيش في ظلّ نظام آخر تسوده طائفة أخرى ، ما قد يخلق معارضة في داخل هذا البلد لمصلحة النظام في البلد الآخر ، وتكون النتيجة أن يقع المعارضون تحت تأثير الاضطهاد ، أو يشعر الحاكمون بأنّ هذه الطائفة أو تلك لا تحمل الانتماء الإيجابي لبلدها ، فتصبح موضع شك أو اضطهاد . وهكذا تصور القضية كما لو كانت حالة طائفية في ما تسنّه الطائفية السياسية من مضمون ، لا سيما إذا كان هذا النظام يتحمس لمذهب معين ، ويحمل همّ الدعوة إليه ، ولو من ناحية رسمية سياسية ، ويرفض المذهب الآخر ، فيختلط جانب العقدة المذهبية بالعقدة السياسية ، لتتحول المسألة إلى كارثة كبرى تزيد التناقضات بين المسلمين اشتعالاً .

المحاور الدولية تستفيد من السلبيات

وقد نلاحظ أن بعض المحاور الدولية والإقليمية تعمل على الاستفادة من بعض تلك السلبيات في تحويل الصراع إلى صراع طائفي ، لتضع القضية السياسية في نطاق الصراع المذهبي ، فتتوتر الساحة مذهبياً في ما يمكن أن يخلقه هذا الوضع من عناصر الإثارة الطائفية ، في الوقت الذي نعلم فيه جميعاً ، أن موضوع السنّة والشيعية بمدلوله الفقهي والبشري ، لا دخل له في ذلك ، بل كلّ ما في الأمر ، أن هناك صراعاً دولياً وإقليمياً يتحرك في الساحة من منطلقات سياسية بعيدة كلّ البعد عن هذه الأضواء (١) .

والآن ، كيف يمكن مواجهة هذا الطابع السياسي للخلاف بين المسلمين (٢) .

(١) من خلال المعنى المصطلح ، هناك استحقاقات سياسية لكثير من القضايا والمشاكل الملتهبة في الساحة يراد ترتيب الساحة من خلالها لتتوصل إلى النتائج التي تدخل في حساب هذا المحور الدولي أو ذاك . ولكنهم يعرفون أن السياسة بمفهومها المجرد لا تحرك عواطف الجماهير بقدر ما تحركهم العناصر الطائفية ، لذلك يحاولون إعطاء الجو السياسي شيئاً من الالتهاب العاطفي الذي تتكفل به الأحاسيس الطائفية .

(٢) قد نلاحظ الصعوبة في بحث هذا الموضوع ، لأنه يتصل بكلّ الواقع السياسي الذي نعيش فيه وبكلّ اللعبة السياسية التي تتحرك على أكثر من صعيد ، لا في بلدنا أو منطقتنا فحسب ، ولكن في العالم كلّهُ . لهذا لن نستطيع الإنسان أن يُسَطّ المشكلة ليدخل في الحلول البسيطة التي تحاول إلغاء المشكلة بجرة قلم . لكننا نحب إثارة الفكر نحو ذلك لنفكر أكثر ولنتابع اللعبة . نحاول التفكير في الحل من خلال المفردات التي نكتشفها في تجاربنا المختلفة ، أو من خلال المفردات التي تستقبلنا في ما نستقبل من تطورات على الأرض ، أو في ما نستطيعه من اكتشاف كثير من خلفيات اللعبة التي ربّما كنّا ضحيّتها دون أن نفهم طبيعتها . إننا ، كما قلنا في البداية ، نريد إثارة الفكر نحو هذه المسألة ، ولا نريد معالجتها بطريقة شاملة .

إننا نلاحظ في هذا المجال في الحالة اللبنانية المتميزة بحركة الطائفية السياسية على مستوى النظام ، أنَّ الاختلاف المذهبي بين المسلمين لم يستطع أن يحقق لأية طائفة إسلامية الحقوق الذاتية التي تضمن لها حرية الحركة على صعيد الواقع السياسي في القضايا المصيرية ، بحيث تملك حرية اتخاذ القرار ولو على مستوى المشاركة ، فلا يزال موقع رئاسة الوزراء ورئاسة المجلس تابعاً - في كثير من حالاته - للموقع الذي يمثله رئيس الجمهورية الذي هو مصون من أي مسؤولية ، في الوقت الذي يمسك فيه أكثر الصلاحيات الحقيقية بيده . وإذا كانت بعض الطوائف الإسلامية تملك بعض المواقع بطريقة تختلف عما تملكه طائفة أخرى ، فإنَّ ذلك لا يعني وجود قوة حقيقية لهذه أو تلك على مستوى القرار . . وهكذا نجد أنَّ الواقع الطائفي لم يستطع أن يتحول إلى حالة تعطي القوة لأحد ، إلَّا في نطاق الزهو الاستعراضي الفارغ الذي لا يمثِّل شيئاً في ساحة الواقع .

ولهذا ، فإننا قد نجد في هذا الواقع السياسي الذي يعيشه المسلمون ، فرصةً للتأمل والتفكير في ضرورة توحيد الموقف ، أو محاولة تقريبه ، من أجل قضايا مشتركة ، أو مشاريع موحدة ، لمواجهة الهيمنة الضاغطة بموقف حاسم ينطلق من وعي قضية المسلمين كقضية إنسانية في ما تعيشه قضايا الإنسان من مواقع الحرية والكرامة والعنفوان ، من دون إثارة الموضوع بطريقة طائفية معقدة .

الوحدة من خلال القضايا المصيرية

وقد لا يكون من الواقعي أن نطلب الآن من المسلمين إلغاء خصوصياتهم المذهبية في ظل هذا الواقع الطائفي المتجذر في أعماق حركة الواقع السياسي ، لأنَّ

ذلك يمثّل طرحاً مثالياً على مستوى المرحلة - على الأقل - في ما تفرضه من وجود زعامات ، ومواقع قوّة ، ومصالح ، وعلاقات ، وتحالفات داخلية وخارجية ، ما لا يمكن إلغاؤه دفعة واحدة .

ولكننا نشير في الجواب إلى حالة وحدوية من خلال القضايا المصرية التي يعيشها المسلمون على مستوى ما يمثّله الوجود الإسلامي في مقابل الوجود الآخر ، سواء في ما يتحرك على مستوى الداخل ، أو في ما يتحرك على مستوى الخارج من قضايا المسلمين في المنطقة وفي العالم ، وذلك بمحاولة ربط هذه القضايا بالمبادئ والقيم الإسلامية السياسية والاجتماعية في الحياة ، لتتحول هذه الحالة الوحدوية إلى حالة إسلامية عميقة في وجدان كلّ مسلم ، ليكون ذلك أساساً للبحث في المواضيع الواقعية المختلف عليها ، بعيداً عن الحواجز النفسية ، لأنّ وحدة الموقف السياسي في بعض المواقع ، عندما تمتزج بالحالة الإيمانية الوجدانية الملتزمة بخطّ الإسلام في أجواء التقوى ، سوف تسهّل الكثير من الحلول للمشاكل العالقة في الساحة (١) .

إنّنا نعتقد أنّ مثل هذا الاتجاه في مواجهة التشنّج السياسي الطائفي في داخل

(١) مثلاً ، يمكن أن تعتبر الآن القضية الفلسطينية شيئاً نجتمع عليه كمسلمين من خلال القيم الإسلامية التي نربط بها ، ويمكن أن نجعل قضية مواجهة الاستعمار ورفض خططه السياسية والاقتصادية والعسكرية أساساً للقاء كمسلمين ، لأنّ الإسلام لا يمكن أن يقبل ، من خلال المفهوم الحقيقي لما هي الحرية والعزة لدى المسلم ، أية حالة استعمارية . وهكذا نستطيع أن نبحث عن القضايا المصرية التي تمسّ وجودنا بالذات والتي تنبع جذورها من المبادئ الإسلامية الأصيلة .

المجتمع الإسلامي ، يمكن أن يحقق لنا خطوة متقدمة في سبيل الوحدة ، لأننا سنكتشف أن هناك أكثر من أرض صلبة نقف عليها في مواقعنا الإسلامية ، وأن ما نختلف فيه يمثل حالة طبيعية واقعية .

وفي المجال الإسلامي العربي العام ، يمكن لنا أن نلتقي بالطروحات الوحدوية الإسلامية التي تتحرك في الساحة ، لنقويها ونتفاعل معها ، ولنعمل على اكتشاف الجوانب الإيجابية فيها ، ومعالجة الجوانب السلبية بالكثير من الدراسة للقضايا المثارة على أرض الصراع بطريقة ميدانية تحاول أن تفصل بين ما هو المحور الإقليمي أو الدولي المرتبط بالمواقع الاستراتيجية للصراع في العالم ، وما هو الخط الإسلامي الذي تتحرك فيه المصلحة الإسلامية العليا . فقد نرى أن كثيراً من المواقع التي نمناها الصفة الإسلامية في الصراع ليست كذلك ، سواء أعطيناها سمة شيوعية أو سنية ، وقد نلمح في الساحة استغلالاً لذلك لحساب أعداء الإسلام والمسلمين .

الاستفادة من إيجابيات التجربة

إننا نؤكد على ملاحقة التجارب الوحدوية في العمل الفكري والسياسي والاجتماعي على مستوى الساحة السياسية ، وعلى الاستفادة من الإيجابيات كنافذة تطل على المواقع المشرقة من مواقع الأمل ، والاستفادة من السلبيات في معرفة الأخطاء الواقعية في الساحة ، لتفادها ، ولنفكر معها بأنّ الفشل في ألف تجربة لا يعني فشل الفكرة أو سقوط المشروع ، فقد يكون من الضروري أن نفكر بالتجربة الواحدة بعد الألف ، لأنّ ذلك هو خيارنا الوحيد في بقاء الإسلام حياً

متحركاً في الساحة كفكر وكشريعة ، وكمنهج حياة ، وكأمة طليعية تحمل رسالة التغيير للعالم من أجل الحضارة الفريدة ، التي تتأخى فيها الروح والمادة ، والعلم والإيمان ، ويمتزج فيها الغيب بالواقع ، والعبادة بالسياسة ، والفرد بالمجتمع . .

إنَّه الإسلام الذي نحمله من موقع الإشراف الذي ينفتح على الحياة بكل عمقه وامتداده ، ليجعل الحياة تتحرك في إشراقة الروح المتحركة في نطاق الواقع .

ولنتذكر دائماً أنَّه لا معنى للتفكير بوحدة إسلامية على مستوى العاطفة والفكر والشريعة والسياسة بدون إسلام ، لأنَّ الصفة التي نحملها في كلمة الإسلام ، ليست مجرد واجهة تشير إلى المجموعة البشرية العددية التي نمثّلها ، بل هي كيان متكامل في الفكر والروح والعمل في ما يمثّله من قاعدة للفكر والعاطفة والحياة .

ليبق لنا من الإسلام المضمون ، لا الشكل والصورة والإطار ، وبذلك يمكننا التحرك من أجل معالجة المشاكل التي تحكم واقع المسلمين ، ويمكننا أن نلتقي مع الآخرين من غير المسلمين ، ونتعاش معهم من مواقع الانفتاح المنطلق من الفكر والروح ، لا من مواقع الانغلاق القائم على التعصب والبغضاء .

أطلقوا الإسلام في الهواء الطلق ليتنفس في دائرة الضوء ، ولا تحبسوه في العلب الطائفية المظلمة ، فإنَّكم بذلك تحررون أنفسكم وواقعكم وحاضركم ومستقبلكم من كل أغلال الآخرين . لنكن الفكر الذي يصرخ ويوحى ويحاور في ساحات الإنسان ، لا الطبل الذي يرنّ ويدوي في الفضاء ، ولكنه لا يحمل لنا إلّاّ الدويّ والرنين من دون معنى ولا حياة . ولنكن الواقع الذي لا يبتعد عن مواقع السموّ ، لا الخيال الذي يحلق بعيداً في الفضاء في متاهات الأوهام والأحلام .

موانع ومعوقات أمام مشروع الوحدة

لا تزال مسألة الوحدة الإسلامية ، القضية المركزية الأولى للعلماء والمفكرين العاملين في خطّ الإسلام المنفتح على مواقع القوة في قضايا الحياة والإنسان ، والمطلّة على الصراع الفكري أو السياسي الحادّ الذي يمثّل التحدي الكبير للواقع الإسلامي كلّّه ، على صعيد الحركة الإسلامية العالمية ، أو في نطاق الواقع التقليدي الذي يتحرّك فيه المسلمون في امتدادهم التاريخي وفي التزامهم الإسلامي العام .

الاختلافات المذهبية وتباين مقاربتها

وقد كثرت المداخلات الفكرية والسياسية في طروحاتها المتنوعة ، فثمة حديث يحاول إغفال الاختلافات المذهبية وتجميد الحديث عنها ، انطلاقاً من المرحلة السياسية الصعبة التي تفرض ذلك على أساس المصلحة الإسلامية العليا ، لا سيما إذا لاحظنا أنّ القوى المضادة ، تعمل - بكلّ تخطيط وقوّة - على الاستفادة من الثغرات المذهبية بين المسلمين من أجل إضعاف الواقع الإسلامي كلّّه .

في المقابل ، هناك من يرى أنَّ الهروب من بحث التنوع المذهبي يمثل تخديراً للمشكلة ، واستسلاماً للسلبيات الخطيرة الناتجة من تجذر المذهبية في وجدان الإنسان المسلم ، خصوصاً وأنها تحولت إلى دائرة مغلقة لا تسمح لأحد باختراقها ومناقشتها في مواطن الخلل الفكري الذي يكمن في خطوطها العامة والخاصة ، وبالتالي ، فإنَّ التزام أصحابها بها قد يفوق في عمقه الشعوري الالتزام بالإسلام ، ما يجعل التكفير المتبادل بين أتباع هذا المذهب أو ذاك ينتشر من هذا المناخ النفسي الذي يتحول إلى غمط ثقافي يتجلى في تفضيله للكافرين على المسلمين من أتباع المذهب الآخر بقوله : ﴿هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلاً﴾ (النساء : ٥١) .

انطلاقاً من هذه النظرة ، يعتبر هذا الرأي أنَّ إبقاء الواقع الفكري في الدائرة الإسلامية المذهبية على حاله ، قد يعطل الفعالية الإسلامية المطلوبة بالحاح على الصعيد السياسي ، لأنَّ المذهبية تجاوزت الدائرة التقليدية لتتطال الخط الحركي الإسلامي ، بحيث لم يعد التعاون بين المسلمين في هذا الميدان أو غيره منطلقاً من عمق الإحساس بوحدة الانتماء ، بل قد يكون وجهاً من أوجه التحالف السياسي بين فريقين توحدتهما رحلة مشتركة في بعض مواقع الطريق من دون لقاء حول الهدف الكبير في نهاية المطاف . لذا ، فإنَّ من الصعب إيجاد وحدة إسلامية على الصعيد السياسي في مثل هذا الجوَّ المليء بالحساسيات المذهبية الثقافية ، والتعقيدات الداخلية الحادة ، التي قد تتحرك في بعض المراحل الأشد قسوة وصعوبة وحيوية ، لتسقط الهيكل على رؤوس الجميع ، ولهذا فلا بُدَّ من الانصراف إلى دراسة الوحدة في المسألة الثقافية ، لاسيما العقائدية المتصلة

بالتفاصيل في هذا المورد أو ذاك ، بغية تأسيس القاعدة الصلبة التي يلتقي عليها الجميع ، والانطلاق منها في التعاطي الإيجابي المنفتح على كلّ التنوّعات الفكرية المتحركة .

وإذا كنّا نؤكد خطورة المسألة الثقافية باعتبارها تدخل في إعداد الوجدان الفكري العقائدي للشخصية الإسلامية ، وتؤسّس لكلّ تصوراتها ومفاهيمه المنفتحة على حركة الواقع بما يؤدي لاثصالها بكلّ الأبعاد السياسية والاجتماعية والذاتية ، فإنّنا لانجد هناك سهولة في مقارنة هذه المسألة من جوانبها المختلفة .

الوحدة السياسية أقرب إلى الواقع من سواها

على أنّ سخونة المسألة السياسية التي تمثّل التحدي الكبير للواقع الإسلامي كلّهُ ، انطلاقاً من أنّ المسلمين يخوضون أكثر من معركة سياسية واقتصادية أو أمنية أو أخلاقية ، مع الكفر العالمي تارة ، ومع الاستكبار العالمي أخرى ، تجعلنا نعيش حاجة ملحة للتوصل إلى وحدة في الموقف ؛ آية وحدة ، أو إلى لقاء في أيّ موقع ؛ أيّ لقاء ، من أجل مواجهة الأخطار المتحركة في كلّ مكان ، ما يفرض على المسلمين تجميد خلافاتهم ، وتبريد حساسياتهم ، وتقديم بعض التنازلات حول هذا الخطّ المذهبي أو ذاك على مستوى المرحلة ، لأنّ الخيار الذي قد نواجهه في الموقف الحاضر ، هو إمّا أن يبقى الإسلام ممتدّاً في الواقع الإسلامي ومرسخاً في الوجدان العام ، وإمّا أن تتجمد العصبية المذهبية في دوائرها النفسية الخائقة ، وتبقى هذه المذهبية الخائقة هي الأساس ، حتى ولو أدّى ذلك إلى موت الإسلام على صعيد الأمة .

وربما كانت الوحدة الإسلامية في المسألة السياسية أقرب الوحدات إلى الواقعية ، من حيث المبدأ ، بعيداً عن التفاصيل ، لأنَّ أية دولة إسلامية أو أية جماعة إسلامية ، تخضع لضغوط سياسية أو اقتصادية أو أمنية بالمستوى الذي لا تملك فيه الفرصة الواقعية لمواجهةها بمفردها ، ما يجعلها بحاجة إلى الدول الأخرى ، أو الحركات أو الجماعات الأخرى ، من خلال تداخل المصالح وتشابكها على الساحة الإسلامية ، الأمر الذي يجعل الحاجات متبادلة هنا وهناك ، وهذا ما لاحظناه في لقاءات سياسية رسمية على مستوى الدول في المحاور المتحركة المتعددة تبعاً لتعدد الظروف ، أو في اللقاءات الشعبية على مستوى الحركات أو الجماعات الإسلامية تبعاً لضغط التحديات ، وهو توجه لا يخلو من بعض الإيجابيات ، كتشبيت موقف ، وإيقاف وضع ما معرض للانهيار في جانب ، أو تشجيع بعض المشاريع في جانب آخر ، أو في إيجاد حالة معقولة من التشاور حول مختلف القضايا المشتركة ذات الحيوية الحاسمة .

لا شك أنَّ الآفاق مفتوحة لإمكانية بناء عمل إسلامي وحدوي في الميدان السياسي ، إلا أنَّ ترسيخه يتوقف في المقابل على مدى نجاحنا في معالجة الجذور الثقافية للانقسامات والمشاكل التي تهدد السياسة الوحدوية ، وهو ما نحاول معالجته على مختلف الصعد التي تتجلى فيها الثقافة الإسلامية ، ما يدخل في تأصيل المفاهيم ، وتوجيه الانطباعات الفكرية والشعورية في شخصية الإنسان المسلم وعلاقته بالإنسان المسلم الآخر ، وذلك ضمن نقاط محددة هي :

الذهنية الموضوعية ... والخطوات الأربع للوحدة

يؤكد هذا المفهوم ضرورة الابتعاد عن الذهنية العاطفية الانفعالية التي تنظر إلى المفردات الخلافية المذهبية بطريقة القداسة الدينية ، باعتبار أن أي شيء يتصل بالإيمان الديني يمثل مقدساً روحياً لا يسمح للإنسان المتدين لنفسه أو للآخرين بالمساس به في عملية الجدل والمناقشة ، لأنَّ الذهنية التقديسية لا تسمح بالنقاش في المقدسات .

ولاشك أن هذه الذهنية بعيدة عن المنهج القرآني في الحوار الذي نعتبره أكثر المناهج الحوارية عقلانية ، ونرى أنه يمكن للمسلمين أن يخضعوا لهذا المنهج على مستويات أربعة ، هي الموضوعية والأسلوب والمرجع والحرية .

أولاً : على المستوى الموضوعي ، يبعد المنهج الذات في قناعاتها الحاسمة عن الدخول كعنصر سلبي في الحوار ، ليجعل المسألة حواراً فكرياً يشك صاحبه فيه ، في أسلوب العرض ، مع فكر يواجه من صاحبه حالة الشك نفسها لدى الآخر ، وهذا هو مضمون قوله تعالى : ﴿وَأَنَا أَوْ يَاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ (سبأ : ٢٤) .

ثانياً : وعلى مستوى الأسلوب ، يبحث المنهج عن مواقع اللقاء مع الآخر في الطريق إلى الحوار حول مواقع الخلاف ، حتى وإن كانت مواقع اللقاء تختزن في داخلها خلافات تفصيلية متنوعة ، لأنَّ الخطأ القرآني يطرح الوفاق المبدئي بعيداً عن التفاصيل ، وذلك من خلال الفكرة الإنسانية التي يفتح فيها الإنسان على الحوار الخلافية بروحية الحوار الوفاقي ، لأنَّ مستوى الروحية وطبيعتها هو الذي يساهم

في النتائج الإيجابية الحاسمة ، بلحاظ أن الحوار هو فعل إنساني ، وليس مجرد كلمات تتطاير في الهواء ، ما يجعل لحالة الإنسان النفسية دوراً كبيراً في حل المشكلة الفكرية ، لتدخل الحالة الفكرية بالحالة الإنسانية في حركة الحوار . وهذا هو مضمون قوله تعالى :

﴿ قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون ﴾ (آل عمران : ٦٤) .

وقوله تعالى : ﴿ ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن إلا الذين ظلموا منهم وقولوا آمنا بالذي أنزل إلينا وأنزل إليكم وإلهنا وإلهكم واحد ونحن له مسلمون ﴾ (العنكبوت : ٤٦) .

وإذا كانت مواقع اللقاء بين المسلمين وأهل الكتاب ، مع البعد الشاسع بينهم في التفاصيل ، تغري بالانطلاق من قاعدة مشتركة في الحوار وفي الحركة ، فكيف يمكن للمسلمين المتعددي المذاهب ، أن لا يفكروا في قاعدة اللقاء الفكري والروحي والفقهي ليكون ذلك أساساً لانطلاقة الحوار فيما بينهم ؟ !

ثالثاً : أما على مستوى المرجع ، فهو يقود المسلمين جميعاً إلى إرجاع الأمر الخلافى إلى الله والرسول في الكتاب والسنة ، باعتبار أنهما المصدر الأصيل ، والمنطلق الأساس في الإسلام كله عقيدةً وشريعةً ومنهجاً وحركة في الحياة ، فيكون قولهما الفصل على أساس القاعدة الإيمانية التي يقف عندها الإنسان المسلم

ليعبر عن إسلامه المطلق لله في كتابه ، وللرسول في ما ألهمه الله سنته ، وذلك هو قوله تعالى : ﴿فإن تنازعتم في شيء فردوه إلى الله والرسول﴾ (النساء : ٥٩) ، وقوله تعالى : ﴿وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم﴾ (الأحزاب : ٣٦) .

رابعاً : وعلى مستوى الحرية ، فإننا نلاحظ أنَّ قضايا الفكر ليس لها دور في ذاتية الذات إلّا من خلال القنوات الخاصة للإنسان ، بحيث تكون جزءاً من فكرة سرعان ما تتعمق في بناء شخصيته ، الأمر الذي يجعل علاقة الذات بها علاقة قناة خاضعة للمعطيات الفكرية التي فرضتها ، فإذا تبدلت المعطيات أو ظهر الخطأ فيها وانفتح الإنسان على قنوات جديدة ، فإنَّ الذات تتحرك لمصلحة هذه النتيجة . وعليه ، فلا معنى للعصبية المختنقة في داخل الشعور ، لأنّها تعني الانغلاق الذي يوحى بالثبات الفكري لما لا يملك في داخله حتمية الثبات .

وقد أراد الله للناس أن يتخففوا من ضغط العقيدة الموروثة ، عندما نقد المنهج السلبي الذي كان يتبعه المشركون في عهد الدعوة بمنطقه التقليدي ، والذي تكلم الله تعالى عنه بقوله : ﴿إنّا وجدنا آباءنا على أمة وإنّا على آثارهم مقتدون﴾ * قال أولو جئتكم بأهدى مما وجدتم عليه آباءكم قالوا إنّا بما أرسلتم به كافرون﴾ (الزخرف : ٢٣-٢٤) . فهو منهج يغلق الباب على الحوار ، لأنَّ المسألة وصلت إلى الطريق المسدود الذي لا مجال فيه لحوار أو انفتاح على الفكر الجديد في نقده للعقيدة المألوفة ، فليست القضية قضية فكر يتحرك في خط القناة ، بل هي قضية قناة منطلقة من الواقع الموروث بفعل الألفة الذهنية ، ومن خلال الامتداد

التاريخي الذي يفرض نفسه على الناس باعتبارهم فريقاً معيناً يتميز عن فريق آخر من حيث التوزيع الطائفي الذي يجعل من الانتماء الديني أو المذهبي عنواناً لهذه الجماعة أو تلك ، بحيث يكون الانحراف عن بعض مفاهيمه أو خطوطه ابتعاداً عن سلامة الجماعة وخصوصيتها ، واقترباً من الجماعة الأخرى ، ما يعني أن هناك إساءة إليها في عناوينها الحيوية في وجودها العام .

وهكذا تحجّرت الذهنية الثقافية ، فلم يعد لها أيّ انفتاح على الحرية الفكرية التي تتحرك لإعادة النظر في التراث والمألوف والمنهج الفكري في مواجهة القضايا الجديدة ، من أجل تأكيد الفكرة على منهج جديد من الاستدلال ، أو رفضها على أساس عناصر الخطأ في داخلها التي اكتشفت من خلال البحث أو الحوار .

وقد يصّرّ الذين يلتزمون بكلّ العقيدة الموروثة ، حتى لو اكتشفوا فيها بعض الأخطاء أو الانحرافات ، على مواقفهم الفكرية والثقافية والعقائدية ، فيتكلمون في الدفاع عنها بطريقة جدلية عقيمة .

وقد لا يلتفت هؤلاء إلى أنّ التزامهم إذا كان منطلقاً من روحية التقوى الدينية في الحفاظ على المقدسات ، فإنّ عليهم أن يعرفوا أنّ قداسة أيّ مفهوم ، لا تنطلق من كونه تراثاً للطائفة أو المذهب ، بل تنطلق من عمق الحقيقة الدينية ، الخاضعة للبراهين والحجج العلمية من خلال المصادر الأصيلة للفكر الإسلامي وفي مقدمتها الكتاب والسنة ، ما يفرض عليهم أن يحركوا الحوار الفكري لاكتشاف الأساس العميق للمسألة الإسلامية في الدائرة الثقافية . وفي ضوء هذا ، فإنّ التقوى تتمثّل بتجديد النظر إلى المفردات العقائدية والمفاهيمية ممّا يثور الجدل حوله

بين الناس ، لتكون العقائد أو التصورات الفكرية منطلقة من الحجة والبرهان ، بحيث تكون الحجة لهم في التزامهم العقائدي أمام الله ، ويملكون بالتالي الجواب على أكثر من علامة استفهام مما يثيره الآخرون .

نقاط محورية في الخلافات المذهبية

أ- الخلاف في الإمامة والخلافة:

إنّ المسألة الحيوية في الخلاف المذهبي بين السنة والشيعة تتمحور حول الخلافة والإمامة ، التي تعتبر الأم لكل الخلافات الفقهية والكلامية ، من حيث إنّ كلا من هذين العنوانين تحوّل إلى مدرسة لها مناهجها ، وأفكارها ، وخطوطها المذهبية الثقافية ، وعصبياتها الطائفية . ولا يزال المسلمون يعيشون في الحلقة المفرغة ، حيث يحاول كل فريق منهم أن يعود إلى نقطة الصفر التي انطلق منها أسلافه في عملية اجترار وتقليد .

وتتمحور المشكلة في هذه المسألة حول نقطتين أساسيتين ، هما :

أ- نزاع حول حجّة الرأي

لزم عن النزاع حول شرعية الخلافة نزاع آخر حول «حجية» رأي الخليفة الكلامي أو الفقهي ، فجري تناول موضوع الحجة الشرعية ، وطبيعة الحكم الشرعي باعتبار شرعية موقعه ، لتكون آراؤه وفتاواه مصدراً للشرعية الإسلامية ، كما لزم عن ذلك مسألة أخرى هي حجية قول الصحابة لجهة الثقة باجتهاداتهم الفكرية أو الفقهية ، حتى يمكن للناس أن يلتزموها في مجالاتهم العقائدية أو العملية .

وربّما كان بحث هذا الجانب العملي في الواقع الإسلامي أكثر قدرة على الإيصال إلى النقاط المشتركة من البحث في مسألة الخلافة والإمامة التي تحولّت إلى مقدسات عميقة في وجدان المسلمين من السنة أو الشيعة .

وليس معنى ذلك الابتعاد عن هذا البحث في الدائرة العلمية للحوار ، فلا يزال هناك مجال لذلك ، لا سيما في المناخ الجديد الذي أصبح يسود الأجواء الثقافية المعاصرة التي أصبحت أكثر موضوعية من الأجواء الماضية ، بل معنى ذلك ، أنّ مسألة الحجّية هي أكثر ارتباطاً بالجانب العلمي للواقع الإسلامي من تلك المسألة ، بل إنّ البحث فيها يمثّل بعض امتدادات ذلك البحث وإحياءاته ، وهذا هو رأي المرجع الديني الكبير السيّد حسين البروجردی (المتوفى سنة ١٣٨٠هـ) ، الذي نقل عنه أنّه كان يقول : إنّ قضية الخلافة تحولّت - في دائرة السلب أو الإيجاب - إلى البحث عن الحجّية وعدمها ، ما يجعل للمسألة بُعداً حيويّاً في الخطّ الإسلامي المعاصر ، حيث لا يشعر المتحاورون بأنّ القضية تتصل بالجانب التاريخي الذي لا يمتد إلى واقعنا ، لأنّ الأشخاص الذين نختلف على شرعيتهم في الخلافة قد انتقلوا إلى رحاب الله ، بل يشعرون أنّها تتصل برأي هذا الخليفة أو الإمام أو فتواه ، ليعمل الناس بها من موقع الشرعية أو ليرفضوها من موقع اللاشرعية .

وفي هذا الجو ، قد تتضاءل السلبيات النفسية في أجواء البحث ، لأنّ عنصر المقدّس في الفكرة أو الحكم الشرعي قد لا يرقى إلى عنصر المقدس في الشخص ، لأنّ البحث قد يتحرك في الحديث عن عناصر الحجّية وشروطها وامتداداتها ، بحيث تنفتح على آفاق ثقافية أكثر رحابة وسعة من الآفاق التقليدية في البحث ،

وقد نصل ، من خلاله ، إلى المنهج الجديد في قراءة النصوص الإسلامية من الكتاب والسنة ، أو في قراءة الجانب التاريخي المتصل بالأحداث والأشخاص ، بما يمكننا معه من الحصول على نتائج إيجابية جديدة حاسمة .

ب- خلاف حول وثاقة الحديث

توثيق التراث ، سواء من خلال الأحاديث الواردة عن النبي محمد (ص) أو من خلال التفسير (الصحابي) أو (الإمامي) للقرآن الكريم ، فقد اختلف المسلمون اختلافاً كبيراً واسعاً حول هذه المسألة ، الأمر الذي جعل أتباع هذا المذهب - من مدرسة الإمامة - يفقدون الكثير من مصادر الاجتهاد الإسلامي من الأحاديث الكثيرة التي رواها الصحابة عن النبي محمد (ص) ، لعدم الثقة بأسانيدھا من خلال أكثر من علامة استفهام حول وثاقة هذا الصحابي أو ذاك ، في الوقت الذي يرى الفريق الآخر عدالة الصحابة ، الأمر الذي قد يفرض على الفريقين البحث العلمي في ذلك أو في شروط التوثيق للنص الحديثي وفي تطبيقاتها الواقعية في الجانب التاريخي المتصل بحياة هؤلاء الأشخاص .

وقد ينطلق الفريق الآخر من مدرسة الخلافة بعيداً عن التراث الضخم في أحاديث أئمة أهل البيت (ع) ، فلا يرون أحاديثهم حاسمة في المسألة الكلامية أو الفقهية ، لأنهم لا يرون آراءهم حجة مطلقة ، كما لا يعتبرون هذه الأحاديث متصلة الأسانيد بالنبي محمد (ص) ، فينظرون إلى ما يرويه الأئمة عن النبي محمد (ص) على أنها أحاديث مرسلة ، لأن الأئمة لا ينقلون الحديث عن النبي (ص) (معنعناً) ، بل يطلقونه (مرسلاً) ، فينسبونه إليه (ص) مباشرة من دون

واسطة ، بينما يرى فريق (مدرسة الإمامة) ، أن الأئمة ، في كل أحاديثهم ، ينطلقون من كلمات الرسول ، حتى في ما لا ينسبونه إليه ، لأن الإمام جعفر الصادق (ع) كان يقول في ما روي عنه ما مضمونه : «حديثي حديث أبي ، وحديث أبي حديث جدي ، وحديث جدي . . حديث رسول الله»^(١) ، هذا ، إضافة إلى اعتقاد فريق (مدرسة الإمامة) بعصمة الأئمة (ع) عن الخطأ ، ما يجعل حديثهم يمثل الحقيقة الحاسمة التي لا مجال للجدل فيها ، إذا صحت الأحاديث المنقولة عنهم .

وربما كان توثيق أحاديث أهل البيت (ع) مشكلة معقدة من حيث اختلاف الرأي في أسس التوثيق للنصوص الماثورة عن النبي محمد (ص) ، وفي طبيعة الحقيقة التاريخية في وثاقة هذا الراوي أو ذاك ، ما يجعل الصورة غير واضحة الملامح في التعبير عن الخطوط الفكرية والفقهية في منهج أهل البيت الإسلامي .

وقد تزيد المسألة إشكالاً إذا لاحظنا اضطراب الأحاديث المروية عنهم من حيث التعارض والتنافي بين الروايات ، لا سيما أن بعضها قد يكون صادراً عن راوٍ واحد يروي الفكرة برواية ليروي خلافها برواية ثانية ، وهنا يقع الخلاف حول تفسير ذلك وتوجيهه بالتقية تارة وبغير ذلك أخرى .

وهكذا نجد أن «مدرسة الخلافة» و «مدرسة الإمامة» في امتداداتهما الفكرية ،

(١) بحار الأنوار ، ج : ٢ ، باب : ٢٣ ، ص : ١٧٨ ، رواية : ٢٨ .

يواجهان أكثر من مشكلة في «التوثيق» وفي «الاجتهاد»، بحيث يمكن لهما أن يجدوا الكثير من فرص البحث العلمي التي قد تؤدي إلى بعض اللقاءات العملية في أكثر من خطّ فكري أو فقهي إذا توفرت لها الذهنية العلمية الموضوعية الجدية المخلصة للإسلام أكثر من إخلاصها للعصبية المذهبية .

ج - حركة الاجتهاد والتعامل مع النص

إنَّ حركة الاجتهاد الفقهي ، قد انطلقت في الواقع الإسلامي السائد ، من قواعد ثابتة في طريقة فهم النص ، حتى أنَّ الأصوليين لا يزالون يجتروّن النظريات التقليدية في مسائل «العام والخاص» و «المطلق والمقيد» و «المفاهيم» و «الأوامر والنواهي» وغير ذلك ، حتى انطبعت الذهنية الأصولية بهذا الطابع ، وأصبح الفهم الفقهي خاضعاً لتلك القواعد الموضوعية .

ونحن لا نريد أن نطلق حكماً سلبياً ضد هذا الاتجاه الأصولي في تقعيد المنهج في فهم النص ، ولكننا نريد للبحث الأصولي الفقهي أن يفتح على الأساليب الحديثة في فهم الكتاب والسنة ، بحيث لا ينظر إلى كلِّ حديث بمفرده كما لو كان شيئاً قائماً بذاته ، بل ينظر إليه كجزء من مجموعة متكاملة متداخلة في معالجتها للفكرة ، فذلك هو الذي يجعلنا نتفهم الهيكلية العامة للخطوط الموضوعية للفكرة ، سواء في ما تلتقي به المفردات أو في ما تفرق فيه ، لا سيما إذا كانت الأحاديث الصادرة عن أكثر من مصدر لا تختلف مصدريتها ، باعتبار أنَّ الجميع ينطلقون من قاعدة واحدة ، ثمَّ قد يكون للبحث التاريخي دور في إضاءة هذا الجانب أو ذاك في أجواء هذا النص أو ذاك ، مع ملاحظة هامة ، وهي أنَّ كثيراً من

الأصوليين قد دأبوا على تأويل هذا النص لإيعاده عن خطأ المعارضة للنص الآخر ، بطريقة لاتتسجم مع القواعد العامة للاستعمالات الصحيحة في اللغة العربية ، وهو ما يسميه البعض «بالجمع التبرعي» الذي يتبرع به الفقيه للخروج من ضغط التعارض بين هذا الحديث أو ذاك ، في الوقت الذي لاتنجح فيه تلك المحاولة لإخضاع هذا (الجمع) لقواعد التفاهم بين الناس .

وقد نلاحظ في هذا الاتجاه النقدي ، أنَّ الأصوليين يعتبرون الخاص قرينة على المراد من العام ، والمقيد دليلاً على المضمون الجدي للمطلق ، فيحملون العام على الخاص ، والمطلق على المقيد ، بحجة أنَّ الطريقة العقلائية في أسلوب التفاهم قائمة على ذلك ، لأنَّ المتكلم قد يطلق العام ليكون قاعدة عامة ، وهو يريد الخاص ، ولكنَّه يؤخره لمصلحة هناك .

وقد نأخذ على ذلك ، أنَّ هذا الأمر قد يصحَّ فيما إذا كان المتكلم ينطلق في توزيعه لحركة النص في المدى الزمني بين العام والخاص ، أمَّا إذا كان يتكلم مع شخص - جواباً عن مسألة في محل الابتلاء - بالعام ، ثمَّ يتكلم مع شخص آخر ، في الجوّ نفسه ، بالخاص ، فقد يجد الإنسان في هذه التجربة موقعاً للتعارض لا للتكامل . وهكذا ، ربّما يكون العام - كما في حال الحصر - أكثر ظهوراً من الخاص ، فكيف يقدم الخاص عليه مع أظهريته عليه .

إنّنا لانريد أن نعالج هذه المسائل بطريقة أصولية تفصيلية ، ولكنّنا نريد الإشارة إلى أنَّ هذا الخط الثابت للأبحاث اللفظية ، كان مبنياً على نظريات قديمة خاضعة

للمنهج التقليدي في فهم اللغة العربية من حيث المضمون الجدي للنص ، ما يفرض علينا أن نتخفف من ضغط هذا الثبات الذي لا أساس له من الناحية المنهجية الحاسمة ، لنفكر في التجارب الأخرى الجديدة التي استطاعت أن تصل إلى مستوى متقدم من النتائج الفكرية في استنطاق النص بطريقة أكثر دقة وشمولية ، الأمر الذي يقتضي منا دراسة جديدة للنظريات الحديثة في قواعد فهم اللغة بطريقة وبأخرى ، بعيداً عن عقدة الانفتاح على كل جديد مهما كان ، بل بروحية البحث عن الجديد في الفكر ، لاكتشاف العناصر الجديدة في التجربة ، من أجل أن نطل - من خلالها - على بعض العناصر الحيوية في إغناء تجربتنا الثقافية المنطلقة من المصادر المفتوحة على اللغة العربية ، لعل ذلك يضيء لنا الدرب من أجل فهم جديد .

د - عنصر الثبات في فهم اللغة لا يخدم الاجتهاد

وربما كان من المفيد في هذا المجال ، أن نشير إلى المدرسة العقلية التي فرضت نفسها على الذهنية الأصولية الفقهية بالطريقة الفلسفية في إخضاع النص الإسلامي لقواعدها الدقيقة ، بحيث يقف الإنسان أمامه كما يقف أمام خريطة هندسية متداخلة الخطوط والعلامات ، بشكل جامد لا مجال فيه لأي استيعاء أو لأي انفتاح على الجانب الوجداني للوعي اللغوي ، الأمر الذي جمّد النص وأفقده حيويته .

ونحن لا نريد ، في هذه الإشارة ، أن نغفل دور الاتجاه العقلي في معالجتنا للمضمون النصي من خلال الألفاظ ، ولكننا نلاحظ أن الوسائل اللغوية الخاضعة

للفهم العرفي ، وللايحاءات المتنوعة التي تتجاوز المعنى اللغوي للكلمة إلى كل الحركة التاريخية للاستعمالات العامة المحملة بالكثير من الأحاسيس والمشاعر الداخلية التي يخترنها الإنسان في استعماله للكلمة ، وغير ذلك ، تختلف عن الوسائل العقلية لاستنباط النص ، ولذلك ، فلا بُدَّ لنا من رصد حركة الاتجاه العقلي على أساس مقاييس الاتجاه العرفي الذاتي اللغوي في وعي النص .

إننا في ملاحظتنا المتنوعة في هذه النقطة ، نحاول توجيه التجربة الاجتهادية في البحث اللغوي ، إلى أنَّ عنصر الثبات في قواعد فهم اللغة لا يخدم قضية الاجتهاد المستندة إلى وعي النص ، بل قد يجمدها ويعطلها ، لأنَّها سوف تقف عند فهم القدماء الذين قد يمنحهم القدم قداسة خاصة يرتجف المحدثون أمامها ، فلا يملكون الجرأة على مخالفتهم في ما يرتأونه ، أو يجدون حرجاً في الإعلان عن ذلك الخلاف بطريقة فتوى أو بحث أو نحو ذلك .

وربَّما يرجع إلى هذه الذهنية التقليدية في تقديس القديم أو المشهور من الفقهاء والأصوليين ، الواقع الثابت في المسألة الأصولية ، التي قد تكون متطورة في الشكل ولكنها متجمدة في المنهج والمضمون ، وقد تكون متحركة في المفردات ، ولكنها تبقى في أفق التجريد العقلي الذي يقع تحت تأثيرات الفرضيات الخيالية ، أو التكاليف العقلية التي لا تتمخض عن ثمرات عملية على مستوى الواقع العام للإنسان ، فقد تجد أبحاثاً تحمل الكثير من الدقة ، ولكنها تتكلف ذلك كله لتستدل بالبرهان على ما يستقل به الوجدان .

ولعلَّ هذه الحيوية التي نريد تحريكها في البحث الأصولي ، هي التي قد تبعدنا

عن الوقوف جامدين أمام العناوين الأصولية التي استهلكناها في مذهبياتنا الفقهية والأصولية ، فلم نتقدم خطوة واحدة نحو الآخر ، إذ لا يزال القياس والمصالح المرسلة والاستحسان وغيرها ، مقبولة بالمطلق من مذهب معين ومرفوضة بالمطلق من مذهب آخر ، لأن القضية هنا وهناك في الإيجاب والسلب ، قد وصلت في الوعي الأصولي إلى مستوى الحقيقة الحاسمة ، وهي في الواقع لا تملك يقيناً حاسماً يلغي إمكانيات الحوار ويطور مسألة السلب الكلي إلى الإيجاب الجزئي ، والإيجاب الكلي إلى السلب الجزئي ، لأن الأدلة التي يقيمها هؤلاء على القبول أو يقيمها أولئك على الرفض ، ليست أدلة يقينية بالمعنى الوجداني البديهي ، بل هي أدلة فكرية بالمعنى النظري البرهاني التحليلي ، فإذا كانت الأسس التي قد يعتمدها «أهل السنة» في «حجية القياس والاستحسان والمصالح المرسلة» ، هي اعتبار الظن بالعلة المشتركة بين الموضوعات أو بالمصلحة الكامنة في داخل هذه الواقعة المنفتحة على الخط العام للمقاصد الشرعية التي تخضع لها المصالح والمفاسد التي هي ملاكات الأحكام ، أو بالأساس الذي يقوم به حكم على آخر ، فقد يفرض علينا البحث العلمي الدخول في حوار حول مدى حجية الظن في الخط العام ، أو في الخطوط التفصيلية ، وفي طبيعة الأدلة العقلية المنفتحة على العمق الشرعي في إدراكات العقل ، أو الأدلة الشرعية المباشرة ، لنكتشف أساس الحجية في هذا أو ذاك من خلال وجدان عقلي أو شرعي .

وربما نجد ، في هذه التجربة ، بعض ما نكتشف فيه أننا قد نلتقي بالقياس في

العلة المنصوصة أو المستنبطة بطريقة يقينية ، أو الثابتة بحجة شرعية على علية هذه الخصوصية للحكم الشرعي ، كما قد نكتشف الوسائل اليقينية أو الشرعية المعبرة لاكتشاف مقاصد الشرع القطعية في هذا الموضوع أو ذاك ، أو لمعرفة ملاكات الأحكام التي يمكن من خلالها وعي الأهمية في ملاك هذا الحكم في هذا الموضوع بالدرجة التي يقدم بها الحكم الآخر في موضوع آخر ، بحيث يتجمد أحدهما في دائرة «المهم والأهم» .

وفي ضوء ذلك ، قد نجد أكثر من مجال للالتقاء في بعض هذه العناوين ، ما قد يخفف عنا الكثير من العقد الشعورية التي تتحول إلى عقدة مذهبية في الانفصال الفكري والفقهى والأصولي بالمستوى الذي لا مجال فيه للقاء .

وربما كانت المسألة المذهبية خاضعة للجانب الشعوري في حركتها في داخل النفس أكثر من خضوعها للجانب الفكري ، لأنَّ عنصر الإحساس في الذات هو الذي يدفع عنصر التفكير ويحدده ويحركه من أجل الاتجاه إلى مواقع اللقاء بموضوعية ، أو إلى مواقع الخلاف بانفعال .

ولعلَّ هذا هو الأساس في المنهج القرآني في البحث عن مواطن للالتقاء مع الآخر تحت عنوان «الكلمة السواء» و «الجدال بالتي هي أحسن» المنفتح على الإيمان بما أنزل إليهم وأنزل إلينا والإيمان بإلهنا وإلههم الواحد والإسلام له في كل شيء ، لأنَّ هذا الأسلوب قد يخفف الكثير من العصبية ويبتعد بالإنسان عن الانفعال .

الحاجة إلى منهج كلامي وتفسيري جديد

وقد نكون بحاجة - في هذا الاتجاه - إلى منهج دراسي جديد في الدراسات المقارنة في علم الكلام وفي تفسير القرآن وفي الفقه والأصول ، فإنّ ذلك قد يفتح لكلّ فريق نافذة على الفريق الآخر ، ما يجعل مسألة الفهم للمدارس الإسلامية المذهبية المتنوعة ، منطلقة من موقع علمي لانفعالي ، أو من مركز قريب لا من مركز بعيد ، ما قد يشجع الجميع على الحوار المباشر ، بعد أن يكونوا قد انفتحوا على الحوار من الناحية النظرية بشكل غير مباشر ، فلا يعيش الإنسان غربة عن الإنسان الآخر في الدائرة المذهبية المختلفة ، لأنّ الدراسة العلمية تجعله في عملية لقاء دائم به في المجال الفكري أو الفقهي ، من خلال مواقع اللقاء أو مواقع الخلاف ، لا سيما إذا كانت الدراسة المقارنة منفتحة على خلاف علماء المذهب الواحد ، هنا وهناك ، في اجتهاداتهم الفقهية والكلامية ، لأنّ ذلك يؤكّد له ، في وجدانه الإسلامي ، أنّ الالتزام بالإسلام لا يعني الالتزام باجتهاد موحّد ، وأنّ الخلافات الاجتهادية القائمة على الإخلاص لله ورسوله وللإسلام ، لا تعني ابتعاداً عن الخط الإسلامي الموحّد بالدرجة التي يكفر فيها المسلم الآخر أو يرميه بالضلال أو بالمروق عن الدين ، بل تعني اختلافاً في وجهات النظر المنطلقة من اختلاف فهم النص أو استichاء القواعد الأصولية والفقهية ، لتكون النتائج في نطاق «الوحدة في التنوع» أو «التنوع في الوحدة» ، من حيث انطلاق الشيعة على أساس الإسلام في خط التشيع ، وانطلاق السنة على أساس الإسلام في الخط السني ، من دون أية عصبية أو أي انغلاق .

هـ- القرآن وقضية تحريفه

يمثل القرآن القاعدة التي تنطلق منها كل المفاهيم الإسلامية في العقيدة والمنهج والشرعة والأسلوب من حيث هو نور وهدى وحياة ، كما يشكل المرتكز الأساس في الوحدة الإسلامية ؛ لأنَّ المسلمين إذا اختلفوا على القرآن الكريم ، فلا يبقى لديهم أي شيء يتفقون عليه ويتوحدون به .

وتبرز في الحملات الإعلامية المتبادلة بين الشيعة والسنة مسألة تحريف القرآن ، فالسنة يتهمون الشيعة بأنهم يؤمنون بتحريف القرآن من خلال الروايات الواردة في كتاب (الكافي) للكليني ، أو من خلال كتاب «فصل الخطاب في تحريف كتاب رب الأرباب» ، وذلك على أساس استنطاق الروايات الموهمة لذلك أو الظاهرة في ذلك ، وقد يضيفون إلى ذلك الحديث عن مصحف الزهراء (ع) الذي يتهم الشيعة بأنهم جعلوه قرآنهم الذي يؤمنون به ، وليس هذا القرآن المتداول بين المسلمين ، وذلك من خلال بعض الأحاديث الواردة في كتبهم حول هذا الموضوع ، بما قد يوهم التعبير في بعضها بما لا يقصدونه أو لا يعتقدونه .

أمَّا الشيعة ، فإنهم يتبرأون من ذلك ويقولون بأن الكتب الصادرة عن علمائهم الكبار ، وفي مقدمتهم المرجع الديني الكبير «السيد أبو القاسم الموسوي الخوئي» ، قد عاجلت هذا الموضوع بالرفض لكثير من هذه الأحاديث بسبب ضعف السند ، وبالتفسير للأحاديث الأخرى بأنها ليست في مجال الحديث عن التنزيل بل عن التفسير أو التأويل . وتم تأكيد هذه الحقيقة من خلال البحث العلمي الدقيق الذي لا يخاطب به السنة ، بل يخاطب الشيعة أيضاً ، من أجل تأكيد الحقيقة القرآنية عن

كتاب الله الذي ﴿لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه﴾ (فصلت: ٤٢) ،
انطلاقاً من الآية الكريمة : ﴿إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون﴾ (الحجر: ٩) ،
فقد تكفل الله بحفظه من الزيادة والنقصان والتحريف ، بعيداً عن أي تأويل
متكلف للآية الكريمة .

وقد صرّح الكثيرون من علماء الشيعة القدامى ، كالشيخ الطوسي والسيد
المرتضى ، بالإجماع لدى علماء الطائفة ، على أن القرآن المتداول بين المسلمين هو
كتاب الله الذي لا زيادة فيه ولا نقصان .

أمّا كتاب «فصل الخطاب» ، فإنه يعبر عن رأي صاحبه ، وقد ردّ عليه فريق من
علماء الشيعة ، مع ملاحظة أنه لا يتبنى التحريف بشكل حاسم .

وإذا كان بعض علماء أهل السنة يتحدثون عن الحديث الشيعي الرافض
للتحريف بأنه وارد على سبيل التقية ، فإن الشيعة يردون على ذلك ، بأن التقية
ليست واردة في هذا العصر بالمطلق ، لا سيما من الناحية الفكرية ، لأنهم قد نشروا
كل كتبهم المشتملة على ما يعتقدونه وما لا يعتقدونه ، أو ما يشور الجدل بينهم
حوله ، فليست هناك لدى الشيعة عقائد باطنية وكتب مستورة ومناطق مغلقة ، بل
إنهم واضعون في تراثهم الفكري الذي لا يضمنون صحة كل ما فيه ، فليس
لديهم كتاب حديث معصوم كصحيح البخاري أو صحيح مسلم ، بل إن كتاب
الكافي وغيره خاضع للنقد العلمي في تصحيح الحديث وتوثيقه حسب قواعد
علم الحديث .

وربّما كان من أوضح الدلائل على هذه الحقيقة العقائدية الإسلامية الشيعية في عصمة القرآن عن التحريف ، أنّ الشيعة في مشارق الأرض ومغاربها ، لا يملكون قرآناً آخر غير هذا القرآن المتداول بين المسلمين المجمع عليه بينهم ، حتى في لبنان ، حيث تعرضت مواقع الشيعة لكثير من ضروب الهجوم والاحتلال ، كما أنّ مكاتبهم قد تعرّضت للكثير من الاعتداءات ، ولم يستطع أحد أن يقدم للعالم قرآناً آخر ، ما يدلّ على أنّ ما يذكر في الأحاديث ، لم يستطع أن يفرض نفسه على القرآن بحيث تزيد فيه كلمة أو تنقص منه كلمة أو تحرف فيه كلمة أخرى ، الأمر الذي يوحي بأنّ هذه الأضاليل والتخرصات لم تكن موضع قناعة لأحد حتى على المستوى السري .

أمّا مصحف الزهراء ، فلم يقل أحد من الشيعة إنّه قرآن بديل أو مكمل للقرآن ، بل هو مجموعة أحاديث أطلق عليها كلمة المصحف بالمعنى اللغوي للكلمة ، لا بالمعنى الاصطلاحي المعبر عن (القرآن الكريم) ، وليس لدى الشيعة في كلّ مكاتبهم نسخة واحدة من هذا المصحف ، بل كلّ ما هناك ، أنّ بعض أئمة أهل البيت (ع) كان يروي بعض الأحاديث عنه كما يروي بعضها عن كتاب عليّ (ع) .

إنّنا نعتقد أنّ من الضروري عقد مؤتمر إسلامي بين الشيعة والسنة لدراسة مسألة رفض التحريف في القرآن الكريم ، لأنّ المسألة تتصل بالقاعدة الأساس للإسلام ، فلا يجوز أن تبقى وثاقته موضعاً للجدل ، بحيث تتحرّك الاتهامات المتبادلة بين المسلمين ليتهم فريق منهم فريقاً آخر باعتقاد التحريف ، ليكون ردّ الفعل اتهاماً مماثلاً لذلك ، استناداً إلى بعض الروايات ، ما يجعل النتيجة لدى الآخرين من غير

المسلمين أنَّ مسألة التحريف هي مسألة إسلامية ، لا شيعية خاصة .

إنَّنا نرى أنَّ هذه المسألة هي من المسائل المهمة الحيوية المصيرية التي لا ترقى إليها مسألة أخرى ، فلا بُدَّ من اللجوء إلى دراستها بطريقة علمية موضوعية مسؤولة ، ومن العمل على تنفيذ خطة إعلامية تمنع أنصاف العلماء والمبْلَغين من الحديث غير المسؤول عن هذا الموضوع ، سواء على مستوى القاعدة الإسلامية ، أو المجتمعات غير الإسلامية ، لنضمن للمسلمين أساس دينهم وشريعتهم وقاعدة وحدتهم التي يرجعون إليها عندما يختلفون ، ويعرضون عليها تراثهم عندما يشككون فيه .

وقد جاء الحديث عن أئمة أهل البيت (ع) بوجوب عرض الأحاديث الصادرة عنهم على كتاب الله ، وقالوا إنَّ «كل حديث لا يوافق كتاب الله فهو زخرف»^(١) ، و«وما خالف كتاب الله فدعوه»^(٢) ، ونحو ذلك ، ما يوحي بأنَّ ثمة وحدة للقياس لتصحيح أية عقيدة إسلامية أو مفهوم إسلامي أو حكم شرعي ، إذا حصل الريب في المصادر ، وهي القرآن .

وهناك ناحية أخرى في «قضية القرآن» وهي مسألة «التفسير القرآني» ، فقد اختلفت مدارس التفسير ومناهجه وأدواته وانفتحت على الطريقة الباطنية التي جعلت للقرآن بطوناً ، وعلى «المنهج التأويلي» الذي حوّل ألفاظ القرآن إلى رموز وألغاز لمعانٍ لا علاقة لها باللفظ . . وهكذا انطلق التفسير بالمأثور ، ليقدّم إلينا

(١) بحار الأنوار ، ج ٢ ، باب ٢٩ ، ص ٢٤٢ ، رواية ٣٧ .

(٢) (م ن) ، ج ٢ ، باب ٢١ ، ص ١٦٥ ، رواية ٢٥ .

حشداً كبيراً من الأحاديث المتعارضة المتنافرة التي يدخل الإنسان معها في متاهات فكرية لا يملك معها القارئ أي وضوح للرؤية الفكرية في هذه الآية أو تلك ، وفي هذا المفهوم أو ذاك ، وقد دخل فيه الكثير من الأحاديث الموضوعية ، ولا سيما «الإسرائيليات» ، التي تحاول تحريف القرآن الكريم عن مقاصده الأصيلية ، كما انطلق التفسير العلمي الصوفي والعرفاني وغير ذلك .

خطوات لابد منها لسلامة التفسير

إزاء هذا الواقع ، أؤكد على أن المطلوب تحقيق ثلاثة أمور :

الأول : توثيق الأحاديث التفسيرية من حيث السند من خلال دراسة الرواة الذين رووا هذه الأحاديث ، وتمييز ما هو رواية لهم ، وما هو رأي لهم ، لنعرف - من خلال ذلك - مدى صدق الراوي في روايته على أساس وثاقته ، ومدى مصداقيته في اجتهاده على أساس موقعه الاجتهادي ، لأن المشكلة أن المفسرين لم يدققوا في الروايات ، بل ربّما نجد أن بعضهم حاول إخضاع التفسير لبعض الروايات غير الموثوقة من حيث مصادرها الأصيلية ، الأمر الذي جعل من القرآن كتاباً لا يملك فيه الإنسان التصور الواضح الموثوق في محاولة الانطلاق منه إلى تأصيل العقيدة والمفهوم والمنهج .

الثاني : دراسة الأحاديث التفسيرية في مضمونها الفكري من حيث انسجامها مع القواعد اللغوية والعقلية والبيانية في المستوى الفني الإبداعي التعبيري ، فلا مجال لأي تفسير حديثي أو فكري يتنافى مع الدرجة الفنية العليا في البلاغة ، لأنّ

ذلك يسيء إلى مستوى القرآن الإعجازي في بلاغة الكلام . وفي ضوء ذلك ، لا يمكن أن نتقبل أي تفسير من خلال رواية ، إذا كان الكلام لا يتحمل هذا المعنى بحسب وضعه ، أو لا يصح استعماله في هذا المضمون من حيث قواعد اللغة ، كأن يقصد بعض المعاني من الألفاظ من دون قرينة تدل عليه ، كما إذا كان اللفظ عاماً وأريد له الخاص من دون دليل يدل عليه ، أو أريد به خلاف ظاهره من دون دليل على إرادة خلاف الظاهر ، لأن ذلك يُعتبر غلطاً في القواعد العربية .

الثالث : الانطلاق من القرآن في دراسة الأسس التي تركز عليها الوحدة من حيث ما هو رضوان الله ، ومن حيث ما هي الحقيقة الإسلامية الواحدة ، ومن حيث ما هي الشخصية الإسلامية القرآنية ، ومن حيث ما هو الخطّ الوحدوي القرآني في الكلمة سواء مع أهل الكتاب التي تؤكد كلمة سواء بين أهل القرآن و «الأمة الواحدة» في كلّ مواقعهم الإنسانية المجتمعية ، فإنّ ذلك هو الذي يحقق المعنى الوحدوي في الوجدان الإسلامي بالمستوى الذي تتحول فيه الوحدة على الخطوط المشتركة الواحدة ، إلى ما يشبه العقيدة الأصيلة في كلّ حركة الواقع الإسلامي في الموقع الإسلامي الواحد .

القرآن هو المصدر الأول

وهناك ناحية ثالثة في (قضية القرآن) ، وهي اعتبار القرآن المصدر الأول الأصيل في الاجتهاد الفقهي ، بحيث يرجع إليه الفقهاء في بداية البحث الفقهي في عملية الاستنباط على قاعدة أساسية ، وهي أنّ العناوين القرآنية هي العناوين الأصيلة التي

تحكم وتفسر كل مفردات العناوين الموجودة في السنة ، فهي التي توسعها وتضييقها ، لأنها هي الأساس في حركة الأحكام في الموضوعات ، كما أن المفهوم القرآني هو المفهوم الحاكم على كل جزئيات المفاهيم الموجودة في الأحاديث ، لأنه هو - وحده - المقياس لصحة الأحاديث وفسادها .

ولا يعني ذلك إغفال دور السنة في الاجتهاد أو في فهم القرآن ، بل يعني أن لا نقف من القرآن موقف التابع للسنة ، بل أن نقف من السنة موقف التابع للقرآن الذي هو النور الذي يضيء السنة ، ويتحرك بإشراق في قلب كل المفاهيم والحقائق الإسلامية ، لأنه هو الكلمة الإلهية الأولى الفاصلة التي أطلقت الفكرة وخطت للمنهج ، وحددت الهدف ، وقالت للنبي محمد (ص) ، أن يفصل لهم ما أجمله ، وأن يشرح لهم ما كان بحاجة إلى الشرح والتفسير . وفي ضوء هذا ، يمكن أن نلتقي عليه لتوحد في فهمه ووعي مفاهيمه والانطلاق من قاعدته في حركة الإسلام الواحد فينا كقاعدة للفكر والعاطفة والحياة .

الاتجاهات المتعددة في النظر إلى مسألة الوحدة(*)

للحديث عن «الوحدة الإسلامية» في حياة العاملين للإسلام طعم الحلم الكبير ، وذلك بالنظر إلى المشاكل الكثيرة التي يعاني منها المسلمون ، بسبب حالة التمزق التي يعيشونها ، سواء بين المذاهب أو بين الطوائف ، وبفعل ما يعيشونه من خصومات ومشاحنات ، تؤدي بهم إلى المزيد من الضعف السياسي والاجتماعي والعسكري والاقتصادي ، وإلى الشعور بانقسام الشخصية إلى شخصيات متعددة ، تتوقع كل واحدة منها داخل إطار مغلق ، ما يجعل تفكيرها مستغرقاً في الحالة الطائفية ، بعيداً عن الشخصية الإسلامية المنفتحة .

وقد استطاع هذا الواقع أن يبعد الإسلام عن حركة الحياة ، وأن يخضع المسلمين

(*) كتاب التوحيد - العدد الرابع - تأملات في الفكر السياسي الإسلامي الطبعة الأولى - جمادي الأول

١٤١٦ هـ ، أيلول ١٩٩٥ م .

العنوان الأصلي : مدخل إلى الوحدة الإسلامية .

لقوى الاستعمار والاستكبار التي استخدمت نقطة الضعف هذه ، فحولت البلاد الإسلامية إلى ما يشبه أحجار الشطرنج التي تلعب بها كما تشاء وتحركها كما تريد ، وسيطرت على كل مقدرات المسلمين ، وأبعدت حركة الحكم والتشريع في حياتهم عن الأسس الإسلامية ، وجعلتهم يعيشون إسلامهم ضمن دوائر تاريخية وعملية ضيقة ، يختزنون في داخلها كل ما يملكون من حساسيات وأحقاد وسلبيات ، وهيات لهم - في كل مرحلة من مراحل نموهم - عوامل التفتيت والضعف والتقسيم ، وقادتهم إلى حروب طائفية لا يملكون معها إلا أدوات التدمير والتقتيل لبعضهم البعض .

وهذا ما دفع الواعين من الأمة إلى طرح شعار «الوحدة الإسلامية» كهدف إسلامي كبير يعملون له بأساليب متنوعة ، ويثيرون من خلاله أمام الوحدة المشاكل الصعبة التي تؤدي إلى الانقسام في حياتهم العامة والخاصة ، في مقابل النتائج الإيجابية التي يحصلون عليها من خلال الاتحاد أو التعاون أو الوحدة .

الوحدة بين الأطروحة المثالية والواقعية

لقد اختلفت الأطروحات حول الوحدة ، فهناك الأطروحة المثالية التي تواجه المشكلة بالروح الغيبية الضبابية ، التي تحاول إبعاد المشاكل الحية عن تفكير الأمة ، بالإيحاء بأنه لا خلافات صعبة بين المسلمين ، وأن علينا تناسي القضايا الهامشية ، والوقوف صفاً واحداً كالبنيان المرصوص في مواجهة الأعداء . وهكذا يغرق الإنسان المسلم في ما يشبه الأحلام ، في أجواء عاطفية ، فيستسلم لهذا الخدر

اللذيد ، ثمَّ يرجع إلى واقع حياته اليومية ، فيجد أمامه أكثر من مشكلة حادة ، وأكثر من خلاف متحرّك في عمق ممارساته وعلاقاته .

وهناك الأطروحة الواقعية التي تؤكد على مواطن اللقاء ، كما تؤكد على مواطن الخلاف ، ولكنّها لا تضع مواطن الخلاف في الجانب الذاتي الشعوري للأمة ، بل تضعها في الجانب الفكري من نشاطها ، وتوحي ، في هذا الاتجاه ، بأنّ مثل هذه الخلافات ليست مقصورة على الفئات الكبيرة من المسلمين فيما بينها ، بل هي موجودة في داخل كلّ طائفة أو مذهب وفي أكثر من جانب فقهي أو كلامي ، ثمَّ تثير أمام المسلمين قواعد الحوار القرآني التي تدفع بالأمة لأن تناقش قضاياها في الداخل والخارج من موقع التفكير الموضوعي الهادئ الهادف إلى معرفة الحقيقة من أقرب طريق بالحجة والبرهان الواضح ، وتقود المسلمين إلى الأسلوب الأخلاقي في الحوار الذي لا يستخدم كلمات السباب والشتائم في حركة الخلاف ، بل يتحرّك من موقع الجدل بالأسلوب الأحسن وبالتالي هي أحسن ، بحيث يدفع بالأعداء إلى أن يتحوّلوا إلى أصدقاء يحملون مشاعر روحية عالية في الاهتمام بشؤون المسلمين ، وليتوجهوا إلى الله أن يساعدهم على جمع الكلمة ولمّ الشعث وحقن الدماء .

وقد عاش المسلمون تجارب الوحدة على أكثر من صعيد ، سواء في التجارب الثقافية التي أكدت الآفاق الوحدوية في الثقافة الإسلامية ، وعملت على إرجاع الخلافات إلى أسس فكرية تتصل بالمصادر الإسلامية ، كالكتاب والسنة وأمثالهما ، في أسلوب إيجابي يركز على الطابع الاجتهادي العلمي لهذا الخلاف ، أو في

التجارب الاجتماعية والسياسية التي دعت إلى تشكيل أرض إسلامية واحدة في ما يعيشه المسلمون من قضايا اجتماعية وسياسية مشتركة .

على أنَّ هذه التجارب اصطدمت بأكثر من عقبة ، بفعل ما واجهته من مشاكل الرواسب التاريخية ، والعقد النفسية ، والأوضاع الاستعمارية التي تثير السلبات ، وتعقد الأوضاع ، وتخلق الأزمات على أكثر من صعيد . . وما تزال القضية تتفاعل لتضع في كل يوم عقبة جديدة ومشكلة جديدة .

ولنناقش هذا الموضوع من ناحيتين :

الناحية الأولى : نظرة المسلمين الشيعة إلى الوحدة .

الناحية الثانية : نظرة المسلمين غير الشيعة إلى الوحدة مع الشيعة .

نظرة المسلمين الشيعة إلى الوحدة

أمّا من الناحية الأولى ، فإنَّ هناك اتجاهين في نظرة الشيعة إلى الوحدة :

الاتجاه الأول : يرى أنَّ مشروع الوحدة يعمل على تذويب الشيعة في المحيط الإسلامي العام ويؤدي إلى فقدان الركائز الأساسية لفكرة التشيع ، وهي الإمامة ، وما يتبعها من قضايا فكرية وشرعية ، فيتحول الشيعة ، بفعل ذلك ، إلى سنة ، وبذلك لن تكون عملية الوحدة إلاَّ أسلوباً من أساليب احتواء فئة من المسلمين لفئة أخرى ، لا عملية جمع للمسلمين على أساس الحقّ . ويضيف هؤلاء : إنَّنا قد نوافق على عملية التذويب والاندماج إذا كانت القضية هامشية طارئة ، يمكن

للإنسان أن يتجاوزها كما يتجاوز الكثير من القضايا الحياتية الطارئة للمحافظة على المصلحة العامة ، ولكن القضية تمثل ، في وعينا الفكري ، قضية التزامنا الإسلامي بخطّ الحقّ في العقيدة والتشريع ، لارتباطها بمسألة الإمامة ، وهي ليست مسألة شخص أو أشخاص ، أو موقف سياسي معين ، بل هي مسألة القاعدة الشرعية التي ارتكزت إليها القناعة من الدليل والبرهان ، فلا يمكن للإنسان أن يتنازل عنها ، انطلاقاً من تسوية خاضعة لأوضاع معينة .

وهكذا كانت نظرة هذا الاتجاه إلى مسألة الوحدة ، نظرة سلبية تحمل الكثير من الحذر والخوف والشك والارتباب .

الاتجاه الثاني : يرى أنّ مسألة الوحدة ليست مسألة إدخال الشيعة في محيط السنّة ، أو العكس ، بحيث تستهدف إدماج وتذويب الشخصية الفكرية الخاصة التي يحملها كلّ واحد منهما ، بطريقة عاطفية ، بل هي مسألة روحية نفسية في البداية ، كما هي مسألة فكرية علمية في النهاية ، لأنّ قاعدة التفكير الوجداني ترتكز على أساس الإيحاء للمسلمين بضرورة التمسك بالروحانية الإسلامية التي ينبغي أن تطبع شخصيتهم ، في ما تمثله الشهاداتان من عقيدة والتزام وحركة في حياتهم العامة والخاصة مهما اختلفت نظرتهم إلى التفاصيل ، الأمر الذي يثير فيهم مشاعر الوحدة ، ويحلّق بهم في آفاقها ، ويوحى لهم بمسؤولياتها ، لتكون هذه الروحانية سبيلاً من سُبُل اللقاء الذي يساعد على التفاهم والتحاور والتعاون ، فيمكن للشيوعي أن يقنع السنّي بطريقته في فهم الإسلام ، وفي ممارسته ، كما يمكن للسنّي هو أيضاً أن يقنع الشيوعي بطريقته وبممارسته ، ويمكن لهما أن يكتشفا ، من خلال اللقاء الفكري ، سبيلاً آخر .

ويضيف أصحاب هذا الاتجاه قائلين : إنَّ النتائج الإيجابية التي يحصل عليها المسلمون الشيعة في مسألة الوحدة ، لا تُقاس بالنتائج السلبية التي يعيشونها في مسألة الفرقة والخلاف الفكري والعملي الذي يتحرَّك من موقع العقدة الذاتية لا من موقع المصلحة العامة .

ويرون أنَّ حركة أيِّ صاحب فكر تتعاطى مع المحيط العام بروحية منفتحة إيجابية ، قد تستطيع أن تحقِّق لفكرها الكثير من المواقع المتقدِّمة من خلال ما تملكه من حرية وانفتاح ، ما لا تستطيع أن تحقِّقه في إطار الحدود الفاصلة التي تفصل بين هذا الفريق أو ذاك ، لأنَّ هذا الفصل يوحى لكلِّ منهما بالحاجة إلى الاستعداد المسبق لتحصيل المناعة ضدَّ إمكانات التأثير بالفريق الآخر ، وبالتالي لإيجاد حاجز نفسي ضدَّ أيِّ شيءٍ يثيره الفريق الآخر ، من أفكار وطروحات وحلول ، ما يجعل المسألة بينهما هي كيف يمكن أن يسجِّل هذا نقطة ضدَّ الأفكار التي يثيرها ذاك ، لا كيف يناقشها وينظر في طبيعتها الفكرية من حيث الخطأ والصواب .

وينتهي أصحاب هذا الاتجاه إلى الفكرة التي تقول : إنَّنا ، كشيعية ، يمكننا إقناع المسلمين الآخرين بصحة أطروحتنا الفكرية في فهم الإسلام ، فيما نعتقد أنَّه الحقُّ ، من خلال ما نملك من أدلة وبراهين ، وذلك في نطاق الوحدة ، أكثر مما نستطيع ذلك في ظلِّ الوضع الطائفي الحاقِد .

نظرة المسلمين غير الشيعة إلى الوحدة

أمَّا من الناحية الثانية ، وهي نظرة المسلمين غير الشيعة إلى الوحدة مع الشيعة ،

فهناك ثلاثة اتجاهات :

الاتجاه الأول : ينظر إلى الشيعة بأنهم خارجون عن الإسلام في ما ينسبه إليهم من عقائد الغلو والشرك وتحريف القرآن أو إيمانهم بقرآن آخر غير هذا القرآن ، وما إلى ذلك من مفاهيم لا تلتقي مع الأسس العقيدية التي ركز الإسلام عليها فكره وشريعته ، وبذلك لا معنى لطرح قضية الوحدة معهم ، التي يجب أن تطرح مع المسلمين لا مع المنحرفين عن خط الإسلام ، كما أن إقحامهم في داخل المجتمع الإسلامي ، يمثل لونا من ألوان الخطر على صفاء العقيدة الإسلامية وعلى سلامة المجتمع الإسلامي ، وذلك من خلال ما يثيرونه من شبهات وأضاليل ومؤامرات على الإسلام والمسلمين .

وهذا الاتجاه يتمثل في الأغلب بالطريقة السلفية الوهابية ، التي عملت على تعميق الهوة بين السنة والشيعة ، بمختلف الأساليب الإعلامية ، والضغوط المادية والمعنوية ، وحاولت أن تستغل الإمكانات المادية والرسمية في تشويه صورة الشيعة لدى المسلمين وغير المسلمين ، حتى رأينا القائمين عليها يتسامحون مع الاتجاهات الكافرة بما لا يتسامحون فيه مع الشيعة ، لأنهم يرون أن الكفر المقنع الذي يمثله الشيعة ، هو أكثر خطورة من الكفر الصريح الذي يمثله الكافرون الصريحون ، كما أنهم عملوا - في سائر أنحاء العالم - على عزل شباب المسلمين السنة ، بما فيهم العاملون في خط الإسلام الحركي ، عن شباب المسلمين الشيعة ، لمنع أي تعاون فكري أو سياسي أو اجتماعي فيما بينهم ، مهما بلغت التحديات العملية ضد الإسلام والمسلمين ، وقد تداخلت لدى هؤلاء الخلفيات المذهبية بالخلفيات

السياسية في ما يخافونه على مراكز نفوذهم في المجالات التي يملكون فيها أسباب السلطة والسلطان .

ولعلّ مشكلة هذا الاتجاه ، أنّ أصحابه يرفضون الحوار حول القضايا المختلفة التي يعتقدون انطلاق المذهب الشيعي منها ، لتصحيح نظرهم في طبيعة هذه القضايا ، سيما وأنّ كثيراً منها قد تكون نسبتها إليهم غير صحيحة .

الاتجاه الثاني : لا يرى في الشيعة هذا الرأي ، بل يرى أنّهم مسلمون في ما يرتكز عليه الإسلام من عقيدة وشريعة ، وأنّ الخلافات بينهم وبين السنّة كالاخلافات بين السنّة أنفسهم في بعض تفاصيل العقيدة والشريعة ، فهم مسلمون مخطئون في بعض ما يعتقدون ، فحالهم حال أيّ مسلم مخطئ في اجتهاده ، فإنّ الخطأ لا يخرجهم عن إسلامه ، بل يكون مسلماً خاطئاً مأجوراً .

ولكنّ أصحاب هذا الرأي لا يرون مصلحة في الوحدة مع الشيعة ، لأنّ هذه الأفكار الخاطئة قد تنفذ من خلال مجتمع الوحدة إلى ذهنية المسلمين من أهل السنّة ، فتسيء إلى الأفكار السليمة الصحيحة الصافية ، كما أنّ طبيعة الأوضاع الشيعية ، في ما تمثله من خلفيات سياسية معينة ، قد تسيء إلى مستقبل الأمة .

وربّما يلتقي هذا الفريق مع فريق الاتجاه الأول في أساليب العمل ضدّ قضية الوحدة ، ولكنّهم يُمارسون أساليب المجاملة ، في ما تقتضيه اللياقات الاجتماعية ، أو المصالح السياسية ، عندما يطرحون قضية الوحدة ، تماماً كما يُمارسها الاتجاه الشيعي الذي يقف موقفاً سلبياً من الوحدة ، عندما يطرح الوحدة كشعار في الحالات الطارئة ، ولكن بحذر شديد وبدون إخلاص أو إيمان بذلك .

ولعلّ الواقع الذي يعيشه جمهور المسلمين من أهل السنّة يعيش عمق هذا الاتجاه ولكن بدرجات متفاوتة .

الاتجاه الثالث : ينطلق في حركته من موقع الإيمان بوحدة المسلمين الواقعية ، في ما يلتقي عليه المسلمون من عقائد ومفاهيم وشريعة ، وبأنّ الخلافات في ما يختلفون فيه ، لا تضرّ بهذه الوحدة ، كما لم تضرّ خلافات المذاهب بين بعضها البعض في وحدتهم الإسلامية . وعلى هذا الأساس ، رأى أصحاب هذا الاتجاه في الوحدة أمراً واقعياً في عمق الشخصية الإسلامية ، يتطلب تحويله إلى خطوة عملية في حركة الإسلام في الحياة ، وحالة شعورية في داخل وجدان المسلم ، وهم يعتبرون أنّ دخول أيّ فريق في المجتمع الإسلامي ، لا يمثل خطراً على ما يعتقد الفريق الآخر أنّه الحقّ ، ما دامت القضايا المتنازع عليها تعيش في داخل الأجواء التي تثيرها القضايا المتفق عليها ، وما دام المنطق الفكري القائم على الحجة والبرهان هو الذي يحكم الحوار في الساحة ، ما يجعل الموقف في مصلحة الفريق الذي يملك الحجة الأقوى ، والمنطق الأفضل ، وليست هناك أية مشكلة لأيّ فريق في ما يخسره من أفكار قد يثبت له أنّها خاطئة من خلال الحوار ، ما دامت الروحية الجديدة التي تحكم مساره هي روحية الإسلام الصافي الصحيح بعيداً عن أيّ إطار آخر .

ويتمثّل هذا الاتجاه في الحركات الإسلامية الواعية غير الخاضعة لعقلية الأنظمة المرتبطة بالاستعمار ، وفي الشخصيات الفكرية المسلمة التي تعيش مسؤولية الإسلام من خلال الآفاق الرحبة الواسعة ، لا من خلال الآفاق الضيقة الخائفة .

وقد ساهم أصحاب هذا الاتجاه في خلق جوٍّ وحدوي عام ، وفي صنع مجتمعات متنوعة هنا وهناك تعيش روحية الوحدة بانفتاح وإيمان ، وذلك من خلال اللقاء بالاتجاه الثاني الموجود في مجتمع المسلمين الشيعة ، الذي يرى في الوحدة عنصراً إيجابياً في حركة الإسلام العامة . وقد انطلقت هذه الحركة الوحدوية بقوة مواكبةً لحركة الثورة الإسلامية في إيران التي طرحت شعار الوحدة الإسلامية كهدف كبير لا بُدَّ للمسلمين أن يجتمعوا حوله من أجل تحويله إلى حركة واقعية حيّة ، وذلك باعتماد الأساليب المرنة الحكيمة التي تعمل على الوصول إلى الهدف بالطريقة المرحلية المرتكزة على التخطيط الدقيق في حركة المراحل نحو الهدف .

ولا يزال الصراع حول الوحدة قائماً بين أصحاب هذه الاتجاهات المختلفة في نطاق الشيعة والسنة ، وما تزال الساحة تمتلئ في كل يوم بالجديد من النتائج السلبية والإيجابية في هذا الخطّ أو ذاك ، مما يعتبره كل اتجاه منها دليلاً أو عليه ، وما يزال المستقبل الإسلامي ينتظر النتائج النهائية لهذا الصراع ، ليلتقي بالوحدة الإسلامية كنتيجة إيجابية للوعي الإسلامي الجديد .

خطوات ضرورية على طريق الوحدة

والآن . . . ومن جديد . . . ماذا عن الشيعة . . . والوحدة؟

إنّنا نتبنّى اتجاه السير في حركة الوحدة الإسلامية ، ونرى أنّ السبيل الأمثل لانطلاقة الإسلام في العالم ، الأمر الذي يمثّل النهج الشرعي للسير العملي للإنسان المسلم في ما يُرضي الله ، ويُقرب إليه ، كما يمثّل النهج الواقعي لاستعادة

سيطرة الإسلام على الحياة ، وتحقيق العزة والكرامة للمسلمين ، في جميع مجالاتهم السياسية والاجتماعية والاقتصادية ، وذلك على أساس عدة نقاط :

١- إنَّ مشروع الوحدة الإسلامية ليس مشروعاً استعراضياً عاطفياً ، يرمي إلى إلغاء المواقف الفكرية بحركة انفعالية سريعة ، بل هو مشروع يرمي إلى تكوين عقلية موضوعية هادئة تناقش المواقف الفكرية بهدوء واتزان ومسؤولية ، لتكون الساحة للأفضل والأقرب إلى الحقيقة الإسلامية من قاعدة الحجة والدليل ، وبذلك فإنَّها تلغي الخوف من الاحتواء من خلال تأمين الضمانات العملية للوصول إلى ذلك الهدف .

٢- إنَّ الانطلاق من صفة الإسلام في أيِّ تحرّك فكري أو عملي ، هو الذي يحقق لأيِّ فريق إسلامي القدرة النفسية على مواجهة أيّة قضية فكرية أو شرعية ، بجدية الاهتمام ، وبسعة الأفق ، ورحابة الصدر ، والبعد عن التشنّج وإثارة الحساسيات الذاتية ، لأنَّ القضية عنده - في مجملها - هي ماذا يقول الله ورسوله ، وما يقوله الإسلام من خلال ذلك ، بعيداً عن كلِّ مألوف أو موروث ، فإمّا أن تكون هذه المسائل الشرعية والفكرية ثابتة بالطرق الصحيحة الاجتهادية فتقبل ، وإمّا أن تكون غير ثابتة فتُرفض ، وهذا هو الذي يوحى بتغليب الصفة العامة على الصفة الخاصة ، أو تأكيد الصفة الخاصة بمقدار انسجامها مع أجواء الصفة العامة .

وقد يكون من الطبيعي أن نركز على دور التربية السليمة في الحصول على هذا الأسلوب في بناء الشخصية الإسلامية ، فيجد السنّي صفة السنيّة كوجهة نظر في فهم الإسلام ، كما يجد الشيعي صفة الشيعة منهج فكر في فهم الإسلام ، وبذلك

تتحول الخصوصية إلى وسيلة فكرية لفهم الفكرة العامة .

٣- أن تتحول صيغة الأبحاث الفكرية القائمة على مناقشة الأفكار الإسلامية المختلفة ، من صيغة تتخذ صفة الهجوم والدفاع التي تثير في داخلها ومن حولها أجواء الحماس والانفعال ، عند تسجيل نقطة هنا ونقطة هناك ، إلى صيغة تأخذ شكل البحث والتحليل الدقيق للقضايا المطروحة في البحث ، لأنّ هذه الصيغة توحى بانطلاق البحث من مصادره الأصلية بطريقة هادئة موضوعية تلتقي بالفكرة ، أمام احتمالين يتحركان في نطاق وجهتي نظر متنوعة ، وبذلك يمكن الوقوف معهما أمام الجذور العميقة للفكرة ، ليُعرف في نهاية المطاف ، كيف يلتقي هذا أو ذاك بالجذور ، ليكون هذا هو الوجه الصحيح للفكرة ، بعيداً عن أن يكون هذا الاحتمال وجهة نظر زيد أو وجهة نظر عمرو ، وهذا هو المنهج القرآني الذي ركز على الموضوعية والحكمة والطريقة التي هي أحسن ، والانطلاق من مواضع اللقاء إلى مواطن الخلاف .

٤- أن يعمل الشيعة على توضيح الخطّ الإسلامي الأصيل ، في ما يعتنقونه من أفكار ومفاهيم في جانب العقيدة ، أو في نطاق الأشخاص ، أو في تفاصيل الشريعة ، وذلك بالأساليب المتحركة في ساحة الصراع ، والعمل على كتابة ذلك بطريقة واضحة صريحة ، وأسلوب علمي لاتعقيد فيه ، وتسهيل وصول النشرات المتضمنة لهذه الأفكار إلى كلّ مكان في العالم ، من أجل تطبيق الدعايات المضادة التي تعمل على تشويه الصورة الإسلامية لفكرة التشيع ، لا سيما ما يتعلق بالموازن الإسلامية لفكرة التوحيد والشرك ، والغلو والاعتدال في الأشخاص ،

وقضية تحريف القرآن ، أو موضوع مصحف فاطمة ، وعصمة الأئمة ، وما إلى ذلك من الأمور التي يُراد إثارتها من أجل إبقاء الهوة عميقة بين الجماهير الإسلامية ، من السنة والشيعة .

٥ - أن نعلم من جديد إلى غربة العقائد والعادات والفتاوى الشائعة لدى الأئمة ، من أجل إخضاعها للمقاييس الفنية الاجتهادية في فهم الكتاب والسنة ، وفي تقويم الأحاديث في صحتها وضعفها ، انطلاقاً من دراسة شخصية الراوي ومتن الرواية ، لأننا نلاحظ أن كثيراً من القضايا التي يحملها الناس في أفكارهم ، لا ترجع إلى مصادر اجتهادية صحيحة ، بل إلى التسامح في القضايا التي لا تمثل حكماً شرعياً ، كقضايا الثواب أو العقاب أو الفضائل أو غير ذلك من الأمور ، مما قد يرويه الوضّاعون والغلاة والضعفاء الذين لا تقوم برواياتهم حجة في دين أو دنيا .

إنّ ذلك هو السبيل للوصول إلى الإسلام الصحيح في كلّ المفاهيم الفكرية والأحكام الشرعية ، الإلزامية وغيرها ، لأنّ أيّ مفهوم وأيّ حكم إنّما هو جزء من الإسلام ، فإذا انحرفت الصورة فيه ، انحرفت الصورة الإسلامية في وعي الإنسان المسلم .

ولا يقتصر هذا الأمر على الشيعة وحدهم ، بل يعمّ السنة أيضاً ، في ما لديهم من تركة ثقيلة من الأحاديث الضعيفة أو الموضوعية التي كوّنّت مفاهيم متنوعة غير إسلامية في مصادرها الأصلية .

٦ - أن نعمل على تشجيع اللقاءات بين الفعاليات الإسلامية العلمية ، من السنة

والشيعة ، من أجل إيجاد علاقة حميمة فيما بينها من جهة ، وتحويلها إلى علاقة علمية فكرية يتم فيها التعارف والتلاقي بين الأفكار ، ثم الحوار العلمي الهادئ من جهة أخرى ، ليعي كل منهما الطريقة التي يفكر بها الآخر ، ليعرف أنه لا يتحرك من موقع الرغبة في الخطأ من قاعدة الخطأ ، بل يتحرك من موقع الإخلاص للحق من قاعدة الحق ، حتى لو أخطأ طريق الوصول ، وبذلك يعرف الفريقان أنّهما يخطئان ، إذا أخطأ ، من موقع اجتهادي ، كما يصيبان ، إذا أصابا ، من الموقع نفسه .

٧- أن يعيش الشيعة في تحركهم السياسي من مواقع السياسة الإسلامية العامة ، لأنّهم لا يستطيعون الوصول إلى الأهداف الكبرى في الحرية والعزة والاستقلال السياسي والاقتصادي إلّا في الدائرة الإسلامية الكبيرة ، لأنّ دروس الاستعمار قد علمتنا أنّه يملك كل أوراق اللعب في الدائرة الطائفية ، بينما يفقد أكثر الأوراق في الدائرة الإسلامية ، فلا مجال للتفكير بأنّ هناك قضية شيعية يمكننا أن نطرحها في الساحة الدولية ، لأنّ الاستعمار سيطرح أمامها قضية سنية ، وبذلك يشغل الساحة بالنزاع الطائفي الذي يمهد له السبيل للسيطرة على الموقف كلّ .

إنّ مثل هذا الخطّ قد يواجه مصاعب كثيرة في الساحة الفعلية ، وذلك بفعل وجود أوضاع طائفية حادة في المجتمع الإسلامي الآخر ، الذي قد يُصوّر اندفاع الشيعة في الدائرة الإسلامية الكبيرة على أنّها حالة ضعف أو استضعاف ، بهدف منع سلوك هذا التوجه ، أو استغلال ذلك لمصالح فتوية خاصة .

ولكنّا نؤكد هذا الخطّ على أساس الهدف الكبير الذي لا بدّ من طرحه في

الساحة ، لتوعيتها ودفعها للانطلاق بالقضايا الإسلامية في الفضاء الرحب والهواء الطلق ، على أن يتحرك العاملون بسياسة المراحل التي تحمي الساحة من ردات الفعل الصعبة التي قد تهدم البيت على رؤوس الجميع .

وأخيراً ، إننا نعتقد أنَّ الإخلاص للقضايا الكبيرة التي جعلها الله أمانة في أعناقنا ، يقتضي منا مرونة إسلامية بالغة ، وهذا ما عشناه في الأسلوب العملي الذي أرادنا أهل البيت (ع) أن نسير عليه . ونجد أماننا - في هذا المجال - أسلوب الإمام عليّ أمير المؤمنين (ع) في الفترة التي عاشها بين وفاة الرسول (ص) وخلافته ، في ما حدثنا عنه من أجوائها ، وموقفه من تلك الأجواء ، يقول (ع) :

«فما راعني إلا أنيئال الناس على فلان يبايعونه ، فأمسكت يدي ، حتى رأيت راجعة الناس قد رجعت عن الإسلام ، يدعون إلى محق دين محمد (ص) ، فخشيت إن أنا لم أنصر الإسلام وأهله ، أن أرى فيه ثلماً أو هدماً ، تكون المصيبة به عليّ أعظم من فوت ولايتكم ، التي إنّما هي متاع أيام قلائل ، يزول منها ما زال ، كما يزول السراب ، أو كما يتقشع السحاب ، فنهضت في تلك الأحداث حتى زاح الباطل وزهق ، واطمأن الدين وتنهه»^(١) .

وكما في قوله (ع) عندما سمع قوماً من أهل العراق يسبون أهل الشام :

«إنّي أكره لكم أن تكونوا سبّايين ، ولكنكم لو وصفتم أعمالهم ، وذكرتم حالهم ، كان أصوب في القول ، وأبلغ في العذر ، وقلتم مكان سبكم إيّاهم : اللهم

(١) نهج البلاغة والمعجم المفهرس لألفاظه ، الكتاب : ٦٢ ، ص : ٣٣٩ - ٣٤٠ .

أحقن دماءنا ودماءهم ، وأصلح ذات بيننا وبينهم ، وأهدم من ضلالتهم ، حتى يعرف الحق من جهله ، ويرعوي عن الغي والعدوان من لهج به» (١) .

وقول الإمام الصادق (ع) في حديث عن معاملة الشيعة لبقية المسلمين : «صَلُّوا في عشايرهم ، واشهدوا جنازتهم ، وعودوا مرضاهم ، وأدوا حقوقهم ، فَإِنَّ الرَّجُلَ مِنْكُمْ إِذَا وَرَعَ فِي دِينِهِ ، وَصَدَقَ فِي حَدِيثِهِ ، وَأَدَّى الْأَمَانَةَ ، وَحَسَنَ خَلْقَهُ مَعَ النَّاسِ ، قِيلَ هَذَا شِيعِي ، فَيُسَرَّتْني ذَلِكَ . اتَّقُوا اللَّهَ ، وَكُونُوا زِينًا وَلَا تَكُونُوا شِينًا» (٢) .

إنَّ هذه الكلمات وأمثالها تثير فينا الروح الإيجابية في مواجهة الأخطاء الكبيرة التي تواجه الواقع الإسلامي . ونحن لا نعتقد أَنَّ الأخطار التي واجهت الإسلام والمسلمين في عهد الخلفاء ، والتي تعاطى معها الإمام عليّ (ع) بروحية اللقاء والتعاون لتحقيق مصلحة الإسلام العليا ، هي أشدَّ من الأخطار التي تواجه الإسلام الآن ، بل نعتقد أنَّها أشدَّ من الماضي ، وذلك هو وحده الذي يفرض علينا الانفتاح على الساحة الإسلامية الكبرى ، لنكون جزءاً من الأمة في قضاياها الكبيرة ، لنلتقي عندما نلتقي من موقع الإسلام ، لمصلحة الإسلام ، ولنختلف عندما نختلف من موقع الإسلام ، لمصلحة الإسلام ، ولنعطي قضية الإسلام كلَّ ما عندنا من فكر وحركة وجهاد وإيمان ، ولنستجيب لنداء الله : ﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُون﴾ (الأنبياء : ٩٢) .

(١) نهج البلاغة والمعجم المفهرس لألفاظه ، ، الخطبة : ٢٠٦ ، ص : ٢٣٦ .

(٢) بحار الأنوار ، ج : ٧٨ ، باب : ٢٩ ، ص : ٣٧٢ ، رواية : ١ .

المعالجات القاصرة لمسألة الوحدة

الوحدة بين واقعية الفكرة ومأساة الانفعال

الوحدة ، في كلّ حركة اجتماعية أو سياسية أو دينية ، هدف كبير حميم يعمل القائمون عليها من أجل تجسيدها واقعاً حياً بكلّ سبيل من السبل المطروحة في الساحة ، وقد يندفع الكثيرون منهم في هذا الاتجاه بإثارة المشاعر واستخدام الكلمات والأساليب العاطفية التي تثير الانفعال وتحرك الموروثات ، حتى تتحوّل القضية عندهم إلى شعار مشير بدلاً من أن تكون مشكلة تبحث عن حلّ ، أو قضية تحتاج إلى التفكير ، الأمر الذي قد يؤدي إلى بعض الطروحات المرتجلة السريعة التي تعتمد على تحضير الأجواء الاستعراضية ، من خلال الحديث أن لا خلاف بين الأطراف الساعية للوحدة ولا نزاع إلّا في بعض القضايا الهامشية التي لا قيمة لها ، أو عبر إبراز صور مثيرة يتمثل فيها الطرفان أو الأطراف على طريقة تشابك الأيدي ، وتبادل القبلات والعناق ، أو في إعطاء صيغة عامة لا تحدّد شيئاً ، بل تترك الموضوع خاضعاً للعموميات الفضفاضة التي تغرق الجوف في المثاليات بعيداً عن حركة الواقع .

وقد عانى الواقع العملي كثيراً من هذه الأساليب العاطفية المرتجلة ، رغم أنّها حوّلت الفكرة إلى مأساة ، عندما تحوّلت في ممارسات أصحابها إلى ملهاة ، فشعار الوحدة أضحى وسيلة من وسائل الإثارة الجماهيرية ، بحيث تعتمد على ما تختزنه الشعوب من عواطف تجاه قضاياها ، ما يجعل من إثارة هذه القضايا عنصراً من عناصر الإلهاء الاجتماعي أو السياسي عن المشاكل الحقيقية الملحة الصعبة ، وهذا ما يمنح المسؤولين فرصة الهروب من تحمّل المسؤولية ، ويخرجهم من المأزق المحرج الذي وضعتهم الظروف فيه .

ولعلّ من أوضح الأمثلة على ذلك ، الدعوات الوحدوية التي أطلقتها الحركة القومية العربية ، وما أثاره مفكروها ودعاتها من شعار الوحدة العربية التي عاشها العرب كحلم وردي ساحر ، تلهث القيادة والقاعدة في سبيل الوصول إليه وتحويله إلى صيغة سياسية قانونية في علاقات الدول ببعضها البعض ، تتجلى في إطار وحدوي أو اتحادي أو تعاوني ، أو في علاقات الشعوب ببعضها البعض بعيداً عن العقائد والأفكار المختلفة . وجرت بعض المحاولات التي عملت على استيعاب بعض الدول الإقليمية في وحدة سياسية وإدارية ، تتجمع في نطاق وطن واحد كبير يستمد صفته من صفة العروبة المشتركة ، لكنّ هذه المحاولات سرعان ما تعثرت بعد وقت قصير ، واختنق بعضها الآخر في لحظة ولادته ، لأنّها كانت تخضع لعناصر انفعالية طارئة بعيدة عن دراسة الواقع في مشاكله وحدوده وقضاياها . وما زالت المحاولات تتكرر لتموت ، ولتؤدي - في نهاية المطاف - إلى الإيحاء المستمر للناس بأنّ المحاولة لم تنجح ، لأنّ الفكرة ليست واقعية في ما

يتعارف عليه الناس من أفكار الواقع ، الأمر الذي يؤدي إلى الشعور باليأس من ذلك كله . وقد انطلقت محاولات أخرى في اتجاه إلغاء الفروق العقائدية في أسلوب استعراضي مثير ، يربط الوحدة بالقومية ، فيعتبر اختلاف العقائد من قضايا الهامش في الساحة ، ولكنها لا تزال تصطدم بالحواجز الطائفية والمذهبية والفكرية والحزبية .

شعار الوحدة وغياب الظروف الموضوعية

لقد عاشت قضية الوحدة في تفكير المسلمين حلماً يراد أذهان المخلصين منهم ، لما عانوه من مشاكل الفرقة والتمزق والخلاف المستمر على مستوى الحكام والطوائف والمذاهب والدول والشعوب ، ولا سيما بعد أن سقطت الدولة الإسلامية التي لم تسلم من توجيه التهم الظالمة وغير الظالمة إليها ، باعتبارها بعيدة عن التمثيل الصحيح للحكم الإسلامي ، رغم أنها كانت تحفظ الشكل والوجه الإسلاميين . .

وتنوعت دعوات الوحدة في كل مكان ، لتكون ردّ فعل للدعوات العنصرية التي تدعو إلى تفريق المسلمين على أساس اللون والعنصر ، كما هي مشكلة المسلمين السود والمسلمين البيض التي يريد البعض إثارتها بطريقة أو بأخرى ، وكما هي مشكلة القوميات في قضايا العرب والفرس والأتراك والأكراد وغيرهم ، أو مشكلة اختلاف الطوائف ، كما هي مشكلة السنة والشيعة . .

وعُقدت المؤتمرات الإسلامية الفكرية والسياسية والفنية من أجل الوصول إلى

هذا الهدف ، وأنشئت رابطة العالم الإسلامي وغيرها من المؤسسات التي رفعت هذا الشعار - الوحدة الإسلامية - ، ولكنها لم تحقق أي هدف على مستوى الواقع ، بل بقيت في حيز التمنيات المستقبلية الكبيرة ، لأنها انطلقت من منطق الرغبة في الإسراع لتحقيق هذا الشعار من دون مراعاة الظروف الموضوعية التي تحيط به ، بالرغم من إدراك القائمين على هذا الشعار وجود ظروف مضادة تحتاج إلى كثير من الجهود الكبيرة في سبيل تحريك موقف هنا أو موقف هناك ، أو خلق جو ملائم يستهدف تعميق التجربة وتأكيد المواقف .

ونعتقد أن هذا الأسلوب في معالجة المشاكل يمثل وجهاً من وجوه الشخصية الإنسانية في طريقة تصورهما للأمور ، ومواجهتهما للواقع ، فهناك الشخصية العميقة التي تواجه القضايا من موقع دراستها الواسعة لجميع جوانبها وظروفها وامتداداتها ووسائل الوصول إليها ، وذلك بهدف وضع خطة واقعية للعمل تركز على المراحل في سبيل الوصول إلى الهدف ، وهناك الشخصية التي ترتبط بالهدف بعيداً عن الوسيلة ، فتعيش في الأجواء العاطفية التي تخلق في داخل النفس صورة ضبابية للموقف ، وتثير في المشاعر أحلاماً وردية تطوف في أجواء الخيال ، وتخلق في رحاب المثاليات ، وتبتعد قليلاً عن خطوات الواقع .

وهذا ما عاشه كثير من المسلمين الذين تحركوا مع شعار الوحدة الإسلامية ، فلم يدققوا في المشاكل الواقعية التاريخية والنفسية والعملية التي تقف أمام تحقيق ذلك ، ولم يبحثوا في الوسائل العملية التي تعتبر خطوة متقدمة نحو الهدف ، بل

تركوا الأمر للعواطف التي اكتفت بترديد بعض الآيات القرآنية الداعية إلى الوحدة والاعتصام بحبل الله ، وبعض الأحاديث الماثورة المتعلقة بوحدة المسلمين في قضاياهم العامة والخاصة ، وأفاضوا في الحديث عن الخسائر التي لحقت بقضايا الواقع الإسلامي كنتيجة طبيعية للاختلاف والتفرق ، ولكنهم كانوا يعودون من هذه المظاهرة الحماسية إلى الواقع المعقد الذي يعيشونه في أنفسهم ، ليجدوا هناك - وكرّد فعل على الفشل - ابتعاداً نفسياً عن تلك الشعارات . .

هذا ، وباتت هذه الفئة الإسلامية - بنظرهم - لا تلمس بحبل الله ، وتلك الفئة لا ترتبط بخط العقيدة على الصعيد الفكري ، ما يجعلها تتصل بالكفر من جهة ، وبالإشراك من جهة أخرى ، وبذلك يتنفي أساس الوحدة معها ، لأنه يشبه وحدة الكفر مع الإسلام ، الأمر الذي لا يتناسب مع الإخلاص للخط الإسلامي الأصيل في مفهوم الوحدة الصحيح . وهكذا يتم التركيز على جانب السلبيات بعيداً عن الإيجابيات ، وتتحول الساحة إلى معركة كلامية من معارك الفعل وردود الفعل المحمومة ، فهذا يثير مشكلة مذهبية تتعلق بالحساسيات المقدسة من جهة ، وذاك يحاول أن يخلق منها عنصر إثارة وتعقيد وتشويش من جهة أخرى . وتتكاثر الردود . . وتنطلق الكلمات غير المسؤولة مشبعة بالحقد والعصبية ، وتتوتر الأعصاب ، وتعود الفتنة من جديد ، لتدلل على أنّ الشعارات التي كانت مطروحة لم تلامس إلا السطح الخارجي للمشكلة ، أمّا الداخل فتركته مملوءاً بالبارود الذي يُنذر بالانفجار ويهدّد بالدمار .

الاستكبار يستغل الانفعالات لتمرير مخططاته

وهكذا استطاعت الذهنية الانفعالية التي تعيش في عمق الشخصية الإسلامية ، أن تحرك الموجة في الاتجاه الإيجابي للحياة الاجتماعية العامة من موقع العاطفة التي تتغذى من عناصر الإثارة السريعة الانفعال ، فتوحي بالحبّ والألفة في حالة سريعة طارئة لا تلبث أن تهدأ وترجع إلى الوضع الطبيعي المعقد المرتكز إلى الحقد التاريخي الذاتي .

وقد استطاع الاستعمار الكافر أن يستغل هذا الوضع العاطفي في تعامله مع الواقع السياسي للأمة الإسلامية ، وذلك باللعب على الحساسيات والانفعالات في جوانبها الإيجابية والسلبية كافة ، فتمكن من إثارة اللعبة الطائفية عن طريق تغذية عناصر الخلاف الذي يؤدي إلى معارك مذهبية تعمل على تمزيق الأمة في مواقفها ومشاعرها ، وتأليب بعضها على البعض الآخر ، ودفع أفرادها نحو الدخول في معارك مسلّحة أو غير مسلّحة ، لتشارك في تعميق الجراح القديمة ، ولتخلق جراحاً جديدة يمكن النفاذ منها إلى عمق مشاكل الأمة وقضاياها بما ينسجم مع مخططاته السياسية والاقتصادية ، فيلعب ما شاءت له مصالحه أن يلعب ، ويعبث بكلّ ما يستطيع من وسائل العبث .

وهذا ما نواجهه في الواقع السلبي الذي تعيشه البلاد الإسلامية في داخل مجتمعاتها ، حيث تلعب عوامل التفرقة المذهبية عملها الشيطاني في خلق أجواء الإثارة والتوتر والنزاع والقتال فيما بين المسلمين في كلّ مناسبة دينية من مناسبات

هذا الفريق أو ذاك ، كما قد يحدث في احتفالات عاشوراء في الهند وباكستان ، حيث تشهد الساحة الإسلامية هناك المزيد من المعارك المسلحة التي تشارك في تعميق المشاعر السلبية فيما بين المسلمين السنة والشيعة .

وقد يشعر الاستعمار بالحاجة إلى أن يروج للوحدة الإسلامية في ما يريد أن يخطط له من محاور سياسية ضد بعض الأوضاع السياسية الدولية في معترك الصراع الدولي ، كما كان يحدث في بعض حالات الحرب الباردة بين المعسكر الشيوعي والمعسكر الرأسمالي ، إذ تدفع حاجة الاستعمار الأمريكي أو الأوروبي إلى الاستفادة من التجمع الإسلامي في مواجهة الاتحاد السوفياتي ، وذلك من خلال إثارة المشاعر الدينية الإسلامية في وجه الخطر الإلحادي الشيوعي ، فيوحي إلى وكلائه بالدعوة إلى «حلف إسلامي» تارة أو «مؤتمر إسلامي» أخرى ، لينفذ ما يريد لمصلحته من أوضاع سياسية في عملية الصراع التي يخوضها مع السوفيات . وقد رأينا كيف وقفت هذه الأحلاف والمؤتمرات لمصلحة السياسة الغربية أكثر مما وقفت لمصلحة السياسة الإسلامية ، كما أنها لم تستطع الدخول إلى عمق المشاعر الحقيقية للمسلمين ، بل بقيت مجرد صيغة سياسية في علاقات الحاكمين ببعضهم البعض ، ثم ذابت في غمار الأوضاع العالمية المتغيرة والمستجدة .

المواقف العاطفية

وهكذا نواجه الموقف الإسلامي الصعب في عملية الوحدة والاختلاف على الأساس العاطفي ، لنجد أنه يشكل عنصر خطورة على الواقع الاجتماعي

والسياسي الذي يعيشه المسلمون ، وذلك في ما يخلقه من ارتباكات واضطرابات في داخل حياتهم ، بطريقة انفعالية لا مجال للسيطرة عليها في غالب الحالات ، وفي ما يثيره في أعماقهم من مشاعر سلبية ضد فكرة الوحدة كهدف كبير ، لا سيما عندما يواجهون الواقع الذي يضج بالأحقاد والمشاكل التي تحطم العلاقات الإسلامية في عملية تخطيط دائمة لعلاقات طائفية ضيقة ، ما يوحي للجميع بأنّ الوحدة بين المسلمين هدف مستحيل غير قابل للتحقيق على أرض الواقع ، مستغلين التجارب الفاشلة والمشاكل الصعبة المتحركة في أكثر من اتجاه .

وقد تمثّل عنصر الخطورة في هذا الطرح العاطفي للقضية في جانبيه السلبي والإيجابي ، في الموقف الذي وقفته بعض الحركات الإسلامية ضدّ الثورة الإسلامية في إيران ، فقد استطاعت الأساليب المضادة التي اعتمدها الاستعمار الأمريكي وحلفاؤه الأوروبيون ، من خلال دعاياتهم المضللة ، أن يُدخلوا في عمق التفكير الحركي للقائمين على هذه الحركات ، أنّ هذه الثورة ثورة شيوعية لا تتسع للخط الإسلامي العام ، وبالتالي ، فإنّها لا تملك أن تقدم للإسلام شيئاً كبيراً ، لأنّها تنطلق من موقع طائفي أو مذهبي ضيق ، سيما إذا كان هذا المذهب ، في رأي بعض المسلمين ، مذهباً خارجاً عن الخط الإسلامي الأصيل ، ويتعده عن مجراه الطبيعي ليحوّله إلى مجرى آخر .

وهكذا استطاع الاستعمار الأمريكي أن يثير المشاعر السلبية لدى هؤلاء من حيث يريدون أو لا يريدون ، فأبعدهم عن الرؤية الحقيقية للأشياء ، وقادهم إلى السير في خط مخططاته التي أراد من خلالها تحجيم الثورة وتصغيرها ، ومنعها من

الانطلاق بعيداً خارج حدودها في ما أرادته من بث نموذج الثورة في أرجاء العالم الإسلامي ، وبذلك أصبح بعض العاملين للإسلام يمثلون الاتجاه المعادي له ، والسائر في ركاب الخطّة الاستعمارية ، من حيث يشعرون ومن حيث لا يشعرون . وربما ساعد على ذلك ارتباط بعض هؤلاء من الناحية المادية ببعض الأنظمة العربية التي حملت لواء معاداة الثورة الإسلامية ، لأنها تمثل النقيض لها في المواقف الحاسمة التي تنطلق من الفهم الأصيل للإسلام في موقفه من الاستعمار والمستعمرين .

مناقشة السلبيات والإيجابيات

إننا لا نريد إثارة هذه القضية من موقع مناقشة العناصر التي أريد لها أن تمارس سلبياً ضد الثورة ، فلذلك مجال آخر ، بل كلّ ما نريد إثارته هو الأسلوب العاطفي الذي عاشه هؤلاء العاملون في تأييدهم للثورة الإسلامية عندما أيّدوها ، وفي معارضتهم لها عندما بدأوا يعارضونها . فنحن نعرف أنّ لكل ثورة سلبيّاتها وإيجابياتها التي ينبغي أن يدرسها العاملون في مجال تقويمهم لها ، ليكون موقفهم نابعاً من الدراسة العميقة لمجريات عمل الثورة ، فلا يكون التأييد حالة انفعالية سريعة طارئة ، ولا يكون الرفض ردّ فعل مشابه ، لأنّ الثورة - في ما نحسب - لم تتغير في مفاهيمها ونظرتها للواقع منذ انطلاقتها الأولى ، فقد طرحت الإسلام من خلال فهمها له من دون أن تتعقد من الفهم الآخر لبعض الاتجاهات الإسلامية الأخرى ، وفتحت صدرها للحركات الإسلامية والتحريرية في العالم من خلال

مفهومها السياسي للعلاقات العامة لمواجهة الكفر والاستعمار في العالم ، ولذلك فإنَّ المطلوب من العاملين للإسلام ، أن يبادروها بالتأييد من خلال إيجابياتها بروح إسلامية مسؤولة ، وأن يواجهوها بالنقد من خلال سلبياتها بالروح الإسلامية المسؤولة نفسها ، لأنَّ من أخطر المواقف على المسيرة الإسلامية ، هي المواقف التي تنطلق من عقدة انفعالية ، في القضايا المصرية لواقع الإسلام والمسلمين .

بالمسؤولية والحوار نتجاوز كلَّ العقد

وفي ضوء هذا العرض السريع للجوِّ العاطفي الذي يسود الدعوة إلى الوحدة الإسلامية أو إلى الطائفية والمذهبية الإسلامية - إن صح التعبير - ، قد نشعر بالحاجة إلى التوقف أمام هذا الجوِّ في وقفة تأملية هادئة ، في ما نواجهه من تأملات عملية .

فربَّما نجد أنَّ من الضروري أن يقف العاملون ليواجهوا خطورة هذه السلبيات وتأثيرها على مصير الأمة في هذه المرحلة الصعبة من تاريخها ، فيخططوا للعمل على إفساح المجال فيما بينهم ، للدراسة الواعية العميقة للمشاكل العالقة بين المسلمين ، سواء ما كان منها متصلاً بالجوانب العقيدية أو الشرعية أو بالجوانب الحياتية العامة ، وذلك بطريقة علمية هادئة تنطلق من الشعور بالمسؤولية الإسلامية ، وترتفع إلى مستوى مراقبة الله في أمر الإسلام والمسلمين ، بعيداً عن كلِّ العقد التاريخية المصبوغة بالحقد أو الدم ، فيكون الحوار الهادئ الذي يصل بالقضايا إلى جذورها الأساسية وامتداداتها البعيدة ، ولا يبقى عالقاً على مستوى السطح ، فإنَّ ذلك يدفع إلى مواجهة الواقع من خلال مشاكله الحقيقية التي تدفع

إلى الأخذ بالحجم الطبيعي للأشياء ، ولا يسمح للانفعال أن يتحرك في الساحة ، لأنه لا يندفع إلا في الحالات التي يسيطر فيها التصور الضبابي للقضايا العامة ، ما يفسح في المجال لإعطاء الأمور حجماً أكبر من حجمها الطبيعي ، أو مواجهة المشاكل بحجم أصغر من حجمها العادي .

وسوف يساهم هذا الاتجاه في اكتشاف مواطن اللقاء الكثيرة بين المسلمين ، ويساعد في توجيه الاهتمام نحو مواجهة مواطن الخلاف بروح موضوعية هادئة ، ويجعل من وحدة العاملين أو من تعاونهم في نطاق هذا الأسلوب العملي المسؤول ، أساساً لتجربة جديدة لوحدة إسلامية عميقة على مستوى المسلمين ، لأنَّ الغالب في المشاكل الصعبة التي تواجه القاعدة الشعبية الإسلامية في ما تخوضه من خلافات ونزاعات ، يرجع إلى تأثير الفئات الموجهة لها في ما تريده وفي ما لا تريده ، فهي العقل المفكر الذي يرسم للقاعدة أفكارها وارتباطاتها ونظرتها للأمور ، كما يرسم لها مشاعرها وأحقادها وعواطفها الإيجابية والسلبية ، فإذا عاش العاملون المسؤولية في هذا المجال ، أمكن لهم أن يوجهوا خط السير للأمة في هذا الاتجاه ، فتكتمل - من خلال ذلك - الوسائل الفكرية والعملية لتحقيق الهدف .

وقد نشعر - إزاء هذا الجو العاطفي المحموم - بالحاجة إلى الانطلاق في خطّ التربية للشخصية الإسلامية ، في كلّ مجالاتها العملية العامة والخاصة ، وذلك بالابتعاد عن أجواء الانفعال ، والتركيز على الأجواء العاقلة الهادئة ، فلا يكون الانفعال سبيلها للوصول إلى قناعاتها ، كما لا يكون سبيلها للوصول إلى

أهدافها ، بل تعمل على تبريد الداخل في حالات التوتر ، وتفسح في المجال للتفكير الموضوعي الهادئ بالتجول في آفاق النفس ، وفي آفاق المشكلة ، وفي خطوات الحل ، ليستطيع رصد الواقع بكل موضوعية واتزان ، فلا يحجبه عن رؤيته ضباب عصبية ، ولا تمنعه من إعطاء الحكم الصحيح له حالة ذاتية معقدة .

فإذا استطاعت التربية أن تأخذ مجالها الطبيعي في هذا الاتجاه ، أمكن لقضايانا المصيرية - كقضية الوحدة - أن تقف على قاعدة صلبة من الفكر العميق ، والرؤية الواضحة ، والإيمان المنفتح ، والروح السمحة ، والواقعية الهادئة ، لأن الإنسان الذي يحمل مسؤولية هذه القضايا ، يتحول إلى إنسان مسؤول يعيش المسؤولية في عمق إحساسه بالله وبالحياة وبالإنسان ، في الإطار الإسلامي الواسع الذي يدفع الإنسان إلى السير في الصراط المستقيم الذي لا مكان فيه إلا للإسلام .

تصورات واتجاهات في مسألة الوحدة(*)

نجاح الدعوة ووحدة الخطة

مسألة الوحدة الإسلامية هي مسألة الإسلام في خط الدعوة والحركة والواقع ، لأن نجاح الدعوة يفرض خطة موحدة تؤكد التصور الواضح لعقيدة الإسلام وشريعته ومنهجه وأساليبه وأهدافه ، بحيث يمكن للدعاة أن يقدموا للناس صورته في مقابل الصور الأخرى بالطريقة التي تؤصل المفاهيم وتمنح الثقة وتركز الخط وتوازن الواقع .

ولابد في ذلك من التكامل بين المفكرين والمجتهدين في أعمالهم الثقافية والفقهية ، من أجل تقريب المضمون الإسلامي إلى وجدان المسلمين ، وترتيب

(*) جريدة السفير البيروتية - العدد ٧٧٥٦ - السنة الرابعة والعشرون الاربعاء ٣٠ تموز ١٩٩٧ . الموافق ٢٦ ربيع أول ١٤١٨ هـ .

العنوان الأصلي : الوحدة الإسلامية : تصورات وتجارب .

مفرداته لتركيز القاعدة الفكرية الواحدة ، فلا تكون لدينا عدة إسلاميات ، كما يحاول البعض من العلمانيين الحديث عنه ، بل إسلام واحد لا تختلف عناوينه في خطوط الفكرة والواقع إلّا في بعض التفاصيل التي لا تمس الخطّ العام ، لأنّ الاختلافات الكبيرة قد تؤدي - كما أدّت - إلى الارتباك والفوضى في حركية التصور الإسلامي في الوجدان العام ، لا سيما عندما تختلط مقاييس الخطوط العقيدية في ما هو الإيمان والكفر ، فنجد إسلامياً يكفر إسلامياً آخر أو يضلّله أو يتهمه بالانحراف ، من دون ضوابط موحدة في ذلك ، ما يجعل لأيّ إنسان أن يمارس مسألة التكفير والتفليل بطريقة ضبابية ، فتتحول العلاقات الإسلامية من خلال فوضى التصورات - لا سيما لدى العامة من الناس - إلى ما يشبه العلاقات بين الأديان المتعددة ، حتى أنّ المذهب الواحد قد يعيش في داخله مثل هذا الارتباك النفسي ، إذا لم يعد الناس يفرقون بين ما هو إسلام وما هو كفر .

ومن الطبيعي أنّ مثل هذا الواقع التصوري في الوجدان الإسلامي يقف حاجزاً بين الدعاة وبين الانفتاح على الآخرين في تقديم الصورة الموحدة للإسلام .

وهذه هي مشكلة المذهبية الكلامية أو الفقهية المتعددة ، وما يتفرع عنها من اختلاف في المفاهيم على مستوى اكتشاف المذهب الاقتصادي والاجتماعي والتربوي والسياسي من داخل الخطوط المتشابكة في داخل المضمون العقيدي والفقهية ، ما لا يستطيع الدعاة فيه أن يقدموا للإنسان المعاصر صورة واضحة توحيدية عن المضمون الإسلامي للاتجاه الفكري في العناوين المعاصرة التي تواجه

حياة الإنسان في قضاياها العامة في الواقع .

وربما تمتد المسألة إلى الجانب الحركي الذي قد يتحول إلى ما يشبه الاختلاف في المذاهب ، عندما تتنازع الحركات الإسلامية المتعددة في نظام الحكم ، وفي أسلوب العمل ، وفي أساليب التواجه من حيث الرفق والعنف والتقاطع والتواصل في العلاقات الدولية ، هذا بالإضافة إلى تعقيدات المؤثرات المذهبية التي تحولت في الوجدان الشعبي إلى حالة حادة من العصبية الخائفة ضد المسلمين الآخرين من خلال بعض التراكمات التاريخية والتعقيدات النفسية في قضايا التاريخ المنعكسة على الواقع ، الأمر الذي ينعكس سلباً على هذه الحركة أو تلك في داخلها ، أو على علاقتها بالحركة الإسلامية الأخرى ، بحيث قد تتمثل في الواقع إما بالمقاطعة أو بالمجاملة القائمة على التكاذب ، لتبقى القضية في دائرة فقدان الثقة بين الحركات ، بحيث لا مجال أمام ذلك لأي عملية تنسيق أو تخطيط لعمل مشترك ، حتى أن تجربة العمل المشترك - في بعض الظروف - تتحول إلى اهتزاز داخلي بفعل الخلافات التي تحكم سلوك هذا وذاك من القائمين على العمل انطلاقاً من النظرة الحذرة للمواقف المتبادلة .

وعلى هذا الأساس ، فإننا لانستطيع الوصول إلى وحدة إسلامية حركية أو جبهة إسلامية موحدة ، في علاقة الحركات الإسلامية ببعضها البعض ، أو إلى حالة من التعايش فيما بينها ، بحيث لا تسقط إحدى الحركتين الأخرى في المستوى الإعلامي ، أو السياسي ، أو الاجتماعي .

العقدة الاستكبارية من الإسلام

وإذا اقتربنا من واقع السياسة الدولية في موقفها من قضايا العالم الإسلامي ، لا سيما السياسة الاستكبارية التي يمارسها قادة الدول الكبرى ، فإننا نجد أن هناك عقدة تاريخية من الإسلام - لا سيما في الغرب - تعيش في منطقة اللاشعور في وجدان الإنسان الغربي ، كما نجد تصادماً بين المصالح الاستكبارية في الواقع الإسلامي وبين مصالح المسلمين بالدرجة التي يجد فيها الاستكبار العالمي نفسه معنياً بالسيطرة على كل مفاصل الاقتصاد والأمن والسياسة من أجل تأمين مصالحه الحيوية ، لتكون كل ثروات المسلمين رصيذاً احتياطياً لثرواته ، فلا يبقى للمسلمين منها إلا القليل ، كما تتحول المواقع الاستراتيجية في البلاد الإسلامية إلى هامش لحاجاته الأمنية والسياسية في صراعاته المتنوعة ، ليكون العالم الإسلامي تابعاً له في كل قضاياها ، بحيث لا يملك أية فرصة للتحرك الذاتي .

وقد استطاع الاستكبار العالمي وحلفاؤه الاستفادة من واقع اللاوحدة بين المسلمين ، ومن سلبيات التمزق الوجداني - المذهبي ، أو النزاع المتجذر في العمق ، والتخلف الثقافي والسياسي والاجتماعي في التصور والحركة والعلاقات ، فعمل على تحريك الخلافات المذهبية إلى درجة التقاتل ، وتعقيد العلاقات الحركية إلى مستوى المقاطعة ، حتى لم يعد لدينا عالم إسلامي بالمعنى السياسي الذي يلتقي فيه المسلمون على قضاياهم الحيوية ، وتطلعاتهم الثقافية ، وأوضاعهم السياسية في كل علاقاتهم الواقعية ببعضهم البعض ، ولعلّ أصدق

صورة للواقع هو ما قاله الشاعر العربي في تصوره للواقع التاريخي للمسلمين :

وتفرقوا شيعاً فكل قبيلة
فيها أمير المؤمنين ومنبر

وهذا هو الذي أسقط الاندفاع الإسلامية في الدعوة والحركة والواقع ، فلم يعد للإسلام تأثير كبير في ثقافة العالم وسياسته واقتصاده وأمنه ، لا سيما بعد أن استطاع الاستكبار العالمي السيطرة على أنظمة الحكم في البلاد الإسلامية ، بحيث اندفع الحاكم فيها إلى محاصرة الثقافة والسياسة والاجتماع في حركة المسلمين العاملين على أساس إعادة الإسلام إلى الواقع الإنساني كقاعدة للفكر والعاطفة والحياة ، فلم يسمح للإسلاميين - في أغلب هذه البلدان - بأن يتحركوا سياسياً بحرية ، لأن الإسلام ، حسب مفهومهم ، لا دخل له بالسياسة .

وقد استطاعت هذه الأنظمة أن تسخر بعض العلماء والفقهاء والوعاظ والخطباء ليكونوا بمثابة الاحتياطي الإسلامي لمواجهة المتطرفين - كما يعبر عن الإسلاميين الواعين والحركيين - ليبرروا للحاكمين أعمالهم ، أو ليطلقوا الدعوة في التطبيع مع الأنظمة ، والاكتفاء بالنصيحة الخجولة ، حتى أصبح الواقع الديني ، لا سيما في المواقع الرسمية أو شبه الرسمية ، واقع وعاظ السلاطين الذين يقدمون لهم فتوى بالحرب عندما يريدون الحرب ، وفتوى بالسلم عندما يريدون السلم ، وهكذا في الحديث عن الرفق والعنف .

إن هذا كله قد يكون نتيجة للتمزقات الإسلامية المذهبية والاجتماعية والحركية التي أضعفت الواقع كله ، ففقد المسلمون قوة الضغط واستقامة

الطريق ووحدة الهدف .

وهذا هو الذي يجعلنا نصل إلى الجواب الحاسم : إنّ الوحدة الإسلامية هي من أجل إسلام الفكر والدعوة والحركة والواقع ، ليكون الدين كله لله .

التاريخ المعقّد وفقدان روحية الحوار

أمّا في العنوان الثاني ، فقد يجدر بنا أن نفكر بأنّ التاريخ الثقافي المعقّد من واقع الجدل التاريخي الذي كان ولا يزال دائراً بين علماء المسلمين في مذاهبهم المتعددة ، قد يكون ناتجاً من فقدان الروحية الحوارية ، التي تعتبر الحوار وسيلة من وسائل اكتشاف الحقيقة بالتعاون مع الآخر ، وذلك بالاستماع إلى وجهة نظره بعقل منفتح ، فلا يكفي أن يصل الإنسان إلى الحقيقة من خلال تجربته الذاتية ، لأنّه من الممكن أن يكشف شيئاً آخر في التجربة الثقافية المشتركة في ساحة الحوار ، فلا بدّ له - أمام ذلك - من أن يتمثل إسلامه في مذهبته ليعيش إخلاصه لله في حركته الفكرية المتجهة نحو الحقّ ، وأن يختزن في وجدانه الديني الخط المذهبي باعتباره يمثل وجهة نظر في فهم الإسلام ، فلا يمنع ذلك من أن تتحرك وجهة نظره في الاتجاه الآخر ، فذلك هو الذي يجعله أكثر قدرة على فهم حقيقة انتمائه الذي قد يكون ناشئاً من واقع وراثي أو عاطفة خاصة أو تأثير اجتماعي تقليدي قد يؤثر في التزامه الثقافي . .

ويمكن أن يمتد ذلك إلى الاختلافات الاجتهادية في داخل المذهب الواحد . فإنّ مثل هذه الروح الموضوعية قد تتيح للإنسان الفرصة للاختيار الذاتي في التزاماته

الكلامية أو التاريخية أو الفقهية ، وهذا ما نستوحيه من قوله تعالى : ﴿وَأَنَا أَوْيَاكُمْ
لَعَلِّي هُدَىٰ أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ (سبأ : ٢٤) . فإنَّ إحياءات هذه الآية في مسألة
الحوار مع الآخر - حتى لو كان كافراً - تعني بأن يعيش المتحاوران ذهنية الشك
الموضوعي المتبادل في أسلوب الحوار ، بحيث تحكم هذه الذهنية كل مفردات
الحوار ، فلا تكون هناك أية حالة ذاتية ، بل حقيقة ضائعة بين الطرفين يلتقيان
الطرفان على السعي المشترك لاكتشافها ، في هذا الانتماء أو ذاك .

وقد نستوحيه في تأكيد النقاط المشتركة - في البداية - كأسلوب من أساليب
تحسين الظروف النفسية للحوار ، وذلك هو قوله تعالى : ﴿وَلَا تَجَادَلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ
إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَأَنْزَلَ إِلَيْكُم
وَالْهَذَا وَالْهَذَا وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ (العنكبوت : ٤٦) ، فإنَّنا نلاحظ التركيز
على مواقع اللقاء ، وإغفال الجوانب التفصيلية في الخلافات حول ما أنزل إليهم ،
مما أثار المسلمون فيه مسألة التحريف ، أو في شخصية الإله في تعدد الأقانيم لدى
النصارى ، أو في غير ذلك من صفات الله لدى اليهود . وهذا ما نستوحيه من
قوله تعالى : ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ
وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ (آل عمران : ٦٤) .

إذ يتحدث عن الكلمة السواء التي تعني الاعتراف بأنَّ أهل الكتاب موحدون ،
حتى لو اختلفوا معنا في تفاصيل الذات الإلهية ، وهكذا في رفض ربوبية الإنسان
للإنسان التي هي فرع التوحيد .

وربّما نستوحي من هذه الآية ، أنَّ الكلمة السواء هي العنوان الذي يمثل قاعدة اللقاء بالآخر والتعاون والتعايش معه ، كبداية للعلاقة التي يمكن أن تنفتح على حوار طويل خاضع لروحية الإحساس بالقاعدة المشتركة بيننا وبينهم ، ويمكن استيعاء ذلك من تأكيد عنوان الجدل والتي هي أحسن ، في قول الله تعالى : ﴿ ادعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ (النحل : ١٢٥) .

إنَّ ذلك كلّه يمثّل المنهج الإسلامي في روحية الحوار التي تحدد مفردات الأسلوب وحركيته ، بحيث يكون إنسانياً ينفذ إلى أعماق الإنسان وظروفه النفسية والثقافية ، الأمر الذي يجعل حركة الحوار حركة تصاعدية انتقالية تبحث عن الأحسن والأفضل في الكلمة والجو والأسلوب والمضمون ، لتخترق كلّ الحواجز النفسية التي يمكن أن تحول بين الإنسان عندهم وبين الفكر عندنا ، لأنَّ المسألة ، كلّ المسألة ، هي أن تعترف بالآخر وتحترم تفكيره ، وتعامل معه بالرفق ، ولا تضطهد فكره ، بل تفسح له في المجال لينفتح عليك في اللقاء بفكره بهدوء واتزان .

المشكلة تكمن في التعصب

إنَّ المشكلة التي تواجهنا في الحوار الإسلامي - الإسلامي ، سواء في ساحات المذاهب المتعددة أو الاجتهادات المتنوعة ، هي التعصب للرأي بالدرجة التي لا مجال فيها لأيّة إمكانيات للقاء على أرض مشتركة ، ولأية فرصة لتقديم تنازلات متبادلة .

إننا نتصور أن الحوار الواقعي الذي يمكن أن يصل إلى نتيجة إيجابية لمصلحة التقارب أو الوحدة ، هو الحوار الذي ينطلق على أساس أن تلتقي بالآخر في منتصف الطريق على الكلمة السواء ، لأن ذلك هو الذي يبعدنا عن التعصب الحاقد الانفعالي ، وهذا التعصب حالة مرضية تحتاج كل الصحة النفسية والروحية والثقافية في ساحات الحياة ، ولعل ذلك هو ما نستوحيه من حديث الله سبحانه عن علاقة النبي (ص) بالآخرين : ﴿فبما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك﴾ (آل عمران : ١٥٩) .

فهذه هي الروحية التي تحكم القلب ، والأسلوب الذي يحكم اللسان ، في لين القلب الذي يتمثل بالاحتضان الشعوري للآخر ، ولين اللسان الذي يتمثل بالكلمة الطيبة الحلوة التي توحى بالمحبة والرحمة والحنان .

إن المشكلة عند الكثيرين من المسلمين - بمن فيهم المثقفون والعلماء - أنهم لا يقرأون القرآن في المنهج والأسلوب والعلاقات . وهذا ما يجعل القلب في سواد دائم وتشنج متواصل في مواجهة حالة الخلاف المذهبي والاجتهادي مع الآخر ، بالدرجة التي قد تصل إلى المنطق اليهودي الذي تحدث عن المقارنة بين المشركين والمسلمين في حديث الله عن ذلك ، في قوله تعالى : ﴿هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلاً﴾ (النساء : ٥١) .

نحتاج إلى ذهنية تنتج إسلاماً

إننا نعتقد أن علينا أن نخطط - على المدى البعيد - لبرنامج ثقافي تربوي يعمل

على أساس إنتاج الذهنية الإسلامية التي يتحسس فيها المسلم إسلامه قبل أن يتحسس فيها مذهبه ، بحيث يتصور الإسلام في مذهبه ، لتكون الروحية الإسلامية هي التي تحدد له روحية المذهب ، كما يعمل على أساس تركيز الذهنية الموضوعية العقلانية البعيدة عن العاطفة والانفعال . وهذا ما يمكن لنا أن نصل من خلاله إلى بعض النتائج الإيجابية في هذا المجال ، هذا من جهة .

ومن جهة أخرى ، فإنَّ من الممكن العمل على أساس التجربة الإسلامية الوحودية في الساحة السياسية ، فهناك قضايا إسلامية في الساحة السنيّة كقضية فلسطين ، وهناك قضايا سياسية في الساحة الشيعية كقضية إيران ، وهناك قضايا مشتركة بينهما ، وعلينا أن لاغذهب هذه القضية أو تلك لفصل الوجدان الشعبي عن هذه القضية الإسلامية أو تلك . وهذا ما لاحظناه لدى بعض التقليديين من السنّة والشيعية الذين نرى بعضهم يتعقّد من القضية الفلسطينية باعتبارها قضية سنيّة ، ونرى البعض الآخر يتعقّد من القضية الإيرانية باعتبارها قضية شيعية ، بحيث فقد هؤلاء وأولئك الوعي السياسي الذي يتعرفون من خلاله إلى أنَّ المسألة هنا وهناك هي مصلحة الاستكبار الغربي والشرقي والصهيوني ، وليست مسألة مذهب معين ، الأمر الذي يحرك النتائج السلبية في حياة المسلمين كلّهم نحو إسقاط مصالحهم الحيوية ، وقضاياهم المصيرية .

إنَّ علينا أن نرتفع إلى مستوى الوعي السياسي الذي يدرس خلفيات التحديات الاستكبارية للواقع الإسلامي كلّهُ للسيطرة عليه ، مستغلة في أساليبها المخابراتية هذا التعقيد المذهبي ، لتحيد الشيعة عن القضايا الإسلامية في الدائرة السنيّة ، أو

تحيّد السنّة عن القضايا الإسلامية في الدائرة الشيعية بوحى التخلف السياسي والثقافي .

وإذا كنّا نؤكد على القضايا السياسية ، فإنّنا نرى امتداد الخط السياسي في المسائل الاقتصادية والأمنية ، لأنّها تمثّل النتائج الحيوية في المسألة السياسية التي يحكمها الاقتصاد والأمن في العالم الثالث كلّ .

لقد عاش العالم الإسلامي تجربة إيجابية في أكثر من مسألة سياسية تتصل بأكثر من قضية إسلامية ، في الجانب الشعوري أو في الموقف السياسي ، ولا بدّ لنا من أن ندرس مثل هذه الوحدة السياسية الشعورية والعلمية ، فقد نجد فيها لوناً من ألوان التجربة التي تخطط لأكثر من قضية حاضرة ومستقبلية .

وربّما كانت الوحدة السياسية وسيلة للاقترب من الوحدة الثقافية والروحية .

نجاح الوحدة في موقع يمهد لنجاحات أخرى

أمّا العنوان الثالث ، فقد نلتقي به في بعض التجارب الواقعية التي أثبتت نجاحها جزئياً في بعض المؤسسات الوحدوية الإسلامية ، مثل (جماعة التقريب بين المذاهب الإسلامية) في مصر ، و (مجمع التقريب) في إيران ، و (تجمع العلماء المسلمين) في لبنان ، وأمثال هذه التجمعات التي يلتقي فيها العلماء من السنّة والشيعية لقاءً ثقافياً فكرياً كوسيلة للوحدة في المستقبل .

وهكذا نجد التجربة إيجابية في التعاون بين السودان وإيران ، أو بين بعض الحركات الإسلامية المتعددة المذاهب ، في لبنان وفلسطين والسودان وغيرها ، أو في التلاقي الفكري بين الشخصيات الإسلامية القيادية ، أو في المؤتمرات الوجدوية التي تعقد على أساس القاعدة الإسلامية في لقاءات العلماء والمفكرين الإسلاميين .

إنّ مثل هذه النماذج التي تتمثل في أكثر من بلد إسلامي ، وفي أكثر من موقع سياسي ، قد تصلح كنموذج للمستقبل الكبير الإسلامي الوجدوي ، باعتبار أنّ نجاح الوحدة أو التقارب في بعض المواقع ، قد يحمل الواقعية لنجاحات أخرى في مواقع متعددة .

ولابدّ لنا من دراسة مثل هذه التجارب الوجدوية في عناصر القوة والضعف فيها ، لنستزيد من الإيجابيات ، ونتفادى السلبيات في المستقبل .

الوحدة الإسلامية ممنوعة استكبارياً

أمّا في العنوان الرابع ، فقد يكون من الضروري أن يعي المسلمون - جيداً - أنّ الوحدة الإسلامية ، حتى على مستوى التقريب بين المذاهب الإسلامية ، من الممنوعات الاستكبارية التي يعمل المستكبرون على الوقوف أمامها بشدة ثقافياً وسياسياً واجتماعياً ، ما يجعل من قضية الوحدة الإسلامية قضية في مستوى قضايا التحرر من الاستكبار العالمي في خططه الشريرة في العالم الإسلامي ، والتي في مقدمتها منع صنع القوة بين المسلمين ، لأنّ ذلك سوف يعطل الكثير من

مصالحهم الحيوية في هذا العالم .

ومن ناحية أخرى ، فإنَّ قوى التخلف المضادة في داخل الأمة ، تقف حائلاً أمام
الوحدويين العاملين في خط الوحدة الإسلامية ، وذلك بتأكيد الهوامش الصغيرة
والتفاصيل الجزئية ، من أجل إقامة الحواجز النفسية والثقافية بين المسلمين على قاعدة
التعصب في دوائر التكفير والتفسيق والتضليل .

ويبقى للوحدويين أن يؤكدوا للخائفين على انتماءاتهم المذهبية أو مواقعهم
الاجتهادية ، بأنَّ الوحدة لا تعني ، في حركيتها في الواقع ، دعوة الإنسان إلى ترك
مذهبه تلقائياً ، بل أن يلتقي المسلمون على الخطوط العقيدية والشرعية للإسلام ،
وأن يتحاوروا في ما يختلفون فيه من التفاصيل هنا وهناك على أساس إرجاع الأمر
إلى الله ورسوله بما يتنازعون فيه ، كما جاء في قوله تعالى : ﴿فإن تنازعتم في
شيء فردّوه إلى الله والرسول﴾ (النساء : ٥٩) .

الوحدة منطلق التقدم والحرية والإبداع

إنَّ الوحدة الإسلامية هي قاعدة القوة للمسلمين ، وهي منطلق التقدم والحرية
والإبداع في العالم الإسلامي ككله ، من أجل أن يكون الإسلام قوة عالمية كبرى
تساهم في صنع مستقبل العالم بأسره : ﴿واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا
واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداءً فألّف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخواناً
وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها كذلك يبيّن الله لكم آياته لعلكم

تهتدون ﴿آل عمران: ١٠٣﴾ . ﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّةُ وَاحِدَةٌ وَأَنَا رَبُّكُمْ
فاعبدون﴾ (الأنبياء: ٩٢) .

برنامج الإمام علي (ع) وأئمة أهل البيت (ع) لمشروع الوحدة (*)

الوحدة بين المعنى والمظهر

للوحدة الإسلامية معنى في الفكر والعقيدة ومظهر في الحركة والحياة . أما معناها في الفكر فيتمثل بالقاعدة الفكرية التي يلتقي عليها المسلمون في تصورهم للمفردات المشتركة للعقيدة ، كالتوحيد والنبوة والمعاد وما أنزل الله من شريعة في القرآن ، في ما ألزم الله به عباده من الخط المستقيم الذي يتحركون فيه أو يقفون عليه ، وفي المفاهيم العامة التي يختزنها وعيهم لله وللإنسان وللحياة .

وتبقى التفاصيل في العقيدة والخصوصيات في الشريعة وفي المفاهيم ، مما يختلف فيه المسلمون على أساس فكر فلسفي ، أو اجتهاد فقهي ، أو فهم قرآني وما

(*) رسالة الثقلين - العدد الأول - السنة الأولى - محرم - ربيع الأول ١٢١ هـ ، (١٩٩٢ م) .
العنوان الأصلي : الوحدة الإسلامية في خط أهل البيت (ع) .

إلى ذلك ، فهذه تترك حيوية السجال في دوائر الوفاق وحركة الحوار المتجهة نحو اللقاء .

وأما مظهرها في الحركة والحياة ، فيتمثل في طريقة الخطاب الإسلامي الذي يطلقه المسلمون في حديثهم مع الآخرين أو في نوعية الخطاب فيما بينهم ، وفي احترامهم المتبادل لانتمائهم الإسلامي في الكلمة والفعل والعلاقة ، وفي نظرتهم لأموالهم وأعراضهم من خلال معنى الإسلام في وجودهم الفاعل في الحياة ، وفي خطأ الأهداف الكبيرة التي تلتقي فيها كل قضاياها الحيوية والمصيرية ، وفي الالتزام بوحدة الموقع والطريق والمصير في ما يمثله معنى الأمة الموثوقة برباط العقيدة من خلال ذلك كله .

على أن ما يعيشه الكثيرون من الناس هو أنهم يضعون الفواصل الدقيقة في القضايا العامة ، ليجعلوا العقيدة الواحدة أكثر من عقيدة ، وليحولوا الموقف الواحد إلى أكثر من موقف ، فلا يرون أساساً للوحدة بين الناس إلا إذا اتحدوا في كل شيء حتى في أدق التفاصيل . وفي ضوء ذلك ، حاول البعض أن يقسموا الإسلام إلى عدة إسلامات لا يرتبط بعضها ببعض الآخر ، أو أن يجعل الاختلاف في المذهب الكلامي أو الفقهي مسألة تتصل بالإسلام والكفر ، بحجة أن المذاهب لا يمكن أن تكون بأجمعها على حق في خلافاتها ، لا سيما أن الحق لا يتعدد ، وهذا يفترض أن يكون بعضها على خطأ ، ما يوحى بأن الالتزام به يمثل نوعاً من الكفر بالحق في هذه الدائرة ، لكننا إذا اعتبرنا الجزئيات الشرعية أو الفكرية في

الخطوط التفصيلية للعقيدة والشريعة أساساً للإيمان ، كان الاختلاف في هذه الأمور بمثابة الإيمان ببعض الكتاب والكفر بالبعض الآخر ، ما يعني بأن لدى كلّ مذهب إسلامي شيئاً من الكفر التفصيلي في ما يخطئ فيه المفكرون أو المجتهدون ، ممّا يعذرون فيه أو لا يعذرون .

وفي ضوء ذلك ، يمكننا أن نؤكد على الإسلام في الخطوط العامة للعقيدة في ما رسمه القرآن من ذلك ، ما يجعل للقاء على هذه الخطوط معنى في الإسلام ، وخطاً للوحدة .

الإمام عليّ (ع) نموذج رائد للممارسة الوحدوية

وهذا ما جعل المسلمين في العهود الأولى التي اختلفوا فيها حول الخلافة وبعض المفاهيم والتشريعات ، لا يرون في خلافاتهم أساساً لتكفير بعضهم بعضاً ، أو لمقاطعة بعضهم البعض ، بل كانوا يرون في الاختلاف حالة من حالات الغموض في بعض القضايا ، أو جهلاً في بعض الوقائع ، أو انحرافاً ذاتياً في بعضها الآخر ، ما قد يقع محلاً للتخطئة أو للجدال أو للتجاذب العملي الذي قد يثير بعض المشاعر والأحاسيس ، وقد يعقد بعض المواقف .

وإذا كانت الحروب قد وقعت فيما بينهم ، أو كان العنف قد سيطر على بعض أوضاعهم ، فلم يكن ذلك ناتجاً عن طبيعة الخلاف الفكري بالمعنى الدقيق للكلمة ، أو من جهة أجواء التكفير التي تتحرك في أفكارهم ومشاعرهم ، بل كان ذلك نتيجة اختلاف في حركة الحكم أو في حركة الوعي والممارسة .

وربّما نجد في كلمات الإمام عليّ أمير المؤمنين (ع) الخطّ العريض لحركة الوحدة الإسلامية أمام الخلافات الصعبة التي كانت تمثّل اختلافات المسلمين في تلك المرحلة الصعبة من حياتهم ، فقد كانت الخلافة تمثّل الأساس في تلك الخلافات ، باعتبارها أول مشكلة حقيقية واجهت المسلمين بكلّ قوّة ، وعقدت الواقع الإسلامي بأكثر من عقدة ، لأنّها تتصل بالعمق الفكري والتشريعي لمسألة القيادة في الإسلام ، بحيث يمثّل الانحراف بها عن خطها المستقيم انحرافاً عن معنى الصفاء في الإسلام ، باعتبار أنّ الإمامة شيء يتصل بالجانب العقيدي في امتداد المسؤولية فيما بعد النبوة ، إلى جانب الالتزام العملي في الإسلام في نظر فريق من المسلمين ، بينما كانت في نظر فريق آخر مجرد تجربة من تجارب المسلمين في الحكم تتصل بجانب حركة التطبيق بعيداً عن مسألة الخط الفكري فضلاً عن معنى القداسة ، ولذلك لم تحتج القضية لديهم إلى كثير من الجدل ، بل لم تقترب من الجدل الفكري ، تماماً كما هي القضية عندما يذهب رئيس القوم ليجتمع القوم على رئيس آخر من بعده .

وكان الإمام (ع) قطب الرّحى في هذه المسألة المهمة والشائكة ، لأنّه هو الخليفة المؤهل لقيادة المسلمين بعد النبيّ (ص) من خلال وصية النبيّ إليه في ما أراد الله لرسوله أن يبلغ ما أنزل من ربّه . . وكانت القضية أن أبعد الإمام عن موقعه في الخلافة ، وتقدمه الآخرون في مدى خمس وعشرين سنة . . وكانت التجربة الصعبة التي عاشها الإمام في تلك المرحلة ، فكيف كان موقفه؟

الإسلام يعلو على كل مصلحة

لقد كان للإمام (ع) موقف واضح ، وهو أنَّ مصلحة وجود الإسلام وقوته تعلو على كل مصلحة أخرى ، وأنَّ غياب القيادة الشرعية في مرحلة ، قد يفسح المجال لحضورها في مرحلة أخرى في نطاق شخص القائد أو نطاق قائد شرعي آخر ، ما دام الإسلام باقياً كفكر وانتماء في الوعي ، وكحركة في الواقع ، ما يجعل القيادة - بعد ذلك - للمسلمين بشكل عام ، بعد توفر إمكانات التصحيح والتغيير فيما بعد .

بينما يمثل غياب الإسلام نفسه عن الساحة ، كارثة كبيرة على مستوى قضية القيادة والواقع كله ، لأنَّ القيادة لا تمتلك عنواناً للحركة آنذاك ، ولا قاعدة للانطلاق ، بل هي لا تحمل أي معنى من هذه المعاني ، وذلك في غياب الإمكانيات العملية للوصول القيادة إلى موقعها الطبيعي مع المحافظة على الإسلام في وجوده القوي .

وفي ضوء ذلك ، فإنَّنا نستوحي من موقف الإمام عليّ (ع) القاعدة الثابتة للوحدة الإسلامية في تجربة القيادة والقاعدة الشعبية للأمة ، وهذا ما يقتضي منا التأمل في حديث الإمام عليّ (ع) عن تجربته العملية في هذا الموضوع .

قال - كما في نهج البلاغة - في كتاب له إلى أهل مصر عبر مالك الأشتر ، لما ولاه إمارتها :

«أما بعدُ ، فإنَّ الله سبحانه بعث محمداً (صلى الله عليه وآله وسلم) نذيراً

للعالمين ، ومُهيماً على المرسلين ، فلماً مضى (عليه السلام) تنازع المسلمون الأمر من بعده ، فوالله ما كان يُلقى في رُوعي - (بضم الراء : القلب أو موضع الروح منه ، ويفتحها الفزع) - ولا يخطر ببالِي ، أنَّ العرب تُزعج هذا الأمر من بعده (صلى الله عليه وآله وسلم) عن أهل بيته ، ولا أنَّهم مُنحَوهُ عَنِّي من بعده ! فما راعني إلا انثيالُ النَّاسِ على فلان يسايعونهُ ، فأمسكت يدي حتى رأيت راجعة النَّاسِ قد رجعت عن الإسلام ، يدعون إلى محقِّ دين محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) ، فخشيت إن أنا لم أنصر الإسلام وأهله أن أرى فيه ثُلماً أو هدماً ، تكون المصيبة به عليَّ أعظم من فوت ولايتكم التي إنَّما هي متاعُ أيامٍ قلائل ، يزول منها ما كان ، كما يزول السَّرابُ ، أو كما يتقشع السَّحابُ ؛ فنهضتُ في تلك الأحداث حتى زاح الباطل وزهق ، واطمأنَّ الدِّين وتنهه»^(١) .

وهذا ما فعله الإمام عليّ (ع) عندما نهض بمسؤوليته وابتعد عن الموقف السلبي ، فتحول إلى الموقف الإيجابي ، وتحدى الواقع المضاد والقوى المضادة المتحركة في ساحته ، حتى انزاح الباطل واطمأنَّ الدين . وعندما نتوقف عند التفاصيل ، فإنَّنا نجد الإمام (ع) يُعنى بحل المشاكل الفكرية والمسائل المعقدة على الصعيد الفقهي وغيره في ما كانت تتعرَّض له الخلافة من ذلك كلِّه ، كما كان يعطي الرأي في قضايا الحرب بالطريقة التي يحاول فيها المحافظة على حياة الخليفة الذي يقود الساحة في ذلك الوقت بعيداً عن كلِّ الحساسيات الذاتية والمشاعر

(١) نهج البلاغة والمعجم المفهرس لألفاظه ، الكتاب : ٦٢ ، ص : ٣٣٩ - ٣٤٠ .

الرافضة . فمن ذلك ، أنَّ عمر بن الخطاب استشاره في الخروج إلى غزو الروم ، فقال له :

«وقد توكل الله لأهل هذا الدِّين بإعزاز الحوزة ، وسَترِ العورة . والذي نصرهم ، وهم قليلٌ لا ينتصرون ، ومنعهم وهم قليلٌ لا يمتنعون ، حيٌّ لا يموتُ .

إنَّك متى تَسرَّ إلى هذا العدوِّ بنفسك ، فتلقهم فتُنكَب ، لا تكن للمسلمين كَانْفَةً - عاصمة يلجأون إليها - دون أقصى بلادهم . ليس بعدك مرجعٌ يرجعون إليه ، فابعث إليهم رجلاً محرباً ، واحفز معه أهل البلاء والنصيحة ، فإن أظهر الله فذاك ما تُحِبُّ ، وإن تكن الأخرى ، كنت رداءً للناس ومثابة للمسلمين»^(١) .

ومن ذلك ، أنَّ عمر بن الخطاب قد استشاره في الشخوص لقتال الفرس بنفسه ، فقال له :

«إنَّ هذا الأمر لم يكن نصرُهُ ولا خذلانه بكثرة ولا بقلة ، وهو دين الله الذي أظهره ، وجُنْدُهُ الذي أعدَّهُ وأمدَّهُ ، حتى بلغ ما بلغ ، وطلع حيث طلع ، ونحن على موعود من الله ، والله منجزٌ وعده ، وناصرٌ جنده . ومكانُ القِيَمِ بالأمر مكان النِّظام من الخرز يجمعه ويضمُّهُ ، فإن انقطع النِّظام تفرَّق الخرز وذهب ، ثمَّ لم يجتمع بحذافيره أبداً . والعرب اليوم ، وإن كانوا قليلاً ، فهم كثيرون بالإسلام ، عزيزون بالاجتماع ! فكن قُطْباً ، واستدر الرِّحى بالعرب ، وأصلهم دونك نار الحرب ،

(١) نهج البلاغة والمعجم المفهرس لألفاظه ، الخطبة : ١٣٤ ، ص : ١٣٧ .

فإنَّك إن شخصت من هذه الأرض انتقضت عليك العرب من أطرافها وأقطارها ، حتى يكون ما تدعُ وراءك من العورات أهمَّ إليك مما بين يديك .

إنَّ الأعاجم إن ينظروا إليك غدأ يقولوا : هذا أصل العرب ، فإذا اقتطعتموه استرحتم ، فيكون ذلك أشدَّ لكلِّبهم عليك ، وطمعهم فيك . فأما ما ذكرت من مسير القوم إلى قتال المسلمين ، فإنَّ الله سبحانه هو أكرهُ لمسيرهم منك ، وهو أقدر على تغيير ما يكره . وأما ما ذكرت من عددهم ، فإننا لم نكن نقاتل في ما مضى بالكثره ، وإنما كنَّا نقاتل بالنَّصر والمعونة»^(١) .

المواقف السياسية في خدمة الوحدة

إنَّنا نلاحظ في هاتين الكلمتين توجهاً واضحاً نحو تصويب الحركة العملية في خطِّ الوحدة الإسلامية في الدائرة الواقعية ، باعتبار أن هناك جملة مصالح قد تحكم الساحات السياسية المتميزة بالصراع الحادِّ بين الشخصيات الفاعلة في المستوى القيادي ، وربما أدَّت المسألة في بعض الأوضاع والظروف الصعبة ، إلى الوقوف موقف اللامبالاة إزاء الأخطار المحدقة به ، لاسيما إذا لم يكن الصراع في المركز القيادي منطلقاً من طموح ذاتي ، بل كان ناشئاً من الاقتناع بعدم شرعية الفريق المسيطر الحاكم ، وانحصار الشرعية بالمعنى الإسلامي الدقيق بالفريق المعارض الموجود خارج الحكم ، وهذه المسألة قد تدخل في الوعي الشرعي من

(١) نهج البلاغة والمعجم المفهرس لألفاظه ، الخطبة : ١٤٦ ، ص : ١٤٤-١٤٥ .

جهة التكليف الملزم بالمواجهة وخوض التحدي ، ليعود الحق إلى نصابه من حيث هو حقّ لصاحب الشرعية من جهة ، وللمسلمين من جهة أخرى .

ولكنّ الإمام عليّ (ع) كان يفكر بطريقة أخرى ، فهو لا ينظر إلى القضية من حيث الاستغراق في الجانب المغلق منها ، بل كان يفكر بها من خلال النظرة الواقعية للأشياء ، فقد لا تكون الظروف في تلك المرحلة ملائمة للتغيير ، وقد يكون سقوط الخصم السياسي تحت تأثير الضغط العسكري من قبل الروم أو الفرس الرابضين في الموقف المعادي للإسلام ، يؤدي إلى سقوط الموقع الإسلامي كلّهُ ، لتأثيره السلبي والخطر على الإسلام بذاته ، لأنّ الشخص الذي يتولى القيادة لا يمثل الخصوصية الذاتية التي يتميز بها شخصه ، بل يمثل الواقع الإسلامي القيادي الذي يتميز به مركزه ، ما يفرض على القياديين في الصفوف المعارضة أن يرتفعوا فوق خصوصياتهم الذاتية والشرعية من أجل حفظ هذا الموقع بالحفاظ على الشخص الذي يتولاه ، خاصة في غياب أيّة إمكانية لابتعاده عن الساحة في الظروف الطبيعية ، الأمر الذي يجعل المعادلة المطروحة في هذه المرحلة هي إمّا أن يسقط الموقع الإسلامي والقوّة الإسلامية من خلال سقوط هذا الشخص ، وإمّا أن يحفظ هذا الشخص من أجل حفظ الموقع الإسلامي بالذات .

وهذا ما اختاره الإمام (ع) الذي يجد نفسه مسؤولاً عن سلامة الإسلام والمسلمين خارج نطاق الحكم بالمستوى نفسه الذي يعيش فيه المسؤولية عن سلامة الحكم الإسلامي وهو على رأسه . ولهذا رأينا الإمام يدخل في مناقشة متحركة حول كلّ القضايا التي كانت تدفع الخليفة إلى تهيئة الأمور بالطريقة التي كانت

ستؤدي إلى الهزيمة من خلال بعض مستشاريه ، بحيث استخدم الإمام (ع) في الكلمة الثانية العنصر الروحي في تهيئة الأجواء للانطلاق بالمعركة بعيداً عن الاتجاه المرسوم لها في ذهن الخليفة ، وذلك ما ظهر من حديث الإمام بأن الله سبحانه هو أكره لمسيرهم منك ، وأتينا كنا نقاتل بالنصر والمعونة لا بالكثرة .

التعاضد بدل السباب

ونجد في بعض كلمات الإمام (ع) تأكيداً على الابتعاد عن الأساليب الحادة التي قد تفرضها المشاعر المتوترة في حالات الصراع المذهبي والسياسي ، لتكون تنفيساً عن العقدة المكبوتة في النفس وتفجيراً للغليظ الكامن في الذات ، ومنها أساليب السباب التي قد تقترب منها أساليب اللعن في ما تختزنه الذهنية الشعبية العامة ، باعتبارها لوناً آخر من ألوان السباب ، مع ملاحظة أنها ليست منه في المصطلح .

فقد نلاحظ أن الإمام (ع) ينهى عن السباب ، لأنه لا يعتبره من الصفات الحميدة التي توحى بالمحبة والاحترام ، كما أنه لا يرى فيه أسلوباً منتجاً في ساحة الصراع ، لأنه لن يؤدي إلى الغلبة المفضية إلى النصر ، بل ربما يؤدي إلى نوع من الإثارة الحادة التي تستفز الجانب الآخر ، فتقوى إرادته في المواجهة ، وترفع من مستوى التحدي لديه ، وتعمق الحقد في ذاته ، لتتحول المسألة عنده إلى مسألة شخصية بدلاً من أن تكون مسألة سياسية .

إذا كانت المسألة بهذا الحجم في هذه الدائرة ، فكيف تكون في الدائرة الإسلامية التي تقود إلى لون من المهاترات السلبية ، حيث يسود السباب المتبادل الذي يطل

الرموز الإسلامية التي يقدسها المسلمون تبعاً لانتماؤهم المتنوعة ، مما لا يخدم الجوهر الإسلامي العام الذي يريدنا الله أن نرتفع به إلى مستوى العلاقات الروحية المفتوحة على كل مواقع الأخوة والتعاون واللقاء .

وهذا ما نلاحظه في الكلمة التي أطلقها الإمام عليّ (ع) عندما سمع قوماً من أصحابه يسبون أهل الشام أيام حربهم في صفين ، قال :

«إنّي أكره لكم أن تكونوا سبّابين ، ولكنكم لو وصفتم أعمالهم ، وذكرتم حالهم ، كان أصوب في القول ، وأبلغ في العذر ، وقلتم مكان سبكم إياهم : اللهم احقن دماءنا ودماءهم ، وأصلح ذات بيننا وبينهم ، واهدهم من ضلالتهم ، حتى يعرف الحق من جهله ، ويرعوي عن الغي والعدوان من لهج به»^(١) .

إنّنا ، في قراءة سريعة لهذا النص ، نستوحي رفض الإمام لأسلوب السبّ في طريقة التعبير عن موقفه السلبي تجاه الآخرين ، لأنّ ذلك لن يؤدي إلى شيء ، لا سيما في معالجة خلافات المسلمين فيما بينهم ، بل قد يمنع من حالة الانفتاح الروحي التي لا بدّ أن تكون الهدف من كل الوسائل الضاغطة في نهاية المطاف .

إنّ الإنسان إذا استطاع أن يفرغ قلبه من كلّ أفكار الشر ومشاعره ، فإنّه يستطيع تحريك تصرفاته بطريقة خيرة ، ما قد يشير في الطرف الآخر بعض أفكار الخير ومشاعره على طريقة الفعل وردّ الفعل في علاقات الناس ببعضهم البعض .

(١) نهج البلاغة والمعجم المفهرس لألفاظه ، الخطبة : ٢٠٦ ، ص : ٢٣٦ .

ولكن الإمام علياً(ع) الذي يدعو إلى إنتاج هذه الروح المفتحة في شخصية المسلم المؤمن ، وإلى إطفاء نار العداوة في قلبه ، لا يوافق على إهمال القضايا التي يختلف فيها المسلمون وإغفالها وإبعادها عن ساحة الحوار ، بحجة أن ذلك قد يكون سبباً من أسباب إثارة الفتنة وتأجيج الصراع وتحريك الحساسيات ، لتتحول الأحاديث فيما بينهم إلى نوع من المجاملة التي تخفي كوامن الأفكار أو نوازع النفوس وخفايا المشاعر ، وما ينتج ذلك من حصارات قائمة على أساس التكاذب لا على أساس التصديق ، بما يكرّس خط النفاق الاجتماعي الوجودي ، فيما المطلوب أن ينطلق المسلمون من موقع الإخلاص للحق وللإسلام في عقائده وأحكامه ومواقفه ، ليتحاوروا على أساس الرغبة في الوصول إلى الحق في كل خلافاتهم ، وليتجادلوا بالحكمة والموعظة الحسنة ، وليعودوا إلى الله ورسوله ، في ما صح عن الله ورسوله(ص) ، ليحكموا بينهم ، وليدرسوا القضايا الفكرية بالأسلوب العلمي الذي لا تتدخل فيه المشاعر الذاتية ، لتكون القضية هي صراع فكر مع فكر لا صراع طائفة مع طائفة أو نزاع جماعة مع جماعة ، ما يجعل من العناصر الذاتية في ساحة الخلاف أساساً للحديث أو العمل .

خلفيات وحدوية في إدارة الصراع مع الخارج

لقد انفتح الإمام علي(ع) على جميع القضايا باعتبارها متصلة بالوجدان الرسالي لا بالحالة الذاتية ، وكان يدفع بهذا الأسلوب ليتعرف الناس عليه ويفكروا به ويعملوا وفق منهجه ، ليرتفعوا إلى آفاق الله الواسعة من خلاله ، وهذا ما عبّر

عنه أحسن تعبير في نهج البلاغة ، لا سيما في هذه الخطبة :

«اللهم إنك تعلم أنه لم يكن الذي كان منّا منافسة في سلطان ، ولا التماس شيء من فضول الخطام ، ولكن لنرد المعالم من دينك ، ونظهر الإصلاح في بلادك ، فيأمن المظلومون من عبادك ، وتُقام المعطلة من حدودك ، اللهم إني أول من أناب ، وسمع وأجاب» (١) .

ولم يقتصر الأمر على هذه القضية ، بل امتد إلى كل التفاصيل ، وهذا ما ظهر جلياً في مسألة خلافه مع الخوارج حول قضية التحكيم ، فقد دخل معهم في حوار طويل من أجل مواجهة الموقف بالحجة ، كما كان الحال مع طلحة والزبير ومعاوية ، ولم يكن القتال الذي خاضه مع هؤلاء جميعاً قتالاً بسبب الاختلاف في الخط الفكري ، بل كان قتالاً استهدف فرض النظام في المجتمع الإسلامي وحمايته من الانقسام الداخلي والفوضى العامة ، ولذلك فإنه تحدث في نهاية أيامه عن مسألة الخوارج ، فنهى عن قتالهم من بعده ، لأنه لم يقاتلهم من موقع اختلافهم معه في القناعات ، بل من موقع اعتدائهم على الحرمات ، وهذا ما جاء في كلمته :

«لا تقاتلوا الخوارج بعدي ، فليس من طلب الحق فأخطأه ، كمن طلب الباطل فأدركه» (٢) .

(١) نهج البلاغة والمعجم المفهرس لألفاظه ، الخطبة : ١٣١ ، ص : ١٣٤ .

(٢) م . ن ، الخطبة : ٦١ ، ص : ٥٣ .

لقد عالج المسألة على أساس أن الذين طلبوا الحقّ فأخطأوا ، لا بُدَّ من الدخول معهم في حوار ما دامت القضية عندهم قضية فنانة ذاتية ، وذلك من موقع الرغبة في الوصول إلى الحقّ ، ما يسمح بوجود قاعدة مشتركة للوصول إلى الرأي الصحيح ، أمّا الذين طلبوا الباطل فأدركوه ، فإنّهم لا يتحركون من موقع شبهة ، بل من موقع قرار وإصرار على العناد في مواجهة للحقّ بكلّ وسائل القوة ، فهم يهربون من الحوار الجدي ، ويتخذون سبيل المخادعة والمخاتلة ، حتى يربحوا الفرص الكفيلة بإيصالهم إلى أهدافهم وأطماعهم ، بعيداً عن مسألة الحقّ والباطل في ما يأخذون به أو يدعون به .

ولعلّ قيمة هذا المنهج العملي في حياة الإمام ، أنّه كان قطب الرchy في تناول مسألة اختلاف الموقف من الخلافة ، فهو صاحب القضية الفاعل ، وليس صاحب الموقف المنفعل بما يتصل بالآخرين ، فقد انطلق الخلاف في حقّه أمام ما يلتزمه الآخرون من حقّهم ، ولذلك كان منهجه ينطلق من عمق المعاناة التي سببها الارتباط بقضيته الحقّة ، لا من طبيعة المواقف المتعلقة بقضايا الآخرين .

إنّ هذا التوجه السامي للإمام عليّ(ع) ، يفرض على الذين يلتزمون موقفه ويؤمنون بحقّه ، أن يرتفعوا إلى مستوى وعيه الكبير في قضية الوحدة الإسلامية لمصلحة الإسلام كلّّه ، الأمر الذي يدفعهم إلى تجميد كثير من مواقفهم على هذا الأساس ، وإلى أن يصبح شعاره شعارهم ، هذا الشعار الذي أطلقه في كلمة حاسمة تلخص محصلة توجهاته وتجربته مع الجميع : «والله لأسلمنّ ما سلمت

أمور المسلمين»^(١) ، فيأخذوا منه شرعية الموقف في تجميد بعض المواقف في قناعاتهم المحقة ، مبتعدين بذلك عن الانحراف عن الخط المستقيم في ذلك كله .

بين معاناة الإمام زين العابدين (ع) وهمومه الوجدانية

ونلتقي في خط الوحدة الإسلامية في خط أهل البيت (ع) بالإمام علي بن الحسين زين العابدين (ع) ، الذي التزم بهدي الخط العلوي في الانفتاح الروحي والعملي على القضية الإسلامية الكبرى ، بعيداً عن كل الانفعالات والحساسيات وأجواء المأساة العميقة التي عاشها في نطاق حكم بني أمية ، كما تمثلت في كربلاء ، حيث عاش مع أبيه وإخوته وأهل بيته وأصحاب أبيه أقسى الفجائع التي تثقل الشعور والوجدان بالحزن والألم العميق ، وتعرض لأذى الأسر والسبي مع كل نساء أهل البيت (ع) وصحابتهم في رحلة السبي إلى الشام .

وربما كان من طبيعة الأمور ، أن تترك هذه المسألة الفريدة من نوعها تأثيراتها السلبية على الشعور الذاتي للإمام زين العابدين (ع) ضد بني أمية في حكمهم ، وفي كل الأوضاع المتصلة بهم في مواقع نفوذهم ، وفي ساحات انتصاراتهم في الحرب والسلام .

ولكن للإمام (ع) رأياً آخر في المسألة ، فإنه يلاحظ أن بني أمية الذين لا يمثلون شرعية الخلافة في حياة المسلمين ، هم الذين يديرون دفة الحركة الإسلامية للأمة

(١) نهج البلاغة والمعجم المفهرس لألفاظه ، الخطبة : ٧٤ ، ص : ٦١ .

في الساحة ، بحيث كان العنوان الذي يتحركون من خلاله هو عنوان الإسلام ، فهم يخوضون حروب الإسلام ضد الكفر ، ويواجهون تحديات الكافرين على أساس أنها موجهة ضد المسلمين في ما يعيشون فيه من شكل الحكم الإسلامي ، لأن المطلوب في تخطيط محور الكفر ، إسقاط الإسلام في كل مواقع حركته شكلاً ومضموناً ، بعيداً عن طبيعة الحكم الذي يمثله من حيث شرعيته أو عدم شرعيته ، ولذلك فإن الكافرين يتصرفون مع الحكم الشرعي كما لو كان موجوداً بالطريقة نفسها التي يتصرفون بها مع الحكم غير الشرعي ، ما دام الهدف مشتركاً بين الموقعين .

في ضوء ذلك ، فإنه كان يرى أن الحرب الدائرة في تلك المرحلة هي حرب الإسلام مع الكفر وحرب المسلمين مع الكافرين ، بحيث تنعكس نتائجها الإيجابية في حال النصر أو الهزيمة على الواقع الإسلامي كله ، فيما هو عنوان الإسلام ، وفيما هم المسلمون واقعاً ، لا على حكم بني أمية بخصوصيته الذاتية العائلية ، لأن طبيعة الظروف والأسباب والوقائع والنتائج تفرض ذلك على صعيد النظرة الواقعية للأشياء ، وهذا ما جعله يعيش الهم الكبير في وجدانه الإسلامي وفي تطلعاته القيادية والروحية والفكرية ، عندما كان يفكر بأهل الثغور في مواقعهم المتقدمة التي يتولون فيها حماية حدود الدولة الإسلامية وحفظ المسلمين في بلادهم ، ويقومون في بعض الحالات بالأعمال العسكرية الحادة عند تعرضها للاعتداء ، أو عندما يرون أن هناك ضرورة عسكرية إسلامية لعمل وقائي أو هجومي لمواجهة بعض الأوضاع الصعبة ، أو لخلق مواقع جديدة من أجل مرحلة

جديدة للدعوة أو للقوة .

وكان يريد للمسلمين أن يعيشوا هذا الهم ، ليتحول ذلك إلى مشاركة وجدانية قد تهيب الأجواء للمشاركة الفعلية ، وتحقق نوعاً من الوحدة الإسلامية في ما يطلقه الكافرون من تحديات القوة في ساحة الصراع ، أو في ما يطلقه المسلمون من هذه التحديات في عملية استعراضية للقوة أو تحريك لها من أجل الضرورات الأمنية والسياسية .

وكان الدعاء لهم وسيلة من وسائل تعبئة الوجدان الروحي للإنسان المسلم في كل القضايا التي تدور حول مفردات الحرب في كل تفاصيلها ، بحيث يلاحق فيها الإنسان في كل التفاصيل الصغيرة والكبيرة ، ليعيش في كل الأجواء المحيطة بها أو المتحركة في داخلها ، حتى تتحقق المشاركة في كل القضايا وفي كل الأجواء ، كما لو كان الإنسان موجوداً في الساحة يعيش حالة من المعاناة الفعلية ، فتذوب كل التحفظات والتعقيدات ، وتتلاشى كل الانفعالات ، وتتوحد كل المشاعر .

ولابدّ للوحدويين الإسلاميين من دراسة دقيقة شاملة للمضمون السياسي لدعاء الإمام زين العابدين (ع) لأهل الثغور ، ليأخذوا منه الفكرة الإسلامية في التخطيط لتعبئة الأمة كلها عسكرياً وسياسياً وروحياً وفكرياً واقتصادياً ، حتى تتلمس وحدتها الإسلامية أمام الخطر الداهم ، وذلك من ضمن سعيهم لإضعاف المشركين والكافرين بمختلف الأساليب والوسائل التي تشغلهم عن توجيه قوتهم ضدّ المسلمين .

الوحدة بين العصبية وجادة الحق

وقد نلتقي بالتفكير الوجدوي في كلمة الإمام زين العابدين (ع) التي يرويها الزهري في تحديد العصبية ، حيث قال :

«العصبية التي يأثم عليها صاحبها ، أن يرى الرجل شرار قومه خيراً من خيار قوم آخرين ، وليس من العصبية أن يحب الرجل قومه ، ولكن من العصبية أن يعين قومه على الظلم»^(١) .

فقد نجد في هذه الكلمة الخطأ الإسلامي الأخلاقي في طريقة إدارة الإنسان المسلم علاقته بالآخرين الذين يلتقي معهم في النسب أو في الوطن أو في القومية أو في الدين أو في المذهب ، لتجعل من الإنسان المنتمي إلى أية دائرة من هذه الدوائر إنساناً موضوعياً يفكر في القضايا المطروحة في الساحة تفكيراً متوازناً لا أثر فيه للانفعال في عناصره الذاتية ، بل تنطلق القضية لديه من موقع طبيعة المسألة في عناصرها الموضوعية ، فإذا أردنا أن نتمثل القضية في الدائرة الإسلامية ، فإنّ السني لا يتعصب ضدّ الشيعي فيظلمه لخصوصية شيعيته ، كما أنّ الشيعي لا يتعصب ضدّ السني فيجور عليه لموقع سنيته ، بل يعمل على أساس دراسة الموضوع بذاته بعيداً عن صفة الشخص من حيث الانتماء المذهبي فيما هي مقاييس العدل في الانطباع وفي الممارسة وفي الحكم ، ما يؤدي إلى تأكيد الذهنية الموضوعية العقلانية في ما توحى به من الروح الوجدوية المرتكزة على أساس الحياد الفكري ، وفي

(١) الكافي ، ج : ٢ ، ص : ٣٠٨ ، رواية : ٧ .

النظرة إلى الأشياء ، بحيث يكون الإنسان إنسان العقل في خطأ الحق لا إنسان الانفعال في خطأ العصبية .

وقد نستوحي من الكلمة المعروفة عن الإمام زين العابدين (ع) في ما رواه بعض أصحابه : «أحبونا حبّ الإسلام»^(١) ، أنّ خطأ أهل البيت (ع) هو أن ينطلق المسلم في حركة العاطفة ، فيما هو الحبّ الروحي لأهل البيت (ع) ، من خلال الصفة الإسلامية لمضمون الحبّ لا من خلال الصفة الذاتية ، ما يجعل الإسلام في انفتاحه أساساً للعلاقات بالمستوى الذي يخضع فيه للموازن الإسلامية الأصيلة ، فيؤدي إلى الانفتاح من موقع الحوار والمحبة .

الصادق (ع): إلغاء التحفظات لمصلحة القضية الكبرى

وعلى هذا الخطّ نفسه ، كان الإمام جعفر الصادق (ع) يدعو الشيعة إلى الانفتاح على سائر المسلمين من أهل السنة ، والاندماج في المجتمع الإسلامي على أساس المشاركة العامة ، فكان يقول في ما رواه عبد الله بن سنان عنه : «أوصيكم بتقوى الله ، ولا تحملوا الناس على أكتافكم فتذلوا ، إنّ الله تبارك وتعالى يقول في كتابه : ﴿قولوا للناس حسناً﴾ (البقرة : ٨٣) عودوا مرضاهم ، واشهدوا جنائزهم ، واشهدوا لهم وعليهم ، وصلّوا معهم في مساجدهم»^(٢) .

(١) بحار الأنوار ، ج : ٤٦ ، باب : ٥ ، ص : ٧٣ ، رواية : ٥٨ .

(٢) بحار الأنوار ، ج : ٧٤ ، باب : ١٠ ، ص : ١٥٩ ، رواية : ١٤ .

وعن إسحاق بن عمار قال : قال لي أبو عبد الله - جعفر الصادق - (ع) : «يا إسحاق ، أتصلي معهم في المسجد»؟ قلت : نعم . قال : «صلّ معهم ، فإنّ المصلي معهم في الصف الأول كالشاهر سيفه في سبيل الله» (١) .

وغير ذلك من الأحاديث الكثيرة الواردة عنه وعن أبيه الإمام محمد الباقر (ع) ، فإنّ المفهوم منها أنّ القضية ليست قضية تقية يفرضها الخوف على النفس ، بل قضية إيجاد حالة من الانفتاح الإسلامي بعيداً عن التحفظات المذهبية ، بحيث تتحرك في طبيعتها مع الخطّ الأخلاقي الإسلامي العام ، في ما يمثله حسن الخلق في شخصية الإنسان المسلم ، وهذا ما يوحى به الحديث الذي رواه أبو علي ، قال : قلت لأبي عبد الله - جعفر الصادق - (ع) : إنّ لنا إماماً مخالفاً وهو يبغيض أصحابنا كلّهم ، فقال : «ما عليك من قوله ، والله ، لئن كنت صادقاً لأنت أحقّ بالمسجد منه ، فكن أول داخل وآخر خارج ، وأحسن خلقك مع الناس وقل خيراً» (٢) .

إنّ الإمام الصادق (ع) كان لا يريد للشيعة أن يتحركوا على أساس أن تكون لهم مساجدهم الخاصة لتكون للسنة مساجدهم الخاصة أيضاً ، بحيث لا يجتمعون للصلاة في مسجد واحد ، لأنّ ذلك يضعف الإسلام في صورته وفي حركته في الوجدان العام للمسلم ، لا سيما في صلاة الجماعة أو الجمعة ، التي هي المظهر

(١) الطوسي ، تهذيب الأحكام ، ج : ٣ ، باب : ١٣ ، ص : ٢٧٧ ، رواية : ١٢٩ ، داركتب الإسلامية ، طهران .

(٢) الطوسي ، تهذيب الأحكام ، ج : ٣ ، باب : ١٣ ، ص : ٥٥ ، رواية : ١٠٢ .

العام الذي يوحى بالقوة من خلال وحدة الموقف بين يدي الله ، ولذلك أراد للشيعة إلغاء التحفظات المعينة في شروط إمام الجماعة لمصلحة القضية الكبرى للأمة .

وإذا كانت هناك بعض الروايات التي تخالف هذا الاتجاه ، فإنها قد تنظر إلى بعض الأوضاع الخاصة المتصلة بالواقع الشيعي الخاص في بعض توازناته في الالتزام بالخط الدقيق في حركة الولاية العامة .

الابتعاد عن المسّ بمشاعر المسلمين

وقد نستوحي من كلمة : «أحسن خلقك مع الناس وقل خيراً» ، والاستشهاد بالآية الكريمة : «قولوا للناس حسناً» ، توجيه الشيعة إلى عدم خوض التحديات بطريقة الإساءة إلى مشاعر المسلمين الآخرين من خلال المسّ بالأشخاص الذين يختلف المسلمون حولهم في المواقع الكبرى التي انطلقوا فيها ، في ما اعتاده بعض الناس من أساليب اللعن والسب الذي يثير الشر ، ويدفع بالوضع الإسلامي إلى مزيد من التعقيد ، ويخلق لونا من الإثارة والتصرفات المضادة وبالعكس ، بما يتعارض مع المنهج القرآني الداعي لقول التي هي أحسن ، والدفع بالتي هي أحسن ، والجدال بالتي هي أحسن في كلّ ما يختلف فيه الناس ، في ما يؤمنون به أو يقدسونه أو يعظمونه ، فإنّ ذلك هو الذي يحقق اللقاء بين المسلمين ، ويفتح قلوبهم على الحقّ ، ويحرك خطواتهم نحو الوحدة .

وقد روي عن الإمام جعفر الصادق (ع) أنّه قال لأصحابه : «ما أيسر ما رضي به

النَّاسَ عَنْكُمْ كَفُّوا أَلَسْتُمْ عَنْهُمْ»^(١) ، فلم تكن القضية لدى النَّاس أن تنسجم مع أفكارهم لتبرر تشبثك بمواقفك ، بل القضية هي أن لا تبادر إلى مواجهتهم بالكلمات القاسية في ما قد يصدر عنك من كلمات التجريح الانفعالي في نطاق كلمات اللعن والسبِّ ونحو ذلك ، وهذا هو المطلوب في سلوكك مع النَّاس في ما يتصل بالأشياء التي يحترمونها والأشخاص الذين يعظمونهم . وتبقى الخلافات الفكرية أو الفقهية في دائرة البحث والنقاش والحوار بالحكمة والموعظة الحسنة والجدال بالتي هي أحسن .

إنَّ هناك فرقاً بين الجدال في الرأي وبين التجريح في الكلمة ، وقد يخلط النَّاس فيما بينهم ، فيخيل إليهم أنَّ الإخلاص لأفكارهم وعقائدهم هو أن يعبروا عن رفضهم للعقائد الأخرى بأساليب انفعالية جارحة ، لأنَّ ذلك ، في رأيهم ، يعمق إحساسهم بالرفض ، ويؤكد موقفهم بالتبري من رموز الفكر الآخر الذي قام في الماضي ويقوم في الحاضر ، باضطهاد الفكر الذي يتبنونه ، ويهيئ الأجواء النفسية للتعبئة الروحية والشعورية ضدَّ النهج الآخر .

خوض الصراع الفكري على قاعدة أخلاقية:

وقد نلاحظ في دراستنا للسلوك العملي لأئمة أهل البيت (ع) ، أنَّهم كانوا ينطلقون مع المسلمين كلَّهم بروح منفتحة في علاقاتهم الثقافية والاجتماعية ،

(١) الكافي ، ج : ٨ ، باب : ٨ ، ص : ٣٤١ ، رواية : ٥٣٧ .

فكان تلامذتهم يمثلون التنوع في المذاهب الكلامية والفقهية ، وكانت مجالسهم تضم الناس المختلفين في أفكارهم ومواقفهم ، من دون أن تجد أية عقدة أو مشكلة لدى أي واحد منهم في ما يسمع من الكلام ، أو في ما يواجهه من المواقف ، أو في ما يفعل به من الجو والنظرة والأسلوب ، ولذلك كانوا محل تقدير المجتمع الإسلامي كله ، حتى من الذين لا يعتقدون بإمامتهم بالمعنى المصطلح في علم الكلام للإمامة ، لأنهم كانوا يؤمنون بأن الروح المنغلقة والصدر الضيق ، والكلمة المنفصلة والأسلوب المتشنج ، والنظرة القاسية والأجواء المضادة ، لا تحقق أية نتيجة لمصلحة الفكر الذي تؤمن به ، والعقيدة التي يلتزمون بها ، وكانوا يؤكدون على أصحابهم بأن يدرس كل واحد منهم نفسه ، وأن يعامل الآخرين بالطريقة نفسها التي يريد أن يعاملوه بها وفق القاعدة الأخلاقية المأثورة : «عامل الناس بما تحب أن يعاملوك به» ، لأن الصراع الفكري يرتبط بالأخلاق بقدر ما يرتبط بالفكر ، ولا بد للفكر أن يعيش شيئاً من العاطفة في حركته ، كما تحتاج العاطفة إلى شيء من الفكر في توازنها .

وأخيراً ، فإننا نعتقد أن مسألة الوحدة الإسلامية هي مسألة الإسلام في قوته وثباته وصلابته وفاعلية حركته وشمولية نظراته إلى الحياة ، لذا لا بد لنا أن نحركها في حياتنا ، وأن نفرق في وعينا الإسلامي بين صلابة الموقف وقسوة الأسلوب ، وأن نميز بين الحالة النفسية التي تؤدي إلى النزاع ، وبين الحالة النفسية التي تؤدي إلى التفاهم والوفاق .

لا قيمة للتعصب أمام هيمنة الكافرين

ولا بُدَّ لنا أن نعي بأنَّ الإخلاص للرسول ولأهل بيته ، سلام الله عليهم أجمعين ، يتمثل بالإخلاص للإسلام في سلامة موقفه أمام المواقف الأخرى ، وفي قوّة موقعه أمام المواقع الأخرى ، لأننا إذا ربحنا الإسلام فقد ربحنا الانفتاح على رموزه وقواعده ومناهجه وحركته ، وإذا خسرنا الإسلام في معركتنا مع الكفر ، فإننا نخسر كل شيء ، لأنَّ الرموز التي نحترمها ، والحق الذي نلتزمه ، والموقف الذي نتعصب له ، لن يكون لأي منها أي موقع أو أي دور في الساحة التي يهيمن فيها الكافرون على المسلمين ، فلا قيمة لأية كلمة من كافر أو منافق في مدح أي رمز من رموزنا من أهل البيت (ع) إذا كان يقصد في كلمته التعظيم الشخصي بعيداً عن الرسالة ، في الوقت الذي يقف فيه معادياً للرسالة كلّها ، ولا قيمة للدعم الذي يمكن أن نحصل عليه من قبل القوى الكافرة الطاغية للمذهب الذي نلتزمه إذا كانت هذه القوى تتحرك في هذا الاتجاه لإضعاف الإسلام بطريقة تعميق الخلاف بين المسلمين ، لذلك فإننا نتصور أنَّ من الضروري التخطيط الفكري والعملي للوحدة الإسلامية في دائرة أي مذهب إسلامي ، حتى لا يغلب علينا الإخلاص لخصوصية المذهب بعيداً عن الإخلاص لشمولية الإسلام . ومن الضروري ، بالإضافة إلى ذلك ، أن نعمق التزامنا بأشخاص العقيدة من الناحية الرسالية كرموز للإسلام نخلص لهم في خطّ الرسالة ، لنختار الموقف في هذه الدائرة ، حتى تمتزج العاطفة بالعقل والفكر والحياة ، فيما هي علاقة الإنسان بالله وبالإنسان والحياة من خلال الله .

الحوار الموضوعي بين الأخوة طريقنا إلى الوحدة(*)

هل بقي لنا مجالٌ للاستهلاك ، ونحن أمةٌ تحوَّلت إلى أمةٍ مستهلكة ، بدلاً من أن تكون أمةٌ منتجة؟ هل بقي هنالك مجالٌ للاستهلاك في موضوع الوحدة الإسلامية لتحدّث عنه؟ هل بقيت هناك كلمات؟

ربما يشعر الإنسان في كثير من قضايانا التي نعيشها وتهز الأرض تحت أقدامنا ، أن المسألة لا تتصل بطرح النظريات أو إطلاق الشعارات ، ولكن المسألة هي مسألة مَنْ نحن في كل قضايانا؟ هل نحن نعيش إسلامنا خارج دوائر ذواتنا؟

ربما يبدأ الإسلام في عقولنا قضيةً ، ولكنه ينتهي إلى ذات ، ذات الشخص ، أو ذات الجمعية ، أو ذات الحزب ، أو الحركة ، أو الطائفة ، بحيث تكون المسألة كيف تسلم الذات لأنها تختصر الإسلام في داخلها ، وكيف يسلم الحزب أو الحركة أو

(*) نص الكلمة التي القاها سماحته في مؤتمر «تحديات الوحدة الإسلامية» الذي نظمه تجمع العلماء المسلمين في ذكرى ولادة الرسول الأكرم (ص).

المنظمة لأنها تختصر الإسلام في داخلها !

أسلمة العالم

لنجعل الإسلام خارج نطاق الذات الشخصية والجماعية ، ولتبقَ الذات هي التي تحمي الإسلام . المسألة مسألة أخلاقية في معنى القيمة ، وليست مسألة إسلامية فحسب . أنا لا أريد أن أوزع الاتهامات ، فقد أكون من بين هؤلاء الذين أتحدث عنهم ، لأن على الإنسان أن ينتقد نفسه ، تماماً كما قال ذلك الشاعر الشيخ محمد رضا الشبيبي :

كلنا يطلب ما ليس له كلنا يطلب ذا حتى أنا

القضية قبل أن نتحدث بالوحدة ، هي ما هو الإسلام فينا؟ هل نحن نفتح على الإسلام في رحابته؟ كيف يفتح على الإسلام من يعمل على تدمير مسلمين آخرين ، بحجة أنه يختلف معهم في قضية كلامية أو فقهية؟ كيف يمكن أن يكون لنا إسلام يحمي الوحدة ، ونحن قد ورثنا هذا التمزق وهذه الأناية الذاتية من المذاهب الفقهية والكلامية المتناحرة ، ثم ورثناها إلى الحركات الإسلامية؟

فيما المطلوب منك - أيها المسلم - أن تكون حركياً تعمل من أجل أسلمة العالم ، أن يكون الإسلام أفقك تماماً كما هو العالم كله أفقك ، إذ ليس من مصلحة الإسلام في شيء أن تظل تعيش من أجل أن تكون حركتك الإسلامية هي الحركة الوحيدة ، وتدفع الآخرين أن يتبعدوا عن الساحة ، فتعقدهم وتحصرهم وتخرب خططهم ، علماً أنك لا تستطيع أن تملك الساحة ، وهو ما يؤدي إلى

إسقاط الإسلام والساحة !

القضية هي قضية هل نحن جادّون في مسألة الإسلام؟ لو أردنا أن ندرس - وقلت إنها مسألة أخلاقية - واقعنا الإسلامي المذهبي والحركي ، فهل نرى من إسلام أخلاقي في معنى القيمة في علاقاتنا مع بعضنا البعض؟ إننا نتكاذب فيما بيننا ، حتى أننا نستعمل التقيّة مع بعضنا بعضاً . كنّا نقول إنه لا بدّ لنا أن نكون واقعيين ، وأن نعيش السياسة على أساس الواقع لا على أساس المثال الخيالي ، ولكن ليس معنى أن تكون واقعياً ، أن تخضع للأمر الواقع ، وأن تجعل مسألة الصدق استثناءً في سياستك ، فتشرّع الكذب بالعنوان الثانوي وغيره ، ولتكون هذه هي القاعدة ، لأن هناك مصلحة تفرض كذباً هنا وهناك .

الصراحة

قولوا - وأنا من بينكم - هل نملك أن نتصارع فيما بيننا؟ هل يفتح أحدنا قلبه للآخر في ما يتحسسه معه؟ أنا أشك أن الساحة تقبلُ الصراحة ، وهذه حقيقة نعيشها ، لا فيما بين المسلمين على مستوى التنوّع المذهبي ، ولا بين المسلمين على أساس التنوّع الحركي ، بل على مستوى كل حركة في داخلها ، وكلّ مذهب في داخله . الله ، سبحانه وتعالى ، أراد لنا أن نجادل أهل الكتاب بالتي هي أحسن ، فهل يستطيع أحد في هذا المذهب أو ذاك المذهب ، أو في هذه الحركة أو في تلك الحركة ، أن يجادل الذين معه بالتي هي أحسن؟ هل نقبلُ ذلك؟ هل هناك حرية في داخل المذهب لأتباع المذهب ليصحّحوا ما يفسدُ هنا ويفسدُ هناك؟ هل هناك

حرية في داخل الحركات الإسلامية لتتقد القاعدةُ القمّةُ أو لتتقد القمّةُ بعضها بعضاً؟

إننا ننعي على بعض الناس أنهم يكفّرون مذهباً في أحد المواقع ، فيما نحن نمارس الفعل نفسه في موقع آخر ، حتى أصبحت مسألة التكفير والتزندق والانحراف أسلوبنا الغوغائي الذي نستعمله في الساحة .

مَنْ الذي يقف أمام قوله تعالى عندما ندير علاقتنا ببعضنا بعضاً : ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾؟
(الإسراء: ٣٦) مَنْ الذي يُراقب ربه في قوله تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ﴾
(الحجرات: ٦)؟

هناك فرق بين الالتزام وبين التعصب . نحن لا نماري الالتزام ، فهو الذي يربطك بالفكرة ويحركك في خطها وينفتح بك على أهدافه . أما نحن ، فننتمي إلى أهل العصبية التي حدّدها الإمام علي بن الحسين زين العابدين (ع) بقوله : «العصبية التي يَأْتُم عليها صاحبها ، أن يرى الرجل شرار قومه خيراً من خيار قوم آخرين ، وليس من العصبية أن يحبّ الرجل قومه ، ولكن من العصبية أن يُعَيِّن قومه على الظلم»^(١) . ألا نعين قومنا على الظلم؟ أيّ محازبٍ ، أيّ مذهبي ، إذا

(١) الكافي ، ج ٢ ، ص ٣٠٨ ، رواية ٧ .

رأى فرداً من مذهبه أو من حزبه أو من حركته يصطدم مع إنسان آخر ، حتى لو كان الحق مع ذاك والباطل مع صاحبه ، ألا يدعمه ويؤيده؟ هل هناك أخلاقية تجعلنا نقف مع ذاك ضد صاحبنا؟

الوحدة روحية

لا أريد أن أجعل من نفسي واعظاً ، فقد أكون بحاجة إلى الموعظة ، ولكنني أتحدث عن الواقع وعمّا نتحسسه في الساحة ، لذلك علينا أن نفكر : هل نحن إسلاميون بحيث يعني الإسلام لنا شيئاً؟

لماذا يقبل الكفر الآخر بكل تنوعاته السياسية والفكرية ، ونحن لا نقبل الآخر حتى ولو كان مسلماً؟ إن الإسلام قبل الآخر غير المسلم ﴿قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم﴾ (آل عمران : ٦٤) ، اعترف بوجوده وتعايش معه ونظم العلاقات الموضوعية الإنسانية معه ، سواء كانت علاقات معاهدة أو ذمة أو ما إلى ذلك . . ولكننا لا نعترف بالآخر .

الأحزاب في الغرب تعترف ببعضها البعض ، وربما أيد هذا الحزب مشروعاً يطرحه الحزب الآخر ، لأن المسألة عندهم هي مسألة مصلحة أوطانهم وليست مسألة التعصب لأحزابهم . لقد تجاوزوا العصبية وانفتحوا على الموضوعية ، ولذلك استطاعوا أن يتحاوروا في الهواء الطلق . أصبح أحدهم لا يخافُ على فكره من أن يناقشه الآخر حتى في أصوله ، لأن هناك نوعاً من أنواع الإيمان - بطريقة أو بأخرى على طريقتهم الخاصة - بالحقيقة الموضوعية التي يعيشونها .

ونحن كمسلمين لا نقبل الآخر ؛ السني لا يقبل الشيعي ، والشيعي لا يقبل السني ، حتى لو تحدثنا في الهواء الطلق بالوحدة الإسلامية ، لكنهم ﴿ وإذا خلوا إلى شياطينهم ﴾ إلى شياطين الطائفية ﴿ قالوا إنا معكم إنما نحن مستهزئون ﴾ [البقرة : ١٤٤] ألا نقول ذلك لبعضنا بعضاً ؟ ألا نقول ذلك وراء الكواليس ؟

لماذا لم نستطع أن نجذر في داخل قاعدتنا الإسلامية - نحن العلماء والمثقفين -
لا معنى الوحدة الإسلامية ، ولا معنى قبول الآخر في الخطوط الإسلامية
الواحدة ؟

إننا نخاف من ذلك ونخاف من أن تفتح قاعدتنا السنية على الشيعة وقاعدتنا
الشيعية على السنة ، كما نخاف أن تفتح قاعدتنا الحركية على القاعدة الأخرى ،
لأنهم قد يسلبوننا هذا وذاك .

الوحدة الإسلامية وحدة روحية قبل أن تكون مشروعاً ، وهي روحية ترتبط
بالوجدان الإسلامي الذي يجعل المسلمين يشعرون بالقضايا الإسلامية الثقافية
ليقفوا من أجل حماية الإسلام الثقافي في الأصول الأساسية للعقيدة ، وليقفوا من
أجل حماية الخطوط الإسلامية في الشريعة الإسلامية أمام الذين ينتقدونها ،
وليسانده المسلمون قضايا المسلمين الحيوية ، سواء كانت محلية أو إقليمية أو
عالمية .

أن تكون وحدوية هو أن تشعر أن الإسلام يعني لك شيئاً ، وأنت تُشكل إذا سقط
هناك أي موقع أو حدث أي اهتزاز لأي موقع آخر .

لماذا نختلف؟

أن نكون وحدويين هو أن نعيش المسألة الإسلامية بكل جدّ ، ولذلك أنا أتساءل : لماذا لم نستطع في لبنان أن نجعل المقاومة الإسلامية منفتحة على كل الواقع الإسلامي؟

لماذا نسمح لمحدثّ هنا ومتحدثّ هناك أن يقول إنها مقاومة شيعية؟ لماذا لم نستطع أن نؤسس اتحاداً للحركات الإسلامية؟ ولا أقول وحدة ، باعتبارها في الظروف الراهنة طموحاً خيالياً قد نتصوره . هل تقبل أية حركة إسلامية أن تدخل في اتحاد جبهوي أو أية صيغة أخرى مع حركة إسلامية على أساس خطوط واضحة على الأقل في المسألة السياسية؟

لماذا نختلف عندما تكون هناك جولة انتخابية؟ لماذا نختلف بحيث يذهب هذا الفريق الإسلامي الحركي هنا ويذهب ذاك هناك ، ولا يمكن التفاهم لا على الخطوط ولا على البرامج ولا على الأشخاص ، في حين أننا نعمل من أجل قوة الإسلام في لبنان؟

المفروض أن الحركيين هم الطليعة الواعية في الأمة ، فهم الذين تجاوزوا الفواصل والتفاصيل ، لأنهم يعملون على أن تكون كلمة الله هي العليا . أليس هدفنا أن نؤسلم العالم؟ ﴿وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيراً ونذيراً﴾ (سبأ : ٢٨) ؛ لكن ألا يحاول كل واحد منا أن يعيش في داخل إطاره ، ليكون لنا إسلام لبناني ، وإسلام جزائري ، وإسلام مصري . الخ ، بتأثير من الاستكبار العالمي الذي عمل

على أن يجعل هناك شخصية حركية في هذه الحركة أو في تلك؟

يجب أن تكون لنا روحية الحركة الإسلامية ، بالطريقة التي تجعل كلامنا لا يشعر أنه يملك الحقيقة كلها ، ولكن يعي أنه يملك وجهة نظريقتن بها في فهم الحقيقة ، وعليه أن يستمع إلى وجهة النظر الأخرى حتى تغتني المعرفة . وقد كنا دائماً نردد لكثير من المثقفين غير الإسلاميين ، أن أسلوب الحوار في الإسلام لم يتقدمه أسلوب في إنسانيته وفي موضوعيته ، ولن يتقدمه أسلوب ، لأنه في نهاية المطاف يتمثل في قوله تعالى : ﴿وَأَنَا أَوْيَاكُمْ لَعَلِّي هَدَىٰ أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ (سبأ: ٢٤) . . قالها الله تعالى على لسان رسوله وهو الذي جاء بالصدق وصدق به . لقد قال له : عندما تتحاور مع الآخر لا تدخل ذاتك ، لا تدخل إيمانك في عمق وجدانك في ساحة الحوار ، قل لمحاورك إن هناك حقيقة ضائعة بيننا ، قد أكون على ضلال وأنت على هدى ، وقد أكون على هدى وأنت على ضلال ، فتعال لننتقل معاً للتحاور ، فلعلنا نكتشف الحقيقة الضائعة معاً للتوحد ، أو يكتشف أحدهنا ذلك ليفهمه الآخر ، إذا لم يقتنع به .

هل نحن قرآنيون؟

هذا كلام القرآن ، فهل نحن قرآنيون في هذا المستوى؟ هذه المسألة تتصل بالأخلاقية الثقافية الإسلامية ، في الخط الثقافي الذي نريد أن نقابل به العالم في مضمون الفكرة وفي أسلوبها وفي أسلوب الحوار ، فهل نحن في هذا الخط؟

كلنا نعرف أن الوحدة من الممنوعات الاستكبارية ، وأن الوحدة بين المسلمين

هي من الممنوعات الكافرة ، سواء كانت تبشيرية أو غير تبشيرية . إذا كنا نعرف أن القوم يمنعون الوحدة من أجل أن يبقى العالم الإسلامي خاضعاً لاقتصادهم وسياستهم وأمنهم وثقافتهم ، وإذا كنا نعرف أن الكفر يعمل على أن يخرق بلدان المسلمين كأندونيسيا وماليزيا وأفريقيا وغيرها . . من أجل أن يبعد المسلمين عن الإسلام إذا لم يستطع أن يدخلهم في غيره ، إذا كنا نعرف ذلك ، ونعرف ، إلى جانب ذلك ، أن الطريق إلى هذا لا يمكن أن يمرّ بالتعصّب المذهبي ، ولا يمكن أن يمرّ بالشخصانية الحركية ، ولا يمكن أن يمرّ بعبادة الشخصية ، إذا كنا نعرف ذلك فماذا ننتظر؟ هل ننتظر أن يأتي من المريخ أو غيره من يخلصنا من هذا ونحن نملك الأدوات ونملك الوسائل ونملك القاعدة؟

إن قاعدتنا الإسلامية ؛ هذا الشعب ، هؤلاء المسلمين العاديين ، هؤلاء الذين نشعر بعنفوان عندما نتحدث عنهم بأنهم مسلمون تقليديّون ونحن مسلمون طليعيّون واعون ، هؤلاء لا يعوزهم الإخلاص ، وإذا رأوا كلمة تنفتح على عمق الإخلاص ورأوا هناك واقعية ، فإنني أقول لكم إنهم أقرب إلى التخلي عن التعصّب حتى من العلماء ومن المثقفين . نحن الذين نصنع التعصّب فيهم ، نحن الذين نثقفهم ثقافة عصبية ، نحن الذين نقول لهم إن الآخر ليس مسلماً إلا في الظاهر ، وهكذا . . أليست المسألة كذلك؟

الأمة والتفاصيل

إن لدينا قاعدة إسلامية رائعة ؛ القاعدة الإسلامية في فلسطين ، الطفل ،

الشيخ ، الشاب المثقف ، غير المثقف ، تؤمن بالمسألة الفلسطينية وفي بعدها الإسلامي . أنا أعرف أن الفلسطيني العادي الذي يتحرك من خلال عمق إسلامه تاريخياً وفكرياً وشرعياً قد انفتح على الإسلام . وهو ربما تغيب عنه القيادة إلا أنه يستمر في مقاومته ، وسيبقى مرتبطاً بالإسلام ، ولو حدّق بهذه القيادة أو تلك القيادة . . وكذلك الأمر مع هؤلاء الشباب في المقاومة الإسلامية الذين تختلف ثقافتهم ، وتختلف أوضاعهم ، وربما يكون أحدهم قد ولد وفي فمه ملعقة من ذهب ، ومع ذلك عاشوا الجهاد على أساس مفهومه الإسلامي . .

وهذه الأمة أيضاً تتعاطف مع المجاهدين ، هذه الأمة الإسلامية التي رأيناها في كل موقف من مواقف التحديات الأمريكية والإسرائيلية ، رأيناها تقف وتجتمع بعيداً عن كل الإقليميات ، وبعيداً عن كل القوميات . إنها أمة جيدة ، لا يزال الإسلام فيها عاطفة وحساً ، ولكن كيف نقود هذه الأمة إلى مضمون الإسلام وإلى حركته؟ وكيف نفتح عقل هذه الأمة عليه في كل رحابته؟ وكيف نفتح قلب هذه الأمة عليه في كل مشاعره وأحاسيسه؟

إنني أرى أن هناك حرباً عالمية كافرة استكبارية على الأمة الإسلامية كلها ، وعلى العالم الإسلامي كله . الأرض تهتز تحت أقدامنا ، إنهم يتحدثون عنا ونتحدث نحن بأن هناك حالة انعدام الوزن في الواقع العربي وفي الواقع الإسلامي . هناك انعدام وزن سياسي واقتصادي وعسكري . وإذا لم تهزنا هذه التحديات الكبرى ، فأى شيء يهزنا ، هل نقول مع المتنبي :

من يهن يسهل الهوان عليه ما لجرح بميتٍ إيلام

إذا لم تستطع جراحنا أن تهزنا ، فالكلمات والخطابات والقرارات وما إلى ذلك لا يمكن أن تلامس أي شيءٍ ولو السطحي من مشاعرنا .

المسألة أن هناك استلاباً للواقع ، فبعد أن كانت القضية قضية فلسطين ، أصبحت القضية قضية الخليل في تفاصيل شوارعها وقضية المسجد الأقصى وما حوله ، وأصبحت القضية في لبنان «جزين» وما إلى ذلك .

لقد أدخلونا في التفاصيل حتى ننسى القضية ، ونسينا القضية . أصبحت كلمة أن لنا فلسطين بأجمعها كلمةً خارجة عن الاعتدال السياسي ، وعن الواقعية السياسية ، أصبحت كلمات المتطرفين الحالمين .

لقد أدخلونا في التفاصيل حتى طبعوا الأمة ، لتكون كل قضيتها متى تتم التسوية ومتى يمكن أن يكون الحل السلمي . أصبحت الذهنية السياسية للأمة - لا شعورياً - هي مسألة الحل السلمي الذي أصبحوا يشعرون فيه بأنه سوف يتحققون من خلاله من التعب .

هل نقول إننا تعبنا وأتعبنا الأمة معنا؟ لماذا فشلنا في أن نبقي فلسطين في وجدان الإنسان المسلم العادي من الأمة؟ ماذا أصبحت المسألة؟ الأراضي المحتلة ، ثم هربت الأراضي المحتلة فأصبحت مسألة الاستيطان .

فليتحول «التجمع» إلى ساحة حوار ومصارحة

إن حركة «تجمع العلماء المسلمين» هي الحركة الوحيدة الموجودة في العالم

الإسلامي ، التي يلتقي فيها علماء السنة وعلماء الشيعة في موقع واحد ويدرسون القضايا بحجم إمكاناتهم ، وبحجم تجمعهم وبحجم الحساسيات المحيطة بهم ، يدرسون قضايا الأمة ، وواقع الأمة . إنني أرجو أن يبقى هذا التجمع ، وأقول لأصدقائنا وأحبائنا من أعضائه : ليكن لكم الإصرار حتى الشهادة في أن يبقى التجمع .

ربما تواجهون الكثير من المشاكل الداخلية والخارجية ، ربما تواجهون الكثير من الضغوط هنا وهناك ، لكن تذكروا أن هذه التجربة تبقى ، مهما كان حجمها ، نقطة الضوء في كل ظلام العصبية في واقع المسلمين . إنني أريد لكل أخواننا من علماء الشيعة والسنة ، ولا سيما الحركيين منهم ، أن يعملوا في داخل هذا التجمع ، لأننا كلما استطعنا أن نجعل القاعدة أوسع ، كلما استطعنا أن نجعل الفكرة أعمق ، وكلما استطعنا أن نجتمع المفكرين والمثقفين من المخلصين في الحركات الإسلامية وفي غير الحركات الإسلامية من الحركيين في داخل وجدانهم ، استطعنا أن نجعل من التجمع ساحة حوار في داخل التجمع العلمائي ، الحوار العلمي الموضوعي الذي ينطلق فيه العلماء من الشيعة ومن السنة ليصارحوا بعضهم البعض في كل شيء حتى في ما يجرح ، لأننا قد نحتاج إلى أن نخرج بعض الدماء السوداء ليبقى الدم صافياً نقياً في أحمراره النقي .

إذا بقينا نتكاذب ونتجامل ، فإننا سوف نجعل المشكلة أكثر تعقيداً . لا مقدّسات في الحوار ، حاوروا بعضكم البعض في كل شيء ، شرط أن يكون الحوار موضوعياً عقلانياً مركّزاً إلى تقوى الله باتجاه الهدف الكبير ﴿واعتصموا بحبل الله

جميعاً ولا تفرقوا ﴿آل عمران: ١٠٣﴾ . هل نأمل ذلك؟ إنني أرى أن التجمع دينٌ يُدان به ، فهل لنا أن نفتح عليه ونقويه ونعمقه ونمتد به ، فلعله يمكن أن يكون بجهدنا وإخلاصنا وتعاوننا بعض السبيل لإيجاد صورة للوحدة الإسلامية .

علينا ، في كل هذه المشاريع وفي كل هذه الكلمات والنظريات عن الوحدة الإسلامية ، أن نقدّم نموذجاً صالحاً لها ، ولا سيما في دائرة العلماء الذين كان للبعض منهم الدور الأساس في إسقاطها .

دعونا نجعل هذه التجربة القائمة تتأسس على الصدق ، فيكون العلماء مع الوحدة الإسلامية في داخلهم وخارجهم ، ولا يكون لنا شياطين نتكلم معهم بطريقة تختلف عما نتكلم به مع الملائكة . لنبق مع الملائكة ، وإذا عشنا مع الشياطين ، فلنعمل على أن نحولهم إلى ملائكة ﴿وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون﴾ (التوبة: ١٠٥) ، ﴿إنّ هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون﴾ (الأنبياء: ٩٢) ، متمسكين بخط التوحيد ووحدة الأمة ووحدة السير إلى الله .

(١) نهج البلاغة والمعجم المفهرس لألفاظه ، الخطبة: ١٣١ ، ص: ١٣٤ .

(٢) م. ن. ، الخطبة: ٦١ ، ص: ٥٣ .

تأملات في خط التقريب والوحدة(*)

لماذا التقريب في حركة التقريب بين المذاهب الإسلامية؟

هل هو عنوان ثقافي للوصول - من خلاله - إلى التبادل الفكري العلمي بين المسلمين ، ليعرف كل فريق فكر الفريق الآخر ، ولتحقق بذلك النتائج المرجوة في نظرة كل واحد منهما إلى الآخر ، على قاعدة الاختلاف في الاجتهاد المرتكز على النظرية الكلامية والفقهية ، مع الحفاظ على قاعدة الوحدة في نطاق الإسلام ، بما يجعل المسلمين يتعرفون على بعضهم البعض ويعترف بعضهم بالآخر؟! وهل هذا هو كل شيء في المسألة ، باعتبار أن المشكلة التي كانت مطروحة هي جهل المسلمين ببعضهم البعض في ما يملكون من الرأي أو يأخذون به من

(*) سنة وشيعة معاً في إتجاه الوحدة ، النهار ١٦ / ٩ / ١٩٩٣ .

المذهب ، وفقدان الرؤية الواضحة في القاعدة الاجتهادية التي ينطلق منها هذا أو ذاك ، ليكون الحكم المتبادل بينهم هو التكفير والتفسيق ونحو ذلك ، الأمر الذي يجعل الاختلاف المذهبي في الوعي الإسلامي العام يساوي الاختلاف الديني ، وتكون النتيجة هي المزيد من التمزق والانحلال والانطلاق في متاهات الجهل والتخلف الفكري والاجتماعي والسياسي ؟

أو أن التقريب حركة فكرية تنطلق من العنوان الثقافي من أجل إثارة علامات الاستفهام التي يطرحها المحاور على صاحبه ، ليجد فيها ما يصلح كوجهة نظر تثير التفكير في الجانب الآخر من الفكرة التي تستحق الحوار الذي يوضح الموقف ويبلور الرأي ويتجه بالمسألة المختلف عليها إلى المزيد من الوضوح لدى كل واحد من المذهبيين ، وذلك باعتماد أسلوب علمي يقدم التفاهم والانفتاح الفكريين ، بحيث تكون النتيجة هي التحرك من خلال هذا المنطق نحو تقريب الأفكار والتنازل عن الكثير من الهوامش المحيطة بالموقف والزوائد البعيدة عن الموضوع ، بما يجعل الجميع وجهاً لوجه أمام العناصر الأساسية للعقيدة أو للشريعة أو الخط الفكري أو الفقهي الممتد في خطوط الكتاب والسنة ، الأمر الذي يضيق مساحة الخلاف ويبرز عناصر الوحدة الفكرية العقيدية والفقهيّة في ساحة الحوار ، فيأخذ بها المتحاورون ، ويكون الرأي واحداً في ما يختلفون فيه ما دامت الحقيقة هي رائد الجميع ؟

وبذلك يكون الهدف الأسمى من التقريب هو الوصول إلى قاعدة الوحدة ، لأن استمرار الخلاف بين المسلمين يحرك التعقيدات الذاتية والموضوعية في عملية إثارة

دائمة تقود الجميع إلى الموقف الحادّ الملتهب بالمزيد من الحساسيات الحادة والمشاعر المتوترة التي تجعل الوجدان في حالة ضبابية تمتد إلى أكثر من موقع في الساحة ، لتثير أكثر من مشكلة وتحرك أكثر من فتنة على مستوى الواقع الإسلامي كله .

الطريق العقلاني القويم

إننا نتصور أن القيمة الإسلامية في حركة التقريب ، تتمثل في كونها الطريق العقلاني القويم في الوصول إلى الوحدة بين المسلمين ، فهي في تركيزها الخلاف على قاعدة من التفكير المنفتح ، تحوّل المذهبية الطائفية التي تستغرق في داخل مشاعرها المتوترة وأفكارها الضيقة ، إلى مذهبية فكرية واعية تنفتح على الفكر الآخر في المذهب الآخر ، ليقف أصحاب المذاهب المتنوعة في إخلاصهم لمذاهبهم في خط الالتزام الذي يحوّل الفكرة إلى حالة وعي في الموقف ، بدلاً من أن تكون حالة عقدة في الذات تنتمي إلى دائرة التعصب حيث لا يتنفس الانتماء أجواء الفكر .

إننا لا نزال في مواقفنا الجامدة التي يتعقد فيها كل مجتمع مذهبي من أي شخص يحاول تفهّم المذهب الآخر كما لو كان ذلك ممثلاً لتغيير دينه ، وتكون النتيجة المزيد من القسوة في الموقف السلبي من الشخص الذي يخضع لهذا التغيير في ذاته ، فنلاحظ - في هذا الجو - أن المسلمين السنّة يواجهون الناشطين في خط الوحدة الإسلامية من الشيعة بأنهم يريدون إدخال السنّة في التشيع ، كما أن المسلمين الشيعة يتخذون الموقف نفسه من السائرين في هذا الاتجاه - الوحدة - من

أهل السنة ، بأنهم يريدون إدخال الشيعة في دائرة التسنن ، وهو ما يعني أن التشيع والتسنن قد تحولاً إلى حالتين في التنظيم الاجتماعي الطائفي بدلاً من أن يكونا حالتين فكريتين في فهم الإسلام .

وربما نجد النظرة السلبية ذاتها ، في ما يمكن أن يلتزمه العالم الشيعي من بعض الآراء السنية في الفقه أو الكلام ، في المجتمع العلمي الشيعي ، أو في ما يمكن أن يلتزمه عالم سني من بعض الآراء الشيعية في المجتمع العلمي السني ، كما لو كان ذلك يمثل حالة انحرافية في المذهب ، لأنه تحول إلى حالة محنطة لا حركية فيها ولا حيوية في عالم التغيير الفكري ، فلا ينظر إلى ما يملكه من الحجة على رؤية الجديد ، لأن الجميع يختزنون في داخلهم معية المذهب في اجتهاده ، مع أن أية حالة اجتهادية ، في أي مضمون فكري ، في أي جانب من جوانب الخلاف الكلامي والفقهية ، لا بد أن تكون خاضعة للجدل الدائم ، باعتبار أنها قابلة لاحتمالات الخطأ والصواب بحسب طبيعتها الذاتية أو الموضوعية .

وفي ضوء ذلك ، فإن حركة التقريب لم تنجح في تغيير ملامح الشخصية المذهبية المتحجرة أمام الأسوار التي يضعها المجتمع في الدائرة الخاصة داخل هذا المذهب أو ذاك ، في الوقت الذي استطاعت أن تنجح في تحطيم الجمود النفسي في انفتاح البحث على المذهب الآخر في الأسلوب المتعارف في الكلام والأصول والفقه وفي تفسير القرآن ، فنحن نرى أن المنهج العلمي الإسلامي بدأ يأخذ الاتجاه الموضوعي في دراسة المذاهب المتنوعة ، بفعل أجواء التقريب التي أعطت الواقع الإسلامي الثقافي مناخاً جديداً في الواقع النفسي والاجتهادي ، كما أن المناهج

الحديثة للبحث ساعدت على ذلك ، فقد انطلقت المناهج السليمة المرتكزة على الطريقة الموضوعية في البحث في مختلف فنون العلم ، وأصبح المنهاج الذاتي يمثل عملاً غير علمي في حركة النقد العلمي .

وإذا كنّا نتحدث عن التحجر في الشخصية المذهبية لعلماء المذاهب ومثقفهم ، فإننا نتحدث عن المسألة في حجم الظاهرة الاجتماعية العامة ، لكننا لا ننكر وجود أفراد هنا وهناك ممن يملكون حرية الفكر وعقلانية البحث ، ومسؤولية الموقف في الانتماء الذي لا يعيشه الإنسان كحالة ذاتية جامدة ، بل يعيشه كحالة فكرية متحركة صالحة للتداول والتفاعل ، وقد استطاع المناخ العلمي العام أن يلعب دوراً فاعلاً في هذا الاتجاه ، إضافة إلى مناخ التقريب ، كما ألحنا إلى ذلك آنفاً .

الدائرة الضيقة

إننا نحاول - في هذه التأملات السريعة - أن نشير إلى نقطة حيوية جداً ، وهي أن التقريب قد استطاع أن ينجح في إيجاد نوع من التفاهم على أساس عرض المذاهب المختلفة في الأبحاث الكلامية والفقهية ، ولكن الموقف لا يزال في غالب منهجه يتحرك في الدائرة المذهبية الضيقة . فهناك فقه سني متميز في أصوله وفروعه وأسلوبه ، وهناك فقه شيعي منفتح على القواعد الاجتهادية الشيعية في الأصول والفروع والأسلوب ، وهذا الواقع يؤكد الفواصل بين المذهبين في المضمون والشكل ، بحيث يؤدي إلى وضع نفسي يوحى بالانفصال الحاد في الذهنية المذهبية بالطريقة التي تمنع اللقاء .

إن رسالة التقريب - في خط الوحدة - في ما نتصور ، هي في إيجاد فقه متجانس يؤكد فيه الفقهاء من هنا وهناك ، بالبحث الأصولي الذي يركز على الاجتهاد ، على الأسس المشتركة التي يتفق عليها الجميع في قواعد الأدلة ومصادر الشريعة ، بحيث ينطلق الحديث فيه بالأسلوب الإسلامي الذي يستنطق هذا المصدر أو ذاك دون عقدة ذاتية أو صفة مذهبية .

فإذا انطلقنا من كتاب الله كمصدر أساسي للتشريع ، فإن علينا أن ندرسه في نصوصه وظواهره ، ومحكمه ومتشابهه ، وعمومه وخصوصه ، وإطلاقه وتقييده ، وناسخه ومنسوخه ، بالذهنية العلمية المجردة الخاضعة للفهم العام الشامل الذي يستنطق كل المذاهب كوجهات متنوعة في المسألة الأصولية ، بعيداً عن حساسية الخصوصية التي قد تثير التعصب لهذا الدليل أو ذاك ، باعتبار أنه مرتبط بهذا المذهب أو ذاك ، ما يدفع علماء المذهب لتأكيدهِ والدفاع عنه بأي وجه كان ، لأن قواعد المذهب تتبناه ، وهو ما يبعد البحث العلمي عن الموضوعية ويدفع النتائج بعيداً عن التوازن .

القياس كنموذج

ولنقدم القياس كنموذج لهذا المنهج ؛ فإن الفقهاء الذين قبلوه والذين رفضوه ، لم ينطلقوا في هذا الرأي أو ذاك من منطق مذهبي حاد في المسألة الذاتية ، بل انطلقوا في الرفض من دائرة التنوع المذهبي ، فهناك الرافضون له من أهل السنة كأتباع المذهب الظاهري ، إلى جانب الرافضين له من جمهور الشيعة ، وهناك

القابلون به عند بعض علماء الشيعة ، كابن الجنيّد ، ملتقن بذلك مع جمهور أهل السنة ، ما يجعل المسألة بعيدة عن الحدة في الخط الحاسم في هذا الجانب أو ذاك .

فإذا وقفنا مع الأدلة التي يقدمها هذا الفريق أو ذاك على صحة مذهبه ، فإننا نجد حركة المنهج هنا وهناك تتجه نحو استنطاق المصادر العامة للتشريع دون خصوصية ذاتية ، ويسمح هذا الجو بإثارة النقد العلمي للاستدلال بهذا المصدر على الإثبات أو النفي بطريقة عامة مجردة ، كما لو لم تكن المسألة في ذاتها متصلة بالخلاف المذهبي الحاد . وفي الحقيقة ، فإن قضية دلالة هذه الآية أو تلك على حجية القياس أو عدم حجيته ، ليست مسألة ذات علاقة بالمذهب في أصوله الفكرية ، بل هي مسألة تفصيلية في فهم الظواهر اللفظية للقرآن من خلال قواعد اللغة العربية في استفادة المعنى من اللفظ بعيداً عن أية خلفية ذهنية سابقة . وهكذا نلتقي بالسنة التي اعتمدها مثبتو القياس دليلاً ، فإن من الممكن الاتفاق على قاعدة النقد للنص الوارد في نطاق السنة في خط المنهج في محاكمة السند من أجل توثيق الحديث ليكون حجة على السنة ، واستنطاق المتن من أجل استظهار المعنى منه ، والأمر يقف فيه الجميع أمام الدليل المطروح في موقع واحد تتوافر فيه عناصر النفي والإثبات في مواجهة الفكرة لدى الطرفين .

وإذا كان العقل هو الأساس في المسألة ، فإن الأسس العقلية لا تختلف بين مذهب وآخر في إدراكات الناس لها في مقاييس الصحة والفساد .

ومن الملاحظ أن المسألة التي أخذت البعد الواسع من الجدل في القياس ،

تتصل بمدى حجية استنباط العلة الظنية التي هي الأساس في انتقال الحكم من الأصل إلى الفرع ، لأن العلة المنصوصة أو القطعية ناقلة للحكم بالاتفاق ، ولذلك كانت الخلافات تتركز حول الدليل على حجية هذا الظن ، لأن الظن لا يملك في ذاته العنصر الذاتي للحجية ، ما يفرض على الباحث عن حجته الإتيان بدليل يؤكد قيمته في الموازين العلمية المقررة .

حتى أن الشيعة الذين ينقلون الحديث السليبي حول القياس عن أئمة أهل البيت (عليهم السلام) ، الذين هم المعصومون عندهم ، في الكلمة المأثورة «أن السنة إذا قيست محق الدين» ، وفي الوقت الذي يرون فيه الحجية الحاسمة لما يرد عنهم ، يفهمون من كلمات الأئمة القاعدة الأصولية التي تنطلق من عدم وجود أساس للقياس من خلال فقدان العنصر القطعي في اكتشاف العلة المشتركة ، وذلك هو ما جاء في الحديث عنهم «أن دين الله لا يصاب بالعقول» ، ما يعني أنهم لم يفهموا من أحاديثهم الجانب التعبدي بل الجانب التحليلي ، ما يترك مجالاً للجدل المتحرك في الساحة العلمية .

القاعدة الاجتهادية

وقد تكون القضية الحاسمة في تقريب الأساس الأصولي الذي تركز عليه حركة الاجتهاد الفقهي ، هي في التوافق على الوصول إلى رأي مشترك أو متقارب حول الكتاب والسنة من حيث الخطوط العامة لاستنباط الحكم الشرعي من القرآن ، وتوثيق النص الوارد ، فإن ذلك يجعلنا نواجه القاعدة الاجتهادية من موقع

واحد ، بحيث يكون الخلاف - لو حدث - على طريقة الخلاف بين أتباع المذهب الواحد ، عندما يختلفون في ظهور الآية في هذا الحكم أو عدم ظهورها ، أو في كونها منسوخة أو غير منسوخة ، أو في إمكانية الخروج عن الظاهر القرآني بالنص الحديثي في دائرة العموم والخصوص والإطلاق والتقييد والحقيقة والمجاز ، باعتبار أن الجميع متفقون على البعد عن مخالفة كتاب الله : «فكل حديث لا يوافق كتاب الله فهو زخرف»^(١) ، ما يدخل المسألة في إطار يتصل بطبيعة هذه المخالفة للكتاب ، فهل الخاص الحديثي مخالف للعام القرآني أو لا ؟ !

في المقابل ، لم تكن السنة في أي حال من الأحوال موضع جدل في حجيتها ، ولكن الجدل كان في حجية الطريق إليها ، من قبيل تركيز البحث حول حجية خبر الواحد أو عدم حجيته ، وحول شروط حجيته ، وعما إذا كانت العدالة تدخل في عدادها ، ليكون الفسق العملي عنصراً سلبياً في حجيته ، أو الوثاقة كافية في المخبر ، أو كافية في الخبر من حيث العناصر الداخلية والخارجية التي توحى بالوثاقة .

إن الإجابة عن علامات الاستفهام المتقدمة في مسألة حجية خبر الواحد ، قد تحدد لنا الخط العريض للاجتهاد في نطاق السنة الشريفة . فإذا عرفنا أن الأكثرية هنا وهناك تكتفي بالوثاقة في المخبر أو في الخبر ولا تجعل العدالة شرطاً ، فإن النتيجة هي أن من الممكن للمجتهد الشيعي أن يأخذ بخبر الثقة السني ، كما أن من الممكن

(١) الكافي ، ج : ١ ، ص : ٦٩ ، رواية : ٣ .

للمجتهد السني أن يلتزم خبر الثقة الشيعي ، لأن مسألة المذهبية لا ترتبط بالوثاقة بل بالعدالة .

وتبقى المسألة في إيجاد الأساس للتوثيق هنا وهناك في شهادة العلماء ، أو في دراسة تاريخ هذا الراوي أو ذاك ، مما يمكن أن نتفق فيه على خطوط معينة في الجانب التطبيقي ، لأن الوثاقة أمر عقلاني لا تعبدي ، فيمكن الرجوع إلى السيرة العقلانية أو إلى بناء العقلاء في تحديد الأسس الواقعية للوثاقة في الخبر أو المخبر ، مما يتعارف السير عليه في حياة الناس العامة والخاصة ، وبذلك يمكن أن يدخل الباحث الشيعي في حوار مع الباحث السني حول أحد رواة أهل السنة في ميزان الوثاقة ، كما يمكن للباحث السني ممارسة ذلك في بعض رواة الشيعة . . فلا يتوقف هذا أو ذاك عند الخصوصية السنية أو الشيعية في حساسية الرأي ، بل ينطلقان مع المنهج الموضوعي في التوثيق ، وربما كان هذا النهج أقرب السبل للوصول إلى الخط المشترك في الموضوع .

وفي ضوء ذلك ، يمكن أن تكون المصادر الحديثية لأهل السنة أو الشيعة مصادر للشيعة أو السنة في عملية الاستنباط ، ولو بشكل جزئي ، من خلال الأخبار التي يرويها الثقة هنا وهناك .

تطور الفكر الإسلامي أمام التحديات

لا تمثل المسألة المذهبية شأناً داخلياً لأتباع هذا المذهب أو ذاك ، بحيث يختص أصحابه بالبحث في قضايا الفكرية العقيدية ، أو القانونية الفقهية ، فلا يُسمح

للمتابعين لمذهب آخر أن يبحثوها بطريقتهم الخاصة ، باعتبار أن ذلك لا يدخل في اختصاصهم العلمي .

إن المذهبية في الدائرة الإسلامية تمثل وجهة نظر خاصة في فهم الإسلام في دائرته العقيدية والعلمية ، من خلال الاجتهادات الخاضعة لأصول علمية مفتوحة مشتركة بين العلماء المتخصصين في الكلام والفقه .

وقد تكون قيمة البحث المذهبي المتبادل المفتوح ، أنه يحرر الباحثين من الاستغراق في الذات المذهبية التي تخضع للرغبة الدائمة في تبرير مذهبها والتنديد بالمذهب الآخر من ناحية ذاتية دون اعتبار للحياة العلمي ، بينما يتحرك المنهج المنفتح لمواجهة القضية في البحث كقضية إسلامية موضوعية في عناصرها الحية التي تتجاوز الخصوصيات إلى الخط العام للحقيقة الحاسمة ، وبذلك نصل إلى الفقه الإسلامي الواسع الشامل الذي لا يلتزم في أبحاثه إلا بالخصوصية الإسلامية في طبيعتها ومصدرها ، لتكون المذهبية هنا وهناك قولاً من الأقوال وتفصيلاً من التفاصيل ، ولتكون صفة العلماء في الدائرة الإسلامية من خلال عنوانهم الإسلامي كعلماء مسلمين ، لا في الدائرة المذهبية كعلماء سنة أو شيعة ، فالأمر يتجاوز روح التقريب إلى روح الوحدة من خلال الجانب الإيحائي الذي يتحول إلى جانب موضوعي شامل .

نحو واقع تقريبي

وقد يكون من الضروري للعاملين في التقريب أن يتحركوا في إيجاد واقع

تقريبي على الصعيد الشعبي ، فلا تقتصر حركة التقريب على النخبة المثقفة من العلماء المسلمين الذين يراد لهم الانفتاح على وجهات النظر المختلفة بين المسلمين فكرة ومنهجاً ودليلاً ، بل يمتد إلى الواقع الإسلامي الاجتماعي العام في الخطاب التربوي والوعظي والتوجيهي ، بحيث تنطلق مفرداته في تحريك العناوين المشتركة بين المسلمين في العبادات والمعاملات والعلاقات ، وفي خطوط العقيدة وحركة المنهج ، إلى جانب العناوين المذهبية الخاصة ، ليتعرف الناس إلى عمق الصفة الإسلامية الجامعة بينهم في خطوطها العامة ، قبل أن يتعرفوا إلى ملامح الصفة المذهبية ، لأن فائدة هذا الأسلوب ، أنه يثقف الناس بأن التنوع لا ينافي الوحدة ، وأن الوحدة في القاعدة الفكرية لا تنكر للتنوع في التفاصيل ، وليتعلم هؤلاء كيف يتقبلون الموعظة العامة من الشخصية المنتمية إلى هذا المذهب ومن الشخصية الأخرى المنتمية إلى المذهب الآخر ، دون تعقيد نفسي ، كما ينفتحون على إيجابيات هذا الفريق وذاك الفريق ، فإن الموقف الرافض للشرعية في موقع هذه الجهة ، لا يمنع من الانفتاح عليها بما يتصل بالمواعظ المشتركة ، والأخلاق القويمة العامة ، والمواقف الصحيحة ، ولو بشكل جزئي .

إننا نلاحظ أن هناك خطة تجهيلية في التربية المذهبية الإسلامية ، تخطط لإبعاد المسلمين بعضهم عن بعض ، بالتأكيد على مواقع الخلاف بدلاً من مواقع الوفاق ، وبتركيز على السلبيات بشكل مطلق ، من خلال تقديم صورة الفريق الآخر بطريقة مشوهة ، مقابل الاستغراق في الإيجابيات المطلقة من خلال تقديم صورة الفريق الملائم بطريقة محببة ، وبالعامل على منع الأحاديث التي تفتح الوعي

المتوازن على الآخر ، وقد أدى هذا الأمر إلى أن لا يعرف المجتمع السني إلا القليل عن الشيعة وبالعكس ، ما يفسح المجال للخرافات التصورية أن تنفذ إلى الوجدان الشعبي في نظرته إلى خط التسنن أو التشيع بطريقة منحرفة ، وإشاعة اتهامات التكفير والضلال التي تحركها الاتجاهات المتعصبة أو المتخلفة أو الأجهزة المخبرانية الكافرة والمستكبرة والضالة ، دون أن تجد أية ردة فعل ضد هذا الأسلوب العدواني .

إن الثقافة التقريبية الوحدوية لا بد أن تتحول إلى ثقافة شعبية عامة فاعلة في الوجدان الوحدوي العام ، كما لا بد من الاشتراك في الممارسات العبادية على مستوى صلاة الجمعة والجماعة ، وفي المعاملات والعلاقات على صعيد الواقع القانوني الشرعي ، لأن ذلك كفيل بتقريب المواقف وتعديل الاتجاهات .

ونحن نتصور أن المجتمعات المختلطة التي تتنوع فيها الأفكار والمذاهب ، سوف تساهم إلى حد كبير بتوضيح الصورة وتبديل الأوضاع ، وتحريك الكثير من علامات الاستفهام في اتجاه الرغبة في الوصول إلى أجوبة محددة حاسمة ، ما يجعل القضية منفتحة على التعاون في الحصول على مواقع جديدة في ساحة التقريب والوحدة .

وقد نحتاج إلى التأكيد على هذه النقطة ، عندما نلاحظ أن هناك خطة مدروسة للاستكبار والكفر العالميين ، تستهدف إيجاد المزيد من التعقيد في علاقات المسلمين ببعضهم البعض ، وإبعاد المواقف المشتركة عن واقعهم الفكري

والسياسي والأمني والاجتماعي ، وتحويل الخصوصيات المذهبية - في صورتها المشوشة الضبابية - إلى حواجز نفسية واجتماعية مانعة من اللقاء على أساس الخط الإسلامي العام .

وتبقى الوحدة الإسلامية من الممنوعات السياسية لدى الاستكبار العالمي ، فالتقارب بين المسلمين يمثل خطأ أحمر في السياسة الدولية السائرة نحو إسقاط مصالح المسلمين لحساب مصالح الدول الكبرى المستكبرة ، وهو ما يجعل التقريب والوحدة عنوانين كبيرين في ساحة الصراع السياسي في مواجهة الاستكبار العالمي .

تكامل في الصورة

وفي ضوء ذلك ، لابد من العمل على إيجاد تكامل في الصورة في ما يحمله كل مسلم من الصورة عن المسلم الآخر ، لتجتمع لديه كل ملامحها السلبية والإيجابية ، فإن ذلك هو الذي يقرب الأفكار ، ويفتح القلوب ، ويوحد المواقف ، ويدفع الجميع نحو اللقاء على الإسلام كله ، من موقع الوعي لكل الخصوصيات الداخلية والخارجية ، ويوحي بالحوار الإيجابي من خلال علامات الاستفهام التي قد تثيرها بعض ملامح الصورة ، الأمر الذي يركز أساساً فكرياً وعملياً وروحياً لأصالة الانتماء الإسلامي في شخصية الإنسان المسلم بكل شمولية وانفتاح .

إن مشكلتنا في الواقع الإسلامي - على مدى العصور - هي في عدم وضوح الصورة من جهة ، وتشويه بعض ملامحها من جهة أخرى ، ما قد يخيل فيه أن

الكافر أقرب إلى هذا المسلم من المسلم الآخر ، على طريقة اليهود الذين كانوا يتحدثون عن المشركين فيقولون عنهم : ﴿هؤلاء أهدي من الذين آمنوا سبيلاً﴾ (النساء : ٥١) ، انطلاقاً من الحقد المتعصب والمانع لرؤية الجانب المشرق من الصورة ، سيما وأنها لا تملك أية فرصة معقولة لإظهارها بفعل طبيعة العلاقات القائمة ، بينما يملك الجانب المظلم كل الفرص في الحديث والإثارة والتأثير .

وهذا ما يجب على العاملين أن يلاحظوه انطلاقاً من خط العدل الذي قد ره الإسلام ، سيما في تأكيده على النظرة المتوازنة لكل من الأعداء والأصدقاء ، كما جاء في قوله تعالى : ﴿ولا يجزئكم شأن قوم على ألا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى﴾ (المائدة : ٨) . ﴿وإذا قتلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى﴾ (الأنعام : ١٥٢) .

ضرورة الحوار وشرعية الثورة

وفي نهاية المطاف ، ربما كنا بحاجة إلى البحث عن ضرورة الحوار السياسي المتحرك في مواجهة التحديات الكبرى التي تعترضنا كمسلمين في خط الصراع ، سواء في النزاعات المتنوعة بين الأنظمة والحركات الإسلامية ، أو في المسائل المتعلقة بالسلطة والحريات ، لا سيما حرية العمل الإسلامي السياسي من جهة ، والخط العام للأنظمة الحاكمة في البلدان الإسلامية ، أو في التأثيرات الكبرى للاستكبار العالمي والصهيونية العالمية من جهة أخرى ، وتبقى أهم التحديات تأكيد التزامنا الدور الفاعل للشرعية الإسلامية في حركة التشريع العامة ، لأن المسلمين الحركيين يطرحون تطبيق الشريعة بينما يرفض الحاكمون ذلك .

أما القضية التي لا بد من إثارتها ففهيأً وفكرياً ، فهي مدى شرعية الثورة على الحاكم الجائر ، أو الحكم المنحرف عن خط الإسلام ، وهل يجوز استعمال العنف ابتداءً في عملية التغيير ، أو لا يجوز إلا كردّ فعل على العنف المفروض على الناس من قبل النظام ، أو يكتفي المسلمون بالنصح والموعظة والإرشاد ، تاركين الأمور على حالها وللظروف الطبيعية الطارئة المحيطة بالموقف ، باعتبار أن الإسلام هو دين الرفق واللين والحكمة والموعظة الحسنة ؟ ! لا شك أنه لا يصح الاستناد إلى هذا الفهم الأخلاقي للدين ، وإن كان لهذه السمات الأخلاقية دورها الفاعل في معالجة الخلافات الداخلية المتحركة بين المسلمين .

وهكذا تتحرك مسألة التقريب لتلامس المواجهة الحادة بين المسلمين والمستكبرين الذين يفرضون على الواقع الإسلامي سيطرتهم الظالمة الخانقة في الجوانب السياسية والأمنية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية ، ليكون هامشاً من هوامش الواقع الاستكباري ، ما يشل الدور الفاعل للمسلمين في تقرير مصيرهم ، إلا بالطريقة التي تتناسب مع مصالحهم الكبرى الضاغطة على مصالح المسلمين العامة .

والسؤال المطروح ، هل العنف هو الأساس في خط المواجهة من خلال عنوان الجهاد الذي يحكم حركة الإسلام ضد التحديات الكافرة والمستكبرة ، أو أن العنف ليس هو الأسلوب المطلوب تحريكه في خط المواجهة؟ وهذا ما قد يختلف الرأي فيه بين الشيعة والسنة من جهة ، كما قد يقع الخلاف فيه بين الشيعة أنفسهم ، أو

السنة أنفسهم من جهة أخرى ، وهو ما قد يؤدي إلى الكثير من التعقيدات الأمنية والسياسية بين المسلمين ، ويضعف الموقف الإسلامي في خط المواجهة بينه وبين الانحراف في الداخل والخارج ، ويفسح في المجال للنزاع المذهبي والحركي في المجتمع الإسلامي ، لأننا نلاحظ أن ظروف الصراع تثير المسألة الفقهية كمشكلة في ساحات الحركيين والثائرين ، سيما عندما يتم التشكيك في شرعية موقفهم انطلاقاً من اختلافه مع الخطوط الإسلامية الأخرى . كما أن الإعلام الاستكباري يعمل على توجيه الحملة بالطريقة التي تؤدي إلى إرباك العملية التغييرية في حركة المجاهدين ، وتحريك المسألة المذهبية كما لو كانت الثورة خطأً شيعياً ليكون الاعتدال خطأً سنياً أو العكس ، أو توجيه الجدل وبث الانقسام في داخل كل مذهب إسلامي ، ليكون هناك خط تطرف وخط اعتدال يتصارعان على أساس الخط الفقهي في دائرة السلب والإيجاب .

إننا نعتقد أن حركة التقريب بين المذاهب الإسلامية لا بد أن تتطور لتواكب الفكر الإسلامي في معالجة التحديات الجديدة ، مما قد يدور الجدل فيه بين المسلمين على أساس الاختلاف الفقهي أو الفكري في المفاهيم العامة ، لأن ذلك هو الذي يمثل التحدي الحاد الحاسم للواقع الإسلامي كله الذي يراد له أن يسقط تحت تأثير الضغوط القاسية من قبل الكافرين والظالمين والمستكبرين في الداخل والخارج ، والحرب الجديدة ضد الإسلام والمسلمين تحولت إلى حرب متعددة الأبعاد والمواقع والأهداف ، والأمر يفرض على الجميع الاستعداد بكل الوسائل الفكرية والعملية على أكثر من صعيد ، ليأخذ التقريب بين المسلمين دوره الحركي الفاعل في ساحة

الواقع ، بدلاً من أن يكون مجرد حالة ثقافية تجريدية في دائرة الترف الفكري ،
فذلك هو الذي يطور الحركة ، لتكون وسيلة من وسائل حركة القوة في الإسلام
في خط الحرية والعدالة والوحدة .

الوحدة الإسلامية في نطاق الفكر العملي

لماذا نطرح الوحدة الإسلامية كشعار في التحرك الإسلامي في واقع المسلمين الحاضر والمستقبل؟ . . ولماذا هذا الإصرار على الوحدة كصيغة معينة . . في مقابل الصيغ الأخرى التي تتناول التعاون أو التنسيق والاتحاد؟ وما هي ضرورة ذلك كله؟ ربما كان من البديهي التأكيد على أن أي عمل وحدوي أو تنسيقي أو تعاوني ، يحقق خطوة متقدمة للهدف الكبير على مستوى المرحلة ، أو على مستوى المسيرة كلها ، وذلك لما يحققه في المجال الإيجابي من تجميع الطاقات وتوحيد الخطى ، وتنظيف المنطلقات ، ما يعني تضافر كل الجهود الطيبة في حركة قوية نحو الوصول إلى المستوى الأفضل للإسلام والمسلمين . . أمّا في المجال السلبي ، فإنه يوفر علينا الكثير من الإمكانيات الفكرية والعملية التي تضيع في الفراغ عندما تتحرك في الخلافات والتعقيدات المتنوعة التي تثير المشاكل الباحثة عن حل ، والقضايا الصعبة البالغة التعقيد .

وفي ضوء ذلك ، كان العمل الوجدوي هدفاً إسلامياً كبيراً ، لأنه يلغي الثغرات الكبيرة أو الصغيرة التي ترهق المسيرة على كل المستويات . ولكن صعوبة الوصول إليه في بعض المراحل تفرض علينا النزول إلى صعيد الواقع ، فنبحث عن بعض الأسس المشتركة التي تصلح قاعدة للتعاون في بعض المجالات ، وللتنسيق في بعض آخر ، ليكون التحرك سائراً على خطة واقعية لا تخضع للمجاملات ، ولا تضيق في ضباب الكلمات .

وربما نستطيع في هذا المجال أن نشير هذه الفكرة في الأجواء الروحية الإسلامية التي ينبغي للإنسان المسلم أن يعيشها في نفسه وفي حياته من خلال الآيات الكريمة التي تشدد على قوة الإسلام في حركة الحياة ، كمبدأ ، من دون استغراق في التفاصيل ، كما في قوله تعالى :

﴿واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخواناً وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تهتدون ﴾ * ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون * ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءتهم البينات وأولئك لهم عذاب عظيم ﴾ (آل عمران : ١٠٣-١٠٤) .

وقوله تعالى : ﴿ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم﴾ (الأنفال : ٤٦) وقوله تعالى : ﴿وإن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون﴾ (الأنبياء : ٩٢) وقوله

تعالى : ﴿وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان﴾ (المائدة : ٢) .

فإن هذه الآيات توحى بالروحانية التي تنفتح لكل آفاق اللقاء ، وتبتعد عن كل خطوات الفراق . . وقد تكون القيمة فيها أنها تساعد الإنسان على تجاوز العقدة الذاتية التي تفصله عن الآخرين على أساس الخلافات القائمة بينهم . . وهذا شرط أساسي في كل عمل وحدوي أو تعاوني ، لأنه الذي يدفع بنا إلى المواقف الإيجابية كأسلوب عملي من أساليب مواجهة المواقف السلبية بالحلول الواقعية الممكنة .

وربما نجد في سيرة رسول الله (ص) بعض ما يربطنا بالفكرة . . فقد كان يواجه كثيراً من حالات التشنج بين المسلمين في خلافاتهم اليومية ، وحالات الارتباك التي كان المنافقون يثيرونها في الساحة ، بالروح العالية التي ترتفع عن خصوصيات القضايا لتتعامل مع كلياتها كطريق من طرق السيطرة على تلك الخصوصيات . . لأن الإنسان لا يستطيع أن يوحى للأشياء الجزئية بالمرونة إلا إذا أثار أمامها الأجواء التي تربطها بالقضايا الكلية . . وهذا ما نؤكد عليه في حركة الوحدة الإسلامية ، وذلك بمتابعة التأكيد على الروحانية التي تربط الإنسان بالفكرة بطريقة مسؤولة بعيداً عن أساليب المجاملة العاطفية التي اعتادها المسلمون في شعاراتهم في الوحدة ، ولا بد للوصول إلى هذا الهدف من عمق الإحساس بالتقوى التي تعمق لديهم الشعور بالمسؤولية من جهة ، وتدفعهم إلى الممارسة الواعية لخطواتها العملية من جهة أخرى . . وذلك هو مفتاح الدخول إلى التفاصيل .

الاعتراف بوجود المشكلة

قد يكون من الطبيعي أن يعترف المسلمون بأن لديهم أكثر من مشكلة فكرية وعملية وسياسية يمكن أن تكون مثاراً للخلاف فيما بينهم . . فإن الهروب من الاعتراف بهذا الواقع يبعدهم عن فهم الساحة التي يقفون عليها ، وبالتالي ، عن الخطوات العملية للقاء . . وفي ضوء ذلك ، لا بدّ لهم من الشجاعة الروحية الإسلامية في مواجهة تلك الخلافات . . بالبعد من الحساسيات الشعورية الخاصة التي توحى بالإثارة في كل واحدة منها ، فيما يحمله كل واحد منهم من الرواسب التاريخية المثيرة . . لأن مثل هذه الحساسيات تعطل كل إمكانات اللقاء فيما تحشده في النفس من المشاعر الحادة التي ترفض كل بحث في هذا الموضوع أو ذاك . . وقد يكون من المفارقات الملفتة للنظر ، أن بعض المسلمين يملك الاستعداد للبحث الموضوعي الهادئ مع غير المسلمين في وجود الله وفي توحيده وفي النبوة ، وفي غيرها من عقائد الإسلام الأساسية ، ولكنه لا يملك الاستعداد للدخول في حوار فكري حول بعض الشخصيات الإسلامية التي يختلف عليها المسلمون ، من حيث طبيعة الموقع أو من حيث نوعية التقويم . . بل يواجه - بدلاً من ذلك - حالة شعورية متوترة لا توحى إلا بالخصام والنزاع . . نظراً إلى عمق الارتباط بالشخص ، وعدم الارتباط بالفكرة التي تحكم الحاضر والمستقبل . . وقد أدّى ذلك إلى أساليب متبادلة بين المسلمين في أحكام التكفير التي يطلقها البعض على الآخرين ممّا لا يملك عليه حجة مقنعة من كتاب الله وسنة نبيه (ص) . . بل هي المشاعر الحادة التي تنفجر في الصدور .

لا بدّ من شجاعة روحية نواجه بها هذا الواقع بموضوعية . . فلا نخاف من تسجيل ذلك على أنفسنا ، ولا نتعقد من حالات الإصرار الذاتي على الموقف الذي يتبنّاه كل فريق من خلال ما يعتقد أنه الحق ، لأن ذلك يعتبر حالة طبيعية في معنى الالتزام بالإسلام فيما يراه من الإسلام . . وقد أكد الإسلام على هذا الجانب الذاتي في موقف كل صاحب عقيدة ، وأراد - من خلال ذلك - أن لا يمارس المؤمنون أساليب السبّ لمن يخالفونهم في الرأي ، لأن ذلك سيحوّل الموضوع إلى عملية فعل يقابله رد فعل طبيعي ، بنفس الحجم والمستوى ، وذلك هو قوله تعالى : ﴿ولا تسبّوا الذين يدعون من دون الله فيسبّوا الله عدواً بغير علم ، كذلك زينا لكل أمة عملهم . .﴾ (الأنعام : ١٠٨) فإن التعقيب بقوله تعالى : ﴿كذلك زينا لكل أمة عملهم﴾ يوحي بأن حب الإنسان لعمله وفكره يمثل غريزة ذاتية له ، بحيث تكون الإثارة الموجهة إلى عمله موجهة إليه بالذات ، كما لو كانت القضية شأناً شخصياً من شؤونه الخاصة .

القضايا الخلافية

إن المسلمين يختلفون في أكثر من قضية . . هذه حقيقة لا بدّ أن نضعها في الحساب . . ولكن السؤال الذي يطرح نفسه ، هو : كيف نمارس هذا الخلاف وكيف نواجهه؟ هل هو بالبعد الذي يحدد الفواصل ليقيم هناك حاجزاً يبين مختلف الأطراف؟ أو بتقريب المسافات حتى تضيق المساحة الفاصلة أو نلغيها؟ !

إن الأسلوب القرآني يرفض الطريقة الأولى من خلال نقطتين :

الأولى : هي تأكيده على مفاهيم الاعتصام بحبل الله والتعاون على البر والتقوى وعدم التفرق ، ووحدة الأمة في ما قدمناه من آيات ، ما يوحى بمسؤولية المسلمين من تحويلها إلي حركة وحياة ، بمختلف الوسائل التي يملكونها .

الثانية : انطلاقة من مواطن اللقاء في قضايا الصراع ، وذلك في ما تحدث به الله لرسوله في الأسلوب الذي يريد منه أن يخاطب به أهل الكتاب :

﴿قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون﴾ (آل عمران : ٦٤) . فقد أكد على كلمة السواء في البداية من أجل أن يعيش الطرفان روحيتها ، ليكتشفا من خلال ذلك إمكانية تحويلها إلى خط مستمر متقدم في المجالات التي يختلفان فيها ، بعد أن عرفا وجود قاعدة أولى ثابتة تؤكد انطلاق البداية في هذا السبيل .

فإذا كان الإسلام يدعو إلى الانطلاق من مواطن اللقاء في البداية من أجل الوصول إلى إيجاد مواطن مماثلة في النهاية مع أهل الكتاب فكيف يكون موقفه إذا كانت القضية مرتبطة بعلاقات المسلمين مع بعضهم البعض .

وفي ضوء ذلك ، لا بد لنا من استلهام الطريقة العلمية الموضوعية التي دعا إليها الإسلام من أجل الحصول على القناعات المشتركة بين مختلف الفرقاء . . وذلك في ما اشتمل عليه القرآن الكريم من أساليب الحوار بين المؤمنين وغير المؤمنين ممّا

يعلّمنا كيف نحترم الطرف الثاني للحوار بالأسلوب الذي نوحى له باحترام فكره ، لنقوده إلى معرفة الحقيقة بأقرب طريق . . فإن أجواء الحوار ليست هي الأجواء الاستعراضية التي يفكر فيها كل فريق في أن يستعرض عضلاته أمام الفريق الآخر ليخيفه بها ، وليست الأجواء التي يحاول كل واحد من الفريقين أن يسجّل فيها نقطة ضد الآخر ليعلن انتصاره عليه من خلال زهو الانتصار ، بل هي الأجواء التي يعمل فيها الطرفان على أساس روح الحقيقة للوصول إلى القنوات الحاسمة المشتركة بالعلم والفكر والإيمان . . ولن نستطيع الوصول إلى ذلك بالأساليب الانفعالية التي تثير الحساسيات وتدفع الموقف إلى مزيد من المهاترات الكلامية من دون معنى . .

فرز قضايا الخلاف واللقاء

وعلى هذا الأساس ، لابدّ من فرز القضايا التي يختلف فيها المسلمون ، عن القضايا التي يتفقون عليها . . ثم البدء - بعد ذلك - بالوقوف على مواقع اللقاء ، ليلتقي المسلمون فيها على القواعد الفكرية والروحية التي تجمعهم في منطلقات الأهداف الكبرى . . فإذا عاشوا بعض الخطوات العملية المشتركة في هذه الأجواء ، أمكنهم أن يلتفتوا إلى القضايا الخلافية على أساس الشعور بمسؤوليتهم عن حماية آفاق الوفاق . . فينطلقون إليها بالأساليب العلمية الموضوعية التي ركز القرآن عليها في مجالات الحوار ، تماماً كما ينطلقون في ما يختلف فيه كل فريق بين أفراد من دون تعقيد أو تشنج ، بل هو الإخلاص للحقيقة ، فلا تتدخل المشاعر

والحساسيات في الساحة ، لأنها لا تملك قاعدة للتحرك المعقول ، فلا يمكن أن تحل لأحد منهما أية مشكلة ، بل ربما تساهم - كما ساهمت - في خلق مشاكل جديدة لكل الأطراف .

إن القضية ، كل القضية في ما نعتقد ، هي أن يعيش المسلمون أجواء الفكر المسؤول الذي لا يبحث عن عناصر الإثارة ، ولا يفتش عن النقاط السلبية التي يسجلها ضد خصمه ، ولا يخضع لعواطف الجماهير ليبدأ عملية المزايدة على أكثر من مستوى ، ولا يعمل على الحصول على المواقع المتقدمة في المراكز الاجتماعية والسياسية ليصل إليها من خلال الأوضاع المتوفرة في الأجواء الطائفية كما يفعل البعض في البلاد الإسلامية .

إن الخلافات الطائفية كانت - ولا تزال - خلافات فكرية وشرعية وتاريخية ، في طبيعة المفاهيم الإسلامية في الكون والحياة من خلال ما نفهمه من الكتاب والسنة ، وفي تحديد التفاصيل العملية للأحكام الشرعية في العبادات والمعاملات والعلاقات الإنسانية ، وفي أحداث التاريخ في ما فعله رسول الله (ص) أو قاله ، وفي ما تحدث به المسلمون الأولون أو عاشوه من خلافات . . ونحن نملك أدوات البحث في ذلك كله ، فقد استخدمها المسلمون في ما عاشه كل فريق منهم من خلافات جانبية في الداخل ، وفي ما عاشه الفرقاء مع بعضهم البعض في ما كتبوه أو ألفوه . . ولا يزال لدينا الكثير مما نستطيع أن نحاور فيه بعضنا البعض . . لا سيما في أجواء الحرية الفكرية التي عاشها الإنسان في العصر الحديث ، مما أدى إلى أن تتعمق في داخل تكوينه الشخصي والفكري ، الذهنية الموضوعية ، أو

الأقرب إلى الموضوعية في مواجهتها للأفكار والأحداث . . وتبتعد عن الإطار العاطفي الذي يتعامل مع القضايا من موقع العاطفة التي تتحرك في أجواء الإثارة من دون وعي وتفكير ، ويعمل على أن يجعل من أسلوب الاختلافات المذهبية ، أسلوباً يشبه الاختلافات الطبيعية في قضايا العلم الأخرى مما يخضع للتحليل المنطقي المعقول والحوار العلمي الهادئ .

الوحدة السياسية

وهناك طريقة أخرى للوحدة ، هي الوحدة السياسية في العمل السياسي . . فإننا نعلم أن المسلمين في بلادهم ، وفي بلاد الآخرين ، يواجهون مشاكل كثيرة في قضايا الفكر والعقيدة والتشريع ، وفي قضايا الحرية والعدالة والقوة . . وذلك من خلال واقع التخلف الحضاري الذي فرضته عليهم القرون المظلمة ، فجعلتهم يواجهون قضاياهم المتنوعة بعقلية مختلفة في طبيعة التحرك والأسلوب . . وجاء الاستعمار ليؤكد هذا الواقع بوسائله الشيطانية التي حاول من خلالها إبعاد الأمة عن أصالتها الفكرية والروحية والعملية ، التي تمثلها جذورها الحضارية ، فيكون ذلك سبيلاً للسيطرة عليها فكرياً وسياسياً واقتصادياً ، ليحولها إلى وجود هامشي تابع له في كل أموره . . فكان الانحراف الفكري في العقيدة والتشريع ، وكان الاستعمار السياسي والعسكري والاقتصادي ، وبدأت الأمة الإسلامية تعاني من الهجمة الشرسة التي تعاون فيها الكفر بجميع أشكاله ، والاستعمار بكل أنواعه . .

وقد تحول الواقع الإسلامي من خلال ذلك إلى ساحة واسعة لاستنزاف الطاقات في ما يثيره الاستعمار الكافر من مشاكل بين المسلمين ، في نما حده من حدود ، وفي ما صنعه من شخصيات قومية وإقليمية وعنصرية ، وفي ما خلفه من أوضاع قلقة في كل بلد من بلادهم ، مما يعتبر بمثابة القنابل الموقوتة للتفجير في أي وقت تستدعي مصلحته ذلك ، وفي ما وضعه من أنظمة ، وعينه من شخصيات مهزوزة تابعة له في كل أمورها ، فتتحرك كما يريد لها أن تتحرك ، وتقف حيث يريد لها أن تقف ، وتتصرف في مقدرات الأمة بالطريقة التي تثقل حاضرها ومستقبلها ، وتهزم إرادتها ، وتضعف قوتها ، وتبعثر طاقاتها ، وتحولها إلى عناصر متناثرة لا ترتبط ببعضها البعض إلا من خلال الروابط التي يريدها الاستعمار في أحلافه وموائيقه ، وتفسد عليها خططها الرامية إلى الاكتفاء الذاتي كسبيل من سبل التحرر والاستقلال . . وتعمل فيها بالظلم والعدوان والطغيان .

وهكذا وجد المسلمون أنفسهم في صراع خارجي مع القوى الاستعمارية الكافرة بشكل مباشر ، وفي صراع داخلي مع عملائها الحاكمين ، ومع أجهزة المخابرات التابعة لها ، وواجهوا المعركة السياسية والعسكرية في أكثر من اتجاه . . وتحولت السوق الإسلامية إلى سوق لاستيراد السلاح من الدول الاستعمارية نفسها ، ما جعلها تعيش مختلف الضغوط في هذا الاتجاه ، وتخضع لعملية استنزاف لثرواتها المادية والبشرية في الخلافات الإقليمية والداخلية . . وأصبح العنف هو الطابع الذي يطبع الممارسات الإنسانية في بلاد المسلمين ، حتى تحول إلى فتنة متعددة الجوانب أو ما يشبه الفتنة . . وبذلك كان الاستعمار يدفع لنا ثمن

ثرواتنا بيد ، ويأخذها مضاعفة كثمان لأسلحته التي يصدرها إلينا مع مشاكله بيد أخرى ، ما جعل الأمة تلهث خلفه من خلال حاجتها إليه ، وتواجه المستقبل بصعوبة كبيرة .

اليقظة الإسلامية

وقد عاش المسلمون في السنين الأخيرة يقظة إسلامية كبرى ، تمثلت بالحركات الإسلامية السياسية التي اختارت أسلوب التنظيم الحركي في دعوتها إلى عودة الإسلام إلى الحياة فكراً وشريعة وأسلوب عمل ، لأنها شعرت أن الأمة لن تستطيع أن تقف على أقدامها إلا إذا رجعت إلى أصولها الإسلامية في فكرها وخططها العملية ، ولن يتحقق ذلك إلا بالوعي السياسي الذي تكفله حركة التنظيم بمختلف أشكاله . . واستطاعت الحركات الإسلامية أن تركز على الاستعمار وعلى الواقع الفاسد من أجل التغيير . . وبدأت تواجه التحليل الواقعي للساحة على أساس المفاهيم الإسلامية في السياسة بعيداً عن أية نظرية غير إسلامية . . ودخلت - في هذا الاتجاه - في صراع مرير مع التيارات الكافرة الملحدة والضالة ، من أجل تنقية الفكر الإسلامي من المفاهيم البعيدة عن جذوره وآفاقه . . وبدأ الاستعمار يواجه هذه الحركات بمختلف وسائله القمعية ، باللين تارة من أجل محاولة الاحتواء لبعضها ، أو صياغة أشكال مماثلة لها ولكن على طريقته الخاصة ، وبالشدة أخرى بالقتل والتشريد والتعذيب وخنق الحريات ومصادرة الفكر في حركته النظرية والعملية . . وثبتت هذه الحركات أمام التحدي الكبير . . واستمرت في معاناة

طويلة قاسية حتى تمثلت في حركة المرجعية الدينية الرشيدة في حركة الثورة الإسلامية في إيران ، التي استطاعت أن تنتصر على حكم الطاغية . . ومن خلال ذلك واجهت الاستعمار الغربي والشرقي بكل قوة وإصرار . . وتنبه الاستعمار لحركة الثورة الإسلامية في امتدادها في عمق الضمير الإسلامي للأمة في مختلف أقطار المسلمين ، وتحولّ الواقع إلى ثورة روحية وفكرية في داخل كل مسلم . . حتى أدّى ذلك إلى بعض السلبيات السياسية في بعض المناطق الإسلامية التي حرّكتها روح الثورة ضد حكّامها فيما يشبه الانفعال والارتجال ، لأن الساحة لم تكن ناضجة للثورة هناك . ولكن الشعوب لا تفهم - عادة - لغة الهدوء وتخطيط المراحل ، عندما يأتي الزلزال الثوري . . فتندفع في حركة عاطفية طاهرة من دون تقدير للعواقب . .

وهكذا استطاعت هذه الروح أن تتجاوز حدود الإقليميات والقوميات والمذاهب في البلاد الإسلامية ، فوقف المسلمون معها بكل قوة . . وهو ما أذهل الاستعمار وجعله يحسب للواقع الجديد حسابات جديدة . . فقد واجه التحرك الإسلامي في كل بلد يسيطر عليه في مشرق البلاد الإسلامية ومغربها . . وبدأ عملاؤه يشعرون بأن الأرض تهتز من تحت أقدامهم . . وبدأ الاستعمار وعملاؤه يلعبون لعبة الطائفية . . فيما يثيرونه من حديث الثورة الإسلامية في إيران ، وبدأوا يلتقطون بعض الكلمات التي تخلق نوعاً من الإثارة هنا ، وبعض الأخطاء التي تثير المشاعر هناك . . وبدأ الهمس للعاملين للإسلام في بعض الأماكن بأن يتحفظوا في تأييدهم أو يعارضوا في بعض مواقفهم . . وخضع الكثير من هؤلاء للأنظمة بسوء

نية أو بحسن نية ، وبدأت اللعبة الطائفية تفرض نفسها على الساحة السياسية في الحركات الإسلامية بعد أن كانت تعيش في مجال شعبي متخلف ، وبدأت الأصوات تخفت في مواجهة التحدي الاستعماري للثورة ، وبدأت الكلمات تنوع في الملاحظات اللاذعة التي تريد أن تسجل نقطة على شكل الثورة وحركتها وقيادتها . . ولا تزال القضية تتفاعل على أكثر من صعيد نظراً لارتباط كثير من هذه الحركات الإسلامية ، من ناحية مالية ، بالأنظمة التابعة للاستعمار في بلاد المسلمين .

التصور العملي للتحرك الإسلامي

من خلال هذا الاستعراض السريع لواقع اللعبة الاستعمارية الجديدة في تمزيق حركة العمل الإسلامي من أجل تمزيق القضايا الإسلامية الأساسية ، لينفرد الاستعمار بكل فريق في ساحة الجهاد ليقضي عليه بسهولة بعيداً عن حركة الأمة ككل في هذا المجال ، إننا نحاول أن نطرح التصور العملي في تحركنا الإسلامي السياسي لمواجهة المرحلة الصعبة التي يقف فيها العاملون للإسلام في مواجهة التحديات الاستعمارية الكافرة على كل صعيد ، وذلك بكل بساطة ، وبدون تعقيد . . وخلاصته ، أن تقف الحركات الإسلامية على أرض مشتركة من المفاهيم العامة للتحرك ، وذلك بدراسة القضايا الإسلامية الملحة التي تواجه العمل الإسلامي في كل بلد ، والتعرف على المشاكل المحيطة بتلك القضايا ، والوصول إلى اختيار الأساليب الواقعية التي تتصل بكل فريق من فرق العمل مما يشكل

عنصر حماية عملية له ، وذلك على أساس طبيعة الساحة التي تتنوع تحدياتها حسب نوع النظام الذي يحكمها في علاقاته بالأنظمة الأخرى التي يواجه فيها المسلمون نوعاً من أنواع الاضطهاد الفكري والسياسي . . والخروج من ذلك كله بخطة واقعية عملية تتحرك مع الواقع من خلال معطياته من دون أن تبعد عن المبادئ الأصلية مع الإسلام . . ليتمكن الجميع من التعاون فيما بينهم بإيجابيات كبيرة وسلبات قليلة ، فإننا نعتقد أن شرذمة الأعمال الإسلامية - مهما كانت مذاهبها الكلامية والفقهية - كفيلة بهزيمتها أمام القوى الاستعمارية الكافرة بأقرب وقت . . لأن الوسائل التي يملكها الاستعمار لا تقف عند حدّ معين ، لأن القضية عنده تمثل قضية الوجود أو اللاوجود . . ولا بدّ في الوصول إلى هذه النتائج العملية الحاسمة ، من المحافظة على استقلالية القرار لدى الحركات الإسلامية فلا تخضع - تحت ضغط مالي أو معنوي - للأنظمة الضالة المرتبطة بالاستعمار سياسياً واقتصادياً وعسكرياً ، لأنها تحاول أن تطرح الشعارات الإسلامية البراقة من خلال السطح بعيداً عن العمق من أجل احتواء الحركات الإسلامية وتدجينها وتبريدها وتمزيقها بأسلوب عملي طويل .

الثورة والوحدة

أمّا عن موقف هذه الحركات من الثورة الإسلامية ، فإننا نلاحظ في هذا المجال أنه يبتعد عن العمق والواقعية ، لأن ما يأخذونه على الثورة من الأخطاء ، كما يعتقدون في تعاملها السياسي مع بعض الأنظمة التي يخوضون معها معركة الحياة

والموت ، أو في بعض مفاهيمها الفكرية والشرعية والعملية ، هو من القضايا التي يجب أن يدخلوا فيها الحوار الفكري الإسلامي ، ليعرفوا وجهة نظر الثورة الإسلامية في مواقفها تلك ، وتعرف الثورة وجهة نظرهم في تحركهم الفكري والسياسي ، لتلتقي وجهات النظر على وجهة نظر واحدة ، أو التقارب في مواقع متقاربة . . ولا أقلّ من التفاهم على صيغة معينة للتنسيق في التحرك ، بحيث لا تسيء قناعة أحد الفريقين لحركة الفريق الآخر فيما هو موقع قناعته .

هذا ما يتصل بالحركات الإسلامية في علاقة بعضها ببعضها الآخر في الجانب الداخلي من العلاقات . . ونكرر الحاجة إلى جبهة إسلامية سياسية ، إذا لم نستطع الوصول إلى وحدة إسلامية في الجانب السياسي من التحرك العملي للإسلام ، في نشاط العاملين له . . ومن الواضح أننا نتحدث عن الوحدة السياسية في الجانب العملي الميداني للأمة ، لا في جانب الأنظمة التي تسمى أنفسها بالإسلامية ، لأنها بعيدة عن ذلك كل البعد في التطلعات الحقيقية للإسلام والمسلمين .

خطة إسلامية موحدة

وهناك قضية أخرى يمكن للمسلمين أن يلتقوا عليها ، وهي مواجهة الواقع الإسلامي السياسي بمواقف موحدة أو متقاربة يلتقي فيها المسلمون أو تتقارب مواقفهم على أساس خطة سياسية إسلامية موحدة بعيدة عن كل الأساليب المألوفة التي تتحرك فيها أجهزة المخابرات لدى كل من الدولتين الاستعماريتين الكبيرتين ، وذلك من أجل بلورة القرار الإسلامي المستقلّ الأصيل في فكرته وأسلوبه . .

فهناك القضية الفلسطينية التي أخذت في حركتها المتمثلة بالمقاومة الفلسطينية أكثر من بعد ، فانطلقت مع البعد القومي تارة ، والإقليمي أخرى ، والماركسي ثالثة . . ولكنها لم تنطلق مع البعد الإسلامي في موقع مباشر ، متقدم ، وهناك القضية الأفغانية التي انطلقت في مسارها الإسلامي بطريقة قد تختلط فيها بعض أساليب الصراع بين الغرب والشرق كأسلوب من أساليب استغلال الواجهة الإسلامية بعيداً عن الطرح الإسلامي الملتزم ، لاسيما في وسائل إعلام الدول المرتبطة بالمعسكرين الكبيرين ، فقد يكون من الضروري أن نتعاون إسلامياً في إعطاء القضية بعدها الإسلامي الحقيقي في أسلوب الإعلام وفي أسلوب العمل ، وتعميق خطورتها في وعي الشعوب الإسلامية . وهناك الخطر الإسرائيلي الذي يواجه الأمة كلها بقطع النظر عن الإطار الفلسطيني ، باعتبارها تمثل التحدي الحضاري للوجود الإسلامي في المنطقة وفي العالم كله . . مما يدعونا إلى التفكير في خطة إسلامية واحدة لتعميق الالتزام الفكري والعملية لدى المسلمين إزاء هذا الموضوع الكبير الذي بدأ يفرض ثقله على الساحة الإسلامية من خلال الأطماع الاستعمارية المشتركة ، لأن إسرائيل تختلف - في طبيعتها - عن عملاء الاستعمار الآخرين ، بخصوصية ذاتية ، وهي انطلاقها من مواقعها الخاصة ، لتشتغل - من خلال الاستعمار - لحسابها الخاص ، ولتساهم في تحويل المنطقة الإسلامية إلى منطقة نفوذ لها بالاستعانة بالدول الاستعمارية .

وهناك أكثر من قضية يعيشها المسلمون في موطن التحدي الكبير على مستوى العالم كله ، سواء في ذلك القضايا التي يواجهون فيها الطغيان الداخلي في دولهم

المستقلة ، أو الضغط الفكري والروحي والسياسي والاجتماعي في الدول الكافرة ، كما كالوضع الذي يعيشه المسلمون في الاتحاد السوفييتي ، إذ يتعرضون لعملية اضطهاد تستهدف تذيب شخصيتهم وإلغاء فكرهم بطريقة متعسفة طويلة المدى .

ولسنا هنا في مجال تعداد القضايا الإسلامية المطروحة في الساحة ، ولكننا في مجال إعطاء النماذج الحية لبعضها ، للتأكيد على الفكرة التي نحاول أن نثيرها في حديثنا هذا ، وخلصتها أن الوحدة الإسلامية يمكن أن تبدأ من العمل المشترك في مواجهة الواقع السياسي العملي للمسلمين . . لأنه المجال الوحيد الذي يمكن أن يفهم منه المسلمون وحدة مواقفهم ومصالحهم الحقيقية ، وبالتالي وحدة مصيرهم . . فيكونون أكثر وعياً للساحة ، وأكثر إخلاصاً للهدف ، وأكثر تركيزاً في الوسائل .

إننا لا نريد الدخول في مواقف خطائية حماسية ، أو أن نثير المشاعر من خلال الحماس والانفعال ، ولكننا نحاول أن نواجه مسؤوليتنا الصعبة إزاء الواقع الإسلامي في حاضره ومستقبله إذا كنا مخلصين لصفة الانتماء الإسلامي الأصيل ، كما نوحى لأنفسنا وللآخرين بذلك .

وختاماً ، أقول لكل إخواني من المسلمين : إن المسؤولية الكبرى التي تنتظرنا جميعاً هي الحفاظ على الثورة الإسلامية في إيران ، باعتبارها التجربة الأولى الحديثة للدولة الإسلامية ، وذلك بالعمل على الوقوف معها ضد التحديات الاستعمارية الكافرة ، ورصد خطواتها العملية ومشاريعها العامة ، وعلاقاتها الدولية ، وأوضاعها الداخلية ، من أجل إنجاح التجربة بالتأييد والنقد

وبالمشاركة . . لتكون وحدة الموقف تجاهها النواة الأولى للوحدة الإسلامية التي لا تتحرك في الفراغ ، بل تنطلق من قاعدة إسلامية ثابتة «أصلها ثابت وفرعها في السماء» ، لأن الكلمة الطيبة قد تحولت من خلالها إلى واقع وموقف وحركة حياة .
﴿وَأَن هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ (الأنعام: ١٥٣) .

﴿واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا وأذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخواناً وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تهتدون﴾ (آل عمران: ١٠٣) .
﴿وإن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاتقون﴾ (المؤمنون: ٥٢) .

هموم وقضايا مستقبلية في مسألة الوحدة(*)

إنَّ الكلام في هذه المرحلة لمسؤولية كبيرة ، لا سيما عندما يكون في محراب من محارب الفكر والعلم . وإنَّها لمسؤولية ، أيضاً ، أن تتحدث وأنت مأخوذ باحترام النَّاس في ما تفكر وتعطي وتقول . فثمة فرقٌ بين الكلام الاستهلاكي ، وبين الكلام الذي يُراد له أن يكون مثمراً ومنتجاً ؛ فالأول عماده توظيف واستثمار كلِّ ما في الساحة من أجواء عاطفية وانفعالية ليثير الحماس والتصفيق ، من دون تحقيق أي هدف وراء ذلك ، وأمَّا الثاني ، فإنَّه لا يقتضي مخاطبة عيون النَّاس وهي تلمع مشدودة إلى شعاراتك ، بل مخاطبة أفكارهم وهي تتأمل مشدودة إلى فكرك .

(*) الجامعة اللبنانية - كلية الحقوق - الفرع الأول - ١٩ كانون أول ١٩٨٣ م .

لقد أصبحنا ، وللأسف ، في كل ما نستهلك من حديث ، مجترين
مستهلكين ، لا نفكر بقضايانا بعمق وبواقعية ، وعلى نحو منتج ومثمر وفعال ، لذا
نحن مدعوون ، ومن وحي دقة هذا الواقع ، إلى أن نجدد في الوسائل والأهداف ،
وأن نتعمق في فهم واقعنا جيداً ، ليلهمنا هذا الوعي إبداعاً وحيوية . .

الوحدة الإسلامية: هموم وقضايا

لماذا كل هذه الهموم حول الوحدة؟ وهل تستحق أن تكون الوحدة همّاً لنا؟ إنَّ
أيّ همٍّ ، إنَّما ينشأ من خلال اهتزاز الواقع وتزلزله بفعل السلبيات الكبيرة التي
تخرقه ، فتستحيل فينا إلى ما يشبه حالة طوارئ تستدعي استنفار كلّ مشاعرنا
وأحاسيسنا لمواجهة الأخطار الناشئة من هذه السلبيات ، والتي تهدد الواقع كلّهُ
بالافتراس .

ونحن عندما نعيش همّ الوحدة ، لانعيشه همّاً يتمركز حول قضية دون
أخرى ، وإنَّما نعيشه همّاً إنسانياً بامتياز ، همّاً يتناول قضية الإنسان في الصميم ،
لأنَّ هناك انفصاماً في داخل الإنسان نفسه يمزقه إلى شخصيات غير متمازجة
ومتفاعلة ، بحيث يتحرك اليوم في هذا الاتجاه وغداً في اتجاه آخر . ولعلّ السبب
في ذلك ، هو أنَّ إنساننا لم يحاول تركيز قناعاته على أساس واحد ، وإنَّما كانت
قناعاته عبارة عن شتات أفكار تجمدت في زوايا الفكر من دون أن يتركها تتفاعل ،
بل كانت تتصارع لتمزق شخصيته من الداخل قبل أن تمزق شخصيات الآخرين
في ساحات الصراع الخارجية .

الإنسان الوجدوي أولاً

إننا عندما نتحدث عن الوحدة ، أية وحدة كانت ، هل يكفي أن ندرس القواسم المشتركة لنقول للناس تعالوا نلتقي عليها ، أو ندرس الخلافات لنقول للناس تعالوا نتحاور عليها؟ ! لا يكفي ذلك ، فالقضية ليست قضية مشاريع الوحدة ، سواء كانت مشاريع فكرية أو عملية ، ولكنها قضية الإنسان . لذا لا بُدَّ لنا من أن نسعى لبناء الإنسان الوجدوي ، الذي يعيش الوحدة فكراً وشعوراً وتطلعات مستقبلية في إطار الواقع .

إنَّ هناك الكثير من يعيشون الوحدة فكراً ويخططون لها ، لكنهم فشلوا في إنجازها . فالنهوض بوحدة الإنسان هو الشرط الموضوعي لنجاح أي مشروع وحدوي مهما كانت طبيعته ، فالمهم أن يكون الإنسان واحداً في ذاته وفكره ومشاعره وتطلعاته وآماله وأحلامه ، وأن يكون مؤمناً بالوحدة وعاملاً لها ، وإلاَّ فإنَّ الفشل يكون حتمياً ، مهما كانت المشاريع كبيرة ومهما كانت الخطط شاملة ، لأنَّهم أهملوا البنية التحتية لإنجاح أي مشروع وحدوي ، ألا وهي إقامة الإنسان الوجدوي .^{٢٠٠}

ولهذا ، فإنه عندما انطلقت المشاريع الوجدوية ، كان هذا الإنسان يسعى إلى البحث عن نقاط الخلاف هنا وهناك ، وبذلك تحولت المشاريع الوجدوية إلى فرصة لإثارة بذور الخلاف أو لتعقيد الخلافات السابقة .

لماذا التركيز على مواطن الخلاف؟

القضية هي أن نفكر في الإنسان عندنا ، وفي طريقة التفكير لديه . وهنا نطرح

سؤالاً لتقرب من الصورة أكثر في فهم الشخصية الموجودة :

لماذا يتم التركيز كثيراً على مواطن الخلاف عندما يلتقي إنسان بأي إنسان آخر ممن يختلف معه ، سواء على مستوى الفكر الديني أو السياسي أو أي فكر آخر؟ لماذا يحاول رأساً أن يخلق التمايز عنه ، فيخاطبه من موقع هذا التمايز ، ومن موقع الاختلاف والتباين معه ، لا من الموقع المعاكس؟

إنَّ التمايز قد يكون أمراً مبرراً عندما نريد تأكيد تمايز شخصياتنا ، سواء على الصعيد الفكري أو سواء ، ولكن هذا التمايز يكون غير مبرر عندما نريد الانطلاق مع الآخرين لتركز قواعد مشتركة لحل الخلافات معهم .

إنَّنا نعيد السؤال مرة أخرى : لماذا نركز منذ البداية على عدم وجود قاعدة مشتركة فيما بيننا ، ويكون الخلاف هو الذي يحسم الأمر؟

قد يكون الأمر كذلك ، لأنَّنا تربينا وتعلمنا ، وغُرس في فكرنا العملي الوقوف عند الجزئيات وهجر الكلّيات التي تؤمّن الحد المشترك ، ولأنَّنا تعودنا ملاحظة الزوايا والهروب من الساحة الكبيرة ، انهمك فكرنا واستغرق في الزوايا الضيقة . إنَّه الإلحاح على الخصوصية والذاتية بعيداً عن الشأن العام والجو العام . هذا هو الذي يطبع إنساننا اليوم ، كما يتمثل في ما نعيش ونواجه من قضايا في الأمور المصيرية من حياة الأمة .

إنَّ ما نريد قوله هنا ، إنَّه يجب علينا قبل البحث في مشاريع الوحدة ، أن نبحث في طريقة هذا الإنسان في مواجهة القضايا التي يعيش حولها الصراع أو الخلاف ،

فلا تزال الممارسة ، حتى في القضايا الفكرية ، تتم بعقلية اللاعبيين الذين يسعون إلى تسجيل نقاط على بعضهم البعض ، موحين بأن هذا الافتراق قابل للتبرير والعذر .

إنَّ الإنسان الذي يعيش الوحدة هو الذي يحترم خصوصية صاحبه كما يريد من صاحبه أن يحترم خصوصيته . عندما تكون وحدياً ، فإنَّ عليك أن تفتح المجال لتحمي حرية صاحبك بأن يقول ما يشاء ، تحميه من كلِّ عواطفك وانفعالاتك ، تحميه من كلِّ ذلك وتقاتل في سبيل حريته ، لأنَّ الآخر إذا استطاع أن يأخذ حريته في أن يعبر عن فكره بصراحة ، فمعنى ذلك أنَّك تستطيع مناقشة آرائه ، كما يستطيع هو مناقشة آرائك ، لأنَّ تحجب حريته عنه ويحجب حريته عنك ، وبعد ذلك تختبئان في زاوية المجاملة ، وتنتهي القضية بنقطة مقابل نقطة ، أو أكثر من ذلك ، ويتفرق بعدها المتفرجون ، ويرجع كلُّ لاعب إلى مكانه .

لابدُّ من الإشارة إلى الأمور بوضوح ، وأنا هنا لا أتكلم كواعظ ، بل أقولها من أجل أن نشير إلى الجوانب العميقة في بناء شخصيتنا ، فنحن لنعيش الوحدة روحية وفكراً وأسلوب حياة . .

فكروا في الإنسان الذي يعيش روح الوحدة ، الإنسان الذي يفكر بموضوعية ، والذي يتحدث من موقع الفكر لا من موقع الانفعال العاطفي ، عند ذلك ، يمكن لنا أن لانخاف من تلك الجهات التي تحاول أن تلعب لعبتها في واقعنا مستغلة الكثير من الثغرات والانقسامات .

إننا نتحدث دائماً عن الاستعمار والصهيونية ، وأنهما السبب في تفريقنا وتمزقنا ، ولكن من الذي أعطى الاستعمار فرصة ليلعب ؟ ومن الذي أعطى الصهيونية الفرصة لتمزق ؟

إنها شخصيتنا تلك التي تعلبت في إطارها بعيداً عن الفضاء الواسع حيث تتفتح وتتلاقى .

الشخصية الوجدانية

لهذا لا بدّ لنا أن نتعلم كيف نحترم الموضوعية والعقلانية في حوارنا وتفكيرنا ، وأن نحترم حرية بعضنا البعض ، لأنّ الحرية لا يخافها الواثقون من سلامة فكرهم وقوته . إنّ الذين يخافون من الحرية هم أولئك الذين يشعرون بضعف في الفكر والشخصية ، ويسعون إلى أن يخفوا ضعفهم بكلّ ما لديهم من وسيلة لهزم شخصية الإنسان الآخر بدل أن يهزموا فكره .

ولعلّنا نستوحي هذا من دعاء يقرأه المؤمنون في ليالي الجمعة في فقرة تقول : «وقد علمت أنّه ليس في حكمك ظلم ، ولا في نقيمتك عجلة ، وإنّما يعجل من يخاف الفوت ، وإنّما يحتاج إلى الظلم الضعيف ، وقد تعاليت يا إلهي عن ذلك علواً كبيراً» .

إنّ معنى الدعاء هو أنّك عندما تظلم الآخرين لا تكون قوياً ، بل ضعيفاً يحاول أن يدافع عن عقدة الضعف في نفسه من خلال استعراض القوة .

لهذا ، إذا أردنا لكلّ المشاريع الوجدانية أن تنجح ، فإنّ علينا أن نعيش شخصية

الوحدوي ، وأن نعيش الشخصية التي تبحث عن الساحة الكبيرة لتنتقل فيها مع الآخرين في فضاء تلك الساحة الكبيرة . أمّا أن نطلّ على الساحة من الزوايا الصغيرة ، فهذا شيء لا يمكن أن يؤدي إلى نتائج إيجابية ، لأنّ الزوايا لا تستطيع أن تسع الساحة أبداً .

لماذا الوحدة الإسلامية بالذات ؟

إنّنا عندما نتحدث عن الوحدة الإسلامية في لبنان ، فهل ندعو إلى ذلك لنقول للمسلمين توحدوا وانغلقوا على أنفسكم ، وهل هي وحدة ضد الآخرين في هذا البلد المشحون طائفياً ؟

لا ، ليست القضية كذلك ، بل إنّنا نعتبر أنّ قضايا الوحدة تتسع لأكثر من محور ، وتتحرك في عدة دوائر ، من خلال القضايا التي تحكمها .

إنّنا نتحدث عن الوحدة الإسلامية باعتبار أنّها وحدة تلتقي بمشكلاتها ، وهكذا يمكن أن نتحدّث عن وحدة في الوطن تتحرك من وحدتين منفتحين قويتين لا مجال فيهما لأيّة اختراقات صغيرة .

إنّنا نتحدث عن الوحدة بين المسلمين ، وهناك من يتحدث عنها بين المسيحيين ، لأنّنا إذا انطلقنا من خلال وحدة كبيرة نتحدث عن وحدة أكبر ، فعندها يسهل معرفة القواعد الكبيرة التي يمكن فيها اللقاء . .

ولكن عندما نتحدث عن وحدة الوطن من خلال أكثر من دائرة ، فعند ذلك سنضيق بين الدوائر الصغيرة التي قد تتحول إلى ما يشبه الكلمات المتقاطعة .

إنَّ حديثنا عن الوحدة هو حديث أيضاً عن الانفتاح ، من خلال مبادئ الإسلام وقيمه ، على كلِّ الدوائر الأخرى ، ليكون الحوار فيما بيننا جميعاً ، منطلقاً من خلال الوعي ، ومن موقع الانفتاح والرؤية الواقعية السليمة .

لماذا نعيش الهم الآن؟

سؤال لم نجب عنه ، لأننا نشعر أنَّ هنالك أكثر من اختراق يتحرك في واقعنا ساعياً من أجل الاستمرار في إثارة الفتنة من الداخل ، فلذا نشعر بأنَّ علينا معالجة هذه القضايا ، لا على مستوى القيادات فحسب ، بل على مستوى الأمة كلّها ، لأنَّه لا فائدة في أن تتحاور القيادات دون أن تعي الأمة معنى الوحدة ، ودون أن تعي قضاياها .

واجبنا تجاه الأمة..

إنَّنا نشعر بأنَّ علينا أن نجعل الأمة تتنفس روح الوحدة في الهواء الطلق ، بعيداً عن كلِّ المحاور وكلِّ الأساليب السياسية التقليدية التي عشناها .

كما علينا في الوقت ذاته ، أن نفكر بالأسباب التي أدَّت إلى اختلاف المسلمين وانقسامهم ، وبالتالي ، علينا أن لانهرب من مشكلة الخلاف ، بل علينا أن نمتلك شجاعة مواجهتها كمقدمة لمعالجتها .

ولابدَّ من الإقرار بوجود خلافات بين المسلمين ، كما أنَّ هناك خلافاً بين المسلمين وغيرهم ، منها ما يتصل بتفاصيل العقيدة ، ومنها ما له صلة بتفاصيل الشريعة ، وبتقييم الشخصيات التاريخية التي يخلص لها هذا الفريق أو ذاك . إنَّ

هناك اختلافاً ، ولكن علينا أن لا نتشجع أمام الخلافات ونتعقد من وجودها ، بل علينا استخدام عقولنا في تناولها ومعالجتها في مختلف المجالات ، بعيداً عن العقْد والعواطف الشخصية التي تؤجج المشكلة .

ولأنَّ المشاكل غالباً ما تحدث من خلال بعض مظاهر الخلاف التي تنطلق من كلام واعظ أو حديث خطيب لتتحرك بعدها الجوانب العاطفية التاريخية ، لذلك كان لا بُدَّ من أن نتحرك في اتجاهين :

١ - روحية العلم ورسالية الشريعة

لا بُدَّ للمفكرين والعلماء والمثقفين من بحث كل تفاصيل الخلافات بحثاً علمياً موضوعياً ، شأنهم في ذلك مع أي بحث يتناول التراث الفكري والعقائدي لأي جنسية أو قومية أو وطن ، بحيث يتم فحصها ودرسها وتقويمها بعيداً عن كل التراكمات ، ووفقاً للمعايير العلمية الموضوعية لا العاطفية .

ويمكن لنا ، من خلال ذلك ، الحصول على نتائج جيدة تسمح بوجود مساحة واسعة من الأفكار والأسس المشتركة والمتفاعلة ، هذا إن لم نصل إلى حلول ونتائج حاسمة .

إذاً ، لا بُدَّ للعلماء المسلمين ، الجديرين بهذه الصفة ، أن يعيشوا رسالية الفكرة والشريعة ، وأن يكون هاجسهم بلوغ الحق ونشره .

إننا نعتقد أنَّ التطور في الأسلوب الذي يعالج به العلماء القضايا الفكرية في العصر الحديث ، يستطيع أن يحل المشكلة الفكرية الإسلامية بين علماء المسلمين

ومفكريهم ، شرط أن يعيشوا روحية العلم ، وأن يبحثوا عن فكرٍ لأمتهم يتحرك من خلال الينايع الأصيلة للرسالة التي يعتقدون بها .

قد يكون هذا الحل مثالياً على مستوى الواقع العام ، ولكن من الممكن أن تتحرك الخطوات الأولى ، في هذا المجال ، مستفيدة من الأجواء العلمية التي يكفلها العصر الحديث في طريقة مواجهة الخلافات الفكرية بعيداً عن كل الترسيبات والخلفيات الفكرية التي لم تحاكمها الأسس الأصيلة .

إنّ مثل هذه الخطوات القليلة والأولى ، يمكن أن تفتح المجال لخطوات واسعة في المستقبل ، لأننا عندما نريد التحدث عن الوحدة ، لا يمكن أن نتحدث عنها بطريقة «السندويش» ، كما يتحدث السياسيون عن الحلول السحرية لمشاكل الأمة ، بل لا بُدَّ من أن نتحدث عنها كتطلعات مستقبلية تنتظر شروطها الواقعية من خلال تحركنا لتوفير مثل هذه الشروط من أجل المستقبل الكبير .

وهذا غير بعيد عن تجاربنا ، فكثير من الأوضاع التي نعيشها كانت مثالية في تصورات الآخرين ، ولكنها أصبحت واقعاً اليوم عندما تهيأت لها الظروف والشروط الضرورية واللازمة .

لا بُدَّ من أن يكون عندنا مجال حرية الفكر ، ولا نتعقد من أية نتيجة سلبية أو إيجابية لما نؤمن به أو لما يؤمن به الخصم ، لأنّ الذين يتعقدون سوف لا يعيشون الحقّ ولا الرسالة ولا الإسلام ، لأنّ الإسلام ليس هو الشيء الذي ورثه ، بل هو الشيء الذي تفكر فيه من موقع الأسس ، فإذا اكتشفت بنفسك أنّك مخطئ

وأصريت على خطأك ، فأنت لست بمسلم ، لأنَّ الإسلام هو تجرد عن الذات ، وانطلاق نحو الحق وخضوع له . .

٢ - خلافات الرأي واجتهاد المجتهدين

وهناك اتجاه آخر ينبغي السعي له ، وهو أن نعمل في سبيل تبريد العواطف المتأججة في المجال الشعبي التي تتوقف أمام الخلافات بحدة ، وذلك بأن نعطي الشعب أو الأمة الفكرة التي تقول إنَّ هذه الخلافات هي اجتهادات اقتنعت بها من خلال اجتهاد مجتهدين ، والمجتهد إذا أعمل جهده قد يخطئ وقد يصيب ، وهو إن أخطأ فله أجر وإن أصاب فله أجران ، وإنَّ الذين يتبعون المجتهد وهم لا يملكون الثقافة التي يستطيعون من خلالها تحديد الحق ، إنَّ هؤلاء معذورون وإن اكتشف خطأهم بعد ذلك . إنَّ هذه الفكرة لا بدَّ من أن يعيشها الناس للوصول إلى هذه النتائج ، وإن سلوكها غير صعب ، والسبب هو ما عندنا في الدوائر الإسلامية ؛ في دوائر المذهب السني أو الشيعي ، فهناك أكثر من رأي يتبناه الناس في هذه الدائرة ، وفي الوقت نفسه يتبنون آراء أخرى في الدائرة الأخرى ، ومن دون أن يشعروا بعقدة في ظل دائرتهم الصغيرة ، لذا يمكننا أن نأخذ الرأي في ظل هذه الدائرة الصغيرة ، حتى نوحى للناس بواقعيتها وسلامتها في ظل الدائرة الكبيرة .

وعندما يتصور الناس أنَّ الخلافات في الرأي لا تكون مصدر تضليل ، ولا هي بالعقدة ، ولا هي تمثل دوائر مقفلة لا تنفتح على الآخرين ، وعندما يثيرون نقاط اللقاء الكثيرة ، فإنَّهم سيعتادون قبول الآخر وقبول الاختلاف ، لا من موقع

التعصب ، وإنما من موقع القناعة العلمية والموضوعية ، الأمر الذي سيخلق مناخاً يقوم على الاحترام والثقة المتبادلين ، ما يؤسس لمناخات التقارب والتواصل وصولاً إلى مرحلة التوحد لاحقاً .

وهذا الأمر ، كما قلنا ، غير سهل ، لكن إنجازاه أيضاً غير مستحيل ، وجلّ ما يحتاجه هو أن يتحرك المخلصون العاملون في نطاق الأمة بعقلية الرساليين من أجل توعية الأمة والوصول إلى وحدة في القواسم المشتركة .

أمّا لماذا الأمر غير سهل ؟ فلأنّ واقعنا قد تعودّ على استهلاك العقد عند كلّ مسعى لحلّ خلاف ، وسيصر على ذلك حتى عند التحرك في النطاق الإيجابي ، هذا فضلاً عن أنّ هناك مستفيدين كثيراً من واقع الانقسام والتشرذم الطوائفي والمذهبي ، سواء على مستوى الكهنوت الديني أو على صعيد رجال السياسة ، ولكننا ، كما قلنا ، نحن لا نتطلع لتحقيق ذلك في المرحلة السريعة ، ونعتبر أنّ المعاناة هي جزء من عمل الرساليين الذين يسعون إلى تحقيق المواقع المتقدمة للرسالة .

لذا ، يجب أن تكون الرسالة هي المعيار الذي نقيس به أبطالنا ، وعندها فليبق من يبقى ، وليسقط من يسقط ، لأننا لا نريد إلّا أولئك الأبطال الذين يربطوننا بالرسالة ربطاً مثالياً يحفزنا دوماً على المضيّ قدماً إلى الأمام .

إذا كنّا ممن يحرص على الوحدة فعلاً لا قولاً ، فالوحدة أبعد من أن تكون واقعاً منجزاً ، بل هي مشروع نحو المستقبل ، ولذا لا بُدّ ، وانطلاقاً من هذه الحقيقة

الواقعة ، من أن ترتفع سقوف تفكيرنا وطموحاتنا وإرادتنا وعزائمنا وأحلامنا إلى المستوى الذي يلامس آفاق المستقبل وإمكاناته ، كما لا بُدَّ من الانطلاق من الدوائر الصغيرة لإقامة وشائج التواصل والانفتاح وصولاً إلى إنجاز هذين الهدفين على مستوى الأمة جمعاء ، إذ لا بُدَّ دائماً ، في أي مشروع كبير يلامس تطلعات الإنسانية وتكاملها الحق ، من أن يتخذ له نقطة ارتكاز أساسية في أرض الواقع ، تشكل له القاعدة والمنطلق لتحويل الطموح من حيز التصور إلى حيز الفعل .

نحن أمة يحكمها الأشخاص لا المبادئ

وهنا ، لا بُدَّ من تسجيل ملاحظة لها صلة بالموقف من الشخصيات التاريخية في الإسلام ، حيث غالباً ما توضع هذه الشخصيات في مقابل بعضها البعض ، وفي عرض بعضها البعض ، لتتصارع ، وتتصارع نحن من ورائها ، وهكذا نعيد استيلاد خلافاتنا على أرضية خلافاتها . ومن المؤسف ، أنه بالرغم من أن هذه الشخصيات باتت جزءاً من التاريخ ، لكنّها لا تزال حاضرة فينا وتفعل فعلها الكبير ، ذلك لأننا لا زلنا أمة بعيدة من أن تحكمها المبادئ والرسالية ، وإنما يحكمها الشخص ، وتأسرّها صورة البطل ، ولذا ترى هذه الأمة تدور حيثما يدور أبطالها ، فإن تلفتوا يمينا أو يسارا تلفّت الناس معهم .

إنّ كل أمة تحتاج إلى أبطال ، لكن ليس كيفما كان ، وإنما لا بُدَّ لنا ، نحن تحديدًا ، من أبطال رساليين ، صنعتهم الرسالة ، كما هم صنعوا مجدها ، فكانوا أولادها حقاً .

من هنا ، وبناءً على ما تقدم ، فإنّ هذا الأمر يستدعي التعامل معه من خلال الجهد والتوعية ، بحيث يتاح لنا أن نتقدم ، وأن نفهم كلّ المسلمين بأن لا يكون لديهم غيره على الشخصيات المقدسة أكثر من غيرها على الرسالة نفسها ، وأن لا يكون لديهم غيره على القرآن أكثر من غيره القرآن على نفسه ، لأنّ الواقع هو أنّنا مسلمون ، ولكن أساليبنا وطريقة معالجة الأوضاع عندنا غير إسلامية .

لنترقّ فوق مستوى السباب

ولنلاحظ صراعاتنا ، ففيها لغة السباب لمن لانحبهم ونختلف معهم . أصبحت الشتائم هي خبزنا اليومي في المساجد ، والنوادي السياسية ، والساحات الاجتماعية ، وفي بيوتنا ، ونحن في الوقت نفسه ، غير مستعدين لتحمل الرد من الآخرين . إنّ للآخرين مقدّسات كما لك مقدّسات ، وإنّ عليك أن لا تفكر في القضية من زاويتك الخاصة فقط . وعندما لا تتحمل أن تسب مقدّساتك ، فإنّ عليك أن لا تسب مقدّسات الآخرين . وهنا آية قرآنية تعبّر عن هذا المضمون : ﴿ولا تسبوا الذي يدعون من دون الله - أتدرون من هم الذين يدعون من دون الله؟ إنّهم عبدة الأصنام المشركون - فيسبوا الله عدواً بغير علم كذلك زينا لكل أمة عملهم﴾ (الأنعام : ١٠٨) ، لأنّ كل إنسان يعتقد أنّ وجهة نظره هي الصحيحة ، وطريقته هي الفضلى . وإذا كان القرآن لا يرضى أن تسب الذين يعبدون غير الله ، فكيف يرضى لك أن تسب الذين يعبدون الله ولكنهم مختلفون معك في بعض تفاصيل العبادة ، فهل تكون أكثر غيره من الله على المبادئ؟! !!

وفي مسار آخر ، نرى أنَّ الإمام عليّ (ع) حارب معاوية ، لا من منطلق طائفي كما نفكر نحن ، بل من موقعه كحاكم للمسلمين . . كان لا بُدَّ له من أن يتصدى لتمرد معاوية ، فكانت الحرب هدفاً لحفظ النظام ، ولهذا انطلق الإمام إلى الحرب ، لا بروحية الإنسان الذي يحمل عقدة ، ولكن بروحية من يريد تصحيح واقع ، وعندما سمع جماعة من جيشه من أهل العراق يسبون أهل الشام ، وقف فيهم خطيباً وقال : «إني أكره لكم أن تكونوا سبّايين ، ولكنكم لو وصفتم أعمالهم وذكرتم حالهم ، كان أصوب في القول ، وأبلغ في العذر ، وقتلتم مكان سبِّكم إياهم : اللهم احقن دماءنا ودماءهم ، وأصلح ذات بيننا وبينهم ، واهدهم من ضلالتهم ، حتى يعرف الحق من جهله ، ويرعوي عن الغي والعدوان من لهج به» (١) .

إنَّه موقف إسلامي ، فهو لم يكتف بأن يكره لهم أن يكونوا سبّايين ، ولكن أراد تعليمهم كيف يديرون الصراع ، وما هي روحيته ، وأعطاهم تطبيقاً من خلال الكلمات التي أراد لهم أن يوحوا بها لأنفسهم عندما يكونون في حالة صراع مع خصم أو عدوٍّ لهم .

إنَّك عندما تريد أن تتحدث مع الآخرين ، فكّر في الأسلوب الذي يفتح قلب الآخر عليك ، لا أن تجعله يتشنج منك وتتشنج منه ، وعندما تواجهه واجهه من

(١) نهج البلاغة والمعجم المفهرس لألفاظه ، الخطبة : ٢٠٦ ، ص : ٢٣٦ .

خلال تذكر قوله وفعله ، وتذكر قولك وفعلك ، لتوازن ولتبقى محافظاً على الأهداف ، لا من خلال الانفعال ، وإنما من خلال العقل والتفكير المتزن .

هذه الروح هي التي كانت تسود الرجال الكبار في صدر الإسلام ، ولكننا أخذنا غيرها في عصور التخلف ، بحيث أصبح التخلف يمثل القداسة في حياتنا ، فيما يخیل لنا أننا نقدر الدين ، ولكننا في الحقيقة نقدر جهلنا بالدين . ولا بد من أن نعيش هذه الروح لتجاوز واقع التخلف .

هذه بعض النقاط أحببت أن أثيرها في الإطار العام ، وفي الأطر الفكرية والتشريعية والتاريخية .

مشكلتنا في أمراء السياسة

وإذا دخلنا إلى واقع الوحدة في الإطار السياسي والاجتماعي ، فهل نلاحظ ملامح لواقع الاختلاف ، سواء في الإطار الإسلامي أو غير الإسلامي ؟ هل نجد هذا الواقع بكلّ سلبياته ؟

وللإجابة على هذا التساؤل فلنفكر بواقعية ، هل هناك شيء اسمه مشكلة سياسية أو اقتصادية أو تربوية شيعية ، ومشكلة سنية على هذا الصعيد ؟ إنها إن وجدت كانت مشكلة أمراء السياسة الذين يبحث كل واحد منهم عن إمارة يورثها لأتباعه وأولاده .

ولكن ، هل هناك من مشكلة على مستوى العالم والعامل والطالب ، فكلّ

إنسان يعيش في هذا المجتمع ، يبحث عن غذائه ويريد أن يحصل على حياة كريمة ، وهل هناك مشكلة ظلم خاصة بالشيعة لدى السنة أو بالعكس في هذا المجال؟

لا ، ليس هنالك مشاكل مختلفة ، بل المشكلة واحدة ، قد تكون بعض المناطق فيها أكثرية شيعية وبعضها فيها أكثرية سنية ، لكن المشاكل فيها تتشابه عند السنة والشيعة على حد سواء ، لأن الاستعمار عندما يتحرك لأجل أن يركز قواعده في منطقتنا ، فإنه لا يبحث عن المذاهب ، بل يبحث عن العناصر التي تتواطأ معه ، وهو عندما يبحث عن الشيعة أو السنة وعن المسيحية ، فإنه يبحث عنها كأسلوب وكأداة من أدوات الوصول إلى أهدافه . .

إنَّ هناك واقعاً عشناه معاً تماماً في تلك الفتنة^(١) التي اكتبنا جميعاً بناها ، تلك الفتنة التي ليس فيها منتصر أو مهزوم ، بل الكل فيها مهزومون ، فإنه عندما قصفت بيروت لم تقصف المناطق الشيعية دون السنية ، وإنَّ الحرمان الذي يعيشه المسلمون وربّما غيرهم ، ليس فيه حرمان شيعي وسني أو غير ذلك ، والجنوب الذي نتحدث عن الحرمان فيه ليس وحده محروماً ، ولكن ماذا عن عكار ، والبقاع كلنا نتحدث عن حرمانه ، ولكن ماذا عن إقليم الخروب؟ ! إنَّ الحرمان واحد ولكنه يتنوع ويتشكل بحسب المواقع .

وإذا طرحت الامتيازات على مستوى الطوائف الإسلامية ، فهي لا تطرح إلا من

(١) الحرب التي دارت بين اللبنانيين بتغذية خارجية .

خلال أنَّهم يريدون إشغال هذه الطوائف فيما بينها ، وهم عندما يثيرون موضوع الامتيازات الطائفية - السياسية ، كأن يقولوا للسنة إنَّ الشيعة يريدون انتزاع رئاسة مجلس الوزراء منكم ، ويوعزون للشيعة بأنَّ السنة عينهم على رئاسة المجلس النيابي ، لا يثيرونها من موقع الغيرة على امتيازات هذه الطائفة أو تلك ، وإنَّما لتأجيج نار المخاوف ، واستغلال عقلية الخوف والحذر المضاد ، على أرضية الحساسيات المذهبية وعصبياتها ، لتعميقها وإشعالها ، بحيث يبقى المسلمون متناذبين متعارضين متكارهين لا توحدهم ألفة ولا تجمعهم مصلحة أو غيرة على الإسلام والدين ، فالهموم تقتصر على المصالح المذهبية والشخصية لهذه الفئة أو تلك ، ولهذا الشخص أو ذاك ، في حين أنَّ الشأن الإسلامي ، التفكير الإسلامي العام ، المصلحة الإسلامية العليا ، متروك لتلاعب الرياح الطائفية والمذهبية . وهكذا يحصل الفتانون من الأعداء على الأمن أمام هذا البحر الإسلامي ، هذا البحر الذي ليس فيه من الإسلام إلَّا اسمه .

الحقيقة ، وبعيداً عن كلِّ أمراء السياسة ، ليست هناك مشكلة شيعية وسنية ، وإذا توسعنا ، فليس من مشكلة إسلامية - مسيحية ، هناك مشكلة إنسانية في هذا البلد ، مشكلة مستضعفين ومستكبرين ، مشكلة أناس ساروا في ركب مخططات وأهداف إقليمية ودولية . ولهذا قلت في بعض المحاضرات : اجمعوا كلَّ أمراء السياسة من كلِّ الطوائف واذهبوا بهم إلى جزيرة في البحر ، فستجدون أنَّ الشعب هنا في لبنان ، لا يحتاج ، إذا ما أراد أفراد اللقاء ببعضهم البعض ، إلى أي من

جلسات الحوار ، لأنهم فعلاً يلتقون في المدرسة والمصنع ويتحدثون ، ويترحمون على الأيام السابقة ، ويشيرون بعين الأسى إلى الواقع المعاش ، لكن هؤلاء هم الذين يخيفون الناس ، ويضعون بينهم الحواجز ، لأن اللعبة لا تمر إلا بذلك .

ما نريد تأكيده هنا ، هو أن قضايانا واحدة ومشاكلنا واحدة ، لأقولها كشعار ، ولكن لنبحث في مفردات الواقع ، هل نجد هنالك خصوصيات لهذه المشاكل ؟ سوف لن تجدوا الخصوصيات ، بل الوحدة هي واقعنا الذي نعيشه لو أحسنّا تخليصه من كثير من العقد ومن كثير من الشوائب .

فالقضية ، أننا نعيش روح الوحدة عندما نعيش روح الإسلام ، لأن الإسلام رسالة ، فالتسنن ليس ديناً كما التشيع ليس بدين ، بل التسنن والتشيع هما وجهتا نظر في فهم الإسلام ، ويمكن لوجهتي النظر أن تتقاربا أو تتحدا . والطائفية التي جزأت البلد ليست ديناً ، الطائفية عشائرية بشكل أوسع ، وإلاً فانظروا إلى كل أمراء الطوائف ، من منهم يعتقد بالله فضلاً عن المسيح (ع) أو محمد (ص) ؟ ! إنهم لا يعتقدون بهذه القيم ، ولو اعتقدوا بها لرأوا أن في الإنجيل والقرآن أكثر من ساحة لقاء ، إنهم ليسوا متدينين بل عشائريين ، يعيشون الطائفية كعشائرية ولا يعيشونها كفكر وروح أو كرسالة للحياة .

إنّ علينا رفض الطائفية ، لأنها العلبة التي أريد لنا أن نتعلب بها . إنّ علينا الانفتاح على ما نتفق حوله ، والتحاور على ما نختلف فيه ، لنصل إلى النتائج الكبيرة .

لنكن حملة رسالات لاحملة شعارات

كما بدأت ، أقول في ختام الحديث ، إنَّ الحديث مسؤولية وكذلك الاستماع إليه . إنَّني أريد لهذه الأفكار ، ولغيرها مما يقوله الآخرون ، أن تكون فكراً نتأمل فيه ، وأن تكون خطوة ننطلق منها إلى الأمام . إنَّني أريد لنفسي ولكم ، أن ننطلق إلى كلِّ هذا الواقع الذي تختبئ فيه كثير من الخلفيات التي تريد أن تعمل على تهديمه ، وأطلب منكم التفكير في كلِّ شيء يطرح عليكم . حاولوا التفكير في كلِّ شيء تؤمنون به ، حاولوا أن تفكروا في الواقع السياسي عندما تبنونه كما تفكرون في الواقع الديني عندما تؤمنون به ، لأنَّ مشكلة الكثيرين منا أنَّهم جمّدوا أفكارهم ، وانطلقوا في عبادة للشخصية ، فهم يتعبدون للأشخاص وإن لم يصلّوا لهم ، ويتعبدون للأشخاص وإن لم يسجدوا لهم . إنَّ أفكارنا تسجد لكثير من أفكار الآخرين ، وإنَّ أرواحنا تركع لكثير من خطوات الآخرين .

لقد خلق الله لنا فكراً ، لذا علينا تحريك هذا الفكر في كلِّ شيء . علينا أن لا نجعل آذاننا معبراً سهلاً لكلِّ فكرة ، فلاندعها تسيطر على قناعاتنا ، بل نجعلها موضع تساؤل ، ونفكر في كلِّ شيء ، ولا نحكم على أي شيء إلا بعد أن نعرفه وندرسه . إنَّ كلَّ اللاعبين ، كباراً وصغاراً ، يراهنون على جهل الناس بالسياسة وعلى جهلهم بالدين ، كما يراهنون على براعتهم في تجهيل الناس من خلال سفسطاتهم وأضاليلهم . إنَّهم يراهنون على جهلكم ، ويراهنون على أنَّه ليس عندكم وقت للتفكير بما يقولون ، أو بما يحدث من حولكم ، إنَّنا لا نريد أن نكون

حملة شعارات ، نريد أن نكون حملة رسالات .

إنَّك تستطيع أن تعلق الشعار على الحائط ثم تنزعه بعد حين عندما يتغير الوضع وتتغير الموجة ، ولكنَّ الرسالة تبقى في فكرك ودمك وحياتك ، لأنَّ الرسالة هي حياتك وحياة الآخرين ، وهي مستقبلك ومستقبل الآخرين . هل لنا أن نكون أصحاب الرسالة ولا نكون أصحاب اللعبة ؟ ! إنَّ أصحاب اللعبة سوف يكتشفون الخلافات جيداً ، فليكن أصحاب الرسالة سباقين إلى اكتشاف مواطن اللقاء . فالقرآن علَّمنا البحث عن مواطن اللقاء : ﴿ قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله ﴾ (آل عمران : ٦٤) . ارفضوا كلَّ هؤلاء الأرباب ، وانطلقوا مع الرب الواحد في الطريق الواحد والجو الواحد ، فالوحدة التي تنطلق من الفكر ومن الشعور بالمسؤولية هي التي تملك الأمل بالنجاح .

إنَّ الساحة مفتوحة ، وكثيرون يريدون أن ينصبوا الحواجز عليها ، فهل لنا الانطلاق فيها وبها نحو الوحدة ، قبل أن تنتصب هذه الحواجز كبيرة أمامنا . إنَّ علينا تحطيم كلِّ ما يراد لنا من حواجز ، بكلِّ أساليب الرفق ، وبكلِّ أساليب الحبِّ والرحمة ، فالإسلام رحمة كما هي المسيحية محبة ؛ رحمة تفهم الواقع وتتعامل معه من خلال ظروفه ، ومحبة تبحث في الواقع عن كلِّ الجوانب المضيئة في الحياة .

لقد تعبنا من العنف ، تعب ديننا من العنف ، تعب مستقبلنا من العنف ، تعب

حاضرنا من العنف ، وقد عرفنا أنَّ العنف في الداخل لن يحلَّ المشكلة . لقد جربتم العنف في قتال الشوارع ، وقد جربتم العنف في قتال المحاور ، وقد جربتم العنف في أكثر من طريق ، فهل لكم تجريب الرفق والمحبة والرحمة ، جربوا هذه من جديد ، فستكتشفون أنَّها هي التي يمكن أن تفتح عيونكم على الشمس ، وهي التي يمكن أن تسير بكم إلى حيث ينباع الصافية .

أفكار واقعية للمستقبل

مساجدنا في زمن الانحطاط

كيف واجه الرسول (ص) الموقف بعد أن وصل إلى المدينة وكان الناس فيها منقسمين على أنفسهم؟

لقد اهتم رسول الله (ص) بتوحيد المجتمع على أسس ثابتة وقوية لا تسمح بالارتباك ولا بأيّ ثغرة أو خلل ، وكان أول ما بدأ به (ص) هو بناء المسجد ، لأنه عرف أنّ الحساسيات التاريخية الموجودة لدى كل عشيرة أو قبيلة من العشائر والقبائل الأخرى ، تفرض اختيار مكان يجتمع فيه المسلمون جميعاً ، ولا يشعر أحد فيه أن هذا المكان يختص به أو بالفريق الآخر .

وكانت فكرة المسجد في حركة الدعوة الإسلامية أوسع من الفكرة التي نحملها عنه اليوم ، وهي متقدمة ، وفق المفهوم الإسلامي الذي ركزه رسول الله (ص) بالقياس إلى مفهومنا الحالي ، إذ لم يكن المسجد في الإسلام في الأساس مكاناً للعبادة فقط ، بل كانت العبادة إحدى مهمات المسجد ، وكان يسمى الجامع ،

كونه يدفع إلى الالتقاء والوحدة فيما بينهم .

كان إذا أريدَ للمسلمين أن يجتمعوا في قضية تهمّ المجتمع يُنادى : الصلاة جامعة ، ليحضر الناس ويناقشوا قضاياهم ، سواء كانت اجتماعية أو اقتصادية أو سياسية . . وهكذا ، وكان الناس إذا أرادوا أن يجتمعوا لطلب العلم ، التقوا في المسجد ، سواء كان العلم علم دين أو علماً آخر .

في المقابل ، ضاق دور المسجد في حاضرتنا ، واقتصر على أداء العبادة ، حتى أن أكثر المساجد تغلق عن المسلمين إلا في الأوقات الرسمية للصلاة ، وكأن المسجد أصبح مجرد دائرة رسمية تابعة للأوقاف أو لأيّ دائرة أخرى ، ولها حراس رسميون ، وباتت الخطبة أو الموعظة تُفرض على إمام المسجد ويحدد له ما هو المسموح قوله للمصلين أو الممنوع ، لأنه موظف يقبض راتباً وعليه أن يتكلم حسب ما يفرضه راتبه .

ثم تخلفنا أكثر ، فأصبح عندنا مساجد مذهبية وطائفية ، هذا مسجد للشيعة وذاك مسجد للسنة ، والسنة لا يصلّون في مساجد الشيعة ولا يقتربون منها ، والشيعة لا يصلّون في مساجد السنة ولا يقتربون منها ، بحيث يشعر المسلم السني عندما يدخل مساجد الشيعة أنه غريب ، ويشعر الشيعي عندما يدخل مساجد السنة أنه غريب أيضاً . ونحن في هذه الأجواء المؤسفة نسأل : لماذا هذا التباعد بين المسلمين حتى في المساجد؟ وهذا أمر خطير يرجع سببه إلى العقلية المذهبية الطائفية التي تخدم أعداء الإسلام ، مع أن المسجد للمسلمين جميعاً ، فهو بيت

الله . افترض أنك تختلف مع هذا المسلم أو يختلف معك في شؤون الإسلام ، فما الذي يمنع من أن تتفقا مع بعضكما البعض وتدخل إلى المسجد لمناقشة الشؤون التي تخص المسلمين والتي تهتم المجتمع الإسلامي ، بدل أن يخاطب أحدهما الآخر من بعيد ، أو يتهمه أو يكفره ، ويبدو الأمر وكأن المسلمين لا شغل لهم إلا تصنيف الناس بين مؤمن وغير مؤمن ، بين من يدخل الجنة ومن يدخل النار .

لنتوقف عن ممارسة هذا الدور . . كفانا انقسامات لا معنى لها ولا طائل وراءها . ما نريد قوله : إن علينا أن لا نصيّق دائرة المسجد . . اجعلوا أبواب المساجد مفتوحة أمام الجميع . . اجعلوا منابر هذه المساجد منطلقاً لوحدة المسلمين .

ومراراً قلت إنه ليس معنى ذلك أن يترك الشيعي مذهبه ، ولا السني كذلك ، بل كل ما أقوله إنه علينا أن نتحرك بالوحدة مهما وصل مستوى هذه الخلافات بين المسلمين ، وليس من الضروري أن تعمل وتجاهد وتسيء إلى الطرف الآخر ، إذ لا فائدة من ذلك سوى أن تزيد المتعصب تعصباً ، بينما إذا تحدثت بالأسلوب الطيب اللطيف ، فإنك تجعل هذا الإنسان المتعصب إنساناً أكثر انفتاحاً عليك .

هل يجوز أن يكون الاختلاف في المذهب فاصلاً بين المسلمين يفصلهم عن بعضهم البعض ؟ هذا حرام ولا يجوز أبداً في الإسلام مهما كان مستوى خلافاتنا ، وعلينا أن نصير فريقاً واحداً وجماعة واحدة نصلي معاً ونتوحد معاً مهما كانت الخلافات بيننا .

بل وأكثر من ذلك ، صار المسجد في بعض المناطق والقرى ذا صفة عائلية ،

فهذا الجامع لتلك العائلة وذاك لتلك الجماعة . وهو مستوى من الانحطاط لا يجوز أن نصل إليه أبداً ، فالرسول (ص) بنى أول مسجد في المدينة ليضم جميع المسلمين إلى بعضهم البعض ، وليحطم كل عصبيةاتهم العشائرية أو القبلية ، حتى يدخل المسلم إلى المسجد بصفة أنه عبدٌ يطيع أوامر الله ، ولكننا نعمل عكس ما كان يهدف له رسول الله (ص) .

إن علينا أن نبحث عن كل ما يمكن أن نلتقي عليه أو يجمعنا حتى نتوحد صفوف المسلمين .

الأجهزة المخبرانية تثير الأحقاد الطائفية

جاء رسول الله (ص) من أجل أن ينظّم للحياة برنامجها في الفكر والعاطفة وفي خط السير ، وعانى من أجلنا الكثير ، فتعذب وتألّم وصبر ، فلم تكن حركة رسالته رحلة مريحة طيبة ، بل كانت معاناة وجهاداً وتضحية ومسؤولية . . إن الإسلام ليس دين الأرض فقط ، ولا يتجمد فيها أو يتعامل فقط مع قيمها ، إنما يجعل من قيم الأرض قيماً سماوية تتجاوز قضايا المادة والروح . والإنسان المسلم يرصد المستقبل كما يرصد الحاضر ، ولا يلتفت إلى الماضي إلا من خلال الحقائق التي تجعله يبني الحاضر والمستقبل ، والإسلام هو التسليم والالتزام بالله عقيدةً وشرعةً ، والإنسان الذي يخاف الله لا يمكن أن يخيفه أحد غيره .

هكذا يريدنا الله أن نكون ، أمة لا نتحدث في حجمها عن أعداد نفوسها ، ولكن نتحدث عن حجمها في وحدة ارتباطها بالله ، ووحدة ارتباطها برسوله ،

ووحدة ارتباطها بالقرآن . أن نكون معتصمين بحبل الله تلك هي قوتنا ، فقوتنا ليست في كثرتنا ، بل في التزامنا و وحدتنا التي تقوم على أساس الإسلام ، لا في وحدتنا التي تقوم على أساس العصبية . وعلى هذا الأساس ، ينبغي لنا أن نواجه التحديات من العصبيات الطائفية التي يُعمل لتحويلها إلى عصبيات عسكرية ، من خلال إيهام كل طائفة بأن لها أحقادها التي لا تفجرها ضد الكافرين بقدر ما تفجرها ضد المسلمين .

هذه هي لعبة الطائفية ؛ إنَّ تعقُّدك ضد أخيك في الإسلام أكثر من تعقُّدك ضد عدوك ، بعض الناس من المسلمين في لبنان وغير لبنان يعيشون التوادّ مع اليهود ومع غير اليهود ، وليسوا مستعدين أن يعيشوا التوادّ مع هذه الطائفة الإسلامية وتلك . والإسلام يقول إنه إذا اختلف المسلمون مع بعضهم البعض ، فإن خلافاتهم يجب أن لا تطفئ على أخوتهم الإسلامية ، وإنه إذا قال المؤمن للمؤمن والمسلم للمسلم : أنت عدويّ فقد كفر أحدهما ، لأن الله يقول : ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ (الحجرات : ١٠) وأنت تقول : إنّ المؤمنين أعداء ، أنت تردّ على الله كلامه ، هذا ما ينبغي أن نعيه . عندما يحدث خطأ في الداخل ، فعلى المسلمين أن يحلّوه من موقع المسؤولية ، لا سيما إذا كانت القضايا المصيرية تفرض عليهم أن يتجنبوا كثيراً من القضايا الصغيرة في سبيل القضايا الكبيرة ، ولكن ما بالنا نشد على بعضنا البعض بضراوة ما بعدها ضراوة ، وإذا وقفنا أمام الأعداء وقفنا وديعين طيِّين ؟ !

إنني أسمع في هذه الأيام نغمة غريبة على الإسلام يعيش فيها المسلمون عقلية

متخلفة غير إسلامية ، فعندما تحدث معارك ليس لها أي طابع إسلامي من قريب أو بعيد ، بل كل طابعها الأوضاع السياسية الداخلية والإقليمية والدولية التي تتحرك ليضرب المسلم المسلم ، هذه الأوضاع كيف يتحدث الناس عنها؟ هذا يقول إن الشيعة سجلوا انتصاراً على السنة ، أو العكس ، ويفرح الطائفيون الذين لا يفكرون بالله ورسوله ، وينطلق أناس يريدون أن يُشعلوا النار ليقولوا إن هناك قهراً شيعياً للسنة أو العكس ، وتلعب كل أجهزة المخابرات في الساحة ، لأن لا أحد يفكر بشيء اسمه الوحدة الإسلامية . كانوا يراهنون على هذا ، على أكثر من صعيد ، وقد ربحوا الآن بعض رهانهم ، فأصبحت الساحة لا تبحث عن خلفيات ما حدث ، ولا تراقب الأجواء التي هيأت لما حدث ، بل تأخذ الوجه السطحي لها . ولكن ماذا يريح هؤلاء وأولئك؟ لن يربحوا شيئاً أبداً ، والإسلام هو الذي يخسر ، وكذلك حريتنا . لا خيار أمام الشيعة والسنة إلا أن يتحدوا ، لأن التحديات لا تتوجه للساحة الشيعية وحدها أو السنة فقط ، بل تتوجه للساحة الإسلامية كلها ، حتى تقتل الإسلام بقتال المسلمين .

فلنرتفع إلى مستوى الإسلام في عقليتنا ، لتكون كعقلية علي بن أبي طالب (ع) ، الذي وقف ليوواجه المسؤولية وهو بعيد عن الحكم ، ولتكن لنا روحية الإسلام التي ننطلق فيها من مواقفنا الإسلامية . لندرس كل حالة مما يحدث بيننا من خلال ظروفها وأبعادها السياسية ، حتى نعرف أن المعركة عندما تحدث ، لا تمثل حالة سنية أو شيعية ، وإنما تمثل حالة سياسية . ولهذا ، فإن الجانب السياسي هو الذي ينبغي لنا أن نرصده لنعرف علاقته بما يجري على الساحة .

إننا نقول : إن سبب كل ما كان يحدث سابقاً بين التنظيمات الموجودة في الساحة الإسلامية ، هو أن القائمين على هذه التنظيمات ، لم يكونوا معنيين بدراسة من المعتدي ومن المعتدى عليه ، ففي السابق ، كان كل تنظيم يصطدم بتنظيم آخر يعتبر أتباعه أن الحق معهم ، وعند ذلك يصبح كل واحد متعصباً لخطئه ، الأمر الذي يشجع أجهزة المخابرات على زراعة الألغام التي تفجر الساحة . وهكذا بدأت هذه الحالة المرضية تأكل كل تنظيم من الداخل . كان يقال إن هناك خطفاً وسرقة وفرض خوات واعتداءً على حريات الناس وما إلى ذلك ، وأريد أن أسأل : هل الذين كانوا يقومون بهذا هم من الناس العاديين ، أم هم الذين يملكون غطاءً عسكرياً وسياسياً في الساحة ؟ إن الذين لا يملكون غطاءً عسكرياً يستحقون تحت الأقدام إذا أقدموا على أي شيء من هذا القبيل .

من الذي كان يسرق ويخطف ويفرض الأتاوات ؟ إن الذين يملكون الغطاء السياسي والسلاح ويتحدثون عن أمن الناس هم أول من يعيث بأمن الناس . لماذا لا يحاكم اللصوص في الساحات العامة ليعرف الناس هل حدث شيء من هذا ؟ ! يقولون إنها تجاوزات فردية ، ولكن الواقع أن كل فريق يغطي جرائم ما يعمل به فريقه .

بعض الناس لا يعجبهم هذا الحديث ، لكننا نشعر بأننا مسؤولون أمام الله . مشكلة كثير من قادة التنظيمات في هذا البلد ، أنهم يخشون محاسبة العناصر على تجاوزاتها خوفاً من انصرافهم إلى تنظيم آخر . ومن هنا انطلق الفلتان الأمني ، وعندما يستطيع كل إنسان ضبط بيته ، فلن يكون هناك مشكلة .

ليس المهم البرامج والاتفاقات ، ولكن المهم العناصر التي تنفذ البرامج ، فالذي مارس الجريمة لا يمكن أن يمنعها ، لأنه لا يملك روحية ذلك ، بل الذي يحمي هم الذين يلتزمون بالقانون والشرائع وليس القانون نفسه .

إن المعادلة الدولية في المنطقة تريد أن تحدث أكثر من ساحة يحترق فيها الناس ، حتى تُرتب الحلول للمشاكل على طريققتها الخاصة ، ولهذا فإن علينا أن نرصد الحالة الداخلية من خلال الحالة الخارجية ، وأن نكون دقيقين في مواجهة الواقع ، فلا نحكم على شيء إلا بعد أن نتحقق منه .

نحن لسنا في موقف استهلاك ليضع كلُّ منا الحق على الآخر . فكروا إذا ما أرسل الله محققاً وقال لكم هل رأيتم هذا؟ هل يستطيع خمسة بالمائة منكم أن يؤكدوا ذلك؟ ماذا نقول لله؟ ﴿ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد﴾ (ق: ١٨) ، ﴿يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا أن تصيبوا قوماً بجهالة﴾ (الحجرات: ٦) ، لأنه ليست هناك ساحة تشتغل فيها أجهزة المخابرات كساحتنا ، وفي بيروت هناك سبعة عشر جهاز مخابرات ، وهي تعمل على خطين : الأول إثارة الحقد الطائفي ، والثاني هو خط الإشاعات ، والكاذب يصنع أخباراً ، ونتائج هذه الأجواء أنها تفصل المسلمين عن بعضهم البعض ، فتمرر اللعبة ولا تكون هنالك وحدة إسلامية تدافع عن المسلمين .

حركة المقاومة وتعزيز مشروع الوحدة

إننا نلاحظ أن هناك عملاً إقليمياً ودولياً ومحلياً يحاول حصر حركة المقاومة

الإسلامية وانطلاقة الحالة الإسلامية - في لبنان والمنطقة - في الدائرة المذهبية الخاصة ، وذلك في محاولة لحصر هذه الانطلاقة في الدائرة الشيعية التي تختزن في داخلها الجانب الطائفي للتشيع لا الجانب الإسلامي الثوري له ، لذا تُثار النعرات وتُعمّق الحواجز بين المسلمين ، لينطلق من خلال هذه الأجواء الرفض النفسي لكل انتصارات المقاومة تبعاً للرفض النفسي والطائفي أو المذهبي لكل عملية جهادية يحمل أصحابها لوناً مذهبياً آخر . وقد استطاعت هذه الوسائل الإعلامية والسياسية والأمنية أن تخرق الواقع بطريقة معقّدة في إثارة المشاكل بين المسلمين بالمستوى الذي ترك تأثيراً سلبياً على حركة الوحدة الإسلامية ، ولكننا لاحظنا أن الوجدانيين الإسلاميين من سائر المسلمين استطاعوا أن يقتحموا هذه الحملة الإعلامية والسياسية التي انطلقت بشكل هستيري في الساحة ، فعملوا من خلال روح المقاومة الإسلامية ، بإشراف الجمهورية الإسلامية في إيران ، على أن يحركوا العمل الإسلامي الوجداني في إدارة مسألة حرب المخيمات ، كما أن العمليات النوعية التي حدثت في جبل عامل والتي شارك فيها المسلمون من سائر المذاهب ، اختلطت فيها دماء المسلمين في مواجهة العدو الصهيوني من دون أن تحمل أية ملامح مذهبية أو طائفية ، بل كانت دماءً إسلامية تحمل عمق الدماء البدرية التي انطلقت لتشير إلى قافلة المسلمين المتحركين في مدى الزمن ، باعتبار أن بدرأ هي التي صنعت للإسلام قوته ومسيرته ، وعلى المسلمين أن يتحركوا من مواقع بدر بعيداً عن كل الفواصل التي أريد لها أن تفصلهم عن بعضهم البعض .

إننا نعتقد أن مشاركة كل المسلمين ، بمختلف مذاهبهم وإقليمياتهم ، في

عمليات المقاومة الإسلامية ، استطاعت أن توحد كل المقاومين الإسلاميين في مواقع الجهاد ، ما يردّ على كل التحديات التي تريد أن تؤكد المذهبية في المشاعر بعيداً عما هو الفكر وبعيداً عما هو العلم . إن انطلاق الوحدة الإسلامية من خط الجهاد ، يجعل حركة الوحدة في مجال السياسة والثقافة أمراً يمكن أن يحمل إمكانات واعدة على أكثر من صعيد .

تطبيق الوحدة يحل كل مشاكل المسلمين

عندما نشعر أننا مسلمون ، علينا أن نتعاون على فهم الإسلام وتصحيح الأخطاء وعدم الخضوع لعلاقات المجاملات والشكليات . وفي هذا الاتجاه ، ينبغي الاستفادة من السلوك الذي عاشه أئمتنا في حياتهم الاجتماعية ، والانفتاح على كل المسلمين في واقعنا المعاصر ، لأن المسلمين عندما يجتمعون ويتحدون في الموقف ، سيصبحون قوة فكرية وثقافية أمام كل الأفكار والثقافات المتنوعة ، على أن يكون اتحادهم على قاعدة الإسلام ، وليس على قواعد أخرى . ونحن نعترف بالخلافات ، ولكننا نقول إنها أقل من الاتفاقات ، ولينطلق الشيعي من موقع أنه مسلم ، ولينطلق السني من موقع أنه مسلم .

الإسلام هو الذي يوحد صفقتنا إذا رجعنا إليه ، المهم أن لا نرجع في اختلافاتنا إلى الشياطين ، بل إلى الله والرسول ، تلك هي رسالتنا في مواجهة التحديات الفكرية والثقافية . نحن لا نريد أن ينتصر السنة على الشيعة أو الشيعة على السنة ، بل نريد أن تنتصر معاً على الظلم والطغيان والاستكبار . لا نريد أن يكون لدينا

دكاين طائفية ومذهبية . مشكلتنا أن هناك دكاين لكل طائفة ، الطائفية أصبحت كياناً لها مثقفوها ومحللوها ، وهنا تكمن المشكلة ، لكن الله أراد لنا أن نعيش الساحة المفتوحة التي تستطيع احتواء المسلمين كلهم ، ليعملوا وينطلقوا ويختلفوا ، إذا اختلفوا ، على أساس الإسلام . إننا نقول لكل المسلمين السنة والشيعة : راقبوا الذين يتاجرون بالطائفية والمذهبية والبغضاء بين المسلمين ، لأنهم الأداة التي يستطيع الاستكبار تحريكها لإضعاف المسلمين . راقبوا هؤلاء المتاجرين واعزلوهم وقفوا في وجوههم .

وعلى هذا الأساس ، ننطلق لتحديد الموقف السياسي الذي نراه صحيحاً ، وفي هذا الإطار ، نؤكد على أن للإسلام موقفاً يحكم المسلمين جميعاً ولا يحكم فريقاً معيناً ، فهناك قضايا إسلامية تحكم المسلمين كلهم ، وعلى رأسها قضية تحرير الأمة من الاستكبار العالمي ، ليعيش المسلمون أحراراً في سياستهم واقتصادهم وإدارة أمورهم ، ما يحتاج لجهود كل المسلمين ، وليس هناك مجال فيها لتنازع المسلمين بعضهم مع بعض ، لأن حرية المسلمين قضية حق ، وأكدها الله تعالى في القرآن ، وأكدتها القيادات الإسلامية التي يؤمن بها هذا الفريق أو ذاك ، فقضية الحرية هي قضية إسلامية ، ولهذا ، إذا اختلف المسلمون حول الموقف من أمريكا وكيفية مواجهتها ، باعتبار أنه ربما يصدق أن يكون لفريق من المسلمين في مذهب معين موقف من هذا الموضوع أو ذاك ، لكن إذا اختلفوا فيما بينهم حول الموقف المناسب ، فعلياً أن لا نعتبر هذا الاختلاف اختلافاً مذهبياً . إن مذهب الشيعة لا يقرّ لنا أن نكون أمريكيين ولا سوفياتيين ، ولا مذهب السنة يقرّ ذلك ، لأن العزة لله

ولرسوله وللمؤمنين ، وعلى المؤمنين أن يكونوا أحراراً . وإذا تبني فريق السياسة الأمريكية وتبني فريق آخر السياسة السوفياتية ، فلا تقولوا إن السنة أو الشيعة اختلفا ، بل قولوا الفريق الأمريكي والفريق السوفياتي اختلفا ، لأن ذلك لا دخل له بمضمون التسنن أو التشيع ، وعلينا تسمية الأمور بأسمائها ، لكي لا تتحول الخلافات السياسية إلى خلافات مذهبية . وخطورة ذلك ، أن القضية السياسية تضع في القضية المذهبية ، والمشكلة أن الذين يلعبون اللعبة الطائفية والمذهبية ، يحاولون أن يوظفوا المذهبية الطائفية لمصلحة انتماءاتهم السياسية التي ليست في مصلحة المسلمين جميعاً .

لذا علينا أن ننظر إلى الأمور نظرة موضوعية ، فمثلاً ، إن كل المعارك التي وقعت في لبنان وخارج لبنان كانت معارك سياسية ؛ هناك نهج يريد أن تكون فلسطين حرة ، ونهج يريد أن يعترف لإسرائيل بسيطرتها على فلسطين ، نهج يريد أن يعطي الأوراق كلها لأمريكا ، ونهج يريد أن يؤكد أن الأوراق هي بيد الله وبيد الأمة . وعندما تتحرك المعركة في الإطار الفلسطيني أو اللبناني أو العربي أو الإسلامي بين نهجين سياسيين ، علينا أن لا نعتبر الاختلاف اختلافاً مذهبياً ، بل اختلافاً على أسس سياسية ، وإذا جرى خلاف بين خط الإسلام وخط الكفر ، علينا تبني خط الإسلام ، وأن نعي اللعبة ، لكي لا نقع في الأخطبوط الاستعماري الذي يعمل على إحراق الحياة الإسلامية والمستقبل الإسلامي من خلال استغلال العقلية الطائفية التي تحولت إلى مرض وعقدة في نفسية المسلمين من هذا المذهب أو ذاك .

مناقشة هادئة لأفكار متنوعة

حول مسألة الوحدة [١] (*)

بين وحدة الأصول وتنوع التفاصيل

□ سماحة السيّد فضل الله : في رحاب أسبوع الوحدة الإسلامية ، ماذا

تقصدون بهذه الوحدة؟ وهل هي دمج المذاهب الإسلامية في مذهب واحد؟

● لست أقصد من الوحدة الإسلامية ، كضرورة حيّة في حركة الإسلام في عصرنا على مستوى الحاضر والمستقبل ، صهر المذاهب الإسلامية في مذهب واحد ، لأنّ ذلك لا يُمثل طرحاً واقعياً على مستوى حركة الاجتهاد ، سواء في داخل المذهب الواحد أو في نطاق المذاهب المتعددة ، لأننا نعرف أنّ المذهبية لدى أصحاب كلّ مذهب لم تنطلق من مرسوم معين يصدر عن سلطة معينة ليتمكن

(*) الثقافة الإسلامية - ربيع أول - ربيع ثاني ١٤١٦ هـ - أيلول - تشرين أول ١٩٩٥ م . العدد ٦٣ .

العنوان الأصلي : حوار مع العلامة السيد محمد حسين فضل الله .

تقريره اليوم من خلال هذه السلطة وإلغاؤه من خلال سلطة أخرى ، وإنما انطلقت من حالة فكرية معمقة متنوعة الخلفيات والأدوار ، للتأكيد على عنوان معين هنا وعنوان معين هناك ، كما هي قضية الخلافة والإمامة ، وكما هي قضية الحرية والجزرية ، وكما هي قضية الاجتهادات الفقهية حول مصادر الاستنباط ، كالمقياس والاستحسان والمصالح المرسلة وما إلى ذلك .

إنَّ الاختلاف يتناول الخطوط الفكرية في المسألة الإسلامية على المستوى الكلامي أو على المستوى الفقهي ، أو على المستوى المفاهيمي في استنباط المفهوم الإسلامي السلبي أو الإيجابي من هذا النص أو ذاك ، لذلك ، لا يمكن إلغاء الخطوط الفكرية بمجرد شعار ، لكننا عندما نطلق في هذا الاتجاه ، فإننا نفكر بأنَّ هناك قضايا أساسية في العقيدة وفي خطوط الشريعة وفي المفاهيم الإسلامية والأخلاقية والاجتماعية العامة مما يتفق عليه المسلمون ، وهناك مواقع يختلف فيها المسلمون ، لا بين مذهب ومذهب ، بل في داخل المذهب الواحد ، فنحن نعرف أنَّ هناك خلافات في داخل المذهب الشيعي ، وأنَّ هناك خلافات في داخل كلِّ مذهب من مذاهب السنَّة على مستوى الاجتهادات الكلامية والفقهية وغير ذلك ، لذا نحن ندعو إلى أن ينطلق المسلمون في وحدتهم من القضايا التي تمثل أصول العقيدة والخطوط العامة للشريعة وللمنهج الأخلاقي والاجتماعي وما إلى ذلك ، وأن يسيروا على الخطِّ القرآني في ما يتنازعون عليه ، بإرجاع الأمر إلى الله وإلى الرسول ، وباعتماد الأساليب الحوارية الموضوعية التي انطلق بها القرآن الكريم متميزاً عن أي اتجاه فكري آخر ، ما يجعل من الموضوعية في الحوار والجدل مسألة

عميقة الجذور في المنهج الإسلامي لحل المشاكل المختلف فيها في هذا الحوار .

إننا نطلق بالوحدة الإسلامية على أساس أن تلتقي المذاهب في ما تتفق عليه ، وأن تتحاور بموضوعية في ما تختلف فيه ، ثم عندما نفكر بالوحدة الإسلامية على المستوى السياسي ، فإننا نفكر بأن هناك قضايا إسلامية مصيرية يلتقي المسلمون عليها ، بحيث نشعر بأن الاستكبار العالمي لا ينطلق في مواجهتها من خلال هذا المذهب أو ذاك المذهب ، وإن كانت هذه القضية تتحرك في داخل أهل مذهب معين وتلك القضية تتحرك في داخل أهل مذهب آخر ، بل إنه ينطلق على أساس محاربته للإسلام وعقدته منه . ونحن ندعو المسلمين إلى أن يتحركوا في الخط السياسي المشترك الذي يحدد قضايا المصير ، ليواجهوا الاستكبار من موقع واحد ، وليواجهوا الكفر بموقف واحد . إننا لاعتبر التعدد المذهبي حركة سلبية في الجانب الإسلامي الثقافي ، بل نعتبره حركة إيجابية ، باعتباره يوفر الغنى المتنوع في فهم النص أو في تقعيد هذه القاعدة أو تلك القاعدة ، ولكن سواء أكان التعدد في منطقة السلب أم في منطقة الإيجاب ، فهو لا يمنع من أن نلتقي جميعاً أمام قضايا الوحدة التي تتصل بموقع الإسلام في مواجهة الكفر ، وبموقع المسلمين في مواجهة الاستكبار .

مقاييس دقيقة للتعاطي مع المذاهب الأخرى

□ ماذا تقولون عمّن يرى أن مذهبه هو الإسلام ، وأن سائر المذاهب لا تمثل الإسلام؟

● هناك من يعتقد أنَّ مذهبه هو الإسلام ، لكنّه عندما يدرس كلّ جزئية من جزئيات الإسلام ، يجد أنَّ في مذهبه ٩٩٪ من الإسلام وأنَّ ١٪ غير إسلامي ، وعندها يُقال إنَّ هذا ليس إسلاماً ، لأنَّ الإسلام عبارة عن كلّ ، فإذا نقص منه شيء فليس هذا إسلاماً ، وهكذا بالنسبة إلى الطرف الآخر ، لكنَّ المسألة في الوعي الإسلامي ليست مسألة خلافات ، لأنَّ كلّ مذهب من مذاهب المسلمين يختلف مجتهدوه في اجتهاداتهم ، سواء من خلال بعض مفردات علم الكلام ، أو من خلال مفردات علم الفقه ، ورغم ذلك فهم يعتبرون أنَّ مجتهدِي مذهبهم مسلمون على الأقل ، ولكنَّهم مختلفون في اجتهاداتهم التي لا يمكن أن تمثل الإسلام الواحد ، وإذا كان الأمر وفق ما يُقال ، فلا بُدَّ من أن يكون بعضها إسلاماً وبعضها الآخر غير إسلامي ، لأنَّ الحقيقة واحدة لا تتعدد فيما هو الحكم الشرعي أو فيما هي العقيدة الواحدة .

في ضوء هذا الفهم ، يمكن القول إنهم إذا أرادوا استخدام هذا المقياس في حكمهم على المذهب الآخر ، فإنَّ عليهم إخضاع مذهبهم أيضاً لهذا المقياس ، وعندها يصبح بعض المجتهدين في مذهبهم غير مسلمين ، لأنَّهم ليسوا مسلمين ١٠٠٪ ، باعتبار أنَّ الاختلافات الاجتهادية في المذهب الواحد لا بُدَّ من أن يكون بعضها خطأ وبعضها صواباً . إذاً ، هذا المقياس لا يلتزم به حتى القائلون به ، ولا يصحَّ الاحتكام إليه ، الأمر الذي يدفعنا إلى الانطلاق وفق قواعد إسلامية مشتركة يلتقي عليها المسلمون وإن اختلفوا في بعض تفاصيلها الجزئية ، وبذلك يمكن أن يعتبر كلّ مسلم المسلم الآخر مسلماً من خلال القواعد الأساسية التي تمثّل القاسم

الإسلامي المشترك فيما بينهم أمام خطّ الكفر ، وهنّ ثلاثة : الإيمان بالله الواحد ، الإيمان بالرسول ، والإيمان باليوم الآخر ، والأساس هو الإيمان بالقرآن باعتبار كونه كتاب الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، أمّا الأمور الأخرى ، فإنّها لا تخرج المسلم عن كونه مسلماً ، وإن اتهموا بعضهم بعضاً بالضلال عن خطّ الإسلام ، لأنّ هذا يقول إنّك لم تأخذ بما قاله الرسول ، وذاك يقول إنّك لم تأخذ بما قاله الله مثلاً ، وذاك يقول إنّك لم تحمل مسؤولية حساب اليوم الآخر وما إلى ذلك ، ما يتطلب الخروج من هذه الدوامة وخوض الحوار بين المسلمين ، وتعزيز مناخ الوحدة للتوصل إلى أرض مشتركة نقف عليها ، وبذلك يمكن أن نتجاوز في ما اختلفنا فيه وفي ما يتهم بعضنا بعضاً بالخطأ أو بالضلال أو بالانحراف ، لنعالج خلافاتنا من موقع مناخ الوحدة ، وبذلك نستطيع أن نصل إلى نتيجة : إمّا أن نلتقي على إسلام واحد مائة بالمائة ، إذا استطعنا أن نحسم المسألة في خلافات المذاهب ، وإمّا أن نلتقي على إسلام بنسبة سبعين بالمائة ، لتكون الثلاثين بالمائة الباقية ممّا يعذر بعضنا البعض الآخر فيه ، بناءً على أسس التقوى في الاجتهاد .

الدعوة بالتّي هي أحسن

□ سماحة السيّد ، إنّ دعوة كلّ مذهب إلى مذهبه تؤدي إلى الخلاف ، فكيف نعالج هذا الإشكال؟

● نحن لا نقول إنّ الوحدة الإسلامية تعني أن لا يتحدث الإنسان عن مذهبه

وعن العناصر الإيجابية فيه ، ولكن نقول إنَّ عليه أن يتحدث أولاً عن القضايا الإسلامية التي تمثّل وحدة المسلمين ، ليفهم المسلمون من الطرف الآخر أو من هذا الطرف أنَّهم يتناقشون في داخل الإسلام لا في خارجه . إنَّ عملية الدعوة إلى المذهب تتصل بطرح مذهبك على أساس أنَّه وجهة نظر في فهم الإسلام ، كما يقدِّم الآخر مذهبه كوجهة نظر في فهمه ، لا على أن يكون مذهبك الحقيقة التي لا تقبل الجدل ، أو أن يكون مذهبه كذلك ، لأنَّ مذهبيتك تقع في خطِّ العنصر النظري وليس البديهي ، كما أنَّ مذهبيتك تقع في خطِّ هذا العنصر ، وهذا لا يعني أنَّ هناك بديهيات ينكرها هذا أو ينكرها ذاك ، وإنَّما هناك خطوط نظرية يفكر بها هذا بطريقة ويفكر بها الآخر بطريقة مختلفة ، لذلك نقول إنَّ علينا تقديم أنفسنا للناس كمسلمين نلتقي مع المسلمين الآخرين في قضايا إسلامية مشتركة ، في الوقت نفسه الذي نقدم أنفسنا للناس الآخرين في القضايا المختلف عليها ، بالإيحاء بأنَّ ما نختلف به معهم ونحاول أن نقنع به بعضنا البعض ، هو أمر يعيش داخل كل طائفة من طوائفنا ، فالقضية تعتمد على الأسلوب . نحن لا نقول أن يمنع هذا المذهب حرية أصحاب هذا المذهب في التحدُّث عنه ، أو أصحاب ذاك المذهب أن يمنعوا أصحابه حرية التحدُّث عنه ، بل أن يكون هناك أسلوب مناسب وحكيم للطرح ، وفق ما قاله الله تعالى : ﴿وقل لعبادي يقولوا التي هي أحسن﴾ (الإسراء: ٥٣) أو ﴿ولا تستوي الحسنة ولا السيئة ادفع بالتي هي أحسن فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم﴾ (فصلت: ٣٤) أو على طريقة ﴿قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء﴾ (آل عمران: ٦٤) لنستبدلها بكلمة تعالوا يا

أهل القرآن إلى كلمة سواء .

السياسة الوحدوية ترتكز على قاعدة فكرية

□ هناك من يتصور أن موضوع الوحدة الإسلامية هو موضوع سياسي وليس عقائدياً ، لأنه لا يمكن الوصول إلى عقائد مشتركة بين السنة والشيعة ، فما رأيكم ؟

● إننا نعتبر أن آية قضية سياسية كبرى ، لا بُدَّ من أن تنطلق من قاعدة الفكر .

عندما نتحدث عن سياسة إسلامية وحدوية ، فمعنى ذلك أن هناك عنواناً اسمه الإسلام هو الذي تركز عليه هذه السياسة ، فلا بُدَّ لنا إذاً من أن ننطلق من هذا الإسلام الذي يفتح من خلاله المسلمون على بعضهم البعض ، وهناك إسلام تختلف فيه الاجتهادات ، وليس اجتهاد هذا المذهب في مواجهة ذاك المذهب بأكثر من اجتهاد هذا المجتهد في داخل المذهب في مواجهة المجتهد الآخر في المذهب نفسه ، لذلك نحن لا نتفق مع الذين يقولون إن المسلمين لا يمكن أن يتوحدوا في عقائديتهم . إننا نعتقد أن المسلمين موحدون في عقائدهم ، ولكن الخلافات تنحصر في بعض هوامش هذه العقيدة أو تلك ، أو في بعض التطبيقات لهذا الخطّ العقيدي على هذا الشخص أو ذلك الشخص ، أو في بعض المناهج في فهم هذا النص أو ذاك . لذلك نحن نعتبر بأنه ليست هناك سياسة إسلامية وحدوية إذا لم تكن هناك قاعدة إسلامية وحدوية ، لأن السياسة لا تنطلق من فراغ ، بل من ساحة ميدانية يلتقي فيها الجميع ، وإذا كان عنوان اللقاء هو الإسلام ، فلا بُدَّ من أن يعترف الجميع بإسلام الجميع .

المطلوب مواصلة الحوار لكسر الحواجز

□ هناك في العالم الإسلامي السنة والشيعة والوهابية ، وإذا أمكن توحيد السنة والشيعة ، فإنه من الصعب تحقيق هذا الهدف مع الوهابية الذين يكفرون غيرهم ، فكيف يمكن حل ذلك ؟

● إننا نتصور بأن هناك مشكلة بالنسبة إلى منهج التفكير الوهابي ، ولكننا لا نريد أن نسقط أمام هذه المشكلة . إن علينا الدخول معهم في الحوار حتى ولو كانت هناك مشاكل نفسية أو عملية ، لأن الكثير من الوهابيين ليس من الضروري أن يكونوا اعتقدوا الوهابية من خلال عقدة معينة ، ولكن بسبب خطأ في المنهج وفي طريقته . ومن هنا ، فلا بد من الحديث معهم دائماً ، والهدف هدم الحواجز التي يريدون أن ينصبوها ، أو اختراقها ، لنقودهم إلى الحوار الموضوعي . وفي تصوري أنه بدأ ينشأ في الساحة الوهابية ، ومن خلال بعض المثقفين وبعض العلماء ، فريق يمكن لك أن تحاوره لأنه يتحدث بلغة علمية .

وعندما يتحدث الآخرون بلغة علمية ، فإن معنى ذلك أنهم قد قطعوا نصف الطريق للوصول إلى اتفاق ، لأن العلم يقابل بالعلم ، باعتبار أن مشكلتنا مع التيار الوهابي ، أنه كان يقابل القضايا العلمية بالكفر والأساليب الانفعالية ، ولذلك فإنني أتصور أن القضية ليست مستحيلة في هذا المجال ، والمطلوب أن نواصل هذه التجربة حتى نصل إلى نتائج إيجابية .

وأنا أتصور أن تطور العصر يمكن أن يطل على كثير من القضايا ، لا سيما بعد أن

بدأت الأوضاع السياسية في الواقع الإسلامي تفرض على الكثيرين منهم أن يعيشوا مع المسلمين الآخرين ، إمّا من خلال المصلحة السياسية أو من خلال أشياء أخرى . إنّ الله سبحانه علّمنا بأن نبقى نواصل الحوار ، سواء مع بعضنا البعض أو مع الناس الآخرين . وأنا أتذكر في هذا المجال كلمة لأمير المؤمنين (ع) وهو يقول : « لا تقاتلوا الخوارج من بعدي ، فليس من طلب الحقّ فأخطأه ، كمن طلب الباطل فأدركه »^(١) . لذلك أنا أتصور أنّ العنف ليس هو السبيل للوصول إلى النتيجة الحاسمة في القضايا المختلف عليها ، بل الرفق هو الأسلوب الذي ينبغي للإنسان أن لا يعيش اليأس أمامه ، مهما اختلفت الظروف . وليس معنى ذلك أن لاندافع عن أنفسنا أمام كلّ هذه التهاويل القاسية التي يثيرونها في أجواء معينة ، ولكن لا بدّ من أن يكون ردّ فعلنا بطريقة لا تسقط الساحة ، بل تحاول أن تثبتها أكثر .

حركة المذاهب السياسية واحدة والعصبية مشكلة

□ ما رأيكم بمن يقول إنّ الدعوة إلى الوحدة تخفي دعوة لتسييس المذاهب الإسلامية ، وهذا غير مقبول في الإسلام؟

● أنا لا أفهم مسألة تسييس المذاهب كما يطرحه السؤال ، لأنّ السياسة في الإسلام مسألة أساسية في قاعدة العدل التي ينطلق بها في كلّ تشريعاته وكلّ

(١) نهج البلاغة والمعجم المفهرس لألفاظه ، الخطبة : ٦١ ، ص : ٥٣ .

مواقعه ، ولذلك فإنَّ السياسة الإسلامية هي سياسة العدل مع النفس والعدل مع الله والعدل مع النَّاس ومع الحياة ، وعندما نتحدث عن السياسة الإسلامية ، أو عن الوحدة الإسلامية السياسية ، أو الإسلام السياسي أياً كان ، فإنَّنا نتحدث عن نهج حركة الإسلام في الواقع ، بحيث يحول الإسلام خطوطه الفكرية إلى خطوط عملية واقعية لمصلحة الإنسان ، لذا لا أجد هناك أيَّة مشكلة في المسألة السياسية عندما يتبنى مذهب إسلامي حكماً في بلد ، أو يتبنى مذهب إسلامي آخر حكماً في بلد آخر ، لأنَّ الخطوط السياسية العامة للمسلمين واحدة ، سواء على مستوى حكم الداخل أو العلاقات مع الخارج ، باعتبار أنَّها من الأمور التي لا تختلف فيها المذاهب ، فلا مشكلة هنا . نعم ، هناك مشكلة عصبياتنا ، لا مشكلة تسييس هذا المذهب ضد المذهب الآخر أو العكس ، بل عصبية هذا المذهب ضد المذهب الآخر ، وهذه مشكلة موجودة على مستوى الواقع الاجتماعي والسياسي . وهنا نريد أن نقول : إنَّ علينا أن لا نتعقد من حكم أيَّة جماعة تتبنى مذهباً في أيِّ بلد ، لأنَّ معنى ذلك هو حكم الإسلام في هذا البلد ، ولو في الجملة كما يقولون ، هو حكم إسلامي ولو بطريقة معينة ، ولكن علينا أن ندخل في وعي هذه الجماعات بأن تكون للمسلمين جميعاً أو تكون للنَّاس جميعاً ، ولا تحاول أن تفرض عصبيتها المذهبية على الواقع الإسلامي . إنَّ المسألة تتصل بوعي الحاكم الإسلامي المتمذهب بمذهب معين في معالجة الأمور . هذه هي المشكلة ، ولكنَّها ليست مشكلة مستعصية عن الحل .

بين المشروع الإسلامي والوحدة

□ هل الوحدة الإسلامية تبدأ من مشروع إسلامي كبير ، أو أن المشروع الإسلامي الكبير يبدأ من الوحدة؟

● إنني أتصور أن المشروع الإسلامي الكبير لا بُدَّ من أن يبدأ من نقطة الوحدة ، لا على أساس أن يتجمد ، بل أن يتحرك العمل في خطين : أن نعمل لتوحيد المسلمين حول القضايا المشتركة كي يتوحدوا حول هذا المشروع الإسلامي ، وأن نستفيد من أية فرصة ، سواء في التحالفات أو من بعض الظروف الخارجية لدفع هذا المشروع الإسلامي إلى الأمام . وهذا السؤال يذكرني بمن يقول : هل أن الإنسان عليه أولاً أن يهتم بجهاد النفس ، أم بجهاد الأعداء ؟ !

فالبعض يقول : إنَّ على الإنسان أن يبقى في جهاد نفسه وبعد أن يكمل بناء نفسه عليه أن يجاهد الأعداء . وقد كتبت بحثاً قبل أكثر من ثلاثين سنة أكدت فيه على ضرورة أن نتحرك في خطين متكاملين في هذا المجال : جهاد الإنسان نفسه وجهاد الأعداء ، باعتبار أنَّ نقاط ضعفه لدى نفسه قد تنعكس سلباً على الجهاد الخارجي ، كما أنَّ نقاط الضعف الموجودة في الواقع الإسلامي قد تنعكس سلباً على استكمال له لبناء نفسه ، لذلك لا بُدَّ من أن نبقي في صراع داخلي مع النفس وصراع خارجي مع الأعداء ، وبذلك نستطيع تحقيق التوازن الذي لا بدَّ منه لتحقيق النصر الكبير في كلا المجالين .

الاستفادة من كل الشرائح لتحريك المشروع الوحدوي

□ ممن يبدأ مشروع الوحدة الإسلامية ؛ من العلماء ، أو الناس ، أو الحكومات؟

● لا أستطيع أن أتحدث عن فريق معين ، لأنّ العلماء قد يكونون في بعض نماذجهم مشكلة للوحدة ، وقد تؤدي إثارة مسألة الوحدة بين العلماء كمنطلق وحيد ، إلى مشكلة أيضاً ، لأنّها تُدخل المسألة في جدل بينهم قد ينعكس سلباً على الناس .

ونحن نعتقد أنّ علينا الاستفادة من كلّ الإيجابيات الموجودة ، ومن كلّ الشرائح ، أن نحرك الوحدة في مسعى العلماء ممّن يؤمنون بالخطّ الوحدوي ، وعند الجماهير انطلاقاً من العناوين الوحدوية التي يمكن أن تلتقي عليها الجماهير ، وعند الحكام الذين يؤمنون بالوحدة إذا وجدوا ، أمّا الذين لا يؤمنون بالوحدة ، فنحاول أن نضغط عليهم من خلال الجماهير أو من خلال الحكام الآخرين ، لذلك أنا أتصور أنّنا لا نستطيع أن نتحدث عن منطلق واحد ، بل لا بدّ لنا من أن نأخذ من هذا ومن ذاك ، وبهذا يمكن لنا أن نصل إلى النتيجة الحاسمة .

التعرف على المذاهب المطلوب والجامعات المشتركة حل

□ ما رأيكم بإيجاد مؤسسات للتعليم المشترك يعتمد على تعليم الفقه المقارن أو علم الكلام المشترك بين المسلمين ، وما رأيكم بدور أهل البيت في مجال الوحدة الإسلامية ، خاصة وأنّ كلا الفريقين يعتقدان بقدسية أهل البيت (ع)؟

● إنّني أتصور أنّ من الضروري جداً أن لا تكون لنا جامعاتنا المذهبية المنفصلة عن بعضها البعض ، بل لا بدّ من أن يعيش المسلمون تنوعات شهاداتهم ليطلعوا على كلّ ما في الساحة الإسلامية من اجتهادات في سائر المذاهب أو في داخل

المذهب الواحد ، وأعتقد أنَّ العلماء السابقين ، لا سيما علماء الشيعة ، كانوا يأخذون بهذا المنحى ، فنحن عندما ندرس الشيخ الطوسي والشيخ المفيد والسيد المرتضى وأمثالهم ، فإننا نجد أنَّهم يملكون إحاطة بالمذاهب السنية الكلامية والفقهية ، بالمستوى نفسه الذي يملكون فيه إحاطة بالمذهب الإسلامي الشيعي في الكلام وفي الفقه ، وأعتقد أنَّ الواقع الذي أصبحنا نعيشه من اقتصار الشيعة على المذهب الشيعي والسنة على المذهب السني ، هو الذي جعل الشيعة لا يفهمون السنة جيداً كما جعل السنة لا يفهمون الشيعة جيداً ، لذلك أعتقد أنَّه لا بُدَّ للجامعات الإسلامية ، في المواقع السنية أو الشيعية ، من أن تكون مشتركة ، فلا يكون هناك حاجز بين مذهب ومذهب في المسألة الثقافية ، وأتصور أنَّ هذه القضية تعتبر من القضايا الضرورية جداً ، لأنَّه من الممكن عند ذلك للطالب الجامعي أو الحوزوي أن يعرف كلَّ وجهات النظر الإسلامية .

أمَّا بالنسبة إلى أهل البيت (ع) ، فإنَّني أعتقد أنَّهم يمثلون القاعدة الوحدوية للمسلمين جميعاً ، ولكن علينا أن نقدم أهل البيت (ع) بطريقة منهجية تفتح على الواقع الإسلامي ككله ، لأنَّ بعض الناس يحاولون أن يقدموا أهل البيت (ع) للناس بطريقة مذهبية متعصبة في أحاديث لم تثبت أصالتها ولم يثبت توثيقها من حيث السند أو من حيث المتن .

إنَّ علينا أن نقدم أهل البيت من خلال الخطَّ الوحدوي الذي أكدوه عندما طلبوا من شيعتهم حضور جماعة المسلمين بشكل وبآخر . وبهذه المناسبة ، فإنَّنا نستوحي من أحاديث أهل البيت (ع) ، أنَّه ليس من الضروري أن يكون للشيعة

مساجد تخصصهم ، وأن يكون للسنة مساجد تخصصهم ، لأنهم يدعون المسلمين إلى أن يُصلّوا في جماعة واحدة ، سواء كانوا من المسلمين السنة أو من الشيعة . إنني أتصور أننا عندما نقدم أهل البيت (ع) في دراسات منهجية مفتوحة على الواقع الإسلامي كله ، كما هي قاعدة أهل البيت (ع) في مسؤولياتهم الإسلامية من موقعهم القيادي أمام الناس ، فإننا نستطيع أن نجعل من أهل البيت (ع) قاعدة للوحدة بين المسلمين .

نبذ أساليب الماضي المتخلفة

□ سماحة السيد : لاتزال بعض كتب السنة والشيعة تطرح القضايا المختلف عليها بالطريقة الكلاسيكية والتي تبعث على الفرقة ، ما يجعل بعض العناصر المغرضة والمعارضة للوحدة تتخذها سنداً وحجة ، فهل هناك مشروع عملي للتخلص من هذه المسائل ، لا سيما على صعيد المصادر والمراجع المعتمدة؟

● المطلوب أن يفكر السنة والشيعة بأن هذه الأساليب كانت أساليب الماضي المتعصب المتخلف الذي يتحرك من خلال الحساسيات العصبية لا من خلال الموضوعية ، وعلى الشيعة والسنة أن ينبذوها وأن يستهدوا كتاب الله ، الله يدعو إلى أن نجادل أهل الكتاب بالتي هي أحسن ، فكيف لانجادل أهل القرآن بالتي هي أحسن . والله يدعونا إلى أن ندفع بالتي هي أحسن حتى في صراعنا مع الكفار حتى يتحول أعداؤنا إلى أصدقاء ، فكيف لانعمل على تعميق صداقة أصدقائنا وأن لانحول أصدقائنا إلى أعداء ، ويأمرنا الله تعالى أن نقول التي هي أحسن ،

ويعلمنا المنهج على طريقة ﴿وإنّا أوياكم لعلى هدى أو في ضلال مبين﴾ (سبأ: ٢٤) .

إنّ مشكلتنا أنّنا لانستهدي القرآن في أساليبنا وفي اختلافاتنا ، ولذلك فإنّني أدعو المسلمين السنّة والشيعة إلى أن يأخذوا بالمذهب القرآني في طريقة التفكير وفي طريقة الحوار وفي روحية الحوار .

جذور التشيع

□ سماحة السيّد : هل أنّ فكرة التشيع هي حالة طارئة في المجتمع الإسلامي كما يقول البعض ؟ وهل أنّ الإمام جعفر الصادق (ع) الذي كان معلّم أئمة المذاهب الأربعة ، حسب ، ما يدّعيه الشيعة ، يحظى بتأييد مصادرهم أم لا ؟ ولماذا لم تذكر كتب أهل الحديث السنّة اسم الإمام الصادق (ع) كأحد الرواة ؟

● الحديث عن أنّ التشيع حالة طارئة مردود بحديث المسلمين الشيعة عن وجود جذور للتشيع في أحاديث النبيّ (ص) وفي القرآن الكريم ، أمّا مسألة أنّ الإمام جعفر الصادق (ع) كان معلّم أئمة المذاهب بشكل مباشر أو بشكل غير مباشر فهذا صحيح . أمّا قضية أنّ أهل السنّة لا يعتمدون روايته ، فأعتقد أن ليس كلّ أهل السنّة لا يعتمدون ذلك ، ولكن هناك نقطة سلبية في البخاري لاندري ما هو تفسيرها .

الإسلام يحتضن كلّ المسلمين

□ سماحة السيّد : الهدف من الوحدة هو قبول الآخر وقبول بعضنا بعضاً

واعتراف بعضنا ببعض ، هل هناك أهداف أخرى نضيفها سماحتكم؟

● إنَّ المسألة ليست هي قبول بعضنا بعضنا الآخر وإن كانت هذه أساسية في الواقع ، والإسلام لم يقتصر على هذا التوجه في الواقع الإسلامي ، بل إنَّه تعدى ذلك إلى الواقع الكتابي ، فقال : ﴿قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم﴾ (آل عمران : ٦٤) فهناك خطة إسلامية لقبول الآخر ، بمعنى التعايش وإدارة الحوار معه ، والانطلاق إلى جانبه في القضايا المشتركة ، كتوحيد الله ومواجهة الاستكبار لدى المستكبرين الذين يعتبرون أنفسهم أرباباً من دون الله . إنَّنا نتصور أنَّ الوحدة الإسلامية تستهدف أن يعيش المسلمون في موقع واحد في الفكر والعمل ومواجهة التحديات . إنَّ الوحدة هي هدف يُرجع الإسلام إلى موقعه الوحدوي في احتضان كلِّ المسلمين بدلاً من أن ينقسم المسلمون شيعاً وأحزاباً . إنَّ هدف قبول الآخر ليس هدفاً استراتيجياً ، بل هو هدف مرحلي مقدمة للقاء مع الآخر والتوحد معه .

وحدة الأمة والدولة

□ ما هو رأي سماحتكم بالفكرة التي تقول إنَّ وحدة الأمة الإسلامية على مستوى القضايا الكبرى أهم من أي شيء آخر حتى وحدة الدولة؟

● نحن نتصور أنَّ وحدة الدولة الإسلامية هي أساس مهم جداً ، وفي المستوى الكبير من الأهمية ، لأنَّها تحمي القضايا الإسلامية الأساسية ، لذلك لا نتصور وحدة أمة مع انقسام الدولة الإسلامية ، ومن هنا فإنَّنا نعتبر أنَّ وحدة الأمة

الإسلامية تتمثل بشكل عملي في الحفاظ على وحدة الدولة ، لأنَّ انقسام الشعب في داخل الدولة يسيء إلى وحدة الأمة الإسلامية بشكل عملي .

الإمام الخميني ترك تأثيراً كبيراً

□ سماحة السيّد : ما هو تقييمكم لدور الإمام الخميني (قده) في رسم معاني هذه الوحدة والأثر الذي تركه على ذلك ؟

● إنّ الإمام الخميني (رض) ، المنفتح على قضايا الإنسان من خلال انفتاح الإسلام على قضايا النَّاس في العالم ، نجده درس بوعيه الإسلامي السياسي الواقعي مسألة الاستكبار العالمي ، ورأى أنَّها تتحرك بكلِّ قساوة وقوة لاستغلال نقاط الضعف الموجودة في داخل الواقع الإسلامي ، من خلال المذاهب المتنوعة التي تحولت إلى عصبية يقف فيها المسلم ضد المسلم الآخر أكثر ممَّا يقف ضد صاحب الدين الآخر أو التيار الآخر ، وهذا ما تسبب به التخلف والجهل والاستكبار الذي كان يعبث في الواقع الإسلامي ، لذلك أطلق الإمام الخميني شعاره المعروف : «يا مسلمي العالم اتحدوا» ، أو «أيّها المسلمون اتحدوا» ، وانفتح من خلال تجربته على كلِّ قضايا المسلمين في العالم ، وكانت قضية فلسطين تمثل القضية المركزية في تفكير الإمام الخميني الذي أعطاه كلَّ شيء ، حتى أنّه كان يفكر في وقت من الأوقات ، ومن خلال إيمانه بالقضية الإسلامية الواحدة ، بتجميد صراعه مع النظام العراقي الذي خاض حرب الاستكبار العالمي وبضراوة ضد الجمهورية الإسلامية ، ليدفع بالمسلمين من إيران إلى أن يقاتلوا «إسرائيل» في

فلسطين المحتلة ، لولا أنه رأى أن المصلحة لا تتوفر في ذلك لوجود بعض المشاكل التي لا تسمح بنجاح هذه الخطة .

وهكذا رأينا أنه تبنى قضايا المسلمين في كل مكان في العالم ، بالرغم من أن هذه القضايا كانت في مجموعها ، ومن خلال الصفة المذهبية ، قضايا إسلامية سنية وليست شيعية ، وقد أراد بذلك أن يؤكد الوحدة من خلال الممارسة ، لا سيما بعد أن دفع بالجمهورية الإسلامية إلى مواقع الخطر على مستوى المواجهة مع الاستكبار العالمي أو الاستكبار الإقليمي ، بحيث عرض مواقع إيران لتهديدات كبيرة ، وعرض مستقبل الجمهورية الإسلامية لكثير من الأخطار بسبب تبنيه للقضايا الإسلامية العامة . ومن هنا ، فإن الإمام الخميني استطاع اختراق هذه الحواجز السياسية المنطلقة من حواجز نفسية وعصبية يمتلئ بها العالم الإسلامي ، وقد أوجد بذلك حالة إسلامية تعبوية في أكثر من منطقة إسلامية استطاعت أن تتحرك بروح وحدوية شعورية في المسائل الإسلامية المشتركة ، ولذلك فإننا نتصور أن الإمام الخميني قد ترك تأثيره الكبير في مسألة الوحدة الإسلامية من الناحية السياسية .

وعندما تحدث الإمام الخميني عن الوحدة الإسلامية من الناحية الفكرية والثقافية ، فإن منهجه كان يمثل المنهج الذي لا يريد أن تتحول المسائل الفكرية فيه إلى شعارات فضفاضة مائعة يمكن أن ينطلق بها الإنسان نحو الإنسان الآخر بوحى المجاملة ، كأن يقال أن ليست هناك مشاكل بين المسلمين ، أو خطوط فكرية متعارضة ، أو قضايا خلافية في هذه المسألة .

إنَّ الإمام الخميني - قده - من ناحية طريقته العلمية في التفكير ، كان يجد أنَّ هناك قضايا أساسية يختلف فيها المسلمون ، ويثور الجدل فيها بينهم ، لكنَّه رأى أنَّ الإخلاص للوحدة الإسلامية هو في أن يتحرَّك العلماء ليتحاوروا حول هذه القضايا ليصلوا إلى نتيجة حاسمة ، لأنَّ بقاء القضايا الحيوية الفكرية في الذهنية الثقافية عالقة وتوارثها الأجيال ، يمكن أن يثير المشكلة في كلِّ وقت ، لهذا كنَّا نرى الإمام الخميني يدعو إلى وحدة تحسم الخلاف وتسمي الأشياء بأسمائها ، وحدة في الإخلاص للإسلام في بحث القضايا الخلافية بطريقة علمية موضوعية تستهدي الأساليب الإسلامية . كان يريد أن يقول للمسلمين إنَّ الشيعة والسنة يجب أن يفكروا بأنَّ الإسلام هو هويتهما ، وأنَّ وعي الإسلام بعقائده وشرائعه ومناهجه وخطوطه الفكرية هو الذي يبري ذمتنا أمام الله عندما نصل إلى الحقيقة في ذلك ، إذ لا صحة لموروثاتنا إلا بمقدار ما نقنع به بالطريقة العلمية .

إنَّنا عندما نتصور الإمام الخميني العالم المجتهد الفيلسوف المنفتح بإخلاص على قضايا الإسلام ، نعرف أنه كان يفكر بأنَّنا لا نستطيع أن نصل إلى وحدة في الفكر إلَّا من خلال حركة الفكر بطريقة علمية موضوعية ، ولا نستطيع أن نصل إلى تقارب في المسألة الفكرية إلَّا من خلال مناهج البحث التي يمكن أن تبحث عن نقاط اللقاء وتتجاوز في نقاط الخلاف لتقرَّبها من بعضها البعض .

وهكذا نجد أنَّ الإمام الخميني أطلق المسألة الوجودية في المسألة الثقافية من موقع الفكر والعلم والثقافة ، وأعتقد أنَّ على علماء المسلمين أن يأخذوا بهذا المنهج ويتحاوروا في ما اختلفوا فيه ليسموا الأشياء بأسمائها ، ولتكون الصراحة

هي الأساس في كلّ المسائل الفكرية ، لأنّه لا معنى للمجاملة في الفكر ولا معنى للتسويات فيه ، فالفكر إمّا أن يكون حقّاً أو باطلاً ، إمّا أن يكون خطأ أو صواباً ، إمّا أن نأخذ المسألة على أساس أنّ هناك نصف خطأ ونصف صواب ، فهذا لا يكون خطأ ولا صواباً ، وإنّما كلّ خطأ في النتائج . وأنا أعتقد أنّ مشكلتنا أنه عندما نتحدث فيما بيننا ، حتى على مستوى العلماء ، فإنّنا نتحدث بطريقة النفاق الإسلامي المذهبي إذا صحّ التعبير ، ولا نتحدث بطريقة الصراحة العلمية الموضوعية . وقد كان الإمام الخميني رائداً في الحديث عن الوحدة في خطّ الصراحة بدلاً من الوحدة في خط المجاملة .

□ ما رأي سماحتكم في ما قدّمه الإمام الخميني في وصيته من مشروع للوحدة الإسلامية؟

● إنّ الإمام الخميني أراد ، في تصوري ، من هذا المشروع ما أراده الرسول (ص) عندما أفسح المجال لدخول الناس في الإسلام رغبة أو رهبة أو عن قناعة ، لأنّ النبيّ (ص) كان يريد أن يخرج النّاس من مجتمع الشرك ، ولو شكلياً ، أي أن ينفصلوا عن مجتمع الشرك عن طريق أطماعهم أو خوفهم أو قناعتهم ، لأنّهم عندما يعيشون في داخل مجتمع الإسلام فسوف يعيشون مناخ الإسلام ، ومن يدخل الإسلام رغبة أو رهبة يمكن أن يتحول ذلك عنده إلى قناعة ، لذلك أنا أقول إنّ طرح الوحدة الإسلامية على صعيد جماهير المسلمين مهم جداً ، ليلتقي المسلمون على بعض القضايا الاجتماعية هنا وعلى بعض القضايا السياسية أو الاقتصادية هناك . إنّ إطلاق الوحدة جماهيرياً ، يجعل المسلمين يعيشون في

مناخ إسلامي وحدوي ولو من خلال مسألة سياسية أو اقتصادية أو اجتماعية ، وهذا ما يفرض الضغوط على الذين يتحركون في مواقع المسؤوليات التي تمنعهم أن يسيئوا إلى الوحدة الإسلامية بطريقة أو بأخرى ، لأنَّ الوحدة عندما تتجذر في الجماهير من خلال مصالحها أو قضاياها ، فإنَّها تشكّل ضغطاً على الذين يريدون أن يعتبوا بها من خلال طموحاتهم السياسية أو عقدهم النفسية .

دار التقريب خطوة أولى نحو الوحدة

□ سماحة السيّد : توجد بعض الآراء التي تقول إنَّ ما تبذله الجمهورية الإسلامية من مساعٍ لتحقيق الوحدة الإسلامية ، كتأسيس دار التقريب بين المذاهب ، وإقامة الندوات والمؤتمرات المختلفة ، وذلك لتدعيم فكرة الوحدة ، هي جهود ضائعة ، حيث إنَّ الوحدة لا يمكن تحقيقها بتلك الأساليب المذكورة ، فما هو رأي سماحتكم بهذا الموضوع ؟

● إنَّني أعتقد أنَّ الجمهورية الإسلامية قد فتحت أفقاً واسعاً في مسألة الوحدة الإسلامية من خلال الجهود التي تبذلها ، لأقول هذا من منطلق أنَّني من النَّاس الذين يؤيدون خطَّ الجمهورية الإسلامية في فكرها وسياستها فحسب ، بل أقوله بطريقة موضوعية ، وأحاول أن أشير إلى عدة نقاط :

النقطة الأولى : هي أنَّ الجمهورية الإسلامية في مؤتمراتها المتنوعة ، استطاعت أن تجمع العديد من العلماء والمفكرين المسلمين مدة من الزمن بحجم هذا المؤتمر أو ذاك ، ليتداولوا القضايا المشتركة والمختلف فيها ، ليضيء هذا المؤتمر قضية في ذهنية

المؤتمرين ، وليزيل وهماً من أوهامهم عندما يتحدثون على صعيد الواقع ، سواء كان ذلك في المحاضرات التي يلقونها أو في الأحاديث الشخصية أو الكواليسية التي يتحدثون فيها ، لا سيما أنَّ الكثير من إخواننا من المسلمين السُنَّة ، كانوا يتصورون أنَّ خط الإسلام في مفهوم أهل البيت (ع) يجسد الانحراف ويمثّل «البعع» الذي يجسّد الخطر على الإسلام وأهله من خلال الأوهام التاريخية التي لا يزال الكثيرون يستهلكونها ، ولذلك استطاعت الجمهورية الإسلامية أن تجعلهم وجهاً لوجه أمام الحقيقة ، ليواكبوا الشعب الإيراني بشكل طبيعي جداً ، سواء في أوضاعه العبادية أو الاحتفالية أو في شعاراته أو عقائده ، ليروا الجانب المشرق من الصورة والجانب المظلم منها ، ولذلك استطاعت هذه المؤتمرات أن تهیی حركة ذهنية ثقافية جديدة لدى هؤلاء المؤتمرين ، على طريقة الدراسة الميدانية البعيدة عن كل ألوان الظلام والستائر التي تحجب الرؤيا أمام الآخرين .

النقطة الثانية : أنَّها استطاعت أن تهیی مناخاً وحدوياً من خلال هذا اللقاء والعلاقات الشخصية بين هذا العالم السنّي والعالم الشيعي ، والمفكر السنّي والمفكر الشيعي ، لا سيما أنَّ الجمهورية الإسلامية كانت تتابع هذه المؤتمرات وترعى الحضور فيها ، الأمر الذي جعل الكثيرين من الناس الذين كانوا في دائرة المتعصّيين ، يتحدثون عن الوحدة الإسلامية بطريقة أو بأخرى من مواقعهم ، ليصنعوا مناخاً وحدوياً في هذا الجو أو ذاك .

أمّا «مجمع التقريب بين المذاهب الإسلامية» ، فإنّه يمثّل الامتداد لـ «دار التقريب بين المذاهب الإسلامية» ، والتي استطاعت أن تقوم بجهد كبير في توضيح صورة

المسلمين السنة للشيعة وبالعكس ، من خلال أبحاث العلماء ، ومن خلال إثارة القضايا المختلف عليها فيما بينهم ، ولهذا فإنَّ السنين الخمس عشرة التي تلت تأسيس دار التقريب ، استطاعت أن توجد أجواءً وحدوية رائعة ، كان في قمتهما خطوة شيخ الجامع الأزهر الشيخ محمود شلتوت ، بتأكيد شرعية المذهب الشيعي بالإضافة إلى المذاهب الإسلامية الأخرى ، وقد طبعت دار التقريب الكتاب التفسيري «مجمع البيان في تفسير القرآن» ، الذي يمثل التفسير الأقرب للذوق الوجداني من التفسير الأخرى مع مقدمة للشيخ محمود ، وأعتقد أنَّ كثيرين ممن عاشوا أجواء دار التقريب ، يدفعون لتكريس هذه الأجواء الوجدانية ، ومَن بقي من هؤلاء ، الشيخ محمد الغزالي الذي استمر في هذه الدعوة الوجدانية بطريقة وبأخرى . ولذلك فإنَّ «مجمع التقريب بين المذاهب الإسلامية» الذي أسَّسته الجمهورية الإسلامية بقيادة آية الله السيّد علي الخامنئي ، بدأ رحلته في هذا الاتجاه ، ولكنه يحتاج إلى وقت طويل ليؤكد فيه صفته ، ويؤكد فيه طروحاته بشكل وبآخر .

إنَّني أتصور أنَّ الجمهورية الإسلامية قد استطاعت أن تثير حركة ثقافية نفسية عملية تجاه الوحدة ، ونحن نعرف أنَّ الوحدة الإسلامية التي عشنا قرونًا عديدة - بل كلَّ تاريخنا - بعيدين عنها ، لا يمكن أن يلغيها مجمع أو مؤتمر ، ولكنه يهيئ الأجواء التي يعيش فيها النَّاس للتفكير بالوحدة ، والإحساس بها أو ضرورة حركتها في الواقع الإسلامي ، ونحن نعرف أنَّ الخطوة الأولى في الطريق الصحيح هي التي تمثِّل مسافة الألف ميل .

«التقريب» و«الوحدة» يتكاملان

□ ألا ترى سماحة السيّد أنّ مصطلحي (التقريب بين المذاهب) و (الوحدة الإسلامية) فيهما شيء من التعقيد ، أو أنّهما متناقضان؟

● أتصور أنّهما شعاران يكملان بعضهما بعضاً ، بل إنّ التقريب بين المذاهب الإسلامية ضرورة للوحدة ، لماذا؟

لأنّ هناك فكرة سابقة متخلفة أكدتها العصببيات ، ومفادها أنّ المذاهب الإسلامية لا تلتقي على الإسلام ، وإنّما يتميز بعضها بخطوط الكفر ، فهناك أفكار كثيرة ترجع التشيع إلى اليهودية وتربطه بعبد الله بن سبأ ؛ هذه الشخصية الأسطورية التي فُرِضت على تاريخ التشيع مع أنّها لا تمثّل شيئاً ، وهكذا نجد أنّ هناك تفكيراً آخر في الجانب الشيعي قد يتحدث عن بعض الكفر عند بعض السنّة ، لذلك كانت المسألة أنّه لا مجال للوحدة على عنوان الإسلام ، لأنّ هذا المذهب أو ذاك ليس إسلاماً ، ونحن نعرف أنّ الأمر منطلق من الجهل بحقيقة هذا المذهب أو ذاك ، بينما كانت حركة التقريب بين المذاهب الإسلامية تمثّل الحركة المنهجية الثقافية التي يبحث فيها المسلمون ، سنّة أو شيعة ، عن الأسس التي يفتح عليها هذا المذهب أو ذاك ، ليعرف الجميع أنّهم ينطلقون من قواعد إسلامية في التفكير ، وإنّ خطأ هذا وذاك باستنتاجه حول صحة هذه القاعدة أو تلك ، لذلك انطلقت حركة التقريب بين المذاهب الإسلامية لتقول للمسلمين إنكم إذا اختلفتم فإنّكم تختلفون من موقع الإسلام لا خارجه ، إذ ليس هناك مسلم ينطلق من كفر ، وإنّما ينطلق من خطأ في فهم هذا النص أو ذاك .

ومن الطبيعي أن اعترف المسلمين بإسلام بعضهم البعض ، يمثل القاعدة لحركة الوحدة الإسلامية ، فإذا كنتُ أكفرك وكنتُ تكفّرني ، فكيف يمكن أن يلتقي الإسلام مع الكفر ، لهذا فإننا نتصور ضرورة استمرار حركة التقريب ، من خلال دار التقريب أو مجمع التقريب ، أمام استمرار الحملة المضادة التي تحاول أن تتهم هذا المذهب الإسلامي أو ذاك بالكفر ، ليعرف المسلمون أنه ليس هناك كافر بينهم لعلّة الاختلاف المذهبي ، وإنّما هناك مجتهد مخطئ ومجتهد مصيب ، وإذا صحّ أنّ المجتهد له أجر واحد وإن أخطأ وأنّ له أجرين إن أصاب ، فنستطيع القول إنّ كلّ المجتهدين الذين انطلقوا من اجتهادهم من دون تقصير في المقدمات مأجورون إن شاء الله .

بعض المذهبيين قد يستغلون شعار الوحدة

□ هناك من يعتقد بأنّ شعار الوحدة والتقريب يُرفع لترويج مذهب معين ، ولذلك يرفض الاستجابة لهذا الشعار ، فما رأيكم ؟

● ربّما كان لهؤلاء النّاس بعض العذر ، لأنّ شعار الوحدة الإسلامية يمكن أن يجعل بعض النّاس يمارسون الدعوة إلى مذهبهم من دون الانفتاح على المذهب الآخر بطريقة حوارية موضوعية ، ما يجعل تلك الحركة في خطّ الوحدة حركة مذهبية تريد أن تأخذ مساحة واسعة بالدعوة إلى مذهبها ضدّ المذهب الآخر ، لأنّها تستفيد من هذه الحرية بالضغط على حرية الآخر ، ومن الطبيعي أنّ الوجدانيين الإسلاميين لا يفكرون بهذه الطريقة .

إننا لا نمانع أن يدعو كل صاحب مذهب إلى مذهبه في الساحة الواسعة ، بمعنى أن يكون لصاحب المذهب الآخر حرية أن يدعو إلى مذهبه أو يتحدث عن مذهبه في ساحتنا ، كما يكون لنا الحرية في أن نتحدث عنه في ساحتنا ، ويكون هذا الحديث بطريقة موضوعية تفسح في المجال لحوار موضوعي لا يحاول إثارة الحساسيات الساحة الإسلامية في داخل هذا المذهب أو ذاك .

إنني أتصور أن الذين يدعون إلى الوحدة الإسلامية لا يفكرون بروحية الاستغلال ، لكن ربّما تحدث بعض الأخطاء ، وعلينا أن لانسقط أمامها ، لأنّ من الطبيعي أن هذا التاريخ الذي يحمل تراكمات كثيرة من التخلف والعصبية ، لا يمكن إلغاؤه من نفوس العلماء والمفكرين بمجرد شعار واحد ، إنّما علينا مواكبة هذه التجارب التي قد تحمل بعض السلبيات ، لانسقط شعار الوحدة أمام هذه السلبيات ، بل لنحوّلها إلى إيجابيات . إنّ علينا مواجهة هذه الأمور كمشكلة لا بُدّ أن نحلّها ، لا كحاجز يفرض علينا الانسحاب من المسألة كلية .

□ سماحة السيّد : برأيكم الوحدة الإسلامية بحاجة إلى ركائز عقائدية ، وأيضاً تحتاج إلى ركائز تنفيذية ، فما هو دور مقام ولاية الفقيه المتمثل بالسيّد علي الخامنئي (حفظه الله) في إرساء دعائم الوحدة الإسلامية؟

● أعتقد أن السيّد خامنئي (حفظه الله) ، انطلقاً من خط الإمام الخميني (رضوان الله عليه) ، يفتح على قضية الوحدة الإسلامية بشكل واسع من خلال انفتاحه على قضايا الإسلام في العالم ، ومن هنا كانت خطواته الوحدوية

على المستوى الثقافي في مجمع التقريب بين المذاهب ، وإليه يرجع الفضل في إنشائه .

كما يطل السيد على المسألة السياسية في مواجهته للاستكبار العالمي في قضايا فلسطين وفي البوسنة والهرسك ، بالرغم من أن ذلك كان يؤثر تأثيراً سلبياً على بعض مواقع الجمهورية الإسلامية في علاقاتها الدولية . وأتصور أن خطابه وتوصياته تمثل حركة تعبوية وحدوية في الواقع الإسلامي . ومن الطبيعي أن مسألة الولاية كلما اتسعت في العالم الإسلامي كلما استطاع المسلمون أن يلتقوا على موقع قيادي واحد ، وذلك هو الذي يؤكد حركية الوحدة الإسلامية في الواقع الإسلامي .

الوحدة قطعت شوطاً وبقي عليها أشواط

□ سماحة السيد : هل التوجه نحو الوحدة الإسلامية في الوقت الحاضر أكثر مما هو في السابق ، وما الذي تحقق إلى الآن عملياً على صعيد الوحدة؟ وما هي العوائق التي تعترض ذلك؟

● إنني أتصور أن حركة الوحدة أصبحت حركة واسعة في الواقع الإسلامي ، سواء من الناحية الشعورية أو من الناحية السياسية ، حيث يلتقي المسلمون جميعاً على القضايا الإسلامية المصيرية ، كفلسطين والبوسنة والهرسك والشيشان وأفغانستان ، من دون فرق بين سني وشيعي . هذه تجربة عملية واقعية تثبت لنا أن شعار الوحدة الإسلامية هو شعار واقعي ، لا سيما في المسألة السياسية ، كما أننا

نجد أن المسلمين قد التقوا جميعاً أمام التحديات التي توجه للإسلام ، وهذا ما برز حين وقف المسلمون صفاً واحداً وراء الإمام الخميني في فتواه التاريخية ضد سلمان رشدي الذي أساء إلى مقدسات الإسلام وإلى رسول الإسلام .

إننا نجد أن هناك إيجابيات كبيرة في الوحدة الإسلامية من الناحية العملية ، وهو لقاء المسلمين السنة والشيعة في أكثر من موقع ، وفي أكثر من تجمع ، واشتراكهم في أكثر من لقاء فكري ، وأيضاً تحرك المسلمين في المواقع الاجتماعية ، سواء سنة أو شيعة ، والتزواج الكثير بينهم ، ما يدل على وجود اعتراف ضمني من خلال ذلك في هذا المعنى . لذلك أنا أعتقد أن الوحدة الإسلامية قطعت شوطاً جيداً ، ولكن لا تزال هناك أشواط كبيرة لا بد أن تقطعها .

أنا منفتح على كل المواقع وأسعى للتكامل معها

□ سماحة السيّد : من خلال اهتمامكم بالساحة الإسلامية ، هل عندكم مشروع شامل واقعي وعملي حول الوحدة الإسلامية؟

● إنني عملت منذ أن بدأت حياتي الفكرية الإسلامية على أساس الانفتاح على الواقع الإسلامي الكبير ، حتى أنني عندما كنت أعالج المسائل المذهبية ، فإنني كنت أعالجها بطريقة إسلامية وحدوية ، لا بطريقة مذهبية متخلفة ، لأنني أجد أننا كمسلمين سنة أو شيعة ، إنما نغتنى بالإسلام عندما نحرك كل خصوصياتنا وفق قواعده الأساسية ، لذا فقد عملت على أساس الانفتاح على كل المواقع الإسلامية الثقافية والسياسية ، وأنا لا أحصر نفسي في موقع إسلامي واحد أتأطر فيه ، بل

أحاول أن أتحرّك في موقع اللقاء والمشورة والمشاركة والحركة مع المواقع الإسلامية كلّها . ومن جهتي ، فإنّي لا أملك مشروعاً إسلامياً مستقلاً واحداً حول مسألة الوحدة ، ولكنّني أحاول أن أتكامل مع المواقع الإسلامية ، وأعتقد بضرورة تكاملنا جميعاً على مستوى المذاهب الفقهية أو الكلامية أو على مستوى الحركات الإسلامية والجماهير الإسلامية . لا بدّ أن تكون لغتنا إسلامية وحدوية حتى لو تحدّثنا عن خصوصياتنا . أعتقد أنّ هذا هو المشروع الذي يمكن أن نملك فيه الدخول إلى عقول المسلمين وإلى قلوبهم ، وبالتالي إلى واقعهم المنفتح على مسائل الحياة وعلى قضايا الحرية والعدالة .

مناقشة هادئة لأفكار متنوعة

حول مسألة الوحدة [٢] (*)

أجواء المؤتمر:

□ سماحة السيد ، ماذا حققتم من أهداف من خلال مشاركتكم في مؤتمر الفكر الإسلامي الذي عقد في الجزائر؟

● من الطبيعي أن تتميز أي رحلة إلى بلد إسلامي ، بخصوصيات معينة تاريخية وحاضرة لا تتمحور حول هدف واحد أو وجهة واحدة ، فهناك هدف حضور الملتقى الإسلامي الثاني والعشرين ، الذي يتمحور حول وحدة الأمة ووسطيتها ، من خلال ما ذكر في القرآن الكريم : ﴿وإن هذه أمتكم أمة واحدة﴾ (الأنبياء : ٩٢) ، ﴿وكذلك جعلناكم أمة وسطاً﴾ (البقرة : ١٤٣) .

(*) التوحيد ، العدد ٤٠ - رمضان - شوال ١٤٠٩ هـ - أيلول - تشرين أول ١٩٩٥ م ، العدد ٦٣ .

العنوان الأصلي : قضية الوحدة الإسلامية .

وقد كان هذا الملتقى حافلاً بالمداخلات الفكرية التي تناولت هذين الموضوعين بطريقة متنوعة وبحيوية فكرية ، بحيث كانت المحاضرات تتابع بتعقيبات من مفكرين آخرين ، ومن ثمّ يفسح في المجال أمام المحاضر كي يدافع عن فكرته ، ما جعل كثيراً من الموضوعات تتبلور بشكل جيّد ، وتعطي فكرة واضحة عن طبيعة التيارات التي تحكم الواقع الفكري الإسلامي ، في مسألة مصطلح الأمة ، وفي مسألة القومية وعلاقتها بالأمة الإسلامية ، والموقف من الوطنية ، وما إلى ذلك من الأمور التي أخذت بُعداً مهماً في هذا الملتقى .

والملاحظ أنّ الملتقى أعطى فرصة لظهور الخطوط الموجودة في العالم لدى بعض العلماء المسلمين والمفكرين ، حول مسألة الوحدة الإسلامية ، وطبيعة التحفظات الموجودة لدى بعض الجهات الإسلامية التي تتحرّك في خطّ إثارة التعصب في الواقع الإسلامي ، وفي مقابلها تيارات إسلامية قوية جداً تعمل على مسألة تعميق الوحدة الإسلامية في العالم الإسلامي .

ولاحظنا أنّ أيّ دعوة تتحرّك لتثير حالة من التعصب ، كانت تقابل بنوع من الاحتجاج الصامت تارة ، وبالقوة تارة أخرى ، كما لاحظنا أنّ هذا الملتقى يختصر كلّ واقع الصراع في الدائرة الإسلامية الموجود في العالم الإسلامي ، ويعبر عن خلفيات متعددة في هذا المجال .

وقد واجه المؤتمران المسألة السياسية باهتمام كبير ؛ فعندما قدمت مداخلتني في الملتقى ، والتي تركّزت حول الدخول في الوحدة الإسلامية من الباب السياسي ،

لاحظت من قبل المشاركين اهتماماً كبيراً بما قلت ، حيث جاءت المداخلة لتحرك حالة السكون التي كانت تسود المؤتمر .

وفي الوقت نفسه ، كانت هناك فرصة للقاءات متنوعة مع بعض العاملين للإسلام في بعض مناطق العالم الإسلامي ، حيث جرت لقاءات عرضت لأسلوب العمل الإسلامي في هذا البلد أو ذاك ، وفي هذا الاتجاه أو ذاك ، بشكل عميق جداً . وكذلك جرت لقاءات مع طلاب جزائريين مسلمين ومع مفكرين من سائر العالم الإسلامي ، واستطعنا أن نفتح على وسائل الإعلام المرئية والمقروءة والمسموعة ، بشكل شعرنا فيه بأنّ لنا حرية الكلمة في كلّ ما كنّا نريد قوله .

وفي جانب آخر ، جرت لقاءات مع المسؤولين بمبادرة منهم ، تمحور الحديث خلالها حول القضايا الإسلامية العامة ، وفي مقدمها المسألة اللبنانية ، والمسألة الفلسطينية ، ومسألة حرب الخليج ، وبعض الأوضاع الإسلامية المعقدة في العالم الإسلامي ، وكانت اللقاءات مفيدة ، حيث تمّ التطرق خلالها إلى مجمل القضايا الإسلامية في العالم .

كشف الحقائق

□ ذكرت بعض وسائل الإعلام الجزائرية وحتى الأردنية ، يومها ، أن كلمتكم كانت الأفضل خلال المؤتمر ، لابل كانت مفاجأة الملتقى ، فما هو تعليقكم على ما ذكر؟

● لا أريد الدخول في تقويم الكلمة بهذا الشكل الصارخ ، ولكنني أستطيع

القول إنَّها الكلمة التي أخرجت المؤتمر من الجوّ الأكاديمي الروتيني والتقليدي ، ودفعت به إلى الساحة الحيّة المتحركة في حركة الواقع الإسلامي ، لأنَّها كانت قوية في نقدها للواقع الرسمي والواقع الشعبي في مواجهتهما للقضايا الإسلامية الكبيرة ، كما أنَّها عملت على تعرية كثير من العناوين السائدة في البلدان الإسلامية ، التي تتحدّث فيها الأجهزة الحاكمة ، ومن يدور في فلكها ، عن الوحدة الإسلامية بطريقة إعلامية ، وبما يتناسب مع وجهة نظر الدول المستكبرة التي تهدف إلى توظيف الحديث عن الوحدة بما يخدم مصالحها ، كما في اجتماعات المؤتمر الإسلامي ، بيد أنَّها - أي الأجهزة الحاكمة - تنتقل إلى التركيز على تأجيج الحديث عن التعصب والمذهبية ، كما حدث في مواجهة الإعلام الاستكباري لمسألة الحرب بين العراق وإيران ، حيث جرى تصنيفها في الدائرة المذهبية ، أو مسألة حرب المخيمات ، حيث أريد منها إثارة المسألة المذهبية . ولاحظت أنَّ هناك اهتماماً كبيراً من المؤتمرين والصحافة والطلاب الذين عبّروا لي بطريقة وبأخرى عن تقديرهم وحماسهم لهذا الطرح .

كيف نقارب موضوع الوحدة؟

□ علمنا بأنَّ مداخلتكم كانت حول موضوع «الوحدة الإسلامية» ، وقد تركزت على جانبين : الجانب الأول : الوحدة الفكرية ، أمّا الجانب الثاني ، فكان حول الوحدة السياسية . حبذا لو حدثتمونا عن الجانبين ؟

● الواقع أنَّني حاولت أن أثير في مداخلتني سؤالين :

السؤال الأول : هل هناك مشكلة منهجية في مسألة التقريب بين المذاهب الإسلامية؟ والسؤال الثاني : هل هناك مشكلة فكرية في مسألة الوحدة الإسلامية؟

وكان جوابي عن السؤال الأول ينطلق من أننا لانعدم وجود مناهج علمية على المستوى العام وعلى المستوى الإسلامي ، بحيث لاحتاج إلى أن نبحث القضية تماماً كما يبحث الإنسان أسلوباً جديداً في المنهج ، أو فكرة جديدة فيما هو الأسلوب ، لأنَّ الأسلوب الموضوعي في كلِّ الأبحاث العلمية ، سواء كانت دينية أو غير دينية ، لا ينضوي على علاقة بين الفكرة والذات ، وبين الرأي والشعور ، فمناهج الحوار والتقريب هي عبارة عن تقنيات متوفرة للحوارات الدينية ولغيرها ، ويمكن الاستفادة منها في هذا المجال .

لكن ما نختلف فيه إسلامياً ، ينطلق من مناقشة في فهم النص ، أو في توثيقه ، أو في القواعد التي تُستوحى منه ، أو في الأحكام العقلية ، في ما يتحدث فيه علماء الأصول ، التي تبحث في دور العقل في مسألة التشريع ، كما أنَّ هناك مسائل تاريخية من قبيل : ماذا حدث؟ وكيف حدثت بعض المشاكل والتعقيدات التاريخية في مسألة الخلافة وفي مسألة الإمامة؟ وبذلك يمكننا الاستفادة من الوسائل العلمية في قواعدها الفنية في تحريك الخلافات الإسلامية بطريقة موضوعية ، ننظر إلى النص وإلى القاعدة وننظر إلى التحليل التاريخي ، تماماً كما ننظر إلى أي نص آخر غير ديني وإلى أي قاعدة أخرى غير دينية ، مما يمكن الوصول فيه إلى نتائج جيّدة .

كما أننا يجب أن نقترّب من المناهج التي يحملها الآخرون والتي تختلف مع فكرنا بطريقة الإنسان الذي يشك في فكر الآخرين من دون أن يدفعهم إلى أن يعيشوا في جوّ نفسي يشعرون فيه بالإحباط أو بالإساءة إلى كرامتهم ، وهذا ما عبّرت عنه الآية الكريمة التي تحدّث عنها الله في قوله تعالى : ﴿وَأَنَا أَوْلَاكُمْ لَعَلِّي هُدَىٰ أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ (سبأ : ٢٤) . إذّا ، يمكن استخدام هذا الأسلوب في كلّ القضايا التي يختلف فيها المسلمون في ما يكفّر به بعضهم بعضاً وما يضلّل به بعضهم بعضاً ، بحيث يقول كلّ واحد للآخر : قد أكون على خطأ وقد أكون على صواب وقد يكون العكس صحيحاً .

وفي النقطة الثانية ، نلاحظ أنّ الإسلام طرح البحث عن مواطن اللقاء في القضايا المختلف حولها ، ليتحرّك المتحاضران أو المختلفان من مناطق اللقاء إلى مناطق الخلاف ، بعد أن يكونا عاشا الجوّ النفسي من ناحية الوفاق .

وقد قلت : ليس عندنا مشكلة منهجية ، لأنّ المنهج موجود ومتحرّك على المستوى العام ، وعلى المستوى الإسلامي - القرآن - الخاص ، فيمكننا أن نأخذ بهذا المنهج من دون حاجة إلى البحث عن آخر ، بحيث نخلق من البحث عن منهج مشكلة ، ولكن كنت أؤكد أنّ المسألة في قضية التقريب بين المذاهب هي مسألة نفسية ، لأنّ كثيراً من العلماء يعانون العقدة ضدّ بعضهم بعضاً ، ويعيشون التعصب في هذا المجال ، ويتحرّكون بعقلية التراشق من بعيد ، بحيث إنّه لا يفسحون في المجال لأنفسهم للقاء على صعيد واحد ومجتمع واحد ، ليواجه كلّ واحد الآخر بما عنده من المعطيات التي تؤيد موقفه المتفق أو المتعارض مع الموقف

الآخر ، بل تتم المسألة من بعيد .

ومن الطبيعي أنَّ التخاطب من بعيد قد يفقد أهل الحوار الكثير من العناصر الحيوية في الحوار ، فقد يتهم بعض المسلمين بعضاً بما وجدوه في كتب بعضهم ، ممّا قد لا يمثّل حالة إيجابية في هذا المجال ، بل ربّما كان لكلّ واحد منهم تفسير لبعض المعطيات غير التفسير الذي يراه الآخر ، ما لا يمكن أن يحلّ إلّا بالتخاطب المباشر . وقد اقترحت في هذه المسألة القيام باللقاءات العلمية المباشرة لمناقشة القضايا الحساسة التي تثير جدلاً ، كما في القضايا التي يتناولها علم الكلام في تفاصيل العقيدة ، ممّا قد يكرّره بعض المسلمين بعضاً ، مثل قصة ما يثار حول قول الشيعة بتحريف القرآن ، أو رأيهم في التقية ، أو رأيهم في الإمامة أو في شخصية الأئمة ، ممّا ألّف فيه آلاف الكتب التي لم تستطع منذ مئات السنين إضافة شيء جديد ، بل كانت تثير في مقابلها ردود فعل مماثلة ، في الوقت الذي يطلق بعض الجهات الاتهامات ولا يسمح لمجتمعه أن يقرأ الردّ على هذه الاتهامات .

وفي هذا المجال ، اقترحت أن يُصار إلى أن تضم رابطة العالم الإسلامي ، أو غيرها ، كلّ المذاهب الإسلامية ، ليجلسوا حول طاولة واحدة ليقولوا لهذا المذهب أو ذاك دافعوا عن إسلامكم ، ولكن يبدو أنَّ المسألة تنطلق من حالة سياسية موجهة ضدّ فريق من المسلمين ، ولا تنطلق من حالة علمية موضوعية مجردة .

أمّا بالنسبة إلى مسألة الوحدة الإسلامية ، وفي الجواب عن السؤال الثاني ، قلت إن مسألة الوحدة ليست مسألة فكرية ، لأنّنا عندما نريد التحدث عن الوحدة لا

نريد بذلك إلغاء المذاهب لتبتكر مذهباً جديداً ، أو لنجمع المسلمين حول مذهب جديد ، فهذا قد يكون هدفاً جيداً ولكنه ليس واقعياً . ولهذا ، فقضية الوحدة في العالم كله لا تعني إلغاء كل الخصوصيات ، بل تعني التوافق على القضايا الوفاقية الكبيرة المجمع عليها في هذا المجال .

ونحن عندما ندرس مسألة العقيدة الإسلامية ، نجد أن المسلمين يلتزمون الثوابت الإسلامية القطعية جميعاً ، ويختلفون في المسائل غير القطعية وهي القضايا الاجتهادية ، ويلتقون في الوقت نفسه في مسألة المذاهب الفقهية بنسبة ثمانين في المائة ، وليس هناك رأي في مذهب إلا ويتفق مع مذهب آخر في مسائل كثيرة ، بل ربّما نجد أن المذهب الشيعي يتفق مع مذهب سنيّ في ما لا يتفق هذا المذهب مع بعض المذاهب السنية الأخرى ، وربّما نرى أيضاً مذهباً سنياً يلتقي مع المذهب الشيعي في ما لا يتفق عليه مع مذاهب سنية أخرى .

وهكذا ، ليست المشكلة في مواقع التوافق ، المشكلة هي أن الكثيرين يطرحون مسألة الأطر الكبيرة ، ولكنهم لا يعرفون أن هذه الأطر مفتوحة على بعضها البعض ، ما يجعل مسألة الوحدة مسألة واقعية .

فالمسلمون لا يزالون يصلّون ، ويصومون ، ويحجّون معاً ، ولا يشعرون بوجود مشاكل كبيرة في هذا المجال . فالمسألة على صعيد الواقع مسألة طبيعية جداً ، ولهذا نقول إن الذين يقفون ضدّ الوحدة إنّما هم الذين يريدون توظيف المسألة المذهبية لخدمة المسألة السياسية ، نلاحظ أن الاستعمار يلجأ إلى إيجاد «حلف

إسلامي» أو «مؤتمر إسلامي» عندما يحتاج إلى أن يجمع المسلمين حول سياسته ، وقد يحتاج إلى إثارة مسألة التعصب عندما يخدم التعصب توجهاته ، ما جعل من مسألة الوحدة ، سلباً أو إيجاباً ، مشروعاً تحركه الأجهزة الاستعمارية .

وقلت إننا في طرح الوحدة لا بُدَّ أن ندرس المسألة ؛ فهل نطرح الوحدة الإسلامية على أساس أن يكون الإسلام هو المضمون الذي يعيش في قلب الوحدة كعقيدة ، وكنظام ، وكمنهج سياسي ، وكحركة سياسية؟ أو أننا نطرح الوحدة الإسلامية على أساس توحيد المسلمين بقطع النظر عن المضمون؟ والطرح الثاني ، هو كما يطرح في هذه الأيام ، يعني أننا لا نستطيع أن نصل إلى الوحدة ، لأنَّ الذين يتجمعون بالوحدة يختلفون في اتجاهاتهم السياسية ، وعندما يختلفون باتجاهاتهم ، لا بُدَّ أن ينظروا إلى الوحدة بشكل معقّد من خلال مصالحهم السياسية . فقد تجد دولة إفريقية أو دولة عربية تلتزم الوحدة العربية أو الوحدة الإفريقية ، فإذا تعارضت الوحدة هنا مع الوحدة هناك ، فقد يضربون الوحدة الإسلامية ولا يلتقون عليها ، لأنَّ الخصوصيات عند ذلك تأكل العموميات .

أمّا إذا طرحنا الوحدة من خلال المضمون الإسلامي ، إلى وحدة المسلمين الذين يلتزمون الإسلام ، ويريدون للإسلام أن يحكم العالم ، ويريدون للمسلمين ، بما هم مسلمون ، أن تتحقق وحدتهم وأن تتبلور ، عند ذلك يفكر المسلمون الوجدويون في إقليميَّاتهم وفي قوميَّاتهم من الموقع الخاص ، فتكون بذلك المصلحة القومية في خطِّ المصلحة الإسلامية .

وعلى هذا الأساس ، نرى أنَّ من الضروري للمسلمين أن ينطلقوا في الوحدة

من خلال القضايا الإسلامية المصيرية ، لأنها تمثل التحديات للجميع ، وتمثل الآلام التي يعاني منها الجميع . وقد طرحت أن يلتقي المسلمون حول القضية الإسلامية الأم ، وهي المسألة الفلسطينية ، ليقفوا ضد كل التحديات الصهيونية والاستعمارية في هذه المسألة . وكذلك علّقت على الواقع الإسلامي ، بأننا لم نرأي بلد إسلامي خرجت فيه تظاهرة خوفاً من الوضع الرسمي ، وركزت على أن الانتفاضة والمقاومة الإسلامية في الجنوب استطاعت أن تكتشفا حركة الوحدة الإسلامية في تلاقيهما وتناغمهما ومحاولة التكامل فيما بينهما . وبناءً على هذا ، وجهت نداءً إلى كل العاملين للإسلام ، أن يواجهوا الكفر والاستكبار مواجهة حقيقية واقعية من خلال القضايا المصيرية التي سوف تقودنا للقاء حول الموضوعات الفكرية ، ليكون الباب السياسي هو المدخل للوحدة الإسلامية التي ستلتقي ، إن عاجلاً أو آجلاً ، بالوحدة الفكرية والوحدة العملية .

عقبات سياسية

□ ولكن ، ألا تعتقدون أن الجانب السياسي لم يغط بالشكل المطلوب ؟

● إن مشكلة الجانب السياسي ذات شقين : المشكلة الأولى ، تتمثل بضياح الطرح الإسلامي الحقيقي الذي يعطي لأي عنوان من العناوين بُعداً إسلامياً فيما هي حركة الإسلام في حكومات البلاد الإسلامية ، أو على مستوى التيارات الموجودة في البلاد الإسلامية التي قد تأخذ عنواناً إسلامياً أو عنواناً غير إسلامي . إننا نرى أن هذه القوى لا تنطلق من مضمون إسلامي ، كما ينطلق الماركسي من

مضمون ماركسي أو القومي من مضمون قومي ، وإنما تجعل الإسلام عنواناً صالحاً ، لأنه - بنظرها - يختزل كلّ العناوين ، أو يُشكل عنواناً صالحاً لأن يستغل في مشروع غير إسلامي . وهذا هو الذي أدّى في كثير من المواقع إلى أن يفقد الطرح السياسي للوحدة الإسلامية مضمونه العميق ، لأنّ الذين يتحرّكون في الدائرة الإسلامية ، وحتى الذين قد يمثلون مناصب دينية رسمية أو غير رسمية في الساحة الإسلامية ، يتحرّكون بعيداً عن الإسلام في خطّه وحيويته ، ما أبعد الجانب السياسي عن أن يأخذ المعنى الإسلامي في حركته .

أمّا المشكلة الثانية ، فتتمثّل بالتحديات السياسية الاستكبارية التي تواجه بقوة وشدة المشروع السياسي الإسلامي ، الذي يريد أن يعطي الإسلام حركة ذات بعد سياسي شامل . . . إنّ هذا المشروع يقف أمام مجتمعات التخلف والجهل أو المجتمعات الانتهازية ، وأمام الذين يملكون المواقع في الساحة الإسلامية ، سيما وأنّ مجموعات كبيرة من الشعب تختزن الفكرة التي تقول بأنّ على الإنسان المسلم الملتزم الروحاني الابتعاد عن السياسة ، وتنطلق في هذا الاتجاه بعض الكلمات عندما يُراد تقييم حركة عالم ما ، كأن يُقال إنّ هذا العالم هو إنسان يعيش مع الله ، فسواء خربت الدنيا أو عمرت لا يهتم بها ، بل هو يعيش من محرابه إلى بيته ، ومن مدرسته إلى بيته ، بحيث بات ذلك يمثّل مستوى القمة ، وهو أمر نشأ ، كما نعرف ، من عناصر التخلف ومن حركة الاستعمار في توظيف عناصر التخلف لخدمته .

هذان العنصران شكلاً مانعاً عطل كثيراً من فرص التحرك سياسياً نحو الوحدة .

مشاعر إيجابية تجاه الوحدة

□ من خلال كلمتكم في المؤتمر ، كيف وجدتم انفتاح المؤتمرين على مسألة الوحدة الإسلامية؟

● الحقيقة ، إنَّ هناك شعوراً عاماً بضرورة الوحدة الإسلامية ، ولكن كثيراً من الناس في العالم ، وحسب ما لاحظنا ، يخافون من التمرّد على ظروفهم وعلى الحدود التي وضعتهم فيها أوضاعهم أو ظروفهم السياسية أو الفكرية ، ولكننا نعتقد أنَّ هناك شعوراً إسلامياً عاماً بضرورة الوحدة ، ويمكن أن يحقق الكثير في المستقبل . فالحالة الشعورية عندما تبلور في منطقة الإحساس ، يمكن أن تكون حافزاً نحو الحالة السياسية أو الفكرية .

غياب الإبداع

□ كيف تقومون المستوى الفكري للمؤتمر؟ وما هي أبرز البحوث التي قدمت ولمن كانت؟

● في الواقع لم يستطع المؤتمر أن يأتي بجديد ، بل كان ، ككثير من المؤتمرات الإسلامية ، تكراراً لكل الكلمات التي قيلت في الأبحاث ، دون أيّ إبداع ، ولا شيء جديد في هذا المجال . كانت هناك بعض المداخلات التي أثارت نوعاً من المحاورات ، مثل مداخلة الدكتور محمد عماره ، الذي أثار علاقة المسألة القومية والوطنية بالمسألة الإسلامية ، وقد أخذت المحاضرة بُعداً كبيراً في المناقشات

والاعتراضات ، بحيث دلت على طبيعة التيارات التي تحكم الواقع الإسلامي ،
وهناك أبحاث لم تكن في مستوى الإثارة في هذا المجال .

لا فصل بين الدين والسياسة

□ أين كان موقع الجمهورية الإسلامية في هذا المؤتمر؟

● كان هناك وفد للجمهورية الإسلامية تحدّث عن تطلعات الجمهورية في
مسألة الوحدة . وقد حاول بعض المؤتمرين الذين ينتمون إلى بعض الخطوط العربية
التي تواجه الجمهورية الإسلامية ، أن يمَسّوا ببعض المواقع السياسية ، أو يتحدّثوا
عن الحرب (العراقية - الإيرانية) بطريقة معينة ، وربما حاول بعضهم أن يجد في
الحرب التي حدثت بين العراق وإيران دليلاً أنّ على الإسلاميين أن لا يتحرّكوا
سياسياً ، لأنّ السياسة ربّما تؤدي إلى أشياء معينة . لكنني رددت على هذا الطرح
بالقول إنّنا إذا أردنا أن نأخذ بمنطقكم الذي يدعو إلى تصفية القلوب روحانياً ،
وتعليم المسلمين ، وخلق الشخصية الإسلامية ، فمعنى ذلك أن نعطي الساحة
الإسلامية للسياسيين الذين لا ينتمون إلى الإسلام ، وقد نفاجاً بأنّ لا مكان لنا بعد
ذلك ، فيحاصروننا حتى في الفكر ، لهذا ندعو إلى سياسة إسلامية ، ولكن على
طريقة سياسة النبيّ والخلفاء الراشدين والأئمة ، بالمستوى الذي تتداخل فيه المسألة
الروحية والثقافية مع المسألة السياسية ، بحيث ننطلق كما انطلق النبيّ ، فهو لم
يفرّق في دعوته بين الجوانب الثقافية والسياسية والعسكرية ، بل كانت كلها
متداخلة فيما بينها . ولهذا ، فإذا كنّا نريد أن نأخذ بمنطقكم الذي يتحفظ على قيام

الثورة في إيران ودخول الجمهورية الإسلامية في الحرب التي فرضت عليها ، فإنه من الممكن أن نقول : لماذا يتحرك الفلسطينيون نحو فلسطين لاستعادتها ، فليتركوها لـ «إسرائيل» حتى لا تزهق النفوس مثلاً ، ولماذا يتحرك المسلمون في أفغانستان للثورة على الاتحاد السوفياتي ؟ ! إنَّ هذا المنطق يعطل كل مبادرة من أجل الحرية والكرامة والإسلام .

وقلت أيضاً ، إنَّني لا أريد الدفاع عن الثورة الإسلامية في هذا الموقف ، لكن أقول : عليكم أن تفهموها وأن تسمعوا منها كما تسمعون من غيرها ، لتحكموا من موقع الموضوعية والعدالة .

«إعلان الجزائر»

□ ما هي المقررات التي خلص إليها المؤتمر ؟

● هناك مقررات كثيرة في ما تعارفت عليه المؤتمرات من توصيات تملأ صفحات عدّة ، ولكن الشيء الأبرز كان ما سمي «إعلان الجزائر» ، الذي التقينا فيه مع صفوة من المفكرين والمذاهب الإسلامية ، في إعلان أن المسلمين أمّة واحدة تؤمن بالثوابت الإسلامية القاطعة ، وتعتبر أن الخلاف الاجتهادي ، سواء كان كلامياً أو فقهيّاً ، لا يجوز أن يكون مثار فرقة أو تكفير أو اتهام بالشرك ، أو ما إلى ذلك ، وأنَّ على المسلمين أن يعيدوا رسالة التقريب بين المذاهب الإسلامية التي كانت موجودة في الستينات في مصر والتي أدّت دوراً كبيراً ، ولا بدّ من عقد مؤتمرات تطرح فيها القضايا الإسلامية التفصيلية ، وأنَّ على المسلمين أن يلتقوا في

القضايا الكبيرة ، حتى يستطيعوا أن يؤكدوا هذه الوحدة وأن يغنوا العالم بتجربتهم الكبيرة .

والشيء الذي أريد تأكيده ، هو أنني رأيت في الجزائر روحاً إسلامية عميقة تحتاج إلى كثير من التوجيه والترشيد والبلورة ، ولا يزال تأثير الثورة الجزائرية ، التي انطلقت من شعارات إسلامية ومن عمق إسلامي ، جيداً في هذا الاتجاه ، ولكنه يحتاج إلى جهد كبير ليأخذ موقعه الطبيعي في الجوّ الإسلامي العام .

خطوات نحو الوحدة

□ الوحدة الإسلامية ليست بمسألة جديدة تطرح على الساحة ، وكذلك ممارسة نشاط عقد المؤتمرات ، وفي ظل الواقع السياسي الذي يعيش فيه المسلمون كافة ، ما هي برأيكم الخطوات الواجب اتخاذها نحو إيجاد الوحدة الإسلامية نهجاً وتطبيقاً؟

● إننا لا نستطيع تبسيط المسألة بهذا الشكل ، لأنّ القضية متصلة بكلّ واقع العالم الإسلامي الفكري والسياسي والاجتماعي والعسكري . لذا ، نحن نعتقد أنّ الحركيين هم الذين يفهمون الوحدة الإسلامية ويفهمون قيمتها . ونتصور أنّ هذه اللقاءات المستمرة بين مختلف مواقع العالم الإسلامي الفكرية والحركية ، يمكن أن تكون مدخلاً إلى إيجاد حالة من التعارف تهئ للقاءات موضوعية تبحث فيها المشاكل التي تعترض مسألة الوحدة . وكما قلنا ، إنّ مسألة الوحدة ليست مسألة فكرية فحسب ، ولكنها مسألة سياسية في أغلب وجوها السلبية والإيجابية ، ونحن نعرف أنّ المسألة السياسية حساسة ومعقدة لأنها معرضة للاصطدام

بخطوات سياسية متخلّفة في العالم الإسلامي ، كما أنّها تمثّل حالة بدائية تتغير فيها الوقائع والأوضاع والأشياء ، ولهذا من الصعب إيجاد مناخ وحدوي من خلال طبيعة الأشخاص الذين يؤمنون بالوحدة دون توسيع مدى هذا المناخ ، حتى يتحرّك من أجل ملاحقة كلّ المتغيّرات وكلّ التفصيلات في الواقع الإسلامي ، لكن الأمل بالوحدة يبقى حلمًا يجب أن نسعى إلى تحقيقه ما أمكن .

التوحيد تلتقي المشاركون في مؤتمر الوحدة الإسلامية [٣]

خلال لقاء تمّ بين أعضاء هيئة تحرير مجلة رسالة الثقلين ورسامة العلامة السيد محمد حسين فضل الله، جرى الحوار التالي مع سماعته:

□ تتجه الرغبة العامة للمسلمين اليوم نحو التقريب بين المذاهب الإسلامية، فما هو برأيكم أساس ذلك ومنهجه؟

● السيد فضل الله: في تصوّري أن فكرة التقريب بين المذاهب الإسلامية انطلقت من مرحلة ثقافية معينة كان فيها الكثير من المسلمين لا يعرفون عن الشيعة شيئاً، وكذلك كان المثقفون ومنهم العلماء وغيرهم، يتحدثون عن الشيعة بطريقة سلبية، استناداً إلى بعض المصادر الثقافية الغير حيادية من الفكر الشيعي، لذلك كانت حركة التقريب بين المذاهب الإسلامية حركة من أجل فتح الذهنية الشيعية على الفكر السنّي، وفتح الذهنية السنّية على الفكر الشيعي، بغية إشعار

الطرفين بأنهما يختلفان في تفسير الإسلام ، ولكنهما لا يختلفان على الإسلام .

في عقيدتي ، إننا تجاوزنا هذه المرحلة من الناحية الثقافية ، لأن الكتب الشيعية التي تعالج قضايا التشيع قد انتشرت في العالم بغثها وسمينها ، حتى أننا لا نقرأ كتاباً فكرياً إسلامياً أو كتاباً فقهاً إلا ونجد الرأي الشيعي إلى جانب الآراء السنية ، واستطاعت التطورات الأخيرة في داخل المجتمع الشيعي - ولا سيما الثورة الإسلامية في إيران - أن تفتح الآفاق على التشيع في العالم ، إلى أن بدأت الدراسات في الجامعات العالمية تتناول الفكر الشيعي بمختلف الأساليب والوسائل العلمية .

لذلك ، فإن المسألة لم تعد مشكلة في الوسط الثقافي ، بقدر ما نواجه الآن مشكلة أخرى ، وهي دخول المسألة المذهبية في الدائرة الشيعية ، فلم تعد المسألة مسألة أن هناك فكراً شيعياً لا يعرفه الناس ، بل أصبحت المسألة هي أن يقدم الفكر الشيعي للناس بالطريقة التي تشوّه هذا الفكر ، وذلك باختيار الأحاديث أو التفسيرات أو الآراء القلقة ، التي يتحفظ الشيعة على الكثير منها ، أو أنّها لا تمثل رأي الشيعة بالكامل ، وإنّما تمثل رأي البعض منهم ممّن يمكن للإنسان أن يشير التحفظات حول ثقافتهم أو حول خلفياتهم ، تماماً كما هي المسألة عند السنة الذين تحفل كتبهم بالغث والسمين كما هي الكتب الشيعية .

فاللعبة السياسية تدفع باتجاه محاربة الشيعة الذين تحولوا إلى حالة ثورية إسلامية رافضة للاستكبار العالمي والاستكبار الإقليمي والمحلي ، بحيث شوّهت

الصورة الشيعية لدى المسلمين الآخرين ولدى غير المسلمين بطريقة وبأخرى .

ومن هنا ، فإنّ المسألة لم تعد مسألة التقريب بين المذاهب الإسلامية في الحالة الثقافية ، بل أصبحت محاولة عرض الفكر الشيعي بالطريقة التي تظهر صفاء هذا الفكر ونقاءه ، وذلك باقتلاع الأشواك من الساحة التي يحاول الكثيرون من خلالها أن يشيروا إلى تلك الأشواك الموجودة .

وهذا هو الذي يجعلنا نتصور أنّ على «المجمع العالمي لأهل البيت (عليهم السلام)» أن يعمد إلى رصّ الفكر الشيعي في ذاته من خلال المصادر الأصلية الموثوقة ، مع دراسة فكرية للمضمون بالإضافة إلى السند . وإنّ المشكلة التي نواجهها هي أنّ كثيراً مما يطرح من أفكار - التي يلتزمها بعض الشيعة - ينطلق من مصادر «حديثية» ليست بمستوى الوثيقة ، أو ليست بهذه الدلالات الواضحة . كما أنّ هناك تفاسير للقرآن أو الأحاديث عن القرآن قد لا تكون هي الحقيقة التي ينطلق بها أهل البيت (عليهم السلام) ، لأنها تخلق قلقاً وفوضى في الأحاديث من ناحية الوثيقة . كما أنّ علينا في الوقت نفسه أن نواجه طبيعة ردود الفعل التي انطلقت من خلال هذه المصادر والخطط التي يحرّكها أو يخطط لها الآخرون ، في سبيل إثارة السلبات الفكرية أو السياسية أو الشعورية ضد حركة التشيع . وهذا هو الذي يقتضينا أن نطلق في عملية تتحرك لدراسة التشيع من جديد فكراً وأسلوباً ومنهجاً ، لا على أساس أنه إذا هاجمنا الآخرون فعلينا أن نتنازل عما نعتقده حقيقة إذا ثبت لنا أنه حقيقة ، ولكن لكي نطلق في البحث عن الحقيقة من مصادرها الأصلية ، ثمّ نبدأ حملة للتوعية الثقافية في المجال الإعلامي ، بحيث

نستطيع أن نوصل الفكر الإسلامي الشيعي إلى كل المجالات في العالم ، حتى يعرف الناس أن التشيع يمثل عمق الإسلام ، بدلاً مما يراد إثارتة من أنه يمثل انحرافاً عنه .

□ ما هو تصوّركم حول الأبعاد التي يجب أن يضطلع بها أتباع أهل البيت (عليهم السلام) ليقوموا بدورهم القيادي في الوسط الإسلامي وفي الوسط العالمي؟

● السيد فضل الله : إننا نعتقد أنّ المهمة الأولى لأتباع أهل البيت (عليهم السلام) هي أن يتكاملوا مع كل المواقع الإسلامية ، وحيث يعملون ، على أساس أن يقدموا أنفسهم للعالم الإسلامي على أنهم جزء مهمّ من الأمة الإسلامية ، وأنّ اهتماماتهم بالمسلمين في كل قضاياهم هي جزء أساس من اهتماماتهم بالحقيقة ، وأنهم عندما يثيرون اهتماماتهم في دائرتهم الخاصة ، فإنّما يثيرونها من موقع أنها تنفتح على الدائرة الإسلامية العامة ، فليس هناك قضية شيعية خاصة ، بل هناك قضية إسلامية تتنوّع فيها وجهات النظر وتتعدّد فيها الدوائر ، ولكن كل دائرة لا بدّ أن تنفتح على الدائرة الأخرى بدل أن تكون دائرة مغلقة تستغرق في عناصرها الذاتية ، لأنّ هناك عملاً شيطانياً استكبارياً خبيثاً تقوم به بعض الدوائر الرسمية في البلدان الإسلامية بمختلف الوسائل ، يفيد بأنّ الشيعة خارجون من الإسلام ، لأنّ قرآنهم لا يتوافق مع قرآن الإسلام ، ولأنّهم يؤلّهون بعض أئمتهم ، ولأنّهم ينطلقون في حياتهم على أساس أنهم لا يمتلكون حقيقة ، لأنّ التقية تعني أنّ الكذب يجوز لهم في كلّ حالة ، وأنّهم باطنيّون ، وأنّهم يقولون بتحريف كتاب

الله ، وأنّهم يغالون بالأئمة (عليهم السلام) ، إلى غير ذلك .

لذلك ، فإننا نجد أن هذه الحملة الإعلامية الوحشية الشرسة استطاعت أن تترك تأثيراتها النفسية والفكرية والعملية على أكثر من موقع إسلامي ، بحيث إنّ البعض الذين لا يجاهرون بذلك ، قد يتخذون المجاملة وسيلة لبناء العلاقة ، تماماً كما يتّهمون الشيعة بالتقية في ذلك .

إنّهم قد يتّقون من الشيعة في كلامهم بالقوّة نفسها التي يتّهمون بها الشيعة بالتقية منهم . إنّنا نتصور أنّ علينا أن لا ننطلق في العالم الإسلامي على أساس أننا شرائع مستقلة عن الصراع الفكري ، ولكننا عندما نواجه بعض المشاكل التي قد يثيرها بعض الناس من الأجهزة المرتبطة بأجهزة الاستكبار العالمي ، علينا أن نقوم بذلك مجتمعين بعيداً عن كل الحساسيات والهوامشيات ، وأن نطرح العناوين الإسلامية الكبرى أمام التحدّيات الفكرية التي تواجه الإسلام في عقيدته وشريعته ومناهجه ووسائله وأهدافه ، وأن نتابع التحدّيات الاستكبارية التي تلقى بثقلها على العالم الإسلامي كله .

علينا أن نقول للمسلمين : أيها المسلمون ، إنّنا نحمل همّ القضايا الإسلامية الكبرى ، ونحن نتحرك حتى في القضايا الشيعية من خلال تكاملها مع قضايا المسلمين جميعاً ، وأنّصوّر أن الثورة الإسلامية في إيران وأكثر الحركات الإسلامية الشيعية - إذا أردنا أن نتكلم عن المذهبية في الحركات الإسلامية - قد استطاعت أن تؤكد ذلك عندما حملت القضية الفلسطينية على أكتافها ، وعندما واجهت

الاستكبار العالمي بالقضية الفلسطينية ، وعندما بقيت تعمل في خط الجهاد العسكري في مواجهة إسرائيل ، وهكذا بالتزامها بالقضية الأفغانية ، وبقضية البوسنة والهرسك ، وبالقضايا الأخرى الجديدة القديمة التي تتوزع في كل مكان من العالم .

‘ إن الشيعة لم يطرحوا قضاياهم الخاصة ، حتى أنهم عندما طرحوا قضاياهم الخاصة ، كقضية المرجعية الدينية التي اضطهدت في العراق ، أو قضية الشعب العراقي ، فإنهم لم يطرحوا هذه القضية على أساس شيعة العراق أو مراجع الشيعة في العراق ، وإنما طرحوا القضية بالعنوان الإسلامي الكبير .

إنني أتصور أن على الشيعة أن لا يتعقدوا من كل هذه الحملة الظالمة التي تُشنّ عليهم من قبل أجهزة الاستكبار العالمي ، التي تتفرّع عنها أجهزة الاستكبار الإقليمي والمحلي ، وأنّ عليهم أن يكونوا واعين للعبة الاستكبارية التي تريد أن تستثير الشيعة في مقابل السنّة والسنة في مقابل الشيعة ، مع عملية فعل وردّ فعل ، ولتنطلق القضية سبباً بسباب ، وتكفيراً بتكفير ، واتهاماً باتهام ، وعند ذلك ينطلق الاستكبار العالمي وعملاؤه في المنطقة الإسلامية ، ليتفرّجوا على هذا الصراع الدموي بين السنّة والشيعة ، الذي يعطي للاستكبار حرّيته ويعطي للكفر حرّيته في تحطيم الإسلام .

إنني أتصور أن على أتباع أهل البيت (عليهم السلام) ، الذين حضنوا الإسلام بكل فكرهم وبكل جهادهم ، وأعطوا كل حياتهم لأجله ، أن يكونوا على مستوى

المسؤولية . وهذا ما عبّر عنه إمامهم أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (عليه السلام) عندما قال : «فخشيت إن أنا لم أنصر الإسلام وأهله ، أن أرى فيه ثلماً أو هدماً ، تكون المصيبة به عليّ أعظم من فوت ولايتكم التي إنما هي متاع أيام قلائل ، يزول منها ما كان ، كما يزول السراب ، أو كما يتقشع السحاب ، فنهضت في تلك الأحداث حتى زاح الباطل وزهق ، واطمأن الدين وتنهت»^(١) ، أو قوله في كلمة أخرى : «والله لأسلمن ما سلمت أمور المسلمين ولم يكن فيها جورٌ إلا عليّ خاصة»^(٢) .

إن عليهم أن يسألوا ما سلمت أمور المسلمين ، وعليهم أن ينصروا الإسلام وأهله في جميع مواقفه ، لأنّ القضية قضية الإسلام ، فإذا انتصر الإسلام في العالم ، فإنّ الشيعة المسلمين بإسلامهم سوف يواجهون الموقف من موقع إسلامي متقدّم ، لتجعلهم تجربتهم وحركتهم هم الطليعة ، لأنّ قضية أن تكون أنت القيادة أو تكون أنت الطليعة ، ليست في أن يقبل بك إنسان أن تكون هنا أو تكون هناك ، ولكن أن تؤكد أنت دورك في هذا المستوى ، إنّ دورك يحدّد لك موقعك ، وبالتالي يحدّد لك طبيعة وجودك .

□ لا شك أن هناك موانع في داخل الدائرة الشيعية وموانع في الوسط الإسلامي

(١) نهج البلاغة والمعجم المفهرس لألفاظه ، الكتاب : ٦٢ ، ص : ٣٤٠ .

(٢) م . ن ، الخطبة : ٧٤ ، ص : ٦١ .

العام ، وهناك موانع أوسع من خلال الاستكبار بمنهج العام ، في طريق تحقيق قيادة أتباع أهل البيت (عليهم السلام) في العالم . ما هو تقييكم لهذه الموانع؟ وما هو المنهج العام لتجاوزها؟

● السيد فضل الله : لقد أشرت في حديثي إلى أنّ هناك عملية عزل للشيعّة عن بقية المسلمين يقوم بها بعض الشيعة كردّ فعل على الواقع الإسلامي ، ليقولوا : إنّ علينا أن نعمل لنصرة قضايانا حتى لو أدّى ذلك إلى خراب الإسلام والمسلمين ، لأننا نحن نمثل الإسلام الحقيقي ، تماماً كما يقول بعض السنّة : لنعمل لأجل نصرة قضايانا الخاصة حتى لو خربنا الواقع الإسلامي ، لأننا نمثل الإسلام الحقيقي ، وذلك هو التعصّب الذي يغلق باب الحوار ويسدّ باب الانفتاح على الآخرين . كما أنّ هناك محاولة لعزل الشيعة عن المسلمين من قبل الاستكبار العالمي ، لأنه يرى أنّ الشيعة تختزن في داخلها حركة الرفض للظلم وللإستكبار وللکفر من موقع متقدّم ، على أساس التجربة التاريخية التي تمثّلها ثورة الإمام الحسين (عليه السلام) ، باعتبار أنّ عاشوراء تمثّل الحزّان الثوري الذي يثير المسلمين الشيعة أمام السنّة بهدف استدراجهم للابتعاد عن الثورة .

إنّ الإستكبار العالمي رأى في الشيعة طاقة فكرية يمكن أن تؤدي إلى مواجهة جذرية مع الكفر ، وطاقة جهادية يمكن أن تثبت الساحة في مواجهة الإستكبار ، ولذلك فإنّه عمل بواسطة أجهزته الموجودة في العالم الإسلامي على عزل الشيعة عن المسلمين السنّة ، وإبعاد المسلمين السنّة عن الشيعة شعورياً وفكرياً وحركياً . ولكنني أتخيّل أنّ الانفتاح الشيعي على القضايا الإسلامية في العالم ، والانطلاقة

الشيعة الحركية في مسألة عودة الإسلام إلى الحكم ليكون قاعدة للفكر والعاطفة والحياة ، ومن أجل مواجهة الاستكبار العالمي هنا وهناك ، كل ذلك عطل الكثير من خطوات الاستكبار العالمي ، ونحن نجد أنّ هناك ما يشبه الوحدة الحركية بين الحركيين من المسلمين الشيعة والسنة ، بحيث إنّ التحديات استطاعت أن تردم الهوية التي أريد أن تصنع بينهما . كما أنّ هناك انفتاحاً بين المجاهدين من المسلمين الشيعة في لبنان والمجاهدين السنة في فلسطين ، بحيث أصبح الترابط بينهما يشبه الترابط العضوي ، وهكذا نجد انفتاح الجمهورية الإسلامية في إيران على الحركات الجهادية الإسلامية في العالم وعلى الحركات الإسلامية عموماً ، ما جعل المسلمين ينفتحون على حقيقة أساسية ، وهي أنّ المسلمين الشيعة يمثلون عمق المسلمين الذي يبذلون حياتهم وطاقاتهم في كل مكان للإسلام فيه قضية ، وفي كل مكان للإسلام فيه معركة ، وفي كل أفق ينطلق به الإسلام من أجل أن تكون كلمة الله هي العليا وكلمة الشيطان هي السفلى . إنّنا نواجه التحديّ بأن نظلّ في الساحة وأن نتابع الساحة ، وأن نعي كلّ متغيّرات الساحة ، حتى نخلق لكل مرحلة شروطها وقضاياها بالمستوى الذي يمكن أن يحقق الوحدة الإسلامية والنصر الكبير إن شاء الله تعالى .

الوحدة الإسلامية بين الواقع والمثال (*)

الحمد لله ، وسلام على عباده الذين اصطفى وعلى أولي العلم القائمين بالقسط من الناس .

أودّ أن أثير الحديث حول البحث الذي قدّمه العلامة السيد محمد حسين فضل الله في العدد (٣٩) من مجلة الثقافة الإسلامية التي تصدرها المستشارية الثقافية للجمهورية الإسلامية الإيرانية في دمشق ، وهو بعنوان (الوحدة الإسلامية بين الواقع والمثال) .

الأفكار المبدعة

حين بدأت قراءة هذا البحث ، شعرت بأهمية موضوعه ، وأهمية الأسلوب

(*) هذا النص عبارة عن قراءة في مقالة سماحة آية الله العظمى السيد محمد حسين فضل الله «الوحدة الإسلامية بين الواقع والمثال» والتي ادرجت في هذا الكتاب تحت عنوان «طرق التفكير في مشروع الوحدة» وهي للكاتبة جودت السعيد . راجع ص: ١١٣-١٤٢ .

الذي يبحث به ، والأفكار التي يطرحها ، وشعرت أنه مليء بالأفكار المهمة العميقة ، وأن كل فقرة منه تحمل أفكاراً مكثفة جديدة وعميقة ، وأنها بحاجة إلى تأمل وتأن وإطالة تفكير وبحث وتداول .

إنها أفكار مترابطة مبدعة قلّ أن تجد لها نظيراً في ما يطرح من أفكار ، حسب اطلاعنا ، أياً كان حجم هذا الاطلاع صغيراً أو كبيراً .

لقد أكبرت هذا المقال كثيراً ، ليس بسبب الأفكار فقط ، ولكن لأنّ الذي يطرحها إنسان في مكانة العلامة السيد محمد حسين فضل الله ومركزه كمفكر إسلامي في العالم المعاصر . هذا البحث نموذج جديد ، في أسلوب البحث ، وإبراز الأدلة ، واختيار المواضيع . لقد قرأته ، ثم قرأته ، وأشعر أنني مصاب بهوس إعادة قراءة ما أرى أنه مهم وجديد ، إن اطلاعي المحدود جعل عندي معرفة ، إلى حدّ ما ، بعالم الأفكار المطروحة في العالم الإسلامي ، لهذا فإذا رأيت شيئاً جديداً فإنني أحسّ به .

إن التصور الذي يطرحه السيد فضل الله في هذا البحث خارج عن المعتاد من التصورات المعروضة في العالم الإسلامي ، ومثل هذا البحث لا يمكن أن يعرضه إنسان يقتصر بحثه وإطلاعه على ما يطرح في العالم الإسلامي ، ولا بد أن يكون قد تجاوز ما هو معروف وتقليدي إلى ما هو عميق وعالمي ، وأقلّ ما يُقال فيه إنه شيء خارج التداول وخارج المتعارف عليه .

وإذا كنا نتمنّي أن يقلب بصره في سماء الفكر الإسلامي ليجد تصوراً جديداً لحلّ

المشاكل الإسلامية ، فينبغي علينا أن نشيد ونرفع ونقدر هذا البحث ، وهذا العرض ، وهذا التصور الإبداعي ، وهذا التفهم للمشكلة الإسلامية في أعماقها ، وينبغي ألا يمرّ مثل هذا الفكر في صمت وسكون ، من غير أن يثير إعجابنا ومن غير أن نقول إننا نرى شيئاً جديداً ، ومن غير أن يعرض كل منا على الآخر ما شعر به تجاهه ، إن كان ممن يهتم هذا الأمر .

كثيراً ما يشترطون في نشر المقالات ألا تكون قد نشرت من قبل ، ولكن أرى أن الشيء الجديد لا ينبغي أن ينطبق عليه هذا الشرط ، بل ينبغي أن يعاد نشره مراراً ، وهؤلاء الذين يشترطون هذا الشرط في نشر المقالات ، ينشرون مقالات لا تخرج عن المعاد المكرّر إلى درجة القرف أحياناً ، ويشعرون مع ذلك أنهم ينشرون شيئاً جديداً لم ينشر من قبل . إنني أنصح ، إن كان لي الحق في أن أنصح ، بإعادة قراءة هذا البحث لمن قرأه ، وإخبار من لم يقرأه أن يقرأه ويعيد قراءته ، بل وأن يتباحث مع الآخرين في مواضيعه وجذوره في الماضي ، ودوره في الحاضر ، وما يمكن أن ينتج عنه في المستقبل .

وإذا كنت تظن أن هذا البحث مثل سائر الأبحاث والمقالات التي نقرأها في المجالات ، فدعني أقل لك : إنك لا تميز بين الجديد المبتكر وبين القديم المبتذل .

كان ابن المقفع يقول عن الإبداع في البيان : «لأن تقطع أرنبة أنفك بالمقصّ أهون من أن تأتي بمثل هذا الكلام» . وأنا أقول : إن تحصيل أفكار هذا البحث يحتاج إلى صبر ، وجهد ، ومعاناة ، ويقظة ، وسهر ، ودأب ، لأن هذه الأفكار ، لا تأتي

للقانعين بما عندهم ، وإنما تأتي للذين يَعُسُّون العالم ويكشفون قوانين التقدم والتخلف فيه ، ثم بعد ذلك يرجعون إلى أمّتهم وحضارتهم ، ليضعوا سعيها وجهودها في ميزان القوانين الإنسانية التي يخضع لها البشر جميعاً .

ومثل هذه الأفكار لا تأتي على أساس العبقريّة ، والذكاء ، والتقوى ، والاصطفاء ، والمواهب اللدنية ، وإن وجد شيء من هذا ، فإنما يكون الاصطفاء للذين يتعبون ، ويدرسون ، ويطلعون على ما لم يطلع عليه الآخرون . إن هذه الأنوار ليست قذائف ربانية في قلوب الخاملين أو الذين يحمون أنفسهم بعدم الاطلاع على ما حدث ويحدث في العالم أو يستخفّون بما حدث ويحدث .

بين المواعظ وخطاب الواقع

هذا البحث المكثّف الذي يبلغ ثماني عشرة صفحة في المجلة ، لم يستشهد فيه العلامة فضل الله بآية واحدة ولا حديث واحد ، ولم يذكر اسم شخص من الأشخاص المحدثين أو الأقدمين ، فماذا يعني هذا؟ هل يعني هذا أن العلامة السيد قد ضرب بالكتاب والسنة والسلف الصالح والأئمة المعصومين عرض الحائط؟ أنا لا أقول هذا مطلقاً .

أما أنه لم يذكر قرآناً ولا حديثاً ولا شيئاً من مآثورات السلف الصالح أو الطالح ، فهذا هو واقع الحال في البحث ، ولا أتجنّى على العلامة بقولي هذا ، لكنني أحاول أن أفسر لم لم يملأ مقاله بالآيات والمآثورات . ولعل كلماته الآتية تلقي الضوء على شيء من التفسير لذلك حين قال : «لقد مرت فكرة الوحدة الإسلامية في حياة

المسلمين بتاريخ طويل من الدعوات الإصلاحية التي انطلق بها المصلحون فيما كانوا يثيرون به الأمة من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية الداعية إلى الوحدة على أساس الاعتصام بحبل الله ، والالتقاء على رسالة الله ، والبعد عن التنازع والاختلاف الذي يبعثر القوى ويضيع الطاقات ، ولكن ذلك لم يغير من واقع التجزئة شيئاً ، بالرغم من الحماس الذي تثيره الخطابات الحماسية والمواظب الانفعالية في نفوس الناس ، فقد كان ذلك الجو يهدأ ويخفّ تدريجياً حتى يتبخر في الهواء ويرجع كل فريق إلى قواعده سالماً!! فلماذا حدث ذلك؟» .

علام يدل هذا الكلام؟ لعننا ستتدخل في ما لا يعنيننا ، إلا أن هذا الكلام الذي قاله العلامة لم يعد ملكاً له ، لقد صار ملكاً للجميع ، كأى كلام كتب ونشر ، ولكل واحد الحق في أن يتأمله ، سواء قصر عنه أو تجاوزه .

أظن أن هذا التاريخ الطويل من المواظب بالآيات والأحاديث التي لا تغير من الواقع شيئاً ، لم يعد يثير الاهتمام ، وربما صار شبيهاً بأدعية المتسولين الذين يستجدون الصدقات أو الأتباع ، والتاريخ يعلمنا أن الذين يرفعون المصاحف عالياً ، ويدعون إليها وإلى تحكيمها ، ليسوا أنزه الأطراف ولا أعفهم ولا أبعدهم عن التلاعب ، وليس الذي دفعهم إلى هذا خوف الله وتعظيم كتابه والاقتداء بنبيه وحفظ الحقوق وحماية المحارم .

على كل حال ، ما قاله العلامة السيد محمد حسين فضل الله خرج عن دائرته الشخصية ، ولم يعد ملكاً له ، حتى على فرض أنه تراجع عنه ، أو قال إنني لم أعن بهذا الكلام ما قاله فلان وفلان .

أنصح بمتابعة أفكار السيد

إننا نأمل أن يتقدم في هذا المجال إبداعاً وبياناً وإيضاحاً وتنويراً ، فالإبداع يخلق الإبداع والبيان يتبع البيان ، ولنا الحق في أن نتابع هذا البحث ، وأنا بدوري أنصح الشباب أن يتابعوه ، وأن يفصلوا ما أوجزه ، ويجلوا ما لم يفصح عنه ، ويسموا ما لم يسمه ، لأن المقال مليء بالأفكار العظيمة ، ومليء بعناوين تصلح لأن يكتب حول كل فكرة وعنوان منها أبحاث وكتب كثيرة ، وما أحوجنا إلى ذلك .

انتبهوا أيها الشباب : ادخلوا الباب الذي فتحه لكم العلامة فضل الله ، وقد قال في مقدمة البحث : «أود أن أثير التفكير حول طريقتين في أسلوب مواجهتنا لقضايانا . . فهناك الطريقة المثالية . . وهناك الطريقة الواقعية . . » .

إن عنوان البحث هو : (الوحدة الإسلامية بين الواقع والمثال) ، والباب الذي فتحه العلامة هو باب الواقع ، باب رصد الواقع ، والاستفادة من دلالاته ، صحيح أنه لم يذكر آية ولا حديثاً ، ولكنه كرر كلمة الواقع ومشتقاتها نحواً من سبعين مرة في هذا البحث .

ما هذا الواقع الذي يجعله مصدراً للعلم والمعرفة ، وطريقاً لحل المشكلات؟ ما هذا المصطلح؟ أهو فلسفي أم إسلامي أم علماني؟ ما هو المراد بهذه الكلمات بالضبط والدقة ، وما هي إشعاعاتها وامتداداتها؟

ليس المهم الإسلام والكلمة ، ولكن ما محتوى الكلمة ، وهل تصير الكلمة متأقلمة بما فيه الكفاية بمجرد نقلها من بيئة إلى بيئة أخرى ، وهل من بدائل

إسلامية؟ إنها مشكلات ينبغي البدء بتحليلها ودراستها دراسة أولية ، لإبراز العلاقة بين المعنى واللفظ ، بين اللغة والموضوع الذي تعبر عنه ، بين الرمز والمرموز إليه . وأريد أن ألفت الذهن إلى شيء آخر ، لعلنا لا نُفكّر فيه ولا يخطر على بالنا كثيراً ، هذا المقال الذي كتبه السيد محمد حسين فضل الله لو قرأه القارئ دون أن يعرف كاتبه ، فماذا يمكن أن يُحدث لديه ، وما أنواع القُرّاء الذين يقرأونه ، وهل عندنا قراء لا يبالون بالقائل كائناً من كان ، وإنما يتعاملون مع الأفكار بصرف النظر عن الكاتب ، وماذا يحدث لو أن هذا المقال كتبه شخص آخر ، فهل يتأثر القارئ ويتغير معنى المقال وهدفه؟؟!! كل هذه المشكلات وراءها مشكلات أخرى ، وراءها واقع ، ومثال هذه المشكلات أن نقول : هل هذا الواقع واحد أحد ، غير متموّج ، وغير متوهج ، وغير قابل لأن يصغر ويكبر ، ويعظم ويحقّر؟ .

فإن كان كذلك ، فهل مثاله الذي يصير في الأذهان واحد أحد؟ هل نحن ندخل في الفلسفة؟ ينبغي ألا ترهبنا الكلمات ، ينبغي أن نفهم قول الإمام الغزالي حين قال : «من طلب المعاني من الألفاظ ضاع وهلك ، وكان كمن استدبر الغرب وهو يطلبه ، ولكن من حرر المعاني أولاً ، ثم أتبع الألفاظ المعاني فقد اهتدى» ، إن لهذا الكلام وجهة إلى حدّ كبير ، ولكن علينا قبل هذا أن ننظر إلى العلاقة بين الوقائع الكونية أو الاجتماعية وبين مثالها الذي ينطبع في الأذهان البشرية ، وبعبارة أخرى ، علينا أن ننظر إلى العلاقة بين الوقائع المادية أو البشرية وبين التصورات التي حملها الناس عن هذه الوقائع أو الوقائع أو الواقع . . .

وقفة مع الطريقة المثالية

هل المراد بالطريقة المثالية الطريقة التي تعتمد على الصور الذهنية؟ ليس المهم الكلمات ، ولكن ما الذي يحدث لهذا الإنسان حين يفهم أو تحدث له صورة في ذهنه؟ إنه يسلك ويتصرف بعد ذلك وفق الصورة التي في ذهنه . . لا يولد أحد وعنده طريقة مثالية أو طريقة واقعية ، إنه يأخذ ممن حوله ومن خبراته الخاصة الطريقة المثالية أو الطريقة الواقعية أو أخلاطاً من هاتين الطريقتين ، ويصغر هذه ويكبر هذه ، بدرجات لانهائية ، فليس الإنسان الفرد ولا المجتمع ، مثالياً بحتاً ولا واقعياً بحتاً .

لم يتحدد بعد معنى المثالي والواقعي جيداً وبوضوح ، ولذلك أرجو من الشباب أن يتعلموا كيف يبحثون في الجذور والنشأة الأولى ، وكيف بدأ خلق الخلائق في بداياتها الأولى ، ثم كيف تتدرج بعد ذلك إلى الخلق الآخر ، وكيف ينشئ الله النشأة الأخرى من النشأة الأولى .

إن للعلامة فضل الله ألقاباً كثيرة ، والألقاب ليست مهمة ، ولكن ماذا قال محمد حسين فضل الله؟ ماذا في ذهنه وماذا يريد أن يقول للأجيال؟ لقد عرف الطريقة المثالية والطريقة الواقعية بتعريفات ، ووصفها بأوصاف ، ليميز الإنسان بين الطريقتين ، فقد وصف الطريقة المثالية : «بالعاطفية ، والانفعالية ، والضبابية ، والأحلامية» وذكر كلمات : السحر ، والخيال ، والتبسيط الساذج ، والتشاؤم ، والانهازامية ، والعدوانية منهم أو عليهم ، وتفسيرهم الهزائم بالظروف الطارئة

والقوى العاشمة . . الخ ، ووصف الطريقة الواقعية ومنطق الواقع بأنها طريقة :
«الذي يرى لكل ظاهرة أسبابها الكافية ، ولكل واقع ظروفه المحدودة ، ولكل هدف
وسائله ، فالذين يفكرون بهذه الطريقة . . تتقدم خطتهم في بعض المراحل ،
وتسقط في البعض الآخر ، فلا يسقطون أمام سقوطها ، ولا يحاولون أن يُحمّلوا
الآخرين مسؤولية السقوط ، بل يعملون على دراسة أسباب الفشل في الواقع ،
ليُعدّلوا الخطة ويطوروها ، وليصلوا بها إلى النتائج العملية . . . وعندما تفكر هذه
الفئة الواقعية بالحماس ، فإنها تفكر به كجزء من الخطة لا كحالة مزاجية طارئة . .
وهكذا يملك القائمون عليها وضوح الصورة ، وواقعية التفكير ، بعيداً عن كل
أجواء الأحلام والسرعة والارتجال ، وعن كل ألوان التفسير الغيبي للأشياء ، ما
يوفر لهم الكثير من الوعي والصبر والهدوء والشجاعة عند الوقوع في الأخطاء
للاعتراف بها ، ومواجهتها بالمزيد من عمليات النقد والتصحيح . .

هاتان هما الطريقتان اللتان تحكمان الواقع العملي للإنسان ، فأين نحن منهما
الآن؟ .

وإذا كنت قد أعدت كلامه بطوله ، فإنني لا أشعر بأنني أطلت في ما لا طائل
وراءه أو فيه ، بل لا بد من إعادة القول ، ومن النقاش فيه ، وتلمّس مصادره ،
والتطلّع إلى أهدافه ، وما يمكن أن يؤدي إليه ، كي يهضمه الناس ويألفوه ويتعلموا
سننه ، لهذا أرى أن أزيد التساؤلات حول هاتين الطريقتين ، فإذا كان لهذين
الأسلوبين في البحث تلك الأهمية في النجاح والإخفاق خلال التاريخ الإسلامي
بطوله ، فهل يمكن لنا أن نجد لهما ذكراً في القرآن؟ هل اهتمّ بهما؟

خدمة الأفكار بمعاركتها

لا بد أن يكون ذلك كذلك ، وإذا أمكننا أن نبرزهما جيداً ، فإن ذلك سيكون عوناً لنا ﴿يَزِدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا وَلَا يَرْتَابَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ (المدثر : ٣١) ، فهل يمكن أن نجد المصطلحات القرآنية لهاتين الطريقتين ؟ .

ولكن لماذا ألتمس هذا؟ أما يكفي أن يقول شيخنا ما قال لنقبله ونصدقّه ؟ .

لا حرج أن نتساءل وإبراهيم (عليه السلام) حين قال له الله : ﴿أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾ (البقرة : ٢٦٠) ولكل أسلوبه في الاطمئنان ، وإذا قلت هذا ، وأردت أن أجد ما يدعو إلى الاطمئنان والإيمان ، فذلك لأنني أريد لأفكار السيد فضل الله أن تصير ذات مضاء وفعالية وحيوية ، لا أن يمر عليها المارّ متبركاً بكلمات العلامة ، لأنه مهما قال فهو جدير بكل فكر كبير ورأي سديد ! . .

كثيراً ما تُفقد الأفكار قيمتها بهذا التسليم البارد الكتيم الذي لا يشع ولا يضيء ولا ينبض .

إنني أزعّم أن تفهّم مثل هذا الكلام ، والبلوغ به إلى التمهّيص ، ومتابعته إلى أن تُرى ثمرته ، إن كان لمثل هذا الكلام ثمرة ، وخدمته ، لا تكون بالتسليم البارد ، بل بمعاركته ومصارعته ، ﴿لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ﴾ (الأنفال : ٣٧) ، و﴿لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَى مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ﴾ (الأنفال : ٤٢) .

ليميز الفكر الميت من الحي ، ويسارع بالميت لمواراته ، ويعيش مع الحي بكل إيجابياته . . .

صحيح أنني دعوت الشباب لأن يتأملوا كلام السيد فضل الله ، لكنني أدعو العلماء أيضاً إلى أن يتأملوا كلامه ، أدعوهم ليقولوا للمصيب أصبت ، وللمخطيء جانب الصواب ، حتى لا يكون ملتبساً علينا ، لأنني أرى كثيراً من علمائنا الأجلاء لا يقبلون مثل هذه الأفكار ، بل يحاربونها ، فهل نترك السيد فضل الله وأفكاره تمرّ ، لمجرد أن الذي قالها شيخ مبجل ، وبذلك يداري بعضنا بعضاً ، أم أن العلامة الشيخ قد رأى وكشف شيئاً جديداً ، أو جدد شيئاً قديماً ، وفهمه على غير الوجه الذي كنا نفهمه ؟ لعل السيد فضل الله اختار مصطلح المثال أو المثالية ، للطريقة التي يريد أن يدينها ويخلصنا منها ، وقد أراد أن يلطف المقال ويخفف الصدمة ، فكلمة المثالية ليست سلبية تماماً ، لأنها تشعُّ أحياناً بالأخلاقية العالية الصعبة التحقيق ، وقد قال فرعون ﴿وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثَلَى﴾ (طه : ٦٣) .

إن الكلمات عجيبة الشأن متعددة الأوجه ، وبعضها أدق في الدلالة من بعض ، وكلمة الواقع - أو مصطلح الواقع - قد تحمل شيئاً من السلبية ، إذ ليس كل واقع حقاً ومقبولاً ، وإن كان بعض الناس يريد أن يجعل باطله واقعاً حتى يكتب له البقاء .

أنا لا أقول هذه الأقوال لأشكك ، ولكنني أتطلع إلى زيادة في الاطمئنان ، وجلاء للحق ، وابتعاد عن الخطأ ، ولو أردنا أن نستعمل الكلمات التي ذكرها العلامة في وصف المثالية لنجعلها اسماً للمثالية ، لأمكننا أن نقول : الطريقة الأحلامية ، أو الطريقة السحرية ، أو الطريقة الخيالية ، أو الانهزامية . الخ ، ولو أردنا أن نأخذ من القرآن ما يعبر عن هاتين الطريقتين ، لأمكننا أن نقول : ﴿وما لهم

بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ الظَّنُّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا ﴿٢٨﴾ (النجم : ٢٨) ، إن الطريقة المثالية ليست خاوية مما تهواه الأنفس ، وليست سهلة الإدانة ، وإلا لما كان لها ترسخ وانتشار وتجذر في حياة البشر ، بحيث تشتبه بالصواب في كثير من الأحيان ، وللنفوس آفات ، فيمكن أن يزين لها سوء أعمالها فتراها حسنة ، ولولا الاشتباه لما حصل النزاع ، ولو ظهر الحق بوضوحه والباطل بوضوحه لما خفي على الناس ، ولكن الناس يلبسون الحق بالباطل ، وأهواء النفوس تميل بها الرياح ، والامتحان شديد ، غير أن واقع الكون ينطق بما نطق به القرآن ﴿فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ﴾ (الرعد : ١٧) .

الواقع والتاريخ يشهدان للأقوال الحقّة

إن الواقع الراسخ يتقدم بثبات ورسوخ ، وإن كان بطيئاً بالنسبة لمن يستعجلون ، إنه يشهد للصواب بالبقاء ، وللخطأ بالزوال ، فهنا تواطأت شهادة الواقع الذي هو علم متجسد ، وكتاب متجسد ، مع شهادة الكتاب الذي هو بيان موثق بالوقائع ، فهما واقع موثق بالكتاب ، وكتاب موثق بالواقع .

وحين يلحّ الكتاب على النظر إلى الوقائع ، إلى الأحداث البشرية وسننها ، فإنما يفعل ذلك لأن الواقع البشري وتاريخه يشهدان للحق ، فمن هنا كانت الأفكار التي يذكرها العلامة ذات قيمة كبرى ، لأن الكتاب يعترف بها سلفاً ويؤكد عليها ، فهي عبر التاريخ وعواقب الأمور .

والقرآن يكثر من قوله : ﴿انظروا﴾ أي تأملوا ما حدث ، فإن بإمكانكم أن

تستخرجوا منه سنن الله التي لا تتغير ولا تبدل ولا تتحول ، وهو لا يذكر ﴿انظروا﴾ فحسب ، بل يذكر أيضاً كلمة ﴿انظروا﴾ ، لأن ﴿انظروا﴾ تشير إلى الماضي والحاضر ، بينما ﴿انتظروا﴾ تشير إلى المستقبل ، أي إن كانت الأحداث التي مرّت ليست بكافية ، فإن الأحداث التي ستأتي ستضطرّكم إلى القبول والاعتراف ، والبشر يتحركون بين ﴿انظروا﴾ و﴿انتظروا﴾ ، يتحركون بين وقائع قد حدثت ، وأحداث تهيأ للظهور ، والاعتبار الذي يلحّ الله عليه يكون للعبور من الذي حدث ، والتهيؤ للذي سيحدث . ويمكن أن نذكر مصطلحين آخرين لهاتين الطريقتين ، وهما : الطريقة السننية ، والطريقة اللاسننية .

إن بعثة الرسول (ص) كانت للخروج من الطريقة المثالية الخوارقية اللاسننية إلى الطريقة السننية ، فقد كان البشر قبل بعثته عليه الصلاة والسلام ، يعيشون حياة الخوارق والمعجزات ، فجاء الإسلام لينقلهم إلى حياة السنن والقوانين ، وحين كان المعاصرون للدعوة الإسلامية يطلبون من الرسول (ص) أن يأتي بمعجزات كما أرسل الأولون ، كان يرفض ذلك ، وقد سجل القرآن طلبهم ، وسجّل الرفض لطلبهم أيضاً ، ﴿وقالوا لو لا أنزل عليه آيات من ربه . . أو لم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب؟!﴾ (العنكبوت : ٥٠-٥١) ، ولكن الشعوب لم تدرك هذه النقطة ، فظلت تعيش الخوارق والمعجزات ولم تتكيف مع حياة السنن ، وقد انتبه إلى هذا محمد إقبال رحمه الله .

واليوم حين يؤكد السيد محمد حسين فضل الله على وجود طريقتين للتعامل مع المشكلات ، وحين يتساءل بعد ذلك فيقول : «فأين نحن منهما الآن؟! ؛ فإنه

يطرح مشكلة جديدة وقديمة في آن واحد . إن أمام العالم الإسلامي الآن ، أن يتعامل مع الله ، لا على أساس الخوارق التي فات أوانها ، وإنما على أساس السنن التي تحكم الآفاق والأنفس ، الكون والبشر ، هذا ما فهمته من بحث العلامة الشيخ ، وآمل أن أكون استطعت أن أساهم في دعم ما يتجه إليه ، وأن أنبه الناس صغاراً وكباراً ، إلى ما يطرحه من أساليب جديدة وقوانين ثابتة ، إنها جديدة لا من حيث الواقع ، ولكنها جديدة مقارنة بما نحن عليه ، وثابتة لا من حيث إنه لا يمكن أن نهتدي لأقرب من هذا رشداً ، بل من حيث منهجيتها ، فإن استطعت أن أنبه إلى هذا ، فإنني أكون فحيت في ما هدفت إليه .

كيف نتعاطى مع الأفكار المهمة؟

وأريد أن أدقق في بعض النقاط التي تتصل بهذه المقالة :

فأقول : لو أن إنساناً ممن يضادّ الفكرة الإسلامية كتب مثل هذا البحث ، ووصف المسلمين ، وكشف أخطاءهم ، بهذا الشكل الذي فعله السيد فضل الله ، لكان يمكن أن يعتبر عدواً للإسلام ، ولكن حين يكتب مثل هذه الأفكار الإصلاحية ، رجلٌ مغموس في العمل لإحياء الإسلام ، ومُكرّسٌ حياته لخدمة الإسلام والمسلمين ، فإننا نتجاوز عن أفكاره ونقبلها فوراً ، لأننا نحبّ هذا الرجل ونجلّه ، لا فهماً لقيمة أفكاره ، وهكذا فسوف لن نستفيد من أفكاره من كلا الاتجاهين . ومن هنا يظهر لنا أننا نعيش في أجواء يختلط فيها النافع بالضارّ ، إذ يمكننا أن نحارب أفكاراً مهمة وضرورية لنا ، للخروج مما نحن فيه ، وذلك حين

يتجاهلها المسلمون ، أو أن نتبنى أفكاراً ضالة ومعيقة ومؤذية ، إذا كان الذين نحبههم يتبنونها ، وهذه مشكلة كبرى متصلة بمشكلة الوعي الإسلامي على مستوى الشعوب والقادة .

وعلى هذا الأساس ، نستطيع أن نضع مصطلحين آخرين للطريقتين اللتين ذكرهما العلامة فضل الله ، ونستعير لذلك المقولة التي تزداد عمقاً وإشكالاً في حياة البشر كلّ البشر ، والتي قالها علي كرم الله وجهه : « لا يعرف الحق بالرجال ، اعرف الحق تعرف أهله » .

يمكننا أن نسمي الطريقة المثالية : طريقة معرفة الحق بالرجال ، فإذا قال الرجال المقدسون شيئاً صار مقدساً ، مهما كان الواقع لا يصدقه .

وأما الطريقة الواقعية : فمعرفة الحق من الواقع لا من الرجال ، وعلى كلّ ، هذا هدف كبير ، وقلّ أن نجد الذي تخلص من الرجال ، ومبلغُ المجتهد منا أن يخفف من سيطرة الآباء عليه .

والعجيب العجيب هو أن القرآن لا يعتبر اتباع الآباء طريقاً للهدى إلا أن يصدّق الواقعُ الآباء : ﴿أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئاً . .﴾ (البقرة : ١٧٠) .

هذه بعض المشكلات التي تواجهنا وتواجه الوحدة الإسلامية ، وليس الخلاص من مشكلة الرجال والآباء والأشخاص بأن يُحفظَ الناس هذه الأقوال المأثورات ، ولكن حين يتعلّمون كيف يتعاملون مع الوقائع والأحداث سيزداد الصواب تألقاً ، وسوف لن يعرقل الخطأ سيرنا ومساعدتنا .

إضاءات على النص

والآن سأشير إلى فكرتين أو ثلاث من الأفكار التطبيقية التي ساقها العلامة فضل الله :

الحواجز النفسية والعاطفية

أولاً : ذكر الشيخ مرات عديدة كلمة النفس ، وكلمة العاطفي (النفسي العاطفي) الحواجز النفسية ، حالة عاطفية سلبية .

فليسمح لي العلامة الكريم ، والقارئ العزيز أن أقول : إنني لست من الذين يفهمون الأفكار (على الطائر) ، كما أنني لست ضليعاً في علم النفس ومفاهيمه ومصطلحاته ، وينبغي أن أكون صريحاً أكثر أيضاً : إنني لا أزال من الذين لا يثقون بالأفكار إذا لم أتمكن من رؤيتها من خلال القرآن ، ومهما ظننت أنني محلّق في الفكر ، أجدني لا أحسن المشي على الأرض إلا إذا تعلقت بحبل من السماء ، كالأعمى الذي يتلمس طريقه بالملامسة ، ولكن ثقتي بالقرآن أيضاً رجعت بي مرة أخرى إلى الواقع الذي يُثبت لي صدق ما في القرآن ، لهذا من الأفضل أن أقول :

إنني إن لم أمسك بالقرآن بيمينني ، وبالتطبيق بشمالي ، وأحذق جيداً في العواقب من خلفي وأمامي ، فلا أشعر أنني أعيش وأتحرك في النور .

وبحسب ما فهمت من الحواجز النفسية ، التي تُعرض في الكلام الدارج ، ومن المصطلحات النفسية ، فإن الإنسان لا يُسيره الوعي فقط ، بل تساهم في حركته أشياء في اللاوعي ، لا يشعر ولا يُحسّ بها ، بل إن وعيه ولا وعيه يتناقضان أحياناً ، فيشعر في وعيه بأنه على عين الصواب ، في حين أن لا وعيه على الخطأ البحت ، وهذا على أوضح ما يكون في القرآن حين يحكم على الإنسان أنه في وعيه وإدراكه وتصوره محسن غاية الإحسان ، وأنه على طريق الحق والصواب ، بينما واقع أمره يدل على أنه على طريق المفسدين في الأرض دون أن يشعر ، بل إن إعادة التوازن ليس عملاً ميسوراً ، وإذا كان حال الواقع هكذا ، فكيف يمكن الخلاص من هذه المشكلة المعقدة؟ إذا كان الواقع المأساوي يحتوي على هذه الاختلاطات والاشتباكات ، فهل يمكن أن يوثق به ويُعوّل عليه؟ ما العمل إذا كان مما يحدث في الواقع أن يكون حال المرء في وعيه وشعوره أنه مصلح ، بينما هو في حقيقته وواقعه مفسد؟ ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ * أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ (البقرة: ١١-١٢) لماذا علم النفس؟ أنا لا أريد علم النفس إن لم يُساعدني على كشف هذه المشكلة ، مشكلة أن يكون الإنسان على هذا الخطر العظيم ، حين يكون مفسداً ، وهو يشعر ، من كل أعماقه ، أنه من المصلحين ! إنه وهم صادق ، إنه الكذب الحق ، إنه الإيمان الكافر ، لماذا التصوف؟ أنا لا أريد التصوف إن لم يكشف لي هذا ، ولا أريد الفقه الذي لا

يحصنني أو يحل لي هذه المشكلة ! .

إن هذه المشكلة واضحة في القرآن ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا * الَّذِينَ ضَلَّ سَعِيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يُحْسِبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ (الكهف : ١٠٣ - ١٠٤) ، ﴿أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا﴾ (فاطر : ٨) .

لقد حمل الناس في واقع التاريخ أخطاءً بدهية ، أي أخطاءً في الواقع وصواباً في البديهية ، حينما كانوا على استعداد لأن يموتوا هم ويميتوا الآخرين لتبقى الأرض ثابتة ، وليبقوا هم مركز الكون ، لا جزءاً صغيراً منه . .

والذي اغتال علي بن أبي طالب كان يظن أنه يعمل لصالح المسلمين . وما قلت عنه : إنه الوهم الصادق والكذب الحق ، هو ما قال عنه العلامة : «حاجزاً نفسياً مقدساً» ، قال هذا الكلام ضمن قوله : «وقد وجدنا بعض المتحمسين لمذهبيتهم الضيقة يتهمون العاملين في سبيل الوحدة الإسلامية بأنهم منحرفون عن خط المذهب لأنهم وحدويون ، كما لو كانت الوحدة جريمة تعني المروق من الدين . .

فما هي ملامح هذه الدعوة؟ وما هي النقاط السلبية في أسلوبها العملي؟ إننا نجد فيها ملامح الدعوة المثالية التي تخلق في السماء ، ولا تتحرك في الأرض ، لأن من أبسط القضايا التي يجب أن ندركها ، هي أن التاريخ المعقد الذي عاش المسلمون مشاكله الدامية ، وأساليبه المتخلفة ، ومواقعه القلقة . . . لا يمكن أن تلغيه بخطبة بليغة أو حركة سريعة ، لأن الرواسب التي يتركها في الأعماق من

مشاعر وأفكار وتعقيدات تخلق حاجزاً نفسياً مقدساً ضد الفريق الآخر ينقل الصورة في منهج التفكير من موقع الاجتهاد في فهم العقيدة أو الشريعة - الذي يفسح المجال لاجتهاد آخر مخالف له ، على أساس إمكان اختلاف وجهات النظر في فهم المسألة الواحدة - إلى موقع التأكيد على نفي الإسلام عن الفريق الآخر ، لأن الخصوصية تحاصر الشمولية ، والجزئيات تطوق الكليات . . . وبذلك يتحول المذهب إلى دين مميز ، تماماً كالدين الذي يتميز من دين آخر . . . ويعود الارتباط بالشخصيات الإسلامية سلباً أو إيجاباً عنصراً من عناصر تحديد الشخصية الإسلامية فيمن هو المسلم أو فيمن هو غير المسلم» .

كيف نتغلب على هذه الحواجز النفسية؟ كيف يمكن أن نكشف مأساة الذي يركب القصة ويظن أنه فارسُ عبسٍ؟ كيف نقنع الأم التي قبل عن نظرها إلى ابنها : «القرود في عين أمه غزال»؟ كيف يبدو عنق العنقاء ميسور المنال؟ وكيف يمكن للوحدة أن تعيش في نطاق التنوع؟

لقد تعرض الكاتب لهذه المسألة الخطيرة ، بحذق ورفق ، فغدا المستحيل لعينه ممكناً ، وكما قال جلال الدين الرومي :

رأيت الشيخ بالمصباح يسعى	له في كل ناحية مآل
يقول : مللت أنعاماً وبُهماً	وإنساناً أريد فهل يُنال
فقلنا : ذا محال قد بحثنا	فقال : ومنيتي هذا المحال !!

يقول الكاتب :

«وإذا كان الجانب العاطفي هو الذي نريد معالجته في قضية الوحدة من أجل

إزالة الحواجز النفسية التي تحول بين المسلمين وبين اللقاء على أرضية واحدة ؛ فلا بد لنا أن نكتشف كل عوامل الإثارة الروحية والفكرية والعاطفية التي يمكن أن تثير أفكار الجماهير وأرواحها وعواطفها بطريقة واقعية مدروسة . . أن تُمنح للأمة القاعدة التي تنطلق منها الوحدة . . وتُعرف كيف يمكن للوحدة أن تعيش في نطاق التنوع . . ليكون هذا إغناءً للتجربة ، لا إسقاطاً لها كما يفعل البعض في عملية الإثارة المضادة» .

إذاً ما القاعدة التي تنطلق منها الوحدة ، وكيف يمكن للوحدة أن تعيش في نطاق التنوع ، وكيف نكشف للإنسان أنه يزين له سوء عمله فيعتقد بأنه مصلح ، بينما يكون ، من غير أن يشعر ، مفسداً في الأرض ؟

الجهاد وحق الاختلاف

ثانياً : يقول العلامة فضل الله : «يمكن للوحدة أن تعيش في نطاق التنوع» ، وأنا أقول : وفي نطاق الاختلاف ، لأن كلمة الاختلاف كلمة قرآنية ينهانا الله عنها ﴿ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا﴾ (آل عمران : ١٠٥) وأخبرنا أيضاً أنهم ﴿ولا يزالون مختلفين * إلا من رحم ربك ولذلك خلقهم﴾ (هود : ١١٨-١١٩) .

التنوع والاختلاف يمكن أن يكونا إحصاباً للجهود وإغناءً لها ، كما يمكن أن يكونا سبباً للإبادة المستمرة ، وإن كان الواقع يؤيد الحياة والنماء وسيتغلب على الإبادة ، أي أن الحياة ستبقى مع الاختلاف ، والذي سيؤول إلى الفناء هو نفي الآخر وإبادته . إن قوانين الكون عجيبة وخداعة ، إذ طالما ظن الناس أن الشمس

تدور حولنا ، وهكذا قد يكون من العجيب أن نقول : إن الجهاد في الإسلام يمكن أن يفهم على أنه شُرْع لحماية الاختلاف لا لإزالته ، لأنه يمنح المختلف حقّ البقاء رغم أنه مختلف ، وبعد الانتصار عليه ، وقتال الآخر في الإسلام ليس لأجل كفره ، وإنما لشيء آخر ارتكبه واقترفه ، هذا الشيء الآخر الذي شُرّع الجهاد من أجله هو محاولة الإنسان أن يفرض على الناس ما يعتقده بالقوة والقهر ، كما كان يفعل القرشيون ، أهل مكة ، بالمسلمين ، يعذبونهم لتركوا دينهم . شرع الجهاد حتى لا يكون إكراه في الدين ، في الرأي ، في العقيدة ، وحتى المسلم فإنه يقاتلُ أيضاً إن مارس هذا وبدأ بتقتيل الذي يخالفه ، وقد قاتل علي (ع) الخوارج ، ولم يسمح بمقاتلتهم حتى سفكوا الدم الحرام ، أي حتى بدأوا بقتل من ليس على رأيهم .

ونفهم من هذا أن الإنسان لا يضارّ من أجل عقيدته وإيمانه ، مهما كان خاطئاً وضالاً ، والقرآن لا يمنعنا من أن نبرّهم ونقسط إليهم ، ما داموا لا يقاتلوننا ليخرجونا من ديننا وديارنا ، ولا يظاهرون على إخراجنا . هذا هو الجهاد المقدس الذي قال الله تعالى فيه : ﴿وَمَنْ يُؤْلِهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبرُهُ . فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ﴾ (الأنفال : ١٦) . ويمكن أن نقول بإيجاز : إن للجهاد كي يكون جهاداً لله كما يتراءى لنا شرطين : شرطاً في المجاهد بكسر الهاء وشرطاً في المجاهد . شرط المجاهد أن يكون وصل إلى حكم الناس برضاهم ، كما صبر رسول الله (ص) حين كان يدعو ويعرض دينه على الناس ، ويأمر أصحابه بالصبر على الأذى ، وبأن يكفوا أيديهم حتى يقبلهم الناس برضاهم ، وقد حصل ذلك واستقبله أهل المدينة ولم

يكن معه جيش ولا سلاح ، هذه هي سبيل الوصول إلى الحكم بطريق شرعي ، أن تقنع الناس ويقبلوك ، وهذا هو معنى الصبر الطويل على الدعوة حتى قُبِلَ طوعاً واختياراً ، وليس قهراً واستكباراً ، هذا هو مغزى السيرة ، وهذا ما اضطر العالم إلى قبوله بعد وقائع الدهور وتجارب الأمم .

هل علينا من حرج أن نفهم الأمر على هذا الوجه؟ ألا نكون بذلك اهتدينا إلى قانون الشرعية الذي ظهر تأويله عالمياً الآن؟ فإن اختلف معنا مختلف فإننا نعطيه الحق الذي نعطيه لأنفسنا ، فنظل ندعو ونصبر ، وعليه أن يفعل هذا ، فمن رضي به الناس كانوا معه ، ولن نزع يداً ، ولن نخرج عليه ، ولن نكف عن قول الحق والدعوة إلى ما نراه حقاً ، وقانون الله سيذهب بالزبد جفاءً ، وسيمكث ما ينفع الناس في الأرض .

وشرط المجاهد ليتحقق شرطاً الجهاد ، هو أن يكون ممن يُكره الناس ولا يقبل فكرة ﴿لا إكراه في الدين﴾ (البقرة : ٢٥٦) ، ويبدأ بممارسة الإكراه ، فهذا هو الذي يُمارسُ ضدّه الجهاد ، ويقا تلُ طوعاً وإيماناً ، وقد صار هذان الشرطان : حرية العقيدة ، والوصول إلى حكم الناس برضاهم ، مطلبين عالميين تُصدّر بهما دساتير العالم ، ومن لا يقبل بهما لا يتحقق في بلده أمنٌ ولا استقرارٌ .

هذا ما يشهد به كتاب الله المنظور : وقائع الكون ، وكتاب الله المسطور : القرآن ، لا وصول إلى الحكم بالقهر ، ولا فرض للعقيدة بالقهر .

وإذا لم يقبل كل الأطراف هذا القانون ، فلا يمكن أن يكون هناك تعايش في

نطاق التنوع ، وهذا القانون لا ييسر الوحدة في الدين الواحد مع اختلاف المذاهب فقط ، بل يفتح الطريق إلى الوحدة الإنسانية مع اختلاف الأديان .

إنني أفهم الإسلام على أنه يحمي الاختلاف ، ويأمر بالتواصل مع الاختلاف ، ويرشد إلى أن الاختلاف ينبغي أن يكون في التطلع إلى الطريق الأفضل لحلّ المشكلات ، والتنافس للإتيان بأساليب أفضل لإزالة العوائق ، وكيف يظهر الصواب وكيف يتبين الأفضل ، إذا لم تقبل بوجود المنافس؟ ! . .

بعض الناس يخافون من وجود التنافس ، وخوفهم هذا يدل على عدم ثقتهم بمبدئهم ، إذ وراء الخوف من المختلف المنافس يقبع الانهزام الداخلي في الأعماق ، ففي عالم الاقتصاد لا يخاف صاحب البضاعة الجيدة من المنافس ، وإنما يخاف صاحب البضاعة الرديئة ، وما يصدق في عالم الاقتصاد يصدق في عالم الثقافة .

وقانون الله الذي يسير مع خلقه منذ بدئه ، أن يذهب الزبد جفاءً وأن يمكث في الأرض ما ينفع الناس .

فإذا كان هناك من يرفض إمكان أن تعيش الوحدة في نطاق التنوع ، فله الحق في ذلك ، وله مطلق الحرية في أن يُقنع الناس ، ولكن ينبغي أن يُقرّ للآخر بهذا الحق أيضاً . إن هذه الفكرة - فكرة أن يمكن للوحدة أن تعيش مع الاختلاف والتنافس والتنوع - فكرةٌ خلاقةٌ إبداعيةٌ جديدةٌ بأن يكتب حولها ألف مقال ، وكما يقول محمد إقبال : « والحرف الواحد ألف مقال » .

نستطيع أن نقول : لقد استيقظ العالم الإسلامي ، وأخذ يدرك الأمور ، ولم يعد

يخاف من المختلف ، ولا من التنوّع ، وهذا دليل القوة لا الضعف ، ودليل الثقة والاطمئنان لا الريبة والقلق والخوف ، وهو يدل على انكسار الحاجز النفسي ، وزوال الانهزام الداخلي في أعماق النفس .

بهذا التصور تكون الصحوة الإسلامية صحوة رزينة وراشدة ، وحتى حين ينتصر صاحب هذا الفكر فإن الآخر لا يشعر بالهزيمة ، لأن الذي انهزم هو القهر الذي يهدد الطرفين ، والذي انتصر هو العدل الذي يسيطر سلطانه على الجميع ، لا على البعض فقط .

وإذا كان البعض - قلّ هذا البعض أو كثر - يعتبر هذا الفهم خاطئاً ، فإننا نقول : لا حرج فليعملوا على مكانتهم إنّا عاملون ، وليتظروا إنّا منتظرون ، وإذا كنا مخطئين فسندهب جفاءً غير مأسوف علينا ، والذي يجعلنا لا نشعر بمرارة الهزيمة ، أن الذي سيتنصر وسيبقى هو الذي ينفع الناس بما فيهم نحن .

الفكر التحريري المنتظر

ثالثاً : كتب السيد فضل الله في التعليق رقم (٥) يقول : «أن ندرس خلافتنا الفكرية الإسلامية في تفاصيل العقيدة وفي الشريعة وفي التاريخ تماماً كما ندرس تاريخ الرومان وقوانين الرومان ، وكما ندرس الجانب الفكري للفلسفة اليونانية أو لأي فلسفة أخرى . هناك ندرس تلك الأفكار من موقع يلتصق بالفكر فقط ولا يلتصق بالذات ، وبهذا نستطيع أن نكون موضوعيين أمام الناس ، ومشكلتنا أننا نواجه خلافتنا من موقع الذات لا من موقع الفكر ، وعندما تفرض الذات نفسها

على الفكر ، فإن الفكر لا يستطيع أن يتحرك بحرية عند ذلك من الناحية الذاتية أو من الناحية العملية» .

يمكن لهذا الكلام أن يمر دون أن يحدث أي شعور بالخطورة أو الانقلاب الفكري ، وكأنه لم يحدث شيئاً جديداً خطيراً أو زلزالاً غير تضاريس التصور !! . إن العالم الإسلامي يعيش عالم الأشخاص ، ولكن ما معنى عالم الأشخاص؟ معناه ، حسب تصوري ، أن الأمر لا يتعلق بالفكر على أساس أن هذا الفكر صواب أم خطأ ، صحيح أم فاسد ، ترياق أم سم ، وإنما ننظر إلى الشخص الذي قاله ، وما دام الذي قاله ثقة ، فلست في حاجة إلى أن تتأمل الفكر وتدقق في أبعاده ، والعلم الإسلامي (الشغال) الفعال ، الذي يحكم الواقع ، ويسير هذا العالم الضخم ، هو منهج أخذ الأفكار على أساس الثقة والإخلاص والحب ، وليس على أساس التدقيق في الفكر والمحتوى ومطابقة هذا المحتوى على الوقائع والأحداث التاريخية ، وقد حاول ابن خلدون أن يضع إشارة استفهام على هذا الأسلوب ، ولكنه لم يوقظ نائماً ولم يزعج مستيقظاً ، ولم يتابع هو ولا من جاء بعده العزف على هذا الوتر ، وظلت القافلة تسير باطمئنان ، وليس علينا إلا أن نسأل شيخنا : هل نقرأ هذا الكتاب أو لا؟ ويكفي جوابه بالسلب أو الإيجاب لأن نأخذه كله أو نرفضه كله ، دون أن يحدث لنا أي توتر في الضمير ، ولم يكن أصل صكوك الغفران ، حسب ما يخیل إلي ، غير هذا .

هل نضع لهذه الأفكار المتفجرة التي يذكرها العلامة السيد صاعقاً لينسف عالماً مترهلاً مخدراً بكل مقاييس البلاهة والتخدير ، أم أن هذه الأفكار ستمر من غير أن

تزعم مستيقظاً أو توقظ نائماً؟! أتصور أنه حين يقول : «أن ندرس خلافتنا . . .
كما ندرس تاريخ الرومان واليونان أو أية فلسفة أخرى» ، فكأنه يقول : كما أن
صحة الأجساد البشرية ومرضها يحكمها قانون واحد في الصحة والمرض دون أن
يكون لروماني على يوناني أو إسلامي امتياز ، كذلك صحة الأفكار ومرضها
يحكمها قانون واحد ، وإلا كان باطلاً ما يقرره القرآن من الاعتبار بسنن الذين خلوا
من قبلنا ، وسنن الذين يعيشون معنا ، وسنن الذين سيأتون من بعدنا .

هل يُدرس تاريخ الرومان واليونان : الأوثان ، الأرجاس ، الأنجاس ، على
أساس أن قوانينهم وسننهم التي تحكمهم ، تدينساً وتقديساً ، واحدة في تاريخ
الرومان واليونان والمسلمين؟ هل نحن مثلهم؟ من قال هذا؟ هل نكون
موضوعيين حين ندرس ، أو نقبل أن ندرس أنفسنا وتاريخنا وتفاصيل عقائدنا كما
ندرس الآخرين وتاريخهم وتفاصيل عقائدهم؟ ما معنى الموضوعية؟ لعل السيد
فضل الله سيواجه بقول القائل : أيها العلامة ! ومن هؤلاء الناس؟ هل تغلغل الغزو
الفكري إلى هذه الدرجة في الأعماق؟ هل مثل هذا الاستسلام هو الذي يجعلنا
موضوعيين أمام الناس؟ وهل هذا الفكر هو الذي سيجعلنا نتحرك بحرية ، لنخرج
من الآصار والأغلال؟ ﴿إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجَابٌ . . . مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي الْمِلَّةِ
الْآخِرَةِ . . ﴾ (ص : ٥ و ٧) . .

ربما يقال هذا الكلام بالنسبة إلى هذه الأفكار التي يقررها العلامة السيد ، وما
أكثر ما سمعنا وقرأنا أمثال هذه الإدانة ، بهذا الأسلوب السهل ، وكأننا لسنا بحاجة
إلى تأمل ونظر ، لأن بادي الرأي يكفي ! ولو أن أحداً أراد أن يجمع أو يصنف النتائج

الفكري وقوانين التعامل مع الأفكار لدينا ، لرأى شيئاً عجباً . إذا قال هذا الكلام رجلٌ في مستوى العلامة فضل الله ، فإننا نمرره من دون أن نقيم القيامة ، ولكن بعد أن نفرغه من المعنى ونسلبه روحه ونفقده جوهره . إن هذه العملية التي نقوم بها في اغتيال الفكر وتحويله إلى جثة هامدة ، هي التي جعلتني أثير هذا التعليق حول هذا البحث . لماذا تمر مثل هذه الأفكار في العالم الإسلامي دون أن تُحدث يقظة ، وتلهب المشاعر وتحرر الناس ، وتحدث التغيير الذي يشاق إليه الجميع ، والذي طال انتظار الجميع له؟؟! وإذا جاء الفكر الذي سيحررنا ، والذي انتظرنا طويلاً حتى نفذَ صبر بعضنا ، فهل سيكون استقبالنا له بهذا الشكل البارد الكئيم؟ إن للأفكار سننها وقوانينها ، وللبذور أدوار حضانتها ، ولكل أجل كتاب ، وللفجر بعد الغسق إياب ، وإنما علينا ألا نستسلم لليأس ، وألا نظير مع الخيال ، بل علينا أن نجتهد كالفلاح الخبير في تهيئة الأرض بكل الجدّ والاهتمام ، وانتقاء البذور بكل الحذق والبصيرة ، وألا نوخر الغراس عن أوانها ، فذاك الذي يكون على يقين من أن حَبَّتْه ستنبت سبع سنابل ، في كل سنبله مائة حبة ، والله يضاعف لمن يشاء ، وهو الأعلم بذات الصدور ، إنه لا يضيع عمل عامل ، وإن كان مثقال حبة من خردل .

وبحسب تصوري ، فإن العلامة قد بلغ القمة في هذا التعليق ، كما بلغ المنتهى في الموضوعية . . ما هذه الموضوعية؟ إنها القوامة بالقسط وبالشهادة لله مع القريب والبعيد ، مع المخطيء والمصيب .

وإذا كان التصور التقليدي يرى في مثل هذه المواقف انهزاماً وخضوعاً للغزو

الفكري ، فإنني أراه في منتهى التحرر ، ومنتهى الشعور بالقوة والسيطرة .

إن الذي يخاف ويشعر بالهزيمة ، هو الذي لا يجرؤ على التحدي والمباهلة ، وأما الذي هو مطمئن وعنده يقين بقوة الأفكار والمواقف ، والذي يعرف اتجاه التاريخ ومصائر الأمور ، فإنه يخرج من الحرص الطفولي على رفع الذات ، فهل يمكن أن نقول : إن انهزامنا العميق فكرياً هو الذي يجعلنا رافضين لكل موضوعية ولكل اعتراف بالصواب ؟ ! .

وهل يمكن أن نقول : إن المفكرين يشبهون الساسة في تفسير الهزائم بالانتصارات ؟ إن العلامة السيد فضل الله ثبت في سباق الفكر ، لأنه تعمق في فهم قوانينه ، من واقع ما يخلق الله .

فالثبات في التنافس في سباق الفكر ، هو الذي يؤهل للنصر المبين ، وهذا الدخول المكين في عالم الأفكار ، وهذا البصر النافذ في تطلعات البشر ، إرهاب بدخول العالم الإسلامي من جديد إلى حلبة العالم ، ليؤدي دوره في الفكر والعمل والسياسة ، بالمعنى الإنساني العالمي الذي يثق بالناس ، وبأن العدل والإحسان هما اللذان سيكسبان الرهان .

الفهرس

٥.....	*مقدمة
١٣.....	*تقديم
١٩.....	*مستقبل الحوار الإسلامي - الإسلامي
١٩.....	قيمة الحوار
٢٣.....	منهج القرآن في الحوار
٢٤.....	هوية الحوار الإسلامي - الإسلامي
٢٧.....	روحية الحوار
٢٩.....	موضوعية الحوار
٣٤.....	المستقبل الذي نريد
٣٩.....	*عوامل تمزق المسلمين وإشكالية الوحدة
٤٠.....	الحواجز التي تعمق الفواصل بين المسلمين

٤٣	اليد الاستعمارية والهوس الطائفي
٤٥	القومية الأوروبية عامل تمزيق لاتوحيد
٤٦	الهوس القومي كمعوق للوحدة
٤٧	العصبية الإقليمية
٤٨	«الوحدة الإسلامية» شعار دون مضمون
٥٠	المخطط الشيطاني في مواجهة الروح الإسلامية
٥١	الاختلاف في إطار الوحدة
٥٣	ربط المسلمين بالهدف الكبير
٥٤	الوقوف على الأرض المشتركة
٥٦	خطط عملية لمواجهة التحديات
٥٧	التعاطي مع الفوارق بروح علمية
٥٩	*العامل المذهبي وإشكالية الوحدة
٦٠	غياب المنهج القرآني الحواري
٦١	مواجهة منطق السباب والعدوان
٦٣	الحوار المباشر والاثهامات غير المسؤولة
٦٦	وحدة المنهج تؤدي إلى وحدة الموقف
٦٩	*العوامل النفسية والسياسية وإشكالية الوحدة

٦٩	المشكلة نفسية لافكرية
٧١	حملات التكفير تمنع حرية الفكر
٧٢	المنهج القرآني ونقاش المسلّمات
٧٤	بين الفقه الإسلامي والخصوصيات المذهبية
٧٦	لماذا لا نطلق الفقه إسلامياً؟
٧٧	الاستعمار وانقسام المسلمين
٧٩	* ميادين الاختلاف بين المسلمين وإشكالية الوحدة
٧٩	إيجابية اللقاءات
٨١	الوحدة خيار المسلمين
٨٢	خلافات فكرية لا طائفية
٨٣	أي إسلام نريد؟
٨٤	كيف ندعو إلى الوحدة؟
٨٦	طروحتنا الوحدية منفتحة
٨٧	بين الحروب المتحركة وتعميق الثقافة المذهبية
٨٩	حروب سياسية بعناوين مذهبية
٩١	* تأملات في طريق التقريب والوحدة
٩٣	المسألة الأخلاقية

٩٦.....	الحوار بعيداً عن التعقيد
٩٩.....	هيكليات الحوار
١٠١.....	اللقاءات الفكرية المباشرة
١٠٢.....	اللقاء في سبيل الوحدة
١٠٣.....	الوحدة السياسية للأمة
١٠٨.....	الأطر الضاربة لمشروع الوحدة
١١١.....	التقريب حركة ضد الاستعمار والصهيونية
١١٣.....	* طريق التفكير في مشروع الوحدة
١١٣.....	أولاً: الطريقة الحاملة
١١٥.....	ثانياً: الطريقة الواقعية
١١٦.....	بين حلم الوحدة وسجن الخصوصية
١١٨.....	قضية الوحدة في ضوء الواقع
١٢٠.....	نظرة واقعية إلى سلبات الدعوة المثالية
١٢٢.....	من مقاييس الدين إلى مقاييس الطائفية
١٢٣.....	الإسلام قاعدة الوحدة
١٢٥.....	التجمد عند الفهم التقليدي للإسلام
١٢٧.....	مداخل إلى حلول واقعية

١٢٧.....	١- الجانب النفسي
١٢٩.....	لقاء القيادات يذيب الجليد
١٣١.....	٢- الجانب الفكري
١٣٢.....	التدقيق في المصادر الأصلية
١٣٤.....	التنوع في الاجتهاد
١٣٥.....	٣- الجانب السياسي
١٣٨.....	المحاور الدولية تستفيد من السليبات
١٣٩.....	الوحدة من خلال القضايا المصيرية
١٤١.....	الاستفادة من إيجابيات التجربة
١٤٣.....	* موانع ومعوقات أمام مشروع الوحدة
١٤٣.....	الاختلافات المذهبية وتباين مقاربتها
١٤٥.....	الوحدة السياسية أقرب إلى الواقع من سواها
١٤٧.....	الذهنية الموضوعية .. والخطوات الأربع للوحدة
١٥١.....	نقاط محورية في الخلافات المذهبية
١٥١.....	أ- الخلاف في الإمامة والخلافة
١٥٣.....	ب- خلاف حول وثيقة الحديث
١٥٥.....	ج- حركة الاجتهاد والتعامل مع النص

- د- عنصر الثبات في فهم اللغة لا يخدم الاجتهاد ١٥٧
- الحاجة إلى منهج كلامي وتفسيري جديد ١٦١
- هـ- القرآن وقضية تحريفه ١٦٢
- خطوات لا بد منها لسلامة التفسير ١٦٦
- القرآن هو المصدر الأول ١٦٧
- * الاتجاهات المتعددة في النظر إلى مسألة الوحدة ١٦٩
- الوحدة بين الأطروحة المثالية والواقعية ١٧٠
- نظرة المسلمين الشيعة إلى الوحدة ١٧٢
- نظرة المسلمين غير الشيعة إلى الوحدة ١٧٤
- خطوات ضرورية على طريق الوحدة ١٧٨
- * المعالجات القاصرة لمسألة الوحدة ١٨٥
- الوحدة بين واقعية الفكرة ومأساة الانفعال ١٨٥
- شعار الوحدة وغياب الظروف الموضوعية ١٨٧
- الاستكبار يستغل الانفعالات لتمرير مخططاته ١٩٠
- المواقف العاطفية ١٩١
- مناقشة السلبيات والإيجابيات ١٩٣
- بالمسؤولية والحوار نتجاوز كل العقد ١٩٤

١٩٧	* تصورات واتجاهات في مسألة الوحدة
١٩٧	نجاح الدعوة ووحدة الخطة
٢٠٠	العقدة الاستكبارية من الإسلام
٢٠٢	التاريخ المعقّد وفقدان روحية الحوار
٢٠٤	المشكلة تكمن في التعصّب
٢٠٥	نحتاج إلى ذهنية تنتج إسلاماً
٢٠٧	نجاح الوحدة في موقع يمهد لنجاحات أخرى
٢٠٨	الوحدة الإسلامية ممنوعة استكبارياً
٢٠٩	الوحدة منطق التقدم والحرية والإبداع
٢١١	* برنامج الإمام علي (ع) وأئمة أهل البيت (ع) لمشروع الوحدة
٢١١	الوحدة بين المعنى والمظهر
٢١٣	الإمام علي (ع) نموذج رائد للممارسة الوحدوية
٢١٥	الإسلام يعلو على كل مصلحة
٢١٨	المواقف السياسية في خدمة الوحدة
٢٢٠	التعاضد بدل السباب
٢٢٢	خلفيات وحدوية في إدارة الصراع مع الخارج
٢٢٥	بين معاناة الإمام زين العابدين (ع) وهمومه الوحدوية

٢٢٨	الوحدة بين العصبية وجادة الحق
٢٢٩	الصادق (ع) : إلغاء التحفظات لمصلحة القضية الكبرى
٢٣١	الابتعاد عن المسّ بمشاعر المسلمين
٢٣٢	خوض الصراع الفكري على قاعدة أخلاقية
٢٣٤	لا قيمة للتعصّب أمام هيمنة الكافرين
٢٣٥	* الحوار الموضوعي بين الأخوة طريقنا إلى الوحدة
٢٣٦	أسلمة العالم
٢٣٧	الصراحة
٢٣٩	الوحدة روحية
٢٤١	لماذا نختلف؟ !
٢٤٢	هل نحن قرآنيون؟ !
٢٤٣	الأمة والتفاصيل
٢٤٥	فليتحول «التجمع» إلى ساحة حوار ومصالحة
٢٤٩	* تأملات في خط التقريب والوحدة
٢٥١	الطريق العقلاني القويم
٢٥٣	الدائرة الضيقة
٢٥٤	القياس كنموذج

٢٥٦.....	القاعدة الاجتهادية
٢٥٨.....	تطور الفكر الإسلامي أمام التحديات
٢٥٩.....	نحو واقع تقريبي
٢٦٢.....	تكامل في الصورة
٢٦٣.....	ضرورة الحوار وشرعية الثورة
٢٦٧.....	* الوحدة الإسلامية في نطاق الفكر العملي
٢٧٠.....	الاعتراف بوجود المشكلة
٢٧١.....	القضايا الخلافية
٢٧٣.....	فرز قضايا الخلاف واللقاء
٢٧٥.....	الوحدة السياسية
٢٧٧.....	اليقظة الإسلامية
٢٧٩.....	التصور العملي للتحرك الإسلامي
٢٨٠.....	الثورة والوحدة
٢٨١.....	خطة إسلامية موحدة
٢٨٥.....	* هموم وقضايا مستقبلية في مسألة الوحدة
٢٨٦.....	الوحدة الإسلامية : هموم وقضايا
٢٨٧.....	الإنسان الوحدوي أولاً

لماذا التركيز على مواطن الخلاف؟	٢٨٧
الشخصية الوحدوية	٢٩٠
لماذا الوحدة الإسلامية بالذات	٢٩١
واجبنا تجاه الأمة	٢٩٢
١- روحية العلم ورسالية الشريعة	٢٩٣
٢- خلافات الرأي واجتهاد المجتهدين	٢٩٥
نحن أمة يحكمها الأشخاص لا المبادئ	٢٩٧
لنترقع فوق مستوى السباب	٢٩٨
مشكلتنا في أمراء السياسة	٣٠٠
لنكن حملة رسالات لا حملة شعارات	٣٠٤
* أفكار واقعية للمستقبل	٣٠٧
مساجدنا في زمن الانحطاط	٣٠٧
الأجهزة المخبرية تثير الأحقاد الطائفية	٣١٠
حركة المقاومة وتعزيز مشروع الوحدة	٣١٤
تطبيق الوحدة يحل كل مشاكل المسلمين	٣١٦
* مناقشة هادئة لأفكار متنوعة حول مسألة الوحدة [١]	٣١٩
بين وحدة الأصول وتنوع التفاصيل	٣١٩

٣٢١	مقاييس دقيقة للتعاطي مع المذاهب الأخرى
٣٢٣	الدعوة بالتي هي أحسن
٣٢٥	السياسة الوحدية تركز على قاعدة فكرية
٣٢٦	المطلوب مواصلة الحوار لكسر الحواجز
٣٢٧	حركة المذاهب السياسية واحدة والعصبيات مشكلة
٣٢٩	بين المشروع الإسلامي والوحدة
٣٢٩	الاستفادة من كل الشرائح لتحريك المشروع الوحدوي
٣٣٠	التعرف على المذاهب مطلوب والجامعات المشتركة حل
٣٣٢	نبذ أساليب الماضي المتخلفة
٣٣٣	جذور التشيع
٣٣٣	الإسلام يحتضن كل المسلمين
٣٣٤	وحدة الأمة والدولة
٣٣٥	الإمام الخميني ترك تأثيراً كبيراً
٣٣٩	دار التقريب خطوة أولى نحو الوحدة
٣٤٢	«التقريب» و«الوحدة» يتكاملان
٣٤٣	بعض المذهبيين قد يستغلون شعار الوحدة
٣٤٥	الوحدة قطعت شوطاً وبقي عليها أشواط

أنا منفتح على كل المواقع وأسعى للتكامل معها	٣٤٦
* مناقشة هادئة لأفكار متنوعة حول مسألة الوحدة [٢]	٣٤٩
أجواء المؤتمر	٣٤٩
كشف الحقائق	٣٥١
كيف نقارب موضوع الوحدة ؟	٣٥٢
عقبات سياسية	٣٥٨
مشاعر إيجابية تجاه الوحدة	٣٦٠
غياب الإبداع	٣٦٠
لا فصل بين الدين والسياسة	٣٦١
إعلان الجزائر	٣٦٢
خطوات نحو الوحدة	٣٦٣
* التوحيد تلتقي المشاركين في مؤتمر الوحدة الإسلامية [٣]	٣٦٥
* الوحدة الإسلامية بين الواقع والمثال	٣٧٥
الأفكار المبدعة	٣٧٥
بين المواعظ وخطاب الواقع	٣٧٨
أنصح بمتابعة أفكار السيد	٣٨٠
وقفه مع الطريقة المثالية	٣٨٢

٣٨٤	خدمة الأفكار بمعاركتها
٣٨٦	الواقع والتاريخ يشهدان للأقوال الحقّة
٣٨٨	كيف نتعاطى مع الأفكار المهمّة؟ !
٣٩٠	❖ إضاءة على النص
٣٩٠	الحواجز النفسية والعاطفية
٣٩٤	الجهاد وحقّ الاختلاف
٣٩٨	الفكر التحريري المنتظر

